دراسة

إريك دورتشميد

دَور الصدفة والغبَاء

في تغيير مجرى التاريخ

العامل الحاسم



ترجمة: محمّد حبيب

اريك دورتشهيد

دَور الصّدفة والغبَاء

في تغيير مجرى التاريخ

العامل الحاسم





ترجمة: محمّد حبيب

اريك دورتشميد

دَور الصّدفة والغَباء
في تغيير مجرى التاريخ

ترجمة:

محمّد حبيب



دَور الصّدفة والغَباء

في تغيير مجرى التاريخ

تـــاريـــخ المدى

المؤلف: إريك دورتشميد

عنوان الكتاب: دور الصدفة والغباء
في تغيير مجرى التاريخ
(العامل الحاسم)

ترجمة: محمد حبيب

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: ٢٠٠٢

الطبعة الثانية: ٢٠١٣

Author: Erik Durschmied

Title: The Hinge Factor :
How Chance and Stupidity Have
Changed History

Translator: Mohammed Habib

P.C.: Al Mada

First Edition: 2002

Second Edition: 2013

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت – الحمراء – شارع ليون – بناية منصور – الطابق الأول –
تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ – ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧
www. daralamada. com Email: info@daralmada. com

سورية – دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ – تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F. K. A. - Damascus - Syria
P. O. Box: 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد – أبو نواس – محلة ١٠٢ – زقاق ١٣ – بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo. com

ISBN: 978-2-84305-611-6

إهداء المؤلّف

إلى
ويليام وألكسندر

إهداء المترجم

إلى

أمّي... أبي... إخوتي وأخواتي

كوكبة أحبّة تخفّف

مرارات الحياة

محمّد

مقدّمة

العامل الحاسم: ساطع وجَلِيّ

«الصدفة والشكّ إثنان من أهمّ وأكثر عناصر الحرب شيوعاً»

كارل فون كلوز ويتنر، في الحرب ١٨٣٢

هبطت طائرة السوبر فورترس، بلونها الفضي الغامق، إحدى طائرات التشكيل ٥٠٩ في أسطول الجوّ الأميركي العشرين، لم يكن على متنها قنابل ولا وسائل دمار أخرى. فقط دزينة أعين، رغم ذلك كانت هي المسؤولة عن موت مفاجئ لأكثر من مئة ألف مدني.

أقلعت، بعد ثلاثين دقيقة، عن المدرّج نفسه طائرة تحمل الرقم ٨٢ وعلى ذيلها حرف R داخل دائرة صغيرة، تحت ركن الطيار، وفوق علامة مسجّلة، كُتب إينولا غاي الاسم الأول لوالدة الطيار، الكولونيل بول. و. تيبيت في سلاح الجوّ الأميركي. كانت طائرته هذه تحمل قنبلة كبيرة.

عندما حلّق تيبيت وطاقمه الإثنا عشر، كان مزوّداً بأربعة أهداف محتملة. وتعليمات الجنرال توماس. ت. هاندي، محدّدة جداً: «. . . إنّ إلقاء القنبلة الخاصة على هدف يتوقّف على جودة

الأحوال الجويّة، ويجب إسقاطها على أحد الأهداف التالية: كوكورا، نيجاتا، هيروشيما، ناغازاكي..».

في الدقيقة السابعة واثنتين وأربعين ثانية من فجر السادس من آب العام ١٩٤٥ كان تيبيت يحلّق على ارتفاع ٢٦٠٠ قدم فوق الباسيفيكي، عندما تلقّى رسالة مشفّرة من الراصد الجوي في طائرة الاستطلاع التي سبقت طائرته بثلاثين دقيقة. أحد الأهداف تحجبه الغيوم، الثاني لا يكاد يُرى. لكن هناك هدفاً واضحاً جداً. فاستدارت القاذفة إلى الهدف الأخير بعد تلقيها رسالة: «الغيوم تغطي ثلاثة أعشاره. أنصحك أن تطلق عليه أولاً».

بنزوة من الطبيعة اختيرت مدينة لقدرها. فكانت هيروشيما أوّل مدينة تُقصف.

كنت في الثامنة من عمري، عندما عاد أبي ذات يوم أيلولي مشمس، وقال لي: «لقد أعلن هتلر الحرب». أنا أعرف هتلر، رأيته في رينسجتر عندما دخل منتصراً إلى فيينا، بلدي الأصلي - لكن لا أعرف الحرب. فسألت والدي: «أبي ما هي الحرب؟».

عرفت الحرب منذ ذلك اليوم الخريفي العام ١٩٣٩، بدءاً، كنت أرتجف خوفاً في مخزن الفحم، بينما الطائرات تقصف مدينتي، منزلي وعائلتي. ثم بعد ذلك، عندما ارتبطت حياتي كلّها بالحرب على نحو يتعذّر تفسيره، ما فَتِئتُ أُرسَل من حرب إلى أخرى، على مدى ثلاثين عاماً. فأتيح لي رؤية رجال حمقى مثل هتلر، عن قرب. قد توجد حروب عادلة، غير أني لم أشهد واحدة لم تنته بآلام مهولة.

الحرب هي القتال وتبادل النيران. لا يهمّ كم تبدو بلا جدوى، فالقتال هو صلب الحرب. إنها الهاجس الذي يستطيعه، وينفّذه الجميع. بعضهم يموت. والبعض الآخر يبكي. آخرون

يتذكّرون ويحتفلون. ثم يليهم الذين يخطّطون. فقد التقيت رجالاً استحوذت على عقولهم رغبة جامحة في مجد عسكريٍّ، رجالاً ينقّلون دُمى جنود صغيرة حول صناديق رمليّة ومدن كرتونيّة مُحتلّة.

التاريخ هو الشاهد. كم من جيوش جرّارة هُزمت بسبب غباء وعدم كفاءة قادتها. فالحرب ليست مجرّد مارشات ومجد عسكري، إنها رحى الموت. وإذا كثّفنا رأي جورج كليمنصو، الرجل الذي أخرج فرنسا من أهوال الحرب العالمية الأولى: «من المهمّ جداً أن تترك الحرب للجنرالات».

يريدنا بعض المؤرّخين أن نصدّق أنّ المعارك تكتسب ببسالة وألمعية سادة الحرب، ويمنحونهم أوسمة «النبوغ» عندما يظفرون، يسطّرون اسم المنتصر على أنّه ذكي، والخاسر لا. رغم ذلك، ليست هناك وصفة سريّة لنهاية معركة مظفّرة ـ ما خلا أنها تعتمد على مَنْ يرتكب الخطأ الكبير الفادح. وإذا تكلّمنا بتجرّد، فإنّ كثيراً مِنَ المعارك حُسمت بفعل عامل الطقس، الذكاء الحاد أو (السيّئ)، البطولة غير المتوقّعة أو عدم الكفاءة الفردية. قصارى القول، حُسمت بعامل لا يمكن التنبّؤ به، وهذه الظاهرة تُسمّى وفق المصطلحات العسكرية: «العامل الحاسم».

يقود إلى الكارثة، في كثير من الحالات، إنه سيناريو أُعِدَّ له جيّداً حتى قبل كتابة المسرحية. وتزخر سجلات الحروب بأمثلة تثبت الفشل (في كثير من الحالات) ليس بسبب قلّة الذكاء، إنما لعدم الكفاءة الشخصية. عندما يقدّر أحمق، وفق منظومة أفكار مسبّقة، سرعة تطوّر ظرف ما، فإنّه يرسي السبب الوجيه للفشل. ولطالما تورّط رجال شجعان في هجومات طائشة. حيث لا تصدر الأوامر عن فهم واضح لحالة، إنما عن جهل، ضغينة، أو ببساطة

لتحقيق نصر شخصي. فقبل أن ينطلق إلى لقاء جيش السلطان المسلم صلاح الدين الأيوبي، سأل ريموند دوتريبولي ملكه الإفرنجي غي دولوزينيان: سيّدي، إسأل نفسك هذا السؤال: «لماذا أريد خوض المعركة؟ أمن أجل مجد أمتي ـ أم لمجديَ الشخصي؟».

يخاطر الصناعي، إذا اعتمد تصميماً سيّئاً، بانهيار مصنعه وفقدان عمّاله لعملهم؛ وعندما يخطئ رأسمالي في قراءة البورصة قد يخسر نقوداً كثيرة من المستثمرين. بيد أنّ هذه الأشياء رغم أضرارها، ليست مميتة. لكن إذا ارتكب قائد عسكريٌّ خطأً فادحاً، كارثياً، سيدفع ثمنه دماء وآلام البشر، وأكثر أحياناً.

هناك أيضاً العوامل الطبيعيّة غير المتوقّعة مثل الغيوم التي تحجب هدفاً وتحكم على آخر بالزوال، ضربة الحظ، كأن تقع على خارطة سريّة لحرب مع العدو، أو ربما، الأكثر استعصاءً على التنبوء، وهي معرفة طريقة تصرّف البشر تحت الضغط والنيران. والمبادرة الشخصية والبطولية، ليست بالضرورة من قبل جنرال يهجس دوماً بتمثال برونزي بل تندّ عن جندي مجهول دُفن في قبر ليس عليه شاهد.

تخبرنا سجّلات التاريخ بما جرى. لكن هناك دائماً «سبباً» لما جرى. (ولا أدّعي هنا أنني أقدّم تفسيراً نهائياً أو متماسكًا لأيّ معركة تحوّلت مجرياتها فجأة). فقد جرى العرف أن يقوم السياسيون والجنرالات بتبرير أفعالهم، في مذكّرات توضح تحركاتهم في ساحة المعركة، أو تناقش بإحصائيات تجريدية ملايين الضحايا التي تسبّبوا بها. ويكتب الجندي البسيط إلى عائلته، يوضح لها كيف عاش هذه الحرب وفق كلا السجلّين استقيت ما أسميته العامل الحاسم.

عندما تقرأ عن معركة بعد سنوات من وقوعها، تجد نفسك أحياناً وسط معضلة معقّدة: الفصل بين المصدر الموثوق والمصدر المحوَّر. وقد تكون التسجيلات غير المتميِّزة لبعض الظروف الكارثية، في أحسن أحوالها، عمياء، أو ناقصة، وربما مفقودة كلياً. وبعضها الآخر قد يكذِّبه مؤرّخون معاصرون وشعراء لأسباب خاصة بهم، وهذا ينطبق على الماضي والحاضر(١) في آنٍ معاً. ففي قصص العصر الوسيط التي كتبها جوفينال دو أورسينيز حول مجزرة النبلاء الفرنسيّين خلال المعركة في أجينكورت تفضح منظوره الفرنسيّ. وعندما تكلّم دوق ويلينجتون عن تعادل في واترلو لم يقصد البتة الخطأ الفادح الذي ارتكبه لي، ولا مسؤوليّة بلوتشر في l'affaire. لقد كتب مراسل التايمز، ويليام هوارد روسل، في موقع الحدث عن الضريبة الحمقاء لـ اللايت بريدج فاتُّهم لاحقاً بإفشاء أسرار عسكرية خطيرة(٢). وقد امتدح اللورد تينيسون في قصيدة هذه التضحية ومجّدها. فأين هي الحقيقة إذن؟

طالما كانت الحرب دنيا الفوضى. ولا أستطيع الجزم بأن لا مناص من الحرب من أجل تطوّر الإنسانية، بيد أني أجزم فقط، أنها تستغرق تفكير الإنسان وتسيطر على كلّ النشاطات البشرية الأخرى.

أيريك دورتشميد

دومين دوفالينسول، شتاء ١٩٩٨

(١) هذا يصحّ خصوصاً بالنسبة إلى لعبة أرقام قوّة القوى المتقابلة وخسائرها، كما حصل في أجينكورت ١٤١٥ فقد حُدِّدت خسائر الفرنسيّين بـ ١٠٨ آلاف فارس، بينما نزلت بالإنجليز ٤٠٠٠ إصابة، وإذا تذكرنا أن المعارك دارت بالسلاح الأبيض فمن الصعب تصديق ذلك. حتى أننا لا نمتلك أرقاماً صحيحة عن ضحايا ناغازاكي وهيروشيما. رغم أنّ الحادثة ليست موغلة في القدم، وقد أحصيت الضحايا في حينه.

(٢) هذا يذكّر أهل مهنتي، رغم أن العسكر يعتبرونهم «متلصّصين محترفين، أنّ حساباتنا تقطّر عماء المعركة في أيقونات أبدية، وأنّ أثر الأحداث التي نكتب عنها، يمدّ نسخة الغد بمزيد من القدرة على البقاء.

الفصل الأول

حصان خشبي طروادة ١١٨٤ق.م

«لا تصدّقوا هذا الحصان، مهما يمكن أن يكون،
لأنني أخشى هؤلاء الإغريق، ولو حملوا لنا العطاء بأيديهم».
الإنيادة، فرجيل ٢٠١ق.م

ينزل إله من السماء، يتنكّر في هيئة بجعة ويضاجع ليدا. يثمر حبهما هيلين، فتاة باهرة الجمال، كلّ من يراها يرغبها زوجة له. تختار هيلين ملك إسبارطة مينيلؤوس. ذات يوم ينزل عليهم ضيف، إنه فاريس ابن فريام ملك طروادة، وهذه مدينة محصّنة تقع على الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط. يستقبلانه استقبال الملوك لكنه يضمر شيئاً لا يفصح عنه.

تحذّر الآلهة فريام أنّ ابنه سيجلب الدمار على بلده. وتتحقّق النبوءة، تبدأ الدراما يوم يستقبل فاريس ثلاث زائرات: أفروديت، هيرا وأثينا. أعطينه تفاحة ذهبيّة كي يقول مَنْ الأجمل بينهن. يمتد التنافس فتعِدُه هيرا أن تجعله ملك آسيا وأوروبا، وتعِدُه أثينا بمساعدته للنصر على الإغريق، وتعِدُه أفروديت بأجمل فتاة على وجه الأرض فيختارها الأجمل، وهي بدورها تخبره عن هيلين إسبارطه.

يغادر مينيليؤوس إلى كريت في حملة حربيّة، فيغتنم فاريس الفرصة ويأخذ هيلين إلى طروادة. ومن غير المؤكّد إن كانت قد ذهبت معه مكرهة أم حبّاً وطواعية. في طريق عودته من كريت يدعو مينيليؤوس كلّ الأبطال الإغريق لمساعدته على الاقتصاص من تلك الفعلة الوغدة ويحرقون طروادة. يملك الإغريق جيشاً قوياً بقيادة أغاميمنون[1]. ولدى الطرواديين جيش قوي، وأبناء فريام أيضاً أقوياء أشجعهم هيكتور[2] الذي لا نظير له عند الإغريق إلا أخيل. تَحارَبَ الجيشان لسنوات طويلة تأرجح النصر فيها بين الطرفين. واحتدمت الحرب من جديد عندما ظهرت هيلين على الأسوار. فأوقف جمالها كل المقاتلين باستثناء هيكتور وأخيل، فقد استمرّا في القتال. تعير أثينا رمحها إلى أخيل الذي يصيب خنجره هيكتور فيتوسل إليه: «أعد جثتي إلى أبي».

يجيبه أخيل أتمنى لو أستطيع إجبار نفسي على التهام لحمك النيّء، انتقاماً من الإساءات التي ألحقتها بي، ثم يجّره وراء عربته دائراً به حول أسوار طروادة[3]. تعطي أفروديت سهماً مسمّماً إلى فاريس الذي يسدّد ويرمي فيصيب من أخيل مقتلاً. يموت أخيل. ثم ينطلق سهم آخر على فاريس فيموت هو أيضًا.

لكن طروادة تصمد، وتصل الحرب حدّ الاستنقاع بعد عشر سنوات من الحصار. ولن يستطيع الإغريق فتح المدينة ما لم يهدموا الأسوار، وبالتالي يقرّون بهزيمتهم. فيقترح أوذيس، أذكى الإغريق، خطّة ماكرة: نبني حصاناً خشبياً أعلى قليلاً من بوابة المدينة. نخبىء داخله جنوداً، ونتركه خارج الأسوار. نفّذوا الخطة، وأبحر الإغريق عائدين، لكنهم خبّأوا أسطولهم وراء جزيرة قريبة. وكي يتأكّد أوذيس من انطلاء خدعته على الطرواديين يترك

وراءه زينون الإغريقي الذي يُقنعهم بإدخال الحصان إلى المدينة، كنذرٍ مقدّم إلى أثينا.

تنطلي خدعة الإغريق على الملك فريام، فيأمر بإدخال الحصان إلى المدينة، ويضطر الإغريق، لأجل ذلك، إلى فتح ثغرة في الجدار. غير أنّ كاهن طروادة الأكبر لاقوون يحذّر مليكه: «إني أخشى الإغريق، ولو حملوا إلينا العطايا بأنفسهم».

يغتاظ الملك، القاسي، فريام من تجرّؤ الكاهن عليه، رغم أنّ لاقوون لم يكن المعارض الوحيد. إذ أن كاساندرا ابنة الملك الجميلة كانت تردّد تحذير لاقوون معارضة والدها: «آه أيها الشعب البائس، الحمقى المساكين، إنكم لا تفهمون البتة أيّ قدر أسود بانتظاركم».

كاد مجلس الشورى بقيادة الكاهن الفيلسوف أن يقنع الطرواديين، غير أنّ كلمة القدر كانت أسبق وأمضى. فخرج من البحر ثعبانان قتلا لاقوون وولديْه. تسري مشيئة القدر، وتُحسم نهاية ستشغل الحكماء المتبصّرين على مدى الألفيات الثلاث القادمة. شعب لا يصغي إلى كهنته، بل يراقبهم بصمت وهو يسير أعمى البصيرة، إلى الكارثة. يهدُّ الطرواديون عتبة البوابة فيؤدّي ذلك إلى ثغرة في الجدار، يسحبون الحصان إلى معبد أثينا ويولمون احتفالاً عظيماً. «بالأهازيج والفرح الغامر يُدخلون الموت، الغدر والدمار إلى مدينتهم».

يقوم زينون في منتصف الليل ويفتح باباً سرّياً في بطن الحصان الخشبيّ. ينسلُّ منه أوذيس ومقاتلوه، بينما تندفع بقيّة الجيش الإغريقيّ إلى المدينة عبر ثغرة الجدار، وتحرق المدينة. ولا يفيق الطرواديون من سكرتهم إلاّ بعد أن تجري أنهار الدم في المدينة. هذا سفك دماء لا حرب. انقضّ الرجال اليائسون بعضهم على بعض ليقتلوا قبل أن يُقتلوا. يخلع الطرواديون دروعهم

ويلبسون بدلاً منها دروع بعض الإغريقيين القتلى. يعتقد الإغريقيون الآخرون أنّ وحدات جيشهم قد انضمت إليهم، فيدفعون حياتهم ثمن ذلك الخطأ. ترمي الطرواديات من فوق الأسوار دعائم خشبية محترقة على الجنود المهاجمين ممّا يؤدي إلى موت الكثير منهم. رغم المعركة غير المتكافئة فقد سقط فيها الكثير من الطرواديين. واستطاع الإغريق شق طريقهم إلى القصر، ليجدوا الملك فريام وقد ذُبح أمام زوجاته وأولاده. بموت فريام تنهار طروادة، ويعيث الإغريقيون فيها نهباً، قتلاً واغتصاباً. يقتلون الرجال، يرمون الأطفال من فوق الأسوار، ويأخذون النساء سباياً. تموت طروادة.

لا ينجو من هذه المذبحة إلاّ أنييس(٤) ابن أفروديت. فيركب البحر. تسوق الرياح مركبةً إلى شاطىء بعيد، عند مصب نهر التيبر، حيث يؤسّس مدينة تُعرف لاحقاً باسم روما، وهذه تهزم، في نهاية المطاف، ممثّلي طروادة.

تحتجب العدالة النهائية في خمار الميثولوجيا

ما الذي حدث في تلك الليلة قبل ثلاثة آلاف عام مضت؟ لا نستطيع أكثر من التخمين. قال فريام(٥) المُسْبَلُ: «إلى الآلهة أُدين بهذه الحرب الفاجعة».

بوسعنا تجاهل المشاركة الفعّالة للآلهة، ونهتمّ، أكثر، بالأوجه الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية. فقد اكتشف هاوي الحفريات الآثارية، الألماني الأصل، هيزيك شيلمان آثاراً، ربما تكون لطروادة فريام، مدينة محصّنة أسّستها قبيلة فريجية(*)

(*) الفريجي أحد أبناء فريجيا القديمة، في آسيا الصغرى.

محاربة، على هضبة هاسارليك[٦]. وبناءً على موقعها الجغرافي، يمكن أن نفترض أنّ الإغريقيين والطرواديين قد تقاتلوا عليها بدافع طموحاتهم الملاحيّة في تلك المنطقة. ذلك أن النزاع من أجل السيطرة على Helle spont (الدردنيل، الآن) في بحر إيجه والفوز به يعني السيطرة على الطرق التجارية على طول البحر الأبيض المتوسّط.

ما خلا سنوات الحصار العشر تلك، من غير المحتمل أنّ حصاراً آخر استمرّ عشر سنوات أخرى من غير أن يقتات الجيشان على ثمار موسمية، وإلاّ لمات الجيشان المتحاربان. وبناءً عليه، لا بدّ أنّ الحرب كانت على شكل غارات متتالية، وبالتالي شهدت معارك بحرية.

لا بدّ من الإشارة إلى عامل حاسم، وهو تحذير الفيلسوف لاقوون، الذي يظهر معارضة للحكم الإستبدادي، القائم في طروادة حينئذٍ، وانتقلت هذه النزعة إلى ذرى جديدة على أيدي فلاسفة الإغريق العظماء أمثال سقراط وتلامذته.

مضت عشر سنوات لم يحدث خلالها شيء. وفجأة حُسِمَتْ القضيّة في لحظة واحدة. إن الحصان الخشبي، ليس من نسج الخيال[٧]، بالتأكيد. إذ كانت الخدع شائعة خلال حصار الأماكن المحصّنة. فالطريقة الأسهل تكمن في تنويم يقظة المدافعين ثم ثقب الجدران. بذلك تكون قصة حصان أوذيس واقعية، فتحاً بالخداع.

غريبة هي دروب التاريخ الدائرية. تعلّم الإغريقيون من الطرواديين. أسّس الطرواديون النازحون روما. وفتح الرومان اليونان كي يتبنّوا ثقافتها.

لقد كان الانتصار بواسطة الخداع هو العامل الحاسم.

(١) بالإمكان رؤية أطلال قلعته بالقرب من كورنيث.

(٢) يعتبر هيكتور، في التاريخ القديم، على نفس القدر من الأهمية مع يوليوس قيصر، وشارلمان.

(٣) ينهي هومر إلياذته بموت بطله هيكتور، وبقيّة القصة جاءت من إنيادة فرجيل، التي كتبت بعد ألف عام من سقوط طروادة.

(٤) بطل الإنيادة التي كتبها فرجيل ليمجّد عظمة روما.

(٥) ينهي هومر إلياذته، التي كتبها حوالي ٨٥٠ق.م، مع موت هيكتور. لكن أفضل وصف لسقوط طروادة جاء في انيادة فرجيل التي كُتبت بعد ١٠٠٠ عام. وزُيّنت بقصص رائعة جرى تداولها شفاهاً عبر العصور. وربما كانت ملكة إسبارطة قد خطفت، حقيقة، خلال غارة سابقة شنّها الطرواديون انتقاماً منهم على غارة سابقة، أيضاً. ويخبرنا هيرودوت، أبو التاريخ، في القرن الخامس قبل الميلاد، أن الطرواديين أكّدوا لمبعوثي الإغريق أن الملكة هيلين ليست في طروادة، لكن الآلهة كانت راغبة في الحرب.

(٦) تقع على الجانب الآسيوي من الدردنيل.

(٧) بوذانياس، القرن الثاني بعد الميلاد في وصفه للإغريق، يؤكّد أنّ الحصان كان آلة حرب أو منجنيق حصار.

الفصل الثاني

ضياع الصليب الأعظم(*)

قَرْنا حطين(**) ٤/تموز/ ١١٨٧

«لن أُلقي سلاحي ما دام هناك كافر على وجه البسيطة».
السلطان صلاح الدين
نقلاً عن بهاء الدين ابن شداد ١١٨٧[(١)]

كان على جيش الإفرنج أن يجتاز سهل الباروف الصحراوي الحار. وأن تغامر في اجتيازه في هذه الفترة الحارّة من النهار يعني اجتذاب الموت المحتّم لجحافل الجيش المقلنس بالحديد، والفرسان المدرّعين بالزرد. ورغم ذلك أمرهم غي دولوزينيان، ملك القدس، بالهجوم. فتقدّم من الملك رجل طويل القامة يرتدي

(*) الصليب الأعظم: صليب كبير كان يحمله الصليبيون فيه قطعة من الخشبة التي صُلب عليها المسيح عليه السّلام، حسب زعمهم. المترجم

(**) قَرْنا حطين: ذروتان في مرتفعات الجولان يطلق عليهما (قَرْنا حطين) باسم القرية الواقعة عند سفحهما. المترجم

درع زرد وفوقه عباءة بيضاء طُرّز عليها صليب قرمزي من The Holy Quest، وحول خصره حزام جلدي يتدلّى منه سيفه الطويل المستقيم؛ وكان يقي رأس هذا البارون خوذة معدنية على شكل رصاصة ولها واقية للحنجرة خاصة بالفرسان الصليبيّين، إنه ريمون الثالث. قمس طرابلس، صاحب الهيئة البطولية مثل فرسان العصور الوسطى، وقال له، «سيّدي، لماذا تجبر جيشك على عبور هذه الأراضي القاحلة؟»

«لإنقاذ سيدتك المحتجزة». قال الملك وأشار إلى رسالة استلمها من الليدي إسكيفا، كونتيسة طرابلس، التي يحاصرها جيش المسلمين في قلعة طبريا، الواقعة على بحيرة الجليل.

كان ريمون واثقاً أنّ القائد الكردي، السلطان صلاح الدين، مسلماً ورعاً ولن يؤذي امرأة رفيعة المقام، كما يعرف أنّ صلاح الدين ذكيٌ كثعلب الصحراء. ولأنه رغب في إغراء جيش الفرنجة للقيام بحملة إنقاذ سريعة تكون فيها هزيمتهم الساحقة، سمح صلاح الدين لرسول الليدي إسكيفا أن يمرّ بدون تأخير. أجابه ريمون «سيّدي، إذا كنت ترغب في قتال صلاح الدين، فلتجعل ذلك بالقرب من حصننا، فإذا سارت الأمور على عكس ما نريد هربنا ونجونا، أما إذا كان الله معنا، نستطيع أن ندحر المسلمين».

فصاح أحد البارونية وهو رينو دوشاتيّون، صاحب الكرك، «ندحرهم؟ أيّة خيانة أسمع؟؟».

فأجابه قُمِص طرابلس، «نعم، ندحرهم، ونذبحهم أيضاً، وسيُسحَقُ صلاح الدين ويضطر إلى الهرب ومغادرة هذه الأرض المقدّسة إلى غير رجعة». فانبرى رينو مخاطباً الملك «سيّدي، إذا خرجنا إليهم فإنّ صلاح الدين سيستفيد من قدرته على الحركة

السريعة في الصحراء، وسيهزمنا، فمن سيبقى للدفاع عن القدس؟

كان الملك ميّالاً إلى موافقة رينو على مشورته الحكيمة.

وبعد أن شارك الملك غي باروناته على وجبة طعام في تلك الليلة، بدأت تلوح تباشير المكائد والخدع والطموحات التي تُحال. إذ دخل رئيس البارونية، جيرارد دو ريدفورد، الخبيث، إلى خيمة الملك وقال: سيّدي، إن قمس طرابلس يريد لنا أن نخنع مثل الجبناء».

فسار الملك، الخائف من هذا الداوي العظيم القوّة الذي ساعده في اغتصاب العرش من الوريث الشرعي، مترنّحاً إلى باب الخيمة، رفع الستار ونظر إلى سماء الليل، نظر إلى النجوم ذاتها التي سيكون خصمه الآن ينظر إليها من الجانب الآخر في الصحراء. كان ذهنه مشغولاً بالبحث عن يقين قد يثبت أهليّة فعله. فقد غدا متشكّكاً، مثلما يحدث للعديد من الرجال كليّي القدرة، عندما يتوقّف مستقبلهم كلّه على قرار واحد، كان يخشى أن يؤدّي قراره بالتحرك إلى نتائج مأساوية. غير أن ريدفورت ما كان ليضيّع فرصة تأكيد فائدته العظيمة لمليكه، فقال له: «تعلمون يا مولاي أن قمص طرابلس لا يحبّكم. إنه يخدعكم وجُلّ اهتمامه منصبٌّ على عقد هدنة مع الأتراك. إننا من طبيعة أسمى من طبيعة الوثنيّين. وإني أشور عليك أن تنطلق من فورك إلى النصر العظيم.

ويقال أنَّ خادماً، في الليلة ذاتها، قد رأى نسراً في مخالبه سبعة سهام مريّشة يعبر سماء القدس وهو يزقو «حذاري، يا قدس».

حقاً، كانت هناك رائحة خيانة، وحماقة، لكنّها لم تصدر عن قمص طرابلس، ذلك الفارس الذي خبر براعة صلاح الدين

العسكريّة؛ فهو يعرف أنّ صلاح الدين سيكون كامناً في انتظارهم. وجرّب القمص محاولة أخيرة لثني الملك عن قراره، قبل بزوغ الشمس: «روي غي، أحذِّرك، لا تبارح مكانك هذا وإلاّ انقضّ علينا صلاح الدين في الصحراء».

بما أن قمص طرابلس هو البارون الوحيد الذي عارض الملك، وقد فشل سابقاً في دعم مطالبته بعرش القدس، التفت إليه الملك وصاح به غاضباً: «ليس لك أن تقول لمليكك ما يفعل وما لا يفعل. أريد أن يمتطي الفرسان خيولهم ويستعدوا للإنطلاق إلى طبريا»[٢].

وهكذا انطلق ملك القدس الإفرنجي إلى كارثة من صنع يديه.

يمكن اقتفاء بداية الحملات الصليبيّة إلى هزيمة جيوش الامبراطورية الشرقية في مانزيكرت ١٠٧١[٣] على أيدي القبائل السلجوقية التركية التي خرجت من سهوب آسيا واعتنقت الإسلام. ورغم أنّ اسطنبول كانت في حالة حرب دائمة مع كنيسة روما، فقد طلبت مساعدة البابا لاستعادة آسيا الصغرى. وشنّ البابا أوربان الثاني أول حملة صليبية، المغامرة التي يمكن اعتبارها بمقاييس اليوم، حملة فريدة من نوعها. إذ قاد غودوفروا دو بويون جيشاً من النبلاء الفرنسيّين، والفرسان المقاتلين، قاصدين (طريق الصليب). وقد وُعِدَ أتباعه بغفران خطاياهم وبالخلاص الأبدي. وفي ١٠٩٩ سيطر الصليبيون على مدينة الله ـ وكان نصراً ملطّخاً بدماء كل مسلمي القدس[٤] الذين قضوا في تلك المجزرة. وهذه بدورها أفضت إلى إعلان الجهاد المقدّس الذي استمرّ على مدى القرنين التاليين، وبالتأمل في تلك الأحداث نجد أنه لم ينته.

أسّس الإفرنج الأوائل مملكة القدس. وحافظ المسيحيّون،

على مدى مئات السنين، على أماكنهم المسوّرة جيّداً مثل، عكا، يافا، طيرة أو كراك دي شوفالييه، بينما تعرّضت الأرياف إلى هجمات المسلمين الجوّالين. وبدأ نجمهم يأفل مع هزيمة الامبراطور الشرقي مانويل في موقعة ميربوسيغالون في ١١٧٦. ولولا نجدات البيزنطيّين لما تبقّى لدى الفرسان الفرنجيّين عدد كافٍ من الرجال ليَغيروا بهم على القوات المسلمة التي احتشدت ضدّهم في فلسطين. وتحرّك المسيحيون والمسلمون بسرعة نحو المواجهة.

وزاد في الأمر سوءاً أنّ عهد الفروسية المناط به حماية الصليب المقدّس قد تحوّل إلى عهد صعلكة انشغلت فيه عصابة البارونات بملء محافظ نقودهم. وكان رينودوشاتيّون واحداً من المغامرين الذين قدموا إلى الأرض المقدّسة بحثاً عن الثروة. فعوضاً عن إثبات شجاعته كمدافع عن الدين الحقّ، أغوى أرملة أمير أنتيوخ، التي هامت بسحره حتى أعطته مفتاح مقاطعاتها. وسرعان ما سئم من مفاتنها التي تشيخ فهجرها ليتزوّج سيدة نبيلة أخرى، سيدة الكرك، ثم استأنف عمله الذي انصب على سلب ونهب القوافل.

الوغد الآخر كان جياردو ريدفورت الذي حصل على رئاسة الداويّة بالحيلة. ثم استخدم مقاتليه النبلاء في إرهاب وسلب المواطنين العُزَّل. وكان بطريرك القدس هيراقليوس، «القس العفيف»، هو الأسوأ بين الثلاثة، إذ كانت خليلته مومس فاجرة، معروفة في المدينة المقدّسة باسم «البطريركة». وكان هذا الثلاثي كفيلاً بأن يقود مملكة الإفرنج إلى حتفها.

في مواجهة هذه الخِسّة وقف النبيل ريمون الثالث، قمص طرابلس(٥)، الوصيّ على عرش القدس والوحيد الذي حافظ على

قسمه لابن ـ ملكه، بالدوين الخامس. وعندما مات الملك ـ الطفل اغتصب عرشه مغامر آخر هو غي دولوزينيان الذي تزوّج أمّ الملك. وأُبعد ريمون من قبل الحاكم الجديد. فكان هذا الإجراء ضربة قاصمة لقضية المسيحيّة، لأن ريمون هو البارون الوحيد الذي حاز ثقة صلاح الدين. وفي ١١٨٥ عقد الأمير الفرنجي هدنة مع السلطان المسلم، قامت على الثقة المتبادلة، وعهد فارس لفارس. حدث ذلك بعد أحداث ينابيع Cresson(*)، عندما أوشك صلاح الدين أن يغزو الجليل، ذلك أن إخلاص ريمون للدين المسيحي أجبره على معاودة الانضمام إلى سيده.

واجهت مملكة القدس في نهاية القرن الثاني عشر تحدّياً من قبل أشجع محاربي السلطان الخرافي(**) صلاح الدين، الكردي الأصل(٦) الذي هاجر أسلافه من جبال الطالي في آسيا الوسطى. وفي القرن العاشر أسلمت تلك القبائل المقاتلة. ويمكن القول أنّ تحوّلها إلى الإسلام كان له تأثير على الشرق مشابه لتأثير المسيحيّة الجرمانية على الغرب.

كان صلاح الدين ابن ملازم أول لدى السلطان نور الدين، أمير حلب ودمشق، وقد أثبت والد صلاح الدين مقدرة عالية في سلسلة معارك ضد الفرنجة والحكّام المسلمين المنشقّين. فأصبح وزير الخليفة في ١١٦٩، وفي ١١٧٠ أطاح بآخر الخلفاء الفاطميّين الهراطقة. وباعتباره الخليفة المصري الجديد ووزير سوريا فقد أحكم الآن قبضته على المملكة الصليبية، تاركاً، فقط، الممرات البحرية إلى قبرص وأوروبا مفتوحة. ونجح المسيحيّون في إبقاء

(*) معروفة حالياً باسم فورية.

(**) هكذا وردت في الأصل.

صلاح الدين في وضع دفاعي طيلة ثلاثة عشر عاماً، حتى وقعت حادثتان غيّرتا هذا الوضع الحَرج وكانت أولاهما تحرّك رينو دوشاتيون.

ذات ليلة وصل جاسوس إلى قلعة اللورد ريمون ليبلغه عن مرور قافلة حجّاج في طريقها إلى مكة، وفيها كثير من الأغنياء. فأغار سيّد الكرك وأتباعه على القافلة. وإضافة إلى الذهب والتوابل التي سلبوها من تلك القافلة، وجد فيها رينو كنزاً أكثر قيمة ألا وهو أخت صلاح الدين «فتاة يتغنّى العندليب بسحر جمالها». فأرسل السلطان إلى بلاط الملك غي يطلب إطلاق سراح أخته النبيلة. لكن رينو دوشاتيون الذي يطمع بفدية كبيرة لقاء السيّدة الملكية، رفض طلب ملكة، محاججاً أنّه بخلاف قمس طرابلس، لم يعقد هدنة مع المسلمين.

وفي الثلاثين من نيسان / ١١٨٧ طلب ابن صلاح الدين، الملك الأفضل، من قمس طرابلس أن يسمح لكشّافته بالمرور عبر مقاطعته، فأذن لهم شرط أن تنتهي الجولة الكشفيّة عبر أراضيه قبل غروب الشمس، وألاّ تتعرّض لأملاكه ورعاياه. وتلافياً لأيّ طارىء أطلع دساكره ونواحيه على وعده الذي قطعه، وأرسل أيضاً إلى جيرار ريدنورت، الذي بدلاً من أن يلتزم بالهدنة، جمع بضع مئات من الاستبارية والدّاوية لمهاجمة المسلمين، ودفعه إلى ذلك طمعه في المجد الشخصي. وقد وجدوا الجنود المسلمين في معسكر قرب صفوريّة. فحذّر الاستباري، جاك دو مايلي، قائده حامي الرأس، فزمجر هذا القائد قائلاً: «هل ترغب في حماية رأسك الشقراء هذه؟ ثم ولّى عنه».

أجابه الفارس المهان: «أنا يا سيّدي سأموت ميتة شجاعة، لكنّك ستهرب من ساحة المعركة!» وتحقّقت النبوءة. ذلك أن

ريدفورت المتغطرس، وبازدراء، لا أساس له، للروح القتالية لدى المسلمين، أغار ببضعة فرسان على سبعة آلاف مقاتل مسلم. فوقع المحتوم، وحاصر المسلمون الفرسان. فتخلّى ريدفورت وثلاثة من فرسانه عن المعركة ولاذوا بالفرار، وقع الآخرون في الأسر ثم قُطعت رؤوسهم، واستعرضها الأتراك على رؤوس الرماح أمام أسوار حصن طبرية قبل أن ينسحبوا إلى معسكراتهم، كما هو متّفق عليه، قبل غروب الشمس.

أصدر الملك غي أمراً أحمق، بدون أن يتبيّن سبب ما جرى، طلب فيه انضمام كل الفرسان المسيحيّين تحت رايته وطلب من بطريرك القدس هيراقليس أن يُحضر له الصليب الأعظم، فربما قاد الجيش المسيحي في المعركة: فأخذ البطريرك الصليب من كنيسة القبر المقدّس ولن يعاد إليها قط.

نظراً إلى الإهانة التي لا تغتفر بحقّ أخته، أقسم صلاح الدين أن يقطع بيده رأس الوغد رينو. فحشد جيشاً عرمرماً (٨٠,٠٠٠ محارباً)، انضمت إليه وحدات من مصر، الموصل وماردين. وبعد المناوشات عند صفورية (١/ أيار/ ١١٨٧)، انضم إلى صلاح الدين ابنه قرب أستارا[٧] وانطلقا معاً في ٢٧/ أيار ليتخذا من دابييرا معسكراً خلفياً. وفي ٢/ تموز هاجم طبرية، حيث، وبسبب لا مبالاة أحد جنوده من حملة المشاعل اشتعل النار في أحد المخازن، وسرعان ما انتشرت ألسنة اللهب لتلتهم المدينة كلها ولم يَنْج منها إلا القلعة.

في اليوم التالي، الواقع في يوم الجمعة ٣/ تموز/ ١١٨٧، انطلق جيوش الإفرنج إلى الصحراء القاحلة التي تفصل بين صفورية وطبرية. فزحف خمسة عشر ألف فارس وجندي راجل باتجاه بحر الجليل[٨]. سار في المقدّمة رينو قمص طرابلس، في

المؤخّرة باليان ديبلان. وفي الوسط سار الملك غي دولوزينينان لحماية روفين رئيس أساقفة عكا، وبيرنارد من Lydda، حاملاً الصليب الأعظم الذي بالإمكان رؤيته من بعيد. كان منظر الجيش الصليبي مهيباً، منظر طوابير الفرسان المتلفّعين بالأبيض ومرافقيهم حاملي الأقواس والسهام يلبسون تنانير قاتمة الألوان وجاكيتات جلدية. وبما أن المسافة قصيرة[٩] فقد أمل الملك أن يقطعها في أقل من يوم واحد، ورغب في ألاّ يتعطّل أو يُعاق جيشه عن التقدّم، في هذه الأراضي الجافة، بالانشغال بعربات الماء التي تجرّها الثيران[١٠]، فقرّر عدم اصطحاب هذه العربات. كان سوء تقدير كارثي النتائج، لأنّ المسافة التي يمكن أن يقطعها فارس على ظهر حصان خلال عدّة ساعات يحتاج الجندي الراجل إلى عدّة أيام كي يقطعها. هذا إضافة إلى أن الفرسان الراكبين لا يستطيعون، في جيش مختلط، أن يتقدّموا الراجلين، وحملة السهام.

انتشرت طليعة القوات بإمرة قمص طرابلس، على أكمل وجه، فقد وضع القمص كتيبة من أفضل مقاتليه في المقدّمة، وفي إثرهم كتائب رماة السهام الذين يحمون جانبَيْ القوات المتقدمة، وكتائب استطلاعيّة لاستكشاف الطريق والتحذير من أي هجوم على الصليب الأعظم. غير أن وسط جحافل الجيش لم يكن جيّد التنظيم، حيث اختلط الراجلون مع الراكبين والخدم حاملي الخيام. وسرعان ما بدأ يتشتّت شمل الجيش، حيث تباطأت الكتائب الراجلة فتأخّرت عن الكتائب الراكبة، فأمر الملك بتوقّفٍ قصيرٍ كي يلحق المتخلّفون بالركب، لكن ذلك زاد الأمر سوءاً وفوضى.

وعندما سمع صلاح الدين عن تحرك الملك المسيحي، بلغت سعادته أوجها وقال: «هذا أقصى ما تمنيّته، وحالما دمّرنا هذا

الجيش الكافر، سنضع أيدينا على طبرية، وعلى الشريط الساحلي أيضاً». فأمر جيشه بالتمركز في لوبيا، وأطلق فرسانه على مهورهم السريعة كي يعيقوا تقدّم المسيحيّين البطيء.

فناوشوا القوات الصليبية بسهام الأقواس من غير أن يهاجموهم مباشرة، تفادياً لسهام الرماة الصليبيين التي لا تخطىء هدفها. ولم يهتمّ الملك غي كثيراً لتلك المناوشات، ذلك أنّ رماة السهام المسلمين لم يستطيعوا أن يؤثّروا كثيراً على الفرسان المدرعين، أي إنه لم يكن على درجة من الغباء ليضع جيشه لقمة سائغة في ساحة معركة مناسبة ليسحقه[١١] صلاح الدين. ورغم نجاح الجنود الراجلين في حماية الفرسان من تلك السهام، لكنهم عجزوا عن حمايتهم، وحماية أنفسهم أيضاً، من شمس الصحراء التي لا تكلُّ. ولعب الحجر الكلسي في تلك المنطقة دور المرآة العاكسة فتحوّل إلى مرجل حراري لا يُحتمل. وسرعان ما فرغت قواريرهم من الماء وراحوا يشكون من العطش. كان الملك غي دولوزينيان قد فقد أيّة إمكانية لتزويد جنوده بالماء عندما تجاهل ينابيع طوران ولم يعرّج عليها أثناء سيره. وبحلول الصباح أدرك الجميع أنه لا يسعهم التعويل على بلوغ أيِّ ماء إلاّ بعد أن يصلوا بحر الجليل. وسرعان ما تحوّل ذلك الطابور العسكري المنتظم إلى شكل أشبه بمجموعة شغب، وأفراده يتحرّكون بتثاقل. عندئذٍ فقط أدرك الملك غي خطأه؛ لكن الانسحاب بالنسبة إليه كان يعني فقدان الهيبة، وهذا أمر محال. ثم وصل طابور الجُنْدِ إلى السهل الحارّ جداً، فبرز له من حُفَرٍ في الأرض أشخاص أشعلوا النار في أغمار عشب قُطفت وكُوّمت لهذه الغاية، فشكلت دائرة نار شبه مقفلة حول الطريق. فجاءت الحرارة الخانقة وكثافة الدخان لتزيدا الطين بلّة، على الفرسان. وسَعَّرت الريح ألسنة اللهب فاجتاحت

كلّ عشبة في أرض الصحراء وقطعت المسير على الجيش الذي علق وسط اللهب والدخان، والسهام تنهال عليه من كلّ حدب وصوب، من الرماة المسلمين الذين تزايد عددهم. فكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير، فالانسحاب غدا مستحيلاً والعطش غير محتمل.

بدأ مفعول العطش يسري أقوى من أيّ هجوم من قبَلِ المسلمين، ونال العطش من الجنود وركائبهم أيضاً(١٢). وفي حين أصبحت الحيوانات كسولة وانهارت في أماكنها، فقد جُنَّ الرجال من الظمأ واندلعت الشجارات بينهم. حاول بعض الفرسان الهرب عبر الدخان الكثيف، فوقعوا بسيوف المسلمين، وسقط آخرون جرحى بسهام الرماة، أو سقطوا مغشياً عليهم من شدّة الظمأ، سقطوا عن خيولهم فتُركوا يتفسّخوا في حرّ الصحراء. هرب بعض الجنود الراجلين واستسلموا للمسلمين. وقبلوا الإسلام ديناً لهم مقابل شربة ماء. حتى إنّ بعض الفرسان الذين تخلّوا عن سلاحهم(١٣) وأُحضروا بين يدي صلاح الدين قالوا له: «سيّدي، ماذا تنتظر؟ اهجم عليهم إنهم موتى جميعاً».

كان الصليبيّون قادرين على رؤية صفحة الماء البراقة من على مرتفعاتهم المطلّة على بحر الجليل وهذا أضاف إلى تعذيبهم تعذيباً. غير أنّ الجيش الفرنجي لم يصلها، فقط قطعت طريقه جحافل جيش السلطان.

كان ريمون يعلم بوجود بئر في منطقة جبلية إلى الشمال، غير أنّ هذه ستحوّل طريقهم عن طبرية وبحر الجليل؛ لكن مهما يكن الأمر الآن، ما دام الماء العنصر الحيوي فهذه هي فرصة الخلاص الوحيدة. وهكذا توجه إلى مليكه واقترح عليه أن يتحرّك الجيش الفرنجي نحو التلال، باتجاه ينابيع في قرني حطين(١٤). وهذه

ينابيع تقع في أراضي المقص، فما كان من الملك إلا أن أمر ريمون بأن يهاجم العدو ويفتح لهم ثغرة في الطريق.

عندما التفّ جيش الإفرنج شمالاً، أدرك صلاح الدين، الذي أحيط علماً بهذه الخطة من قِبَلِ أحد الفرسان الأسرى، أن عليه أن يقطع طريق الصليبيين نحو البئر. فدفع جيشاً من الفرسان بقيادة ابن أخيه تقي الدين، لإقامة حاجزاً على المنحدرات المفضية إلى قرني حطين، في الموقع نفسه الذي أقام فيه المسيح موعظته على الجبل، وفقاً للأسطورة. فَشَنَّ عليه ريمون هجوماً تمخض عن مذبحة مريعة. سُمِعَ ضجيج المعركة في كل مكان، وغطت الجثث الدرب الصاعد إلى الجبل.

كان صلاح الدين يراقب المعركة من أيكة مجاورة. فرأى هجمات تقي الدين تنكسر أمام شراسة الفرسان المقلنسين الذين قاتلوا بغضب رجال جنَّنهم العطش، ولم يفلح تفوّق عدد المسلمين في جعلهم يحقّقون أيَّ تقدّم خلال هجومهم عبر جبهة ضيّقة، وبدأت صفوف الأتراك تتزعزع أمام هجمات الفرسان المسيحيّين الذين كانوا ينقضّون عليهم كقذيفة منجنيق لا تُردّ. ونجحوا، بسيوفهم الطويلة، في فتح ثغرة في صفوف الجيش المسلم، وأطبقوا على خاصرة سَرِيَّةِ حماية تقيّ الدين، فتخلخلت صفوف المسلمين واندحرت.

لقد نجح قمص طرابلس المُستَشْرِسُ في فتح الثغرة، فلوَّح للفرسان المتحلّقين حول الملك أن يتقدّموا غير أن أولئك لم يستجيبوا. لقد اجترح ريمون معجزة باختراقه صفوف الجيش التركي، لكنّها كلفته الكثير من فرسانه؛ ومع ذلك لم يتحرك الملك! وكأنه خاف أن يعرّض للخطر أثره المقدس. فأرسل إلى ريمون أمراً قاتلاً، فبدلاً من أن يأمره بمطاردة الأتراك المندحرين،

طلب منه أن يتوقّف ويعسكر على الجرف الصخري. فعاد ريمون، محبطاً، ليقابل الملك غي وقال له: «يجب أن نتابع الهجوم وإلا انتهينا، انتهت الحرب، وخُدعنا وخسرنا أرضنا. فإن لم نصل الماء هذه الليلة، فقل على جيشنا السلام».

تشبّت الملك برأيه، وأمر بنصب خيمته على قمة مجاورة(١٥). وفي تلك الليلة ذاتها تحرّك جيش صلاح الدين وحاصر المعسكر حصاراً محكماً تعجز حتى القطط عن اختراقه(١٦). ووزع السلطان على مقاتليه حمولة أربعمئة حِمْلٍ من السهام، وبعدئذٍ أدّوا الصلاة جماعة. وردّدت القمم المجاورة صدى آلاف الحناجر المكبّرة «الله أكبر»، ولحق بها صدى موعظة مقاتلي الدين الحق(١٧).

غدت يقظة الفرسان وسهرهم غير محتملين بعدما زحفت العناكب والعقارب إلى تحت دروعهم. وزاد في الطين بلّة أن راح الجنود المسلمون، طوال الليل، يستفزونهم فجعلوا يحملون الماء في راحتهم ويرفعونها عالياً ليتسرب الماء منها إلى رمل الصحراء الحار.

وفي صبيحة يوم السبت الواقع في الرابع من تموز ١١٨٧ خرّ الملك، المحافظ بباروناته، على ركبتيه يتوسّل النصر من الله: «يا الله، أنظر إلى أولادك يحملون باسمك صليب الدين الحق، وإذا كان علينا أن نخوض معركة حاسمة فلتجعلها في صالحي يا الله، لا في صالحه». غير أن الله لن يرعى أية مملكة غير مملكته هو.

مزّق الصَمْتَ وقعَ حوافر جواد؛ وصل المعسكر فجأة وترجّل عنه فارس شاب يرتدي سترة سَنِيَّة، ويتدلّى من حزامه سيف إسلامي في غمد مذّهب. تكلّم بصوت جهوريّ واضح ليُسمِعَ كلَّ مَنْ في المعسكر: «أيها السيّد، أتيتك برسالة سلام. إنّ سيّدي

السلطان يرغب في إبلاغكم بضرورة تخلّيك عن هذا الغزو، والعودة من حيث أتيت، إلى ما وراء البحر، ولا تعود إلى هنا أبداً.

فزعق رينو دون شايتون: «أقسم بالصليب المقدّس أني لن أتراجع أبداً».

«قل لملكك الكافر إننا لن نتراجع أبداً»، صاح أحد الداوية مؤكّداً ردَّ الملك. وعندما نظر الملك حوله بحثاً عن مشورة ما، لم يرَ سوى النظرات العدوانية في أعين فرسانه المدرّعين. لكن قمس طرابلس، العاقل الوحيد، الذي كان بوسعه أن يَحُولَ دون هذه المأساة الأكيدة لم يكن موجوداً بقربه. التفت غي دو لزينيان بوجهه الشاحب، نحو الرسول وقال له: «قلْ لعاهلك، إنني ملك أورشليم وأدعوه إلى المثول أمام محكمة السماء».

وعندما أُبلغ قمص طرابلس بجواب الملك على الأتراك، ذهب إليه، وجثا أمامه على ركبته اليمنى، وقال: «سيّدي، إن كنت ترغب في الموت هنا، اليوم، فسأقف بجانبك. لكنّنا مهما قتلنا منهم. ومهما دمَّرنا، فلن نحقّق النصر، لأنّنا بتصرفنا هذا نمنح هذه الأرض المقدّسة لصلاح الدين». فأجابه الملك: أنْ أموت هنا مع فرساني أهون عليّ من أن أرى أورشليم المقدّسة تسقط في أيدي الكفرة».

وبعد أن فَرِغَ من كلامه، أمر الجيش الفرنجي أن يفكّك المُعسكر وينطلق إلى ينابيع حطين. وبدلاً من أن ينطلق الجيش في صفوف منتظمة تؤمّن له بعض الحماية، تدافع كثيرٌ من الجنود الراجلين، مخترقين الصفوف، نحو التلال على أمل أن يصلوا البئر. فوجدوا أنفسهم بين فكّي كماشة الجنود المسلمين الذين أمطروهم بوابل من السهام؛ والذين نجوا من سهام الرماة قضوا بسيوف المحارين. بعدئذٍ انقضّ فرسان صلاح الدين على الفرسان

الصليبيين. امتصت طليعة جيش ريمون الصدمة الأولية. وغرس بقية الجنود الصليبيين الراجلين أعقاب رماحهم في الأرض ووجّهوا رؤوسها نحو أعين الأحصنة المهاجمة. فلم تستطع تلك الأحصنة احتمالها، ممّا دفع الفرسان إلى الترجّل ومتابعة الهجوم بالسيوف والسهام. غير أن سهام أقواسهم القصيرة فقدت فعاليتها أمام الصف القوي لفرسان الفرنجة المدرّعين والمقلنسين بالحديد. واندفع أحد الشبان المماليك نحو جزء مكشوف من الجيش الصليبي وجندل عدّة رماة قبل أن ينجح أحد الفرسان بشَطره إلى نصفين ببلطته. الأمر الذي أغاظ الأتراك فشنّوا هجوماً ارتجالياً اندحر أمام الهجوم المضاد الذي شنّه الفرسان المسعورون، ضد جحافل الأتراك، الذين هاجموهم في الوسط. وتحوّلت ساحة المعركة إلى كتلة رجال يختلط صياحها برنين السيوف، وجندلوا بعضهم البعض الآخر في مذبحة رهيبة. كان صلاح الدين يرقب هذه المعركة بقلق متزايد. فعلى الرغم من قلّة عدد الفرسان الصليبيّين استطاعوا دحر الأتراك، الذين ثبت أنهم لم يستطيعوا مضاهاة الفرسان البارعين في استخدام أسلحتهم الثقيلة. واستمرت المعركة بين كرٍّ وفرٍّ، ونجح الداوية والاستبارية في دحر المسلمين. بعدئذٍ انضمّت إليهم موجة جديدة من الأتراك في هجوم مضاد على المسيحيّين الذين كان عددهم يتناقص مع كل اشتباك آخر. فلم تدم المعركة طويلاً، إذ لم يكن بوسع بضع مئات من الفرسان الصليبيين الصمود، أكثر أمام جحافل الجيش المسلم الذي تدفّقت عليهم أمواجه من علٍ ومن كل الجهات.

حاول، ريمون، قمص طرابلس وحفنة من خواصه أن يشنّوا هجوماً يائساً على تقي الدين. لكن ربّما بأمر من صلاح الدين، الذي كان يحترم، أكثر من أيّ شخص آخر، شجاعة هذا الخصم

المسيحي، تركه المسلمون ينجو مع خواصّه، بدون أيّة مقاومة، عبر التلال المحيطة. ثم رصَّ الجيش المسلم صفوفه في المكان، وكانت تلك نهاية الملك ومَنْ تبقى معه من المخلصين له.

كان صلاح الدين يراقب المعركة، وبجانبه ابنه الملك الأفضل «على صهوة جواده عندما شاهد ملك الإفرنج يتراجع إلى القِمّة، ثم ينقضُّ مع رجاله الشجعان على المسلمين. فَعَلتْ السلطان كآبة وأربدّ لونه وأمسك بلحيته وهو يصيح «كذب الشيطان» فعاود المسلمون الكرّة على الأعداء. «لقد هزمناهم»، صاح الأفضل، غير أنّ والده، سيف الله، أسكته: «أسكت! لن نهزمهم حتى تسقط خيمة الملك[١٨]».

هرب مَنْ تبقّى من الجنود المسيحيّين الراجلين وصعدوا الجبل تاركين الفرسان لِقَدَرِهم. ولم تنفع محاولات الملك غي وتوسلاته في إعادتهم إلى ساحة المعركة. وهكذا راح الملك غي يجمع من حوله فلول جيشه للدفاع عن روفين رئيس أساقفة عكا والصليب الأعظم. دفع صلاح الدين، الآن، بآخر احتياطه إلى المعركة، فشكّلوا ما يشبه أنشوطة الإعدام حول الفرسان الراجلين. ولم ينهزْ جيش الإفرنج بسبب سقوط خيمة الملك، بل بسبب الهجوم الجريء الذي شنّه ابن أخ صلاح الدين الذي شقّ طريقه مباشرة إلى رئيس أساقفة عكا، الذي قُتل. فالتقط الأتراك الصليب الأعظم، رفعوه عالياً ليراه الجميع، وجالوا به في ساحة المعركة. هلّل المسلمون لهذا النصر. وانهارت معنويات الفرسان الفرنجيّين لدى خسارتهم قُدس أقداسهم. فألقوا أسلحتهم أرضاً وانتظروا الأسرَ. في حين تابعت جحافل المسلمين زحفها العاصف وقتلت غالبيتهم. ولم ينجو من تلك المذبحة[١٩] سوى مئتي فارس، وألف جندي راجل. وفي الموقع الذي خاض فيه جيس الإفرنج

معركته الأخيرة، فرش صلاح الدين سجادة الصلاة فوق بقع الدم على الرمال وصلّى مسبّحاً بنصر الله القدير.

«كان المسيحيون أسوداً في بداية القتال، وفي نهايته مجرّد خراف ضالّة. ولم تتبق من آلافهم المؤلّفة إلاّ حفنة قليلة. نظرتُ برعب إلى تلك الوجوه المهشّمة التي امتزجت بالرمل، أجساد يغطّيها غبار الصحراء، وأقمْتُ صلاة الشكر لله، الواحد الأحد[٢٠].

اقتيد كبار الأسرى الفرنجة إلى حضرة صلاح الدين. كان أبرزهم الملك غي دي لوزينيان، أخوه جيوفروا، جيرارد دو ريدفورت، مطران الله بيرنارد، ورينو دوشاتيون. وعامل صلاح الدين أسراه بلطف فائق، خصوصاً أنّه كان رجلاً يقدّر عالياً الشجاعة أينما وجدت. وعندما رأى حالتهم المذريّة وظمأ الملك، تناول كأسه المليء بشراب فواكه مثلوج وقدمه للملك غي، الذي ناوله إلى رينو دو شاتيون، بعد أن روى ظمأه. استاء صلاح الدين من هذا التصرّف فقال: «لقد ساءني كثيراً أن تعطيه كأسي يشرب منه من دون إذني. فهذا الملعون شرب في خيمتي بدون إذني، وهذا لن يعطيه الأمان. لكنّه ترك دوشاتيون يكمل شرابه، مع وعد أنّه لن يشرب ثانية قط. ويعدئذٍ سأله صلاح الدين لماذا حنث بِقَسَمِ الفروسيّة الذي أخذه على نفسه. فأجابه سيّد الكرك: «كذا رأيتَ الملوك يتصرّفون، وقد حذوت حذوهم... فردّ عليه صلاح الدين بنظرة بغض، لكنّه اقترح عليه أن يفتدي حياته بهجر الكنيسة واتّباع دين الحق. بيد أنّ رينو رفض، بازدراء، الاقتراح الذي لم يكن بوسع أيّ رجل آخر أن يقدّمه له، الأمر الذي جعل صلاح الدين يقرّر قتله بيديه[٢١]. وعندما وضع سيّد الكرك الكأس من يده، أمر صلاح الدين بإخراجه من خيمته، في الخارج أشهر صلاح الدين سيفه وضربه ضربة قويّة فصلت رأسه عن

جسده. وأمر أن يُحمل الرأس على رمح ويُستعرض في كل البلاد كعلامة لنصر الله على الكفرة». في ذلك اليوم ضاعت القدس من الفرنجة إلى الأبد.

ماذا لو...

ماذا لو - أنّ رينو دو شايتون لم يُهاجم قافلة صلاح الدين؟

لربّما عاشت الهدنة الهشّة بين صلاح الدين وقمص طرابلس، وأطالت في عمر مملكة القدس الفرنجية، على الأقلّ لبعض الوقت.

لأنّه من المشكوك فيه أن يتسامح صلاح الدين، المسلم المخلص، كثيراً مع وجود المسيحيّين في الأماكن المقدسة.

ماذا لو - مات جيرارد دوريدفورت عند ينابيع صفورية قبل عدة أشهر من كارثة حطين؟ فكان غي دو لوزينيان مضطراً عندئذٍ لتبنّي رأي مستشاره السيء.

الحقائق

في السنوات التي تلت الغزو الصليبي للقدس في العام ١٠٩٩، استُثمِرَ على أكمل وجه التوازن الدقيق بين الدينَيْنِ المتحاربين، الإسلام والمسيحيّة. وادّعى كلٌ منهما أنه المدافع الوحيد عن الدين الحق. لقد تشوَّش هذا الفارق عندما بدأت السلطة الدنيوية تستطيل إلى داخل النظريّة البابوية المقدّسة واستخدمت السلطة الدنيويّة الصليبيين لخدمة مصالحها. وقد تصارعت جيوش الفرنجة مع بعضها البعض، لكن في الوقت نفسه بدأت السلطنة تنهار. عندئذٍ صعد نجم صلاح الدين. وهذا بدوره دفع بارونيّة المسيحيّين إلى إعادة التوحّد، وحافظت هدنة هشّة على الحيلولة دون تذابح الجيشين المسلم والمسيحي.

وكما تبيّن لاحقاً، فقد سمت كلمة الشرف المسلمة فوق الغدر المسيحي، والحقيقة التي لا جدال فيها هي أنّ صلاح الدين هو أعظم وأنبل مقاتل حمل السيف في عهد الصليبيّين[٢٢]. ثم إن ضياع الصليب الأعظم في موقعة حطين قصم إيمان الفرنجة، وكان النصر لله لا للمسيح. كانت موقعة حطين نهاية للتفوّق المسيحي في الشرق الأوسط، وأطاحت بكلّ حركة الفرنجة.

وما تبقّى يمكن تسميته «حرب صلاح الدين». فبعد ثلاثة أيام من موقعة حطين، استسلمت طبرية في السابع من تموز، وفي العاشر منه استسلمت عكا وفتحت أبوابها للسلطان المنتصر. ثم سقطت يافا والناصرة، وتبعتهما صفورية وقيصرية وحيفا. ثم جاء دور نابلس، ولحقتها صيدون في التاسع والعشرين من تموز، وبيروت في السادس من آب. ومات قمص طرابلس، الذي كان قد فرّ إلى حصنه، بمرض داء الجنب في بداية شهر أيلول. لم تصمد سوى Tyre بسبب وصول الكونت كونراد دو مونترفرات وفرسانه عبر البحر. فرفع صلاح الدين الحصار عنها، وانطلق نحو عسقلان التي استسلمت في الخامس من أيلول. ومن هناك توجّه صلاح الدين إلى الشمال، نحو صُلْبِ الصراع، إلى القدس، وكان يدافع عنها حينئذٍ باليان ديبلان. وصلها صلاح الدين في التاسع عشر من أيلول وسرعان ما نقب مهندسوه جدرانها، وبقيت، رغم ذلك، تقاوم حتى الثاني من تشرين الأول. سقطت المدينة ونُهبت، ودمّرت كل الرموز المسيحيّة فيها، وقُتِلَ الكاثوليك الذين لم يستطيعوا افتداء أنفسهم[*].

(*) هنا وفي أماكن أخرى سابقة يوجد اختلاف بين ما يعرضه المؤلّف وبين ما جاء في «الكامل في التاريخ» للمؤرخ العربي ابن الأثير/ المترجم.

ومن الفوضى التي تلت دخول صلاح الدين المنتصر إلى القدس، وُلدت دعوات جديدة للصليبيّين وتحرّك التاريخ بسرعة كبيرة. وانطلق غي لوسينيان، الذي عفى عنه صلاح الدين، إلى قبرص. وحمل الصليب من جديد ملك فرنسا فيليب أوغوست، وملك إنجلترا هنري الثاني، وامبراطور روما فريدريك المقدّس ـ الأوّل ـ المسمّى بارباروسا. مات هنري الثاني، وقضى فريدريك غرقاً، وعاد فيليب أوغوست إلى فرنسا. فأخذ مكانهم ريتشارد قلب الأسد، كي يغادر الأرض المقدّسة قبل أن يحتل القدس ثانية. وشن البابا إنوسينت الثالث الحملة الصليبية الرابعة، أما أولئك الذين لبّوا دعوته لم يكن الجهاد المقدّس دافعهم، لا بل نهب ثروات الشرق. وغامرت قطعان من الفرسان في هذه البلاد الغريبة، نهبوا قسنطينة، سرقوا الكنائس، واغتصبوا النساء المسيحيات. وبدأت قيم هذا العالم تحلُّ محلً قيم الآخرة، بسرعة فائقة. وبدأ عصر هرطقة[٢٣]، أَدخَلَ الكنيسة في صراع مع السلطة الدنيوية. وفي ١٢٢٩ قام فريدريك الثاني، امبراطور ألمانيا المحروم كنسيّاً، باستخدام الصراع الأَخَويّ بين الحكام المسلمين في سوريا ومصر لإجبارهم على توقيع معاهدة يافا، التي أعادت، في وقت قصير، القدس إلى المسيحية (١٢٢٩ـ ١٢٤٤)، لكنّها لم تُنهِ النزاع في المعسكر المسيحي، حيث أنّ الامبراطور استعار الفرسان التيوتونبين من هيرمان فون سالزا للتخلّص من الدّاوية الفرنسيّين.

وشهدت مملكة القدس، التي تحوّلت منذ موقعة حطين إلى سلسلة حصون ساحلية، نهايتها الدموية مع سقوط عكا والمذبحة التي حلّت بالمدافعين عنها، في الثامن عشر من أيار ١٢٩١.

بعدئذٍ لم تَعدُ القدس، مهد المسيحيّة، مدينة مسيحيّة، العامل الحاسم في حطين كان صحراءَ لا ترحم.

«... فقد كُتب، أَنَّ من يغامر في الصحراءِ قبلَ أنْ يُقَدِّم قرباناً لله يحكم عليه بالهلاك...».

(١) بهاء الدين ابن شداد: صديق صلاح الدين، ومعاصره.
(٢) Histoire d'Eracles، نص فرنسيّ من القرن الثالث عشر، ربما بعد غيلوم دوتير.
(٣) كان السلطان التركي على شفا الهزيمة عندما اشترى المرتزقة البيزنطيين، وساعدته خيانتهم على تحقيق النصر الساحق للأتراك.
(٤) غيلوم دوتير: «شاهد عيان على تلك المذبحة المريعة...».
(٥) جدّه ريمون دو تولوز، هو الذي أسس مقاطعة طرابلس.
(٦) تعني القوّة، أو المقدرة من الواضح أن المؤلّف يخلط بين الأكراد، والأتراك، والمسلمين هنا، فيطلق عليهم تسمية Turk غالباً، المترجم.
(٧) معروفة اليوم باسم Bursa.
(٨) قبل أن ينطلق الجيش في هجومه، جرى تدعيمه بألف ومئتي فارس وسبعمائة جندي راجل، حصل عليهم الإفرنج من ملك إنجلترا هنري الثاني، كفدية عن قتل رئيس أساقفة كانتربري.
(٩) قرابة عشرين ميلاً بقياسات الطرق العصرية.
(١٠) كانت مقطورات المياه هي الوسائل التي يستخدمها الصليبيّون لإرواء جيشوهم في الصحراء، لكن من ناحية أخرى، تعتبر وسائل ترحال بطيئة جداً، إذ كانت تجرّها الثيران.
(١١) كان المسلمون يستخدمون أقواساً قصيرة لا تتمتّع بالقوة الخارقة مثل الأقواس الإنجليزية الطويلة التي استخدمت في Grecy وفي .Agnicourt.
(١٢) يتحدّث موريسون عن ذلك في استعادة القدس ١٨٧١ فيقول: «إن الطريق من صفورية إلى طبرية تمتدّ فوق وادٍ عميق حتى تصل إلى لوبيه حيث تبدأ بالانحدار إلى البحيرة. وعلى طول هذه الطريق لا يوجد لا ماء ولا ظل، لا شيء سوى الأحجار الكلسية التي تعكس وهج الشمس الحارق. وسار الصليبيون على هذه الطريق وهم يتعرّضون إضافة إلى عوامل الطبيعة، إلى سهام الرماة المسلمين سريعي الحركة فوق جيادهم الرشيقة.
(١٣) وهـــــم Bald de Fortuna, Rymundus Buccus, Loadicius de Thabaria، وأطلق عليهم اسم l'estoire - فقد أفشوا سرّ خطة الملك إلى صلاح الدين.
(١٤) تقع قمتي حطين شمال شرق طابور، وجنوب شرق قرية حطين، تبعد عن طبرية قرابة ثلاثة أميال، أي مسير ثلاث ساعات ونصف تقريباً.

(١٥) أمر صلاح الدين، بعد انتهاء المعركة، ببناء جامع على القمة نفسها.
(١٦) Histoire d'Eracles.
(١٧) القرآن الكريم. لم نورد الآية لأن ترقيم الآية والسورة في الترجمة الألمانية لم يتطابق مع رقم الآية أو السورة في القرآن العربي. لكن فكرتها تدور حول الجهاد في سبيل الله.
(١٨) «الكامل في التاريخ»، للمؤرخ العربي ابن الأثير.
(١٩) من بينهم: قمص طرابلس وأولاده الأربعة، وهم جو، غيلوم، راؤول وأوتو، وباليان دو إيبلين.
(٢٠) عماد الدين، مؤرخ عاصر موقعه حطين.
(٢١) Histoire d'Eracles and Passio Reginaldi, by Salqadin's contemparary, Pierre de Blois.
(٢٢) لقد أرسل ذات مرّة جواداً أصيلاً إلى خصمه ريتشارد قلب الأسد، عندما فقد هذا الأخير جواده في المعركة.
(٢٣) كذلك فعل الولّيزيون والألبانيون في جنوب فرنسا.

الفصل الثالث

رعاة حفاة أجينكورت ٢٥ أوكتوبر ١٤١٥

«اتبع قلبك، وعندما تهاجم أصرخ:
من أجل هاري، من أجل إنجلترا والقديس جورج»
شكسبير: هنري الخامس

امتطى الضابط الفرنسيّ تشارلز دولبرت، كونت ديرو، جواده وبرفقته دوق ألينسون، وغادرا المعسكر، عشيّة عيد القديس كريسبين، لتفقّد السهل الذي اختاره دولبرت مسرحاً لمعركته القادمة. ومن غابة ترامكورت إلى غابة أجينكورت مرّا بمئات المعسكرات، كانت نيرانها تضيء تلك الليلة غير المقمرة. وفي عمرة برك الضوء تلك يُشاهد خدمٌ وجنودٌ راجلين يغدون بين خيام مخروطيّة الشكل، كلٌّ واحدة منها تظهر مكانة وثروة صاحبها. بينما رماة السهام يرتدون جاكيتات جلديّة طُرّزت عليها شارة مليكهم. وأمام كلّ خيمة سارية فوقها راية فخمة، كتب عليها: يحيا بورغندي، تحيا أنت، أرماجناسي، أورليان، بوربو، ألنسون ريجيا باربا. وكانت صفوة الفرسان على وشك أن تمتطي صهوات الأحصنة للانطلاق إلى المقارعة الأخيرة.

على مقربة من خيمة النّباله الرئيسة تُشاهد عربة تجرّها بغال وقد سدّت طريقاً موحلاً يفضي إلى معسكر من نوع آخر. معسكر يختلط فيه رماة السّهام مع الطبّاخين، المومسات والزبالين، وكلّهم مستفيدين من القتل. وعلى مقربة من ذلك المشهد، ذكور يشتمون وإناث يصرخن، وقسٌّ راكع على ركبتيه يتمتم بصلواته.

تابع الفارسان النبيلان سيرهما غير مباليين بذلك الصخب؛ كانت عيونهما شاخصة إلى تخوم حقل مظلم. لقد غيَّر الضابط الفرنسيّ، في ذلك اليوم، أرض المعركة ثلاث مرات، واستقر في نهاية المطاف في سهل زراعي خصب، عرضه نصف ميل، حرثه مؤخّراً مزارعو سيّد أجينكورت، وأعدّوه للبذار الشتوي.

أشار الضابط إلى ميدان المعسكر الإنجليزي وقال: «سنهاجم على جبهتين. أنت ومعك ستمئة فارس ودركي، تهاجمون الميسرة؛ واحذروا من رماة السهام الإنجليز، خصوصاً حملة الأقواس الطويلة؛ احمل عليهم بسرعة كبيرة وجندلهم في أماكنهم».

«مَنْ سيهاجم الميمنة؟» سأل الدوق.

«أنا. دعنا الآن نعود إلى المعسكر لنستعدّ للمقارعة».

سمّاها مقارعة، لا معركة، ذلك أنّ فرسانه الثمانية آلاف وجنوده العشرة آلاف المدجّجين بالسلاح، وجنوده الراجلون، قد واجهوا ألف جندي مسلّح هزيل وخمسة آلاف رامي سهام وجندي راجل يتضوّرون جوعاً: لم يكونوا أنداداً لهم[1] طروادة. وغداً بإذن الله، ستتطهّر هذه الأرض الفرنسيّة المقدّسة، إلى الأبد، من ذلك الوباء الإنجليزي.

سمعا عبر الحقل صيحات هيجان قريبة من داخل المعسكر الفرنسيّ، حيث جيش الملك هاري؛ كان جيشه رهطاً من الرعاع،

يعانون من الديزنتاريا وسوء التغذية. لقد دُحروا على طول جبهة النورماندي. والآن، إنّ ظهرهم إلى الحائط؛ بعد أن قطع عليهم الجيش الفرنسيّ طريق الإنسحاب إلى حصن كالايس. أدرك الملك هاري جيّداً أنّ لا خيار أمامه سوى الصمود والقتال، وأنّ القوّة القاسمة للفرسان الفرنسيّين ستسحق جنوده الراجلين.

فكّر: «إن الفرنسيّين يزحفون بثمانية آلاف رمّاح، بينما لا أمتلك أنا إلا ألفاً» لقد خاض حروباً من قبل، لكنّه لم يشعر بهذا القدر من الإحساس بالوحدة التي يعيشها الآن. فهو في الثامنة والثلاثين وإحساسه بشبابه متّقد. إضافة إلى كاريزميّتة التي جعلتهم يطيعونه طاعة عمياء. كان معسكره هادئاً خالٍ من تلك العربدة، المسموعة عبر الحقل، الصادرة عن شجار الجنود الفرنسيّين ووقاحة نساء معسكرهم، وهم يحتفلون بالنصر المؤكّد. شعر هنري بقشعريرة وربّما بالجبن، فصعد إلى موقع نار حيث يستريح رماة سهامه. كان رهط سفّاحين متدثّرين بأغطية فوق جاكيتاتهم الجلدية ودروعهم(٢). رآه أحدهم، وكان شاباً مشوّهاً، فهبّ واقفاً وصرخ على رفاقه: «انهضوا يا رجال! ألا ترون مليككم قادماً! هيّا، قدّموا له الولاء والإجلال».

هبّوا جميعاً كرجل واحد وهم يصيحون «هو هارّي!» وقدّموا له ولاءهم. كان رماة السهام الطويلة، أولئك، قوّة إنجلترا، إذ هزموا فرنسا منذ العهد الثالث، جَدُّ هنري، في موقعة Crécy في ١٣٤٦. وكان هنري يثق بهم، لكنّه مع ذلك شعر بوخز الإثم. فقال لرماة سهامه: «لقد جئت بكم لتموتوا في أرض غريبة».

ردّ عليه القائد ذو الوجه المشوّه، وهل هذا، يا مليكي، أسوأ من الموت جوعاً في إنجلترا؟

نموت جوعاً في إنجلترا؟ كم كانت معلوماته ضحلة عن محنة

الناس البسطاء، ذلك أنّه كان غارقاً في مواخير لندن مع صديقه البدين فولستاف.

«ما اسمك أيها الرامي؟» سأله الملك وهو يروزه.

«فلولين يا سيّدي، فلولين، من ويلز.

ولبرهة تلاقت نظرتا الملك ورامي السهام الوضيع. فقال الملك: «حسنٌ، يا فلولين الويلزي، ليمنحنا الله النصر، وأنا أعدك وعداً قاطعاً، أنكم واعتباراً من يوم غد لن تعرفوا الجوع أبداً.

فصاح فلولين، «لعيني هارّي وإنجلترا»، فتلقّف الآخرون صيحته وردّدوها كهدير الموج. وسرعان ما كان المعسكر كلّه يصيح، «هارّي، هارّي، هارّي...».

من نِعَم الله على هنري، ملك إنجلترا، أنه استطاع أن يحافظ على هدوئه، لكنّه لم يستطع أن يقلع عن التفكير في الموت. مع بزوغ نور فجر جديد على حقل محروث حديثاً، بعيداً عن وطنه؛ وبينما كان الملك جاثياً يتلو صلواته، أمطرت السّماء رذاذاً خفيفاً ما لبث أن تحوّل إلى مطر غزير أطفأ نيران المعسكر، وتغلغل في تراب الحقل المحروق حديثاً.

لم ينقطع المطر طيلة الليل.

نحن الآن في العام ١٤١٥، نهاية العصور الوسطى. لا وجود للأمم، هناك فقط إقطاعات الملوك، الأمراء، والأسياد الإقطاعيّون، وحقهم الموروث في صنع حروبهم الخاصة وصك العملة. فَقَدَ بُناةُ الكاتدرائيات إيمانهم، واجتاح القارة وباءٌ، وأتخمت الأرياف من الحرب ـ حرب مدمّرة دامت خمسة وسبعين عامًا.

ولم تبدأ حرب المئة عام في عهد إدوارد الثالث كما يدوّن

التاريخ، ولم تكن حرب قرن واحد فقط. فقد بدأت قبل ثلاثمئة عام، وإذا توخيّنا الدقّة، فقد بدأت في ١١٥٢، عندما تطلّقت إليانور من لويس السابع وتزوّجت هنري الثاني، إيرل أنجو، دوق النورماندي. وكانت هدية زفافها مقاطعة أكيتان الغنيّة والواقعة جنوب غرب فرنسا. وبعد عامين، وضع الملك هنري يده على عرش إنجلترا وأصبح هنري الثاني، والثلاثمئة سنة الأخيرة من ذلك التاريخ انتقعت بالدم. ويطلق البَعضُ على تلك الحقبة «عصر ازدهار الفروسيّة»، بينما يسمّيها البعض الآخر «العصور الوسطى المظلمة».

كانت فرنسا بملايينها الأربعة عشرة أكثر دول أوروبا تعداداً بالسكان، ولم يكن عدد سكان إنجلترا حينئذٍ سوى أربعة ملايين نسمة. وكلتا الدولتان المتحاربتان تمتلكان جيشاً إقطاعياً ـ رجالاً يخدمون زمناً محدّداً مقابل امتلاك أرض. وكلّ بلد تستخدم وحدة رمّاحين: وحدة فرسان، وحَمَلة دروعهم، عدّة رماة سهام وحاملي رمح. ثم إنّ نصر أو هزيمة الفرسان الراكبين يحدّد عادة مصير مساعديهم. وكانت نوعية الجيش الإنجليزي فيما مضى تتحدّد بتعداد جنودٍ وضيعي الشأن، وعلى الأخص اعتماده على الأقواس الطويلة، الأسلحة البدائية التي أخذها عن الرعاع الوليزيّين والإسكتلنديّين. إنها تبزّ القوس والنّشاب الفرنسيّين، وتفوق قدرة نيرانه بأربعة أضعاف. وبواسطته ربح الملوك الإنجليز سلسلة معارك، في كريسي وبويتييرز، وازداد جيشهم قوّة، كما سيجري مع جيوش نابليون بعد (٤٥٠) عاماً، أو مع قوات الحلفاء بعد معركتي ستالينغراد والعلمين لكن الآن في ١٤١٥ وفي هذا الحقل، فإنّ التفوّق العددي لعدو هنري الخامس يجعل من العسير عليه أن يحلم بأكثر من موت نبيل.

وصل هنري اللانكستري إلى العرش بعد وفاة والده، هنري الرابع، فى ١٤١٣. إنّه شاب لا حدَّ لطموحه، توّاق للمجد والنصر العسكري. حشد (٦٠٠٠) جندياً ليؤسّس من جديد لمطالبته بعرش فرنسا. في ١٣ آب ١٤١٥ يحطُّ رحاله في النورماندي قرب هارفلور. وحين يسمع بالجيش الفرنسيّ العرمرم الذي خرج لقتاله، يقرّر أن يعود إلى حصنه في كالايز. بيد أنّ الحمى والجوع يبطئان من مسير جيشه، وتطبق عليه طليعة الجيش الفرنسيّ في المخاضة الوحيدة السالكة عبر نهر سوم، ويشتبك معه فرسان الجيش الفرنسيّ في ٢٤ تشرين الأول، على بعد مسير يوم واحد من جدران كالايز.

بزغ فجر ٢٥ تشرين الأول، عيد القديس كريسبين، وتوقّف المطر عن الهطول. جمع الملك هنري قواته الهزيلة. وطلب من أتباعه أن يتماسكوا ويخوضوا المعركة كالنمور. وامتدت يده المدّرعة لتلمس الراية الملكية.

«وثبة أخرى يا أصدقائي الأعزاء، وثبة أخرى:

أو نسدّ الثغرة بموتنا الإنجليزي...».

هلّل رماة سهام فلولين، الويليزيّين؛ «هنري! هنري!».

«إنهم يمتلكون الرماح، لكن لدينا سهامنا. فليتذوقوا نكهة السهام الإنجليزية».

قطع رماة السّهام أشجاراً صغيرة ودبّبوا نهاياتها فوق النار بقصد غرسها كحواجز أمام الهجوم المرتقب للفرسان الراكبين. رتّب الملك قواته في صفّ واحد وحيد. فوضع فرسانه النبلاء بقربه: من واريك، أوكسفورد، يورك، تالبوت، غلوشيستر، أكسيتر، بدفورد. وركع الملك للصلاة، مرة ثانية.

«Memento No stri Domine! لقد احتشد عدوّنا والغرور يملأ قلبه. اللّهم أسلبه الشجاعة واجعله يفرّ أمامنا ذليلاً ليعرف أن لا أحد يدافع عنّا سواك، يا إلهي». ثم اتّكأ على الرّاية الملكية وانتظر.

كانت السّماء رمادية وملبّدة بالغيوم. وقف إيرل مونتجوي، الحكم النزيه، جانباً ليراقب المعركة التي ستجري وفقاً لقوانين الفروسية؛ وبقربه فارسان يحملان راية نزاهته البيضاء، ثم امتطى جواده منطلقاً إلى المعسكر الإنجليزي.

هناك سأل الملك: «سيّدي الملك، هل هذه هي المعركة التي ترغب بها؟».

فأجابه هنري: «كلا. قل لأبناء عمومتي أنّي راغب في محادثات سلام. لكن إذا اضطررنا إلى الصمود، فسوف نصمد».

حمل الحَكَمُ النزيه الرسالة وتوجّه إلى الجانب الفرنسيّ. وكان يفصله عنه قرابة ألف ياردة.

«أيّها القائد، إنّ خصمك يتحدّث عن السلام؛ فهل تستجيب له؟».

التفت تشارلز دولبرت إلى الدوقات والكونتات المحتشدين، وقال لهم: «حسن، أيها السّادة، إنّ مرسال الملك هنري يحمل إلينا عَرْضَ سلام. فما هو قولكم؟».

تكلّم دوق ألنسون نيابة عن الجميع، فقال: «بدون إذن. يقتضي الشرف أن نحارب. أقترح أن نهاجمهم في الحال». فأومأ الضابط برأسه موافقاً.

«لقد سمعت الحكَمَ، أيها الحكَمْ. فاذهب وقل للملك هنري أنّ عليه أن يصمد ويحارب».

غادر الحَكَمُ حاملاً رسالة التحدّي إلى معسكر العدو. فلا شيء يمكن أن يوقف المحتوم.

قدم الفرسان في المعسكر الفرنسيّ اعترافهم الأخير أمام القسّ. ولأوّل مرة خلال سنوات عديدة تُنحّى جانباً تلك الخيوط غير المرئيّة للقوة، الخداع، عدم الثقة، الخيلاء والطموح. وسادت روح وحدة وطنية، حتى الكونتان المتنافسان من آرماجناس وبوربون تصافحا[٣]. ونفخ الحكام الأميريّون في الأبواق إيذاناً ببدء المعركة. وامتطى الفرسان بدروعهم الفولاذية الملمّعة صهوات جيادهم بمساعدة تابعيهم. وبدت الجياد مستاءة من ثقل أحمالها. ووُزّعت الرماح على الفرسان وحاشيتهم المسلّحة. وجرى تقليص هذه الحاشية بسبب رطوبة الأرض. وشُكِّلت كتائب من رماة السّهام لتسير أمام الفرسان الرّاكبين. وأمر الضابط الفرنسيّ جيشه للاصطفاف في ثلاثة أنساق: طليعة الجيش ويمثّلها رماة السهام ومن خلفهم نسق من الجنود الراجلين، ثم يتلوهما الفرسان الراكبين.

وارتفع من الأرض الرطبة سديم بلّل رايات البطولة وجعلها تتدلّى فوق رؤوس الرماح. تفحّص الضابط الأرض، قبل أن يمتطي صهوة جواده. فقد حسب حساب كلّ شيء باستثناء الطقس. وقد حول المطر الغزير الحقل المحروث حديثاً إلى مستنقع بنّي زلق، سيزيد من خطورة مهمّة الجياد، التي يثقلها حمل الفرسان المدرّعين والمقلنسين بالحديد. واضطر الخدم إلى رصف الأرض بجذوع الأشجار ليتمكّنوا من تخفيف وزن الأحصنة وهم يساعدون الفرسان على امتطائها.

عرف تشارلز دولبرت، المحارب المحنّك، أنّ خصوم فرسانه لن يجدوا لأنفسهم موقع قدم ثابت. وكان دولبرت بخلاف كثير

من الأمراء الأنبل، حصيفاً يتمتّع بحكمة المحارب، اكتسبها خلال معارك كثيرة قاسية، ولا يتبجحّ بالنّصر قبل أن يحقّقه. ورغم تفوّق القوّة السّاحقة تحت إمرته، بقيت رطوبة الأرض تقلقه. وبدلاً من أن يخاطر بكلّ شيء في هجوم قبل الأوان، احتكم قائد الجيش إلى العقل. فخاطب مرؤوسيه قائلاً: «أيّها السادة، يجب أن ننتظر، لأنّ الأرض شديدة الرطوبة».

فزمجر أنطوان دومز باربان: «وأنا أقول دعنا نهاجمهم الآن».

انبرى له فيليب دو نيفيرز محذّراً: «ستغوص جيادنا في الطين».

فأجابه دوق باربان بغطرسة متحديّة: هل أنت خائف من أولئك الرعاع الحفاة[٤]، يا كونتي النبيل؟ وظهرت إلى السطح من جديد الضغائن الدفينة المستحكمة بين النبلاء الفرنسيّين. وسرعان ما كُبحت سورة غضب المتنافسين لصالح مواجهة العدو المشترك، بعد أن جرى الاعتراض عليهما.

رأى القائد العام للجيش عبثية الاستمرار في هذا الجدال؛ ذلك أنّه كلما اقتضت الحاجة استنهاض شجاعة الفرسان الفرنسيّين يذهب حسّهم السليم أدراج الرياح. واضطر دولبرت إلى استخدام كل مهارته الدبلوماسية لإيقاف الشجار بين الحجج الأميرية المؤيّدة والمعارضة، من أجل الهجوم المباشر. وقد فشلوا في إدراك حقيقة أنّ هذا القرار قد سُحب من بين أيديهم.

يمكن القول أنّ هيلين اللانكستري كان لا يخطىء الحكم على الرجال. فقد رأى في الردّ الذي حمله إليه الحَكَمُ المحايد، توق الفرنسيّين إلى القتال. وفهم أن الأمر يحتاج إلى ضربة جريئة؛ وأنّه لا يمكن لشخص عاقل أن يرسل الفرسان الثقيلين عبر أرض رطبة تُفْقِد الجياد قدرتها على العَدْو السريع لتحقيق الضربة المباغتة

لذلك، كانت فرصته الوحيدة للبقاء حيّاً في ذلك اليوم هي أن يدفع الفرنسيّين إلى الهجوم والأرض لا تزال شديدة الرطوبة، فتكون جيادهم عرضة للعطب السريع؛ بينما يستفيد رماة سهامه ورماحه من ميزات محدّدة. فالفرنسيّون ثقيلو الحركة والإنجليز خفاف الحركة؛ والميزان في صالحهم، لأنّ خيار الفرنسيّين كان سيّئاً. فرغم تفوّقهم العددي من جهة الفرسان الراكبين إلا أنهم اختاروا سهلاً صعباً جداً وضيّقاً لن يساعدهم على تشكيل صفوف فرسانهم جيّداً. وستتسبّب الغابة على جانبَيْ الحقل في تشرذم فرسانه الراكبين ويُحدّ من قدرتهم على المناورة. ويجب أن يستفزّهم كي يصبحوا هدفاً جماعيّاً لرماة سهام الأقواس الطويلة. وتلك كانت فرصته الوحيدة.

أمر بإرجاع عربته إلى الوراء. ففي هذه العربة الكنز الملكي، تاجه والحوائج الشخصيّة لنبلائه، إضافة إلى «عربات الغنائم» التي سلبها أثناء جولته عبر شمال فرنسا. وبسبب ضآلة عدد قواته، اضطر هنري أن يترك العربة تحت حراسة بسيطة، وهذا عامل زاد في تراجيدية تحوّل المعركة. ثم أقدم على مخاطرة محسوبة عندما أمر رماة سهامه أن يتقدّموا قليلاً لتصبح سهامه أكثر خطورةً وتأثيراً. وتقدّم رماة سهام الأقواس الطويلة الإنجليز ببطء وحذر. وكان دوق يورك يقود الميمنة المهاجمة جاعلاً من الغابة عنصر حماية طبيعي؛ يتبعه في الوسط، ويتأخر عنه قليلاً هنري، بينما قاد الميسرة اللورد كامويس متقدّماً الوسط قليلاً. بهذا التشكيل الهلالي تقدّم الجيش الإنجليزي، وعند رأسي الهلال وضع رماة سهام الأقواس الطويلة في موقع منحوت بحيث يتمكّنون من صدّ الهجوم الجبهي المتوقّع. وعلى مسافة ثمانمئة ياردة من القوات الإنجليزيّة زرع رماة السهام الفرنسيّون سياج رماحهم.

وهنا وقعت حادثة لم يلاحظها التاريخ قط. فإما وفقاً لأوامر الملك، أو بدافع عمل بطولي، تقدّمت مجموعة من رماة سهام الأقواس الطويلة الإنجليز خلسة على طول ثلاث جبهات. وعندما بلغوا نقطة تجعل إصابة سهامهم محقّقة، أطلقوا رشقات سهامهم. وأصابت الهدف ثلاثة أو أربعة منها، ولم توقع ضرراً يذكر. لكنّها كانت كافية لتسعير غضب الفرسان الفرنسيّين. ذلك أنَّ فعلة التحدّي هذه عجّلت وقوع الأحداث وأطاحت بنصيحة القائد العام دولبرت الذي طالب بانتظار جفاف الأرض. فرُفعت الأعلام، ونُفِخَ في الأبواق، وقعقع الفولاذ على الفولاذ. وجرى تدافع على المواقع، وكان الفرسان توّاقين للقتال، وكان الثمن مجداً وحصيلته هائلة: ألقاباً، قلاعاً وأراضٍ. وعبثاً حاول دولبرت إرساء أيّ تنظيم شكلي للمعركة. فتشرذمت القوات، واستدعى كلّ قائد جنوده للانضواء تحت رايته. فانتظم رماة السهام والجنود الراجلون في صفوف قتالية بسرعة تحت إمرة قادتهم وانطلقوا في زحف بطيء. فقد كان الحقل موحلاً، والخطو بطيئاً. وخلفهم ينتظر الفرسان بفارغ الصبر الإشارة للتقدّم.

كانت تلك الإهانة شديدة الوطء على الفرسان الغاضبين. وتضافر كبرياؤهم مع طيشهم واحتقارهم لعدوّهم، لجعلهم طائشين متمرّدين على الأوامر. فرفضوا بغطرسة محاولة دولبرت الأخيرة لتحكيم العقل، وهي خطّته لإرسال كتيبة رماة سهام لتخلّصهم من رماة السهام الإنجليز: «إنّك تحاول أن تحرمنا من مجدنا».

نخس بعض الفرسان المتهوّرين مهاميزهم الفولاذية في خواصر جيادهم، فانطلقت تخبُّ في مجموعات مشتّتة وقيادها في أيدي أسياد إقطاعيين، فتبعهم آخرون لا قصد لهم سوى اللحاق بالركب. ولحقت بهم البقية، تعول، وتصرخ. وفي زحفهم إلى

الأمام نحّوا جانباً الجنود الراجلين وشتّتوا كليّاً صفوف رماة السهام، ففقدت بذلك سهامهم الفولاذية مفعولها إذ لم يعد بمقدورهم إطلاقها في ظهور قادتهم. فتقدّم صفّان من ستمئة فارس مسلّح راكب، بقيادة كلٍ من غيلوم دوسافوا وكليجنت دو برابان على الجبهة الإنجليزيّة. وكما توقّع القائد العام فقد غاصت الجياد في المستنقع. وما جرى تخطيطه على عجل وبتهوّر انقلب إلى تقدّم جبان، فقد كانت الأرض سيّئة جداً، وكانت الجياد مثقلة بالأحمال. فانزلقت وتعثّرت، وارتطم راكبوها بعضهم مع البعض الآخر في الطريق الضيّق، وحاول الفرسان حثّ جيادهم على التقدّم بسرعة للالتحام مع رماة السهام الإنجليز. ولم يكن ذلك ممكناً، بسبب التربة الزلقة التي أعاقت جيادهم وأطبقت على حوافرها كالدَبَق[٥].

وتصدّى رماة السهام الإنجليز من وراء سياجهم بصمت وحزم للفرسان المهاجمين. كانوا في جاكيتاتهم الجلديّة أشبه بقماش داكن اللون بدا لا شيء مقارنة مع دروع الفولاذ البراقة التي تتقدّم منهم. صدحت الأبواق، وانتشر مائتا فارس جنباً إلى جنب، فأُمْطِروا برشقة من السهام عندما أصبحوا في مجالها المجدي.

راقب هنري بقلق ذلك العدد الكبير من الفرسان الذي أطبق على رجاله. غير أنّه وهو الفارس المحنّك أدرك أنّ هجومهم بطيء جداً ويجعلهم هدفاً مثالياً لرماة سهامه. وانتظر اللحظة المناسبة بصبرٍ وأناة. وعندما أصبحوا على بعد ثلاثمئة خطوة من رماحه رفع سيفه صائحاً: «من أجل إنجلترا والقديس جورج!».

وردد رماة سهامه وجنوده وراءه: «من أجل هنري، من أجل إنجلترا والقديس جورج!».

شدّ ألف من رماة سهام الأقواس الطويلة أوتار أقواسهم حتى

لامست أعقاب السهام خدودهم[٦]. وملأ الجو أزيز يشبه رنّة مليون قيثارة، وأعتمت السماء غيمة من السهام. وهطلت على الفرنسيّين المتقدّمين عاصفة من السهام المريَّشة، الأسلحة الصاروخية الأكثر فاعليّة من مدفعيّة مشاة نابليون، بعد ٤٠٠ عام من ذلك. كان وقع الرؤوس الفولاذية المدبّبة على الدروع يصمّ الآذان. ساعدت الخُوَذ على صدّ السهام عن رؤوس وأكتاف الفرسان، بيد أنّ العديد من الجياد غير المحميّة جيّداً تأذّت. وما أن تلاشى وقع الرشقة الأولى حتى تبعتها رشقة ثانية. وسقط أربعون ألف سهم على الفرنسيّين في كل دقيقة، كان لها مفعولاً مباشراً ومرعباً. وبناءً على أوامر الملك هنري سدّد الرماة سهامهم مائلة ونحو الأسفل، ولم يكن هدفهم الفرسان المدرّعين، بل الأجزاء غير المحميّة من جيادهم. شبّت الجياد ورمت الفرسان أرضاً فوقعوا على ظهورهم عاجزين عن الحركة، مثل خنافس فضيّة عملاقة، وقعوا سجناء دروعهم الثقيلة. ومع كل رشقة سهام كان يسقط أرضاً عدد آخر من الفرسان في هذا الاشتباك الصاخب[٧].

ثلاث رشقات أخرى من السهام هطلت على الفرسان الفرنسيّين الذين لا يزالون على صهوات جيادهم، وصيحاتهم تملأ الهواء. كان الأمان في تقدّمهم إلى الأمام عبر وابل سهام الموت المخاتل المجنحّة. ولم يبق رماة السهام الإنجليز في أماكنهم، بل انسلّوا بين الرماح المغروسة في الأرض، تفادياً للاصطدام المحتمل مع الأحصنة المهاجمة. أما الفرسان الفرنسيّين الذين استطاعوا التقدّم عبر رشقات السهام وجدوا أنفسهم بغتة أمام الأوتاد المدبّبة الرؤوس، وتلك عقبات أكثر خطورة. فالفرسان الذين كانوا في المقدّمة تخوزقت أحصنتهم على تلك الأوتاد، بينما فشل الذين في أثرهم في وقف أحصنتهم في الوقت الملائم

فاصطدمت بسابقاتها وطوّحت بفرسانها عن صهوتها. أما الجياد التي نجحت في تفادي الاصطدام فهي لم تستطع القفز فوق تلك الأوتاد فتوقّفت بغتة وقذفت بالفرسان إلى الأمام وسط الأوتاد المدبّبة. وكان القائد غيلوم دوسافوا أول القتلى. وتوقّف الإنجليز عن إطلاق سهامهم جماعياً. لا بل أصبحوا يختارون أهدافهم واحداً بعد الآخر، وغدت السهام المدبّبة الرؤوس الفولاذية قاتلة الآن وقادرة على اختراق دروع الفرسان الفرنسيّين.

بقي هنري ساكناً فوق صهوة جواده يراقب تلك المذبحة، وقد زمّ شفتيه بقسوة. رفع رايته كإشارة للجناح الأيمن من قوّاته. التفّ فرسان أيرل أوف أوكسفورد حول الأوتاد ليلتحموا مع العدو. فوجد الفرنسيّون أنفسهم عرضة لضربات الرماح الفولاذية المدبّبة، من رجال أوكسفورد. هوت السيوف على الدروع، شُقّت الخُوَذُ نصفين، واخترقت الرماح آباط الفرسان. رغم ذلك، لم يهرب الفرنسيّون. فقد كان شرف الفروسيّة في خطر. ونسوا أن أكثر من معركة قد ضاعت بسبب سوء استخدام تكتيك الشرف.

لم تنفع حماسة الموجة الجديدة من الفرسان الفرنسيّين، أمام العائق الذي وجدوه أمامهم. بل تشظّت أكثر من سابقاتها بعد أن تعثروا بالجياد الميتة والفرسان المطروحين أرضاً. فرّت الجياد، التي سقط خيّالتها، هلعة وداست على كثير من المشاة الفرنسيّين. ورغم تشتّتهم والتشويه الذي لحق بهم جرّاء هذا الهجوم الارتدادي، تقدّم المشاة الفرنسيّون في ثلاثة طوابير كثيفة، باتجاه رايات القتال الإنجليزية. وبسبب هذا التكثيف الثلاثي الرؤوس في جبهة ضيّقة نسبياً، فقد انحشر الفرنسيّون وعجزوا عن استثمار تفوّقهم العددي الساحق. ووصل الفرنسيّون لاهثين، بعد اندفاعة أخيرة، إلى نقطة الالتحام مع العدو. وتراشق الطرفان بالرماح.

كانت ميتة مريعة بانتظار الصف الأول من المهاجمين الفرنسيّين الذين علقوا بين رؤوس رماح الإنجليز ودَفْع رفاقهم المهاجمين من ورائهم، كانوا أكثر من عشرين صفاً مهاجماً يحاولون الوصول إلى الإنجليز. فخلقوا صفاً ملتويًا حرمهم من أيّ أمل في تحقيق اختراق جانبي. تكسّرت النصال على النصال وتلاحم المتقاتلون فجأة، وتشابكوا بالأيدي في قتال محموم، بالبلطات، القضبان الشائكة(*) والسيوف. ولبس بعض الجنود دروع الفرسان الذين سقطوا، لكنّهم سرعان ما وجدوا أنفسهم يتلقّون الطعنات عبر الخُوَذ أو تحت الإبط، المنطقة الضعيفة في الدروع. وراحت الجثث تتراكم بعضها فوق بعض. ولم يستطع الصف المهاجم خلفهم من التقدّم، إلا بالصعود، بدروعه الثقيلة، فوق العوائق الزلقة في أرض المعركة. وكانت المعركة حامية الوطيس حادّة الصخب. وما فتئت صفوف الفرنسيّين المتقدّمة تدفع بالتي أمامها فتقلبها فوق من سقط قبلها. وهذه، وفق فنّ القتال، أسوأ لحظة لشنّ هجوم جديد. مع ذلك، وبدلاً من أن يعيد الفرنسيّون ترتيب صفوفهم القتالية، اندفع صف آخر منهم إلى القتال بفوضى. ولم يتقدّموا أكثر من الصف الذي سبقهم. فكان التلاحم الدموي على أشدّه وتمخّض عن مجزرة هائلة وصفها المؤخرون كبناء جدار من جثث الفرسان. وسرعان ما عَلَت أكوام الجثث ومنعت تقدّم موجات أخرى من الجنود الفرنسيّين. وحُسِمت نتيجة معركة أجنيكورت في هذه المجزرة التي دامت خمس عشرة دقيقة.

رفع هنري سيفه، ثبّت الحربة على خوذته، وصاح: «يا قديس جورج!».

(*) قضبان كانت تستخدم في العصور الوسطى لكسر الدروع. المترجم.

وقاد رماة الرماح من بين الأوتاد مطاردة الفرنسيّين المتقهقرين. وكان فرسان تشارلز دولبرت قد تبعثروا شذرمذر، من موجة مدرّعة قوية إلى جماعات تائهة. وممرّات نجاتهم سُدَّت بجثث الفرسان والجياد. في حين أن دوق ألينسون، الذي قاد هجوم رجاله وقع بين فكّيْ كماشة الجنود الإنجليز. وأعلن الدوق استسلامه للملك هنري، لكن وقبل أن يستطيع الملك إيقاف جنوده، في غمرة المعركة، كانوا قد أجهزوا على الدوق.

نفذت تقريباً كلّ سهام الرماة الإنجليز. وعلى الأرض الزلفة بين الأوتاد التي غرسوها، كانت تشاهد خيرة الفرسان الفرنسيّين وقد سقطوا على ظهورهم، ووقعوا ضحيّة دروعهم البالغ وزن الواحد منها ستون باونداً. كانوا أشبه بخنافس قلبت على ظهورها وراحت ترفس الهواء بأرجلها وأيديها المدرّعة بالزرد. تلك كانت مشكلة الدروع الفولاذية، وضريبة الحماية التي تؤمّنها للفرسان. وعندما تسبّب رماة السهام بالفوضى في صفوف الفرنسيّين، راحوا يهاجمون الفرسان المنعزلين هنا وهناك؛ ثلاثة أو أربعة رماة على كلّ فارس. وسحق أولئك الرعاع الحفاة رؤوس النبالة بالمطارق ذاتها التي دقوا بها الأوتاد الخشبيّة في الأرض. وتلك كانت المجزرة الأسوأ. وهذا الهجوم المفاجىء من قبل جيش أدنى مرتبة اجتماعيّة لطالما نظروا إليه بعين الاحتقار، وأكمل كارثة الفرنسيّين، وسرعان ما انشغل رماة السهام الإنجليز بسلب الجرحى والقتلى مجوهراتهم الثمينة. فقطعوا حناجر، وأصابع لسلب خواتم النبلاء الثمينة. ولم يعد يفكر أولاد أحياء لندن الفقيرة، أو إقطاعات ويلز، كينت وسوسيكس، في المعركة، بل في الغنائم الثمينة التي وضعوها في كنانات سهامهم.

وتسابق بعض الفرسان الإنجليز إلى مشهد الرعب ذلك

لمنع رجالهم من ذبح رهائنهم الثمينة. ولهذا السبب فقط أُنقذت حياة الكثير من الفرسان الفرنسيّين. جرّدوا من خوذهم وقفازاتهم وأرسلوا إلى مؤخّرة الجيش وقام على حراستهم عدد كبير مِمّن أسروهم. وقام كل فارس على حماية غنيمته من أجل الفدية.

في هذا الوقت، وعندما اعتقد الملك هنري أنّ المعركة قد حُسمت لصالحه، لمح خطرين جديدين. جاءه الأوّل من مؤخّرة جيشه. فقد انقض لصوص على مؤخّرة الجيش، قتلوا حرّاس عربة القطار، وراحوا ينهبون كنز الملك. فوجّه هنري عدداً كبيراً من قواته لمعالجة الأمر، فعالجوه بوحشيّة هائلة، رغم اكتشافهم السريع أنّ اللصوص لم يكونوا فرساناً فرنسيّين، لا بل فلاحين محلّيين خرجوا في إغارة سلب سريعة. ودهمه الخطر الثاني من الأمام، وحين كان بمعزل عن قواته. فتعرّضت ميسرة جبهته القتالية إلى هجوم شرس من مجموعة منظّمة من الفرنسيّين، وعلى رأسهم بريتون، جاكسون وبواتفين. كانوا غافلين عن خسائرهم، اقتحموا بجيادهم خطّ رماة السهام، وتوغّلوا بين الأوتاد، قاتلوا بشجاعة وأجهزوا على القلة القليلة التي كانت تحرس الملك. وقد دخل العديد من الفرسان الفرنسيّين أثناء المعركة إلى المناطق المطهّرة. فهبّ هنري ليضع بثقله الملكي في المعركة. لكنّه وجد نفسه فجأة أعزل من رجاله. وجد أحد الفرسان الفرنسيّين وهو شيبفاليه دوروا. فرصته في تخليد اسمه، فهجم مباشرة على الملك. وقبل أن يستطيع هنري أن يروف منه، تلقّى ضربة قويّة على خوذته(٨). لكنّه عاجل الشاب فوراً بضربة من سيفه شقت رأسه نصفين. غير أن الخطر لم ينته. فقد كان الضغط الفرنسيّ كبيراً، وتراجع أمامه رماة السهام والرماح الإنجليز الذين سرعان ما

سيتجمّعون حول الراية الملكيّة. وإذا استطاع الفرنسيّون أن يخترقوا خاصرة الجيش فسوف يصلون إلى وسطه. وأزفت اللحظة الحاسمة في المعركة. ذلك أنّ رماة السهام الإنجليز قضيَ عليهم بدون دعم الفرسان المسلّحين. فقد كان هجوم الفرنسيّين كاسحاً وشتّت شملهم بسرعة. ولم يكن بوسع هنري أن يقدّم أيّة مساعدة، لأنّ رجاله كانوا في وسط الجيش. فأرسل في طلب مزيد من رماة الرماح، لكنّه لم يجد مَنْ يلبي النداء. لأنّ جزءاً من قواته الاحتياطية كان جزءاً مِمّن أُرسلوا إلى حماية العربة الملكية من النهب، بينما الجزء الآخر والأفضل بين رماة رماحه، والذين يحتاجهم الآن كثيراً لصدّ الهجوم الفرنسيّ، يقومون بحراسة الأسرى الفرنسيّين. وإذا لم يستطع وقف هجوم الفرنسيّين، فسوف يخترقون صفوفه ويحرّرون أسراهم. وعندئذٍ سيعود أولئك الأسرى إلى امتشاق سيوفهم والقضاء على مؤخّرة الجيش.

اتخذ الآن الملك هنري الخامس، الذي كان ينتابه قلق عميق، خطوة تتناقض كلياً مع مبادىء الفروسيّة لتلك الفترة. خطوة سيذكّره التاريخ بها. ففي غَمرة قنوطه أصدر أوامراً هي الأكثر إثارة للجدال في حروب الفروسيّة: «على كل واحد من رماة الرماح أن يقتل أسيره الفرنسيّ».

فانبرى له فرسانه مؤنّبين: «إنّ هذا مخالف لقانون الحرب».

رفضوا طاعة أمره، وربّما لم يكن الدافع محض إنسانياً، لا بل لأنّ كل أسير يساوي ثقله ذهباً. عندئذٍ طلب الملك رئيس رماة السهام فلولين الويلَيزي. ففي حين خاطر الفرسان في رفض عمل جبان كذلك، فإنّ رماة السهام لم يكونوا جزءاً من نظام الفروسيّة، ويستطيعون المشاركة في كلّ الاغتيالات، خصوصاً أنّ غالبيتهم كانوا مجرمين، قتلة، ولصوص، التحقوا بإقطاعة هنري لينجوا من

حبل المشنقة. وبناءً على أوامر رئيسهم، قاد مئتا رامي سهام طابوراً طويلاً من الأسرى يُقدَّر عدده بألفين أو ثلاثة آلاف أسير. وكان غالبية الأسرى في حالة يُرثى لها، سواء من ناحية الملابس، أو التعب، فلم يقاوموا الحرس. ولم يكن بوسعهم تخيّل القدر الذي ينتظرهم، فساروا إلى حتفهم برزانة الفرسان. لقد اقتيدوا كقطيع إلى الحظيرة. وعندما هوى فوفلين بمطرقته على أوّل فارس، سرت أنّة يأس مروّعة عبر الصف الفرنسيّ المهاجم. وسحقت رؤوس المزيد من الأسرى. ولم ينجُ إلا الذين قدّموا وعوداً مغرية بفدية كبيرة. نفّذ رجال هنري بدم بارد مجزرة الإعدام تلك بحق النّبالة الفرنسيّة فسالت الدماء، وقطّعت الحناجر، وعلت صرخات المحتضرين فوق صخب المعركة. وشاهد الفرنسيّون المهاجمون منظر المجزرة المخيف ذلك بغضب عارم، لكنّهم عجزوا عن فعل شيء حيال رفاقهم. إنّ الألم الناجم عن هول ذلك المشهد وصخبه أثلم شجاعة الفرنسيّين المهاجمين[٩]. تكسّرت موجة الهجوم على هول ذلك المشهد، ففرّ الفرنسيّون يطاردهم فرسان دوق يورك. ولم ينج إلاّ راكبي الأحصنة، وجرى سحق البقية. وعند نهاية المعركة التي دامت أربع ساعات تقريباً، سقط دوق يورك صريع رمح أصاب منه مقتلاً.

نزع هنري خوذته ليرى مشهد الأسرى المقتولين؛ أولئك الفرسان الذين حاربوا بشجاعة ولا يستحقّون ميتة كتلك. لقد أصدر الأمر بتنفيذ تلك المجزرة لأنّه كان مضطراً إلى ذلك، لكنّه أدرك جيّداً أنّ التاريخ سيصفه بأنه رجل متحجّر القلب بارد الدم.

رفع الملك هنري الخامس رايته، بعد أن أحرز النصر ثم شكر الله راكعاً. بعدئذٍ أرسل في طلب مونتجوي، الحَكَم الفرنسيّ المحايد الذي كان واجبه مراقبة القتال والعمل كحَكَمٍ حيادي.

ولبس الفارس رداءً أبيض نقيّاً، ومثّل الملك ضاماً قبضته المذرودة إلى درعه:

«لقد أرسلت في طلبي، يا سيّدي».

«ما قولك في المعركة، أيها الحكم؟»

«إنها نصر إنجليزي».

كان الحكم مستاءً جداً من العمل الشائن الذي ارتكبه اللانكستري، لكنّه حافظ على سحنة محايدة. فقد كان دوره مقتصراً على الإبلاغ لا الحكم. فليترك هذا الجبان الوضيع ليحاكمه أترابه، أو التاريخ.

«قل لي، أيها الحكم، ما اسم تلك القلعة هناك».

«إنها أجنيكورت، يا سّيدي».

فليعلن إذاً أن الإنجليز الأقوياء، الشجعان قد انتصروا في معركة أجنيكورت.

حلّ الليل وأرض المعركة مغطاة بالقتلى. النبلاء الفرنسيّون مكوّمون بعضهم فوق البعض الآخر. ألف وخمسمائة فارس، بما فيهم دوقات باربان، ألينسون، وبار، كونت نيفيرز، جاك دوشاتيون، سيور غويشار، والضابط شارل دولبرت. لقد أحصى رجال الحكم المحايد عشرة آلاف قتيل فرنسيّ راجلٍ[١٠]. رأى بعض الفرنسيّين في أجنيكورت يوماً مفيداً. إنهم اللصوص الذين لحقوا جيشاً ليستفيدوا من نهاية المعركة. حتى إنهم تدبّروا في أوج أحداثها سرقة التاج الملكي لهنري.

وعلى الجانب الإنجليزي وقع بضع مئات من القتلى والجرحى كان أبرزهم دوق يورك وإيرل أوكسفورد. ومُنح الجيش المتخم بالنصر والقتل، فترة استراحة.

في صباح اليوم التالي ألقى هنري الخامس نظرة أخيرة على الحقل الذي وقف فيه على شفا كارثة. فرأى على مد النظر جثث النبلاء الفرنسيّين الذين قضوا في سبيل سيدهم، عاهل فرنسا، الملك شارل السادس المتخلف عقلياً، الذي خبأ جيشه وراء جدران قلعة بعيدة. وعندما سقط فرسان ذلك الجيش قتلى، سلبهم الزبالون دروعهم ورموهم في ساحة المعركة عراة أمام الفريق المنتصر، لقد دفع أولئك الفرسان غالياً ثمن غرورهم وكبريائهم.

امتطى الملك هنري صهوة جواده وانطلق صوب كالاي.

* * *

ماذا لو..!

ماذا لو لم تمطر عشية المعركة؟ كانت حرب المئة عام قد انتهت قبل نصف قرن، وكان رماة سهام هنري الخامس قد سحقوا في ذلك المكان تحت ضربات رماح الفرنسيّين.

الحقائق:

في أجنيكورت وضع جنود هنري الخامس الرعاع الراجلون نهاية عصر الفروسية الوسيط. ولم يتعلم الفرنسيّون الدرس جيداً من معركة كريسي في ١٣٤٦. وارتبطت قيمهم البالية، حول الشرف والشجاعة، مع تفوق القوة الضارية في ذلك الزمان ـ رماة السهام الطويلة المدى ـ قادتهم إلى كارثة جديدة.

أما بالنسبة إلى هنري، سليل الأسرة الإنجليزية الملكية الحاكمة، فقد هيمنت وصمة المجزرة التي أمر بتنفيذها بحق الأسرى الفرنسيّين، على فروسية العصور الوسطى وزعزعتها[١١]. وعلاوة على كراهيتهم للهزيمة في تلك المعركة، فقد واظب الفرنسيّون ولعدّة قرون لاحقة على كره كل شيء إنجليزي.

وساهمت تلك الكراهية في إحياء موجة انتقام فرنسيّة لم ينج الإنجليز منها حتى وقتنا الحاضر[١٢].

أورليان ١٤٢٩. كان لحماس القديسة جان دارك الدور الأول في تحرير الفرنسيّين من تلك الهزيمة التي لا تنسى، فقد ترجع مدُّ الانكسار. ورُفِعَتْ جان دارك إلى مرتبة الشهداء بعد ميتتها على الخازوق، وبقيت روحها ترفرف في الأجواء الفرنسيّة حتى أعادت اللحمة إلى الأمة الفرنسيّة. وحطّت حرب المئة عام أوزارها في ١٧ حزيران ١٤٥٣، في كاستيلون، عندما اندفع آخر ضابط إنجليزي كهل، تالبوت، وفرسانه ليواجهوا سلاح المدفعيّة الذي أصبح العنصر الحاسم في العهد الجديد.

فقد انتهى عصر الإقطاع وبدأ عصر البارود.

كان الطقس هو العامل الحاسم في أجنيكورت، إذ تحوّلت أرض المعركة بفعل الأمطار التي سقطت في تلك الليلة، إلى بركة وحل. هذا إلى جانب صلف النبالة القاتل، واستخفافها بعدوّ طبقي دونها مرتبة اجتماعية.

(١) يختلف عدد المقاتلين في أجينكورت، من مؤرّخ إلى آخر؛ ويُرجَّح أنه كان هناك ٢٥٠٠٠ مقاتل فرنسيّ مقابل ٥٠٠٠ إنجليزي. ولا تُغيِّر الأرقام من تتالي الأحداث.

(٢) كان ارتداء الدرع واستخدام السلاح "يعتبران حماية من الله والطبيعة لأشخاص مختارين (الكولونيل لورد، تاريخ المشاة).

(٣) ذلك أنه جرى اغتيال دوق أورليان في ٢٤ نوفمبر ١٤٠٧. وجرت إثر ذلك حرب أهلية دامية بين البورجانديين والأرماجناسيين (الأورليانيين).

(٤) هذه إشارة إلى الطبقة الدنيا. (قاع المجتمع).

(٥) معروفون اليوم باسم الجندرمة.

(٦) لقد ساهم ثقل الأسلحة الفرنسيّة في بطء حركة الجياد والفرسان معاً في الأرض الموحلة.

(٧) من المفيد هنا الإشارة إلى أن إظهار الإنجليز لإبهامهم من بين السبابة والإصبع الوسطى، لا يقصد به هنا تلك الإشارة السوقية (يقابلها في منطقتنا استخدام الإصبع الوسطى، المترجم) إنما الغرض منها إغاظة الفرنسيّين الذين إذا أمسكوا بهم فسوف يقطعون لهم تينك الإصبعين، كي لا يستطيعوا استخدام القوس بعد ذلك.

(٨) خوذة عريضة الحواف.

(٩) لقد تفوّق رماة السهام الإنجليز على الرماة الفرنسيّين.

(١٠) لا تزال تلك الخوذة حتى اليوم فوق قبره في ويستمينستر أبَيْ.

(١١) Chronique de Jean Le Fèvre.

(١٢) لا يزال عامة الفرنسيّين يطلقون كلمة (anglaise) إنجليزي، على كل شيء سيّء.

الفصل الرابع

برميل شّنَبْص(*) كارانسيبس
٢٠ سبتمبر ١٧٨٨

«سأخلّص العالم من هذا السباق البربري»

جوزيف الثاني، امبراطور النمسا
حملة ١٧٨٨

أعقبت فرقعة أخرى صخب التحطّم والصراخ في الجوار. كان الجندي عالقاً في تلك الفسحة الضئيلة الفاصلة بين الصحو والنوم، وعقله يجاهد لتصفية ذلك الصخب. فكلّ شيء من حوله صاخب، صادم، مظلم ومختلط مع رائحة الدم المعدنيّة الغريبة. عبثاً حاول رؤية ما يجري في تلك الليلة الداجية. تشبّث بالأرض الرطبة، فغاصت أصابعه في التربة. كان يسمع بوضوح صوت المعركة، الصخب والاحتضار. أين حذائي؟ لماذا يُطلق الجميع؟ ندّت عنه صرخة صامتة «ليس أنا، يا إلهي، ليس أنا...» ولم يستطع أن يتحرّك فقد شلّه الخوف. تابع صراخه الصامت «ليس

(*) مُسْكِر هولندي ثقيل.

أنا. . .» نضح العرق البارد من وجهه، وثَقُلَ صدره الذي جاهد طلباً للهواء. لقد أخذه الهلع في قبضته الحديدية. وتلك العقدة البشعة المشوّشة تدمّر في دماغه، «سوف أموت». فلا أمل في فجر جديد. سيكون أمراً موحشاً أن تموت. . . أكان ذلك مجرّد أضغاث أحلام؟ لا، لم يكن أضغاث أحلام، فقد كانت طلقات المدفعيّة تومض في عتمة الليل من حين إلى آخر، ويختلط صخب انفجارها مع صراخ الجرحى ونحيب المحتضرين: «أنجُ بنفسك يا تورسي! لقد ضاع كلّ شيء، لقد أطبق علينا الأتراك»[1].

كان جوزيف الثاني، امبراطور النمسا بعون الله، يعاني من الضعف، ولم يعد صغيراً. قد أراد أن يتذكّره التاريخ كعبقري عسكري، في عظمة، هذا إنّ لم يكن أكثر من، مَثَلِهِ المتألّق فريدريك الأعظم ملك بروسيا. بيد أنّ المشكلة الرئيسة لدى الامبراطور النمساوي الرحيم هي افتقاده إلى تلك المواصفات، ولم تعوّضه عنها مهارته السياسية، ولا عصا الماريشالية. فقرّر فجأة، وفي أرذل العمر، أن يستردّ البلقان من الأتراك. فعرض ملك بروسيا فريدريك فيلهلم وساطته الدبلوماسية لحلّ النزاع بين الباب العالي وبين مجلس هابسبورغ التشريعي. وبدلاً من قبول ذلك العرض الكريم، عمد امبراطور النمسا إلى إهانة الملك البروسي فأرسل له قصاصة ورق كتب عليها: «لقد وصل آل هوهينزوليرن إلى السلطة باستخدام الوسائل التركيّة القذرة ذاتها». فكانت تلك الإهانة كافية لدفع ملك بروسيا إلى توقيع معاهدة تعاون عسكري مع ملك السويد. وانطلقا معاً لمحاربة كاثرين امبراطورة روسيا، حليف النمسا الوحيد. في الوقت نفسه الذي بدأ فيه جوزيف الثاني يدقّ أبواب البلقان. لكنّه نسي أن يبلغ المبعوث التركي أنّ النمسا في حالة حرب فعليّة منذ ستة أشهر قبل أن يتجاوز جيشه الحدود

التركية[٢]. وحرصاً منه على إصلاح ذلك الخطأ غير المقصود أرسل إلى فورست كاوينتز، سفيره الأول، يقول: يؤسفني إبلاغك أن الباب العالي قد دخل حرباً مع حليفتنا، كاثرين. «وطبقاً للمعاهدات بيننا وبين روسيا فإنّنا ملزمون بمساعدة الامبراطورة. إني آمرك أن تبلغ الباب العالي أننا أصبحنا في حالة حرب مع تركيا[٣].

وفي ١٧٨٨، انطلق جوزيف الثاني في رحلته الطويلة المتعبة من فيينا إلى والاكيا[٤]، المنطقة الحدودية المتنازع عليها بين الإسلام والمسيحية. الشهرة ودخول سجلّ التاريخ دافعاه إلى ذلك. وقد دخل التاريخ فعلاً لكن ليس بالطريقة التي أرادها كان هدف النمساويّين الرئيسي تحرير نهر سافي، ذلك الممر المائي الحيوي، وذلك بإخضاع معاقل تشاباز، بلغراد وفيدين. ومن ثم احتلال الحصن المفتاحي في مدينة نيش، لدمج صربيا كلّها بالامبراطورية النمساوية. وشيّدت الامبراطورية الجيش اللازم لإنجاز تلك المهمة. ستة فيالق تعدادها ٢٤٥,٠٦٢ جندياً مع ٣٦,٧٢٥ حصاناً. وكان تحت أمرته المباشرة ١٢٥٠٠٠ جندي و٢٢٠٠٠ حصان. وكانت مدفعيّته تحتوي على ٨٩٨ مدفع ميداني، و١٧٦,٧٠٠ قذيفة. إضافة إلى ١٠٠٠ طنّ من مسحوق البارود الأسود. وكان إطعام الجيش يتطلّب يومياً /٨٠٠/ طن من الدقيق و٢٠٠ رأس من البقر[٥].

قاد هذه القوّة العسكريّة رجال اشتهروا في الحوليّات العسكريّة النمساويّة بغبائهم وعجزهم؛ من أمثال كوبورغ، فابيوس، وادترسلبن، ميتروفسكي، ديفينز، ليختنشتاين. في حين أنّ القائد الفذ الوحيد وهو المارشال لاودون، المتقدّم في السن، الذي قدّم خدمات جليلة لامبراطورته ماريا تيريزا، استبعد من صفوف

القوات. فقد اعتبره الامبراطور أعجز من أن يحتمل رحلة مرهقة كهذه. ويبدو أنّ الموهبة الوحيدة لدى الامبراطور النمساوي تكمن في مقدرته على اختيار الرجال غير المناسبين للمهمّات الموكَلَة إليهم. وهذه المرّة وقع اختياره على الماريشال لاكزي، الأكثر غباءً بينهم، والذي يقتصر إنجازه الوحيد في تاريخ حياته المهنيّة في كونه أمّعة لم يكن لديه ما يغني به خبرة امبراطوره المحدودة.

«توجّس النمساويون شرّاً كبيراً من ترأس امبراطورهم للحملة العسكرية. فقد كان مشهوراً بمواقفه الخيّرة، وقد حار الجميع فيما سيضفيه وجوده على كسب الحرب. لكن بسبب ولعه بالمجد الذي يأتي مع النصر، لم يكن بالأمكان إقناعه بالعدول عن هذه المهمّة. بناءً عليه، فقد تنبّأ العديد ومنذ البداية بنهاية مشؤومة لهذه الحملة، وأثبتت الأحداث اللاحقة صحة تنبّؤاتهم[٦].

وتقوم خطة جوزيف الأصلية، هذا إن كان لديه خطة أصلاً، على استخدام قوّته الضاربة، ليس في الهجوم، كما هو متوقّع، بل في حالة دفاع اضطراري. وهكذا، بدأ امبراطور النمساويّين حملته بالأنين، وليس بالضرب بيد من حديد.

كان الهجوم على الحصن التركي في بلغراد مخطّطاً في ١٦/ أيار. فنُصبت المدافع في أماكنها، واستعد المشاة من ورائها. بيد أن الامبراطور غيّر رأيه عشيّة الهجوم، وبدلاً من مهاجمة الحامية الضعيفة الدفاعات، أمر قواته بالتراجع. واعتمد في قراره ذاك على حقيقة أن الروس لم يأتوا لدعمه[٧]. لم يكن جوزيف بالتأكيد يتحلّى بشيء من شجاعة مثله الأعلى، فريدريك الأعظم، إلا أنه حاول يائساً أن يقلّد قائداً رغم أنه عاجز عن فهم قراراته الصعبة وقدرته على الإمساك بزمام الحرب[٨]. ثم ساءت صحة الامبراطور، فزادت الأمر سوءاً، إذ تعاظم معها عجزه عن اتخاذ

قرار. وأدى تردّده إلى التضحية بقسم كبير من جيشه في وباء الحمى، وذلك عندما أمر جنرالاته أن يعسكروا في مستنقعات مليئة بالبعوض على طول نهر الدانوب. وسرعان ما أصبح الوضع مزرياً في المعسكر النمساوي. ورغم ذلك رفض الامبراطور تغيير الموقع. فقضى المرض القاتل على عُشر الجيش، وبدأت القبور الجماعيّة تطفح بالجثث. وبلمح البصر ابتلي ١٧٢٠٠٠ جنديٍّ بنوبات الملاريا والديزنتاريا، وتوفيَ ٣٣٠٠٠ من أفضل جنوده. وكان بمقدور جوزيف الثاني أن يحتلّ بلغراد أو أن يهزم الجيش التركي الضخم بهذا العددِ من قواته الذين قدّمهم قرباناً للحمى القاتلة. أمّا الذين نجوا من الحمى فقد عانوا من اللافاعلية العسكرية. فبينما كان الجو المسموم ينال من الجنود المرضى، انغمس رفاقهم من حولهم في لعب الورق. واندلع الشجار في هذا المعسكر المتعدّد الإثنيات: فتشاجر الهنغاريون مع الكرواتيين، وكره اللومبارديون رفاقهم السلوفينّيين، في حين يشتركون جميعاً في كراهيتهم للضباط النمساويين. وبقي الامبراطور مكانه بانتظار وصول التعزيزات الروسيّة الموعودة التي لم تصل[٩]، وسرعان ما نفد الخبز من المعسكر: فقد استهلك حصّته من الدقيق ولا بدّ من إرسال شحنات إضافية عبر نهر الدانوب من أقصى النمسا. وعندما وصلت كانت مليئة بالسوس، ويضاف إلى ذلك أنّ خزينة الجيش كانت خالية، وبالتالي لا رواتب للجنود.

كان الأتراك في ذلك الوقت قد عززوا دفاعات حصن بلغراد بـ٩٠٠٠ جنديٍّ جديد، وخصّص والي المدينة التركي مكافأة مقدار عشرة دوكات(*) ذهبيّة مقابل كلّ رأس نمساويٍّ يُقدَّم إليه. وعلم

(*) عملة ذهبية أوروبية. (المترجم).

الجنود النمساويون بهذا الأمر، فأضحى أيّ اختفاء لأحد الجنود (والذي ربما غرق في نهر، أو إنه ضلَّ وهو هارب، عائداً إلى أهله)، سابقة لسلسلة شائعات عن فظاعات الأتراك. الأمر الذي أفقد الجنود الثقة في رؤسائهم، ثم تذمّر الرؤساء من امبراطورهم. وأُجبر جوزيف الثاني أخيراً على التوسّل إلى لاودون العجوز كي يترأس قيادة الجيش. «أنا لا آمرك، يا عزيزي الفيلد ماريشال لاودون بأن تترأس قواتي، لا بل إني أسألك بتواضع أن تقوم بذلك في سبيل مصلحة الأمة ومحبّة بامبراطورك».

وافق لاودون لا محبّة بامبراطوره إنما لإنقاذ جيش النمسا الحبيب. فوصل إلى مركز القيادة الامبراطوري في ١٨ و١٩ تموز احتلّ حصن دوبيكزا. وأخيراً تحرّك الجيش. لكن لسوء الحظ لم يكن جنرالاته على قدر المسؤوليّة مثل «der Alte»، وواجه عدة عقبات. وسُجّلت بضع عمليات بطولية بارزة. فقد استطاع الملازم أول لوبريسكي وثلاثة وعشرون من رجاله التغلب على ٤٠٠٠ جنديٍّ تركيٍّ في موقعة قلعة راما وسطّروا نسخة حقيقيّة من أسطورة الملك الإسبارطي لينوطاس وجنوده الأربعين، وقد ماتوا جميعاً[١٠]. وعند ممر بازا Baza pass استطاع ٤٠٠٠ نمساوي أن يمرغوا في الوحل أنوف ١٠٠٠٠ جنديٍّ تركيٍّ. بيد أنّ هذه المآثر كانت استثنائية ولم يكن لها تأثير حقيقيٍّ على النتيجة النهائية للحرب.

وعندما فرغت جعبة الملك من الحلول، لم يجد أمامه سوى التماس صلوات الكنيسة ودعاءها بالنصر: «أيها الرب القدير، يا من تشمل الأعداء بإحسانك، هبنا حمايتك المنيعة، اخمِ جنودك من بطش الكفار».

ويبدو أن صلوات الكفار كانت أكثر فاعلية: «اللّهم، يا مسيّر

الفلك، يا ملك السموات والأرض، يا من أرسلت نبيّك ليهدينا إلى الدين القويم، لا تتخلّ عنا للأعداء يدمرون أرضنا؟ الله، يا مَنْ على كل شيء قدير، امنح شعبك القوة ليعلي مجدك في مكة المكرّمة».

لقد حقّق لاودون معجزات واستعاد عدداً من المناطق، بيد أن ذراعه لم تكن طويلة كفاية. فقد واجهت فرقة بقيادة الجنرال بابيلا ١٣٠٠٠ تركيّ، وانهزمت أمامهم؛ وفي ١٨ آب، اضطر الميجور فون شتاين إلى التخلّي عن موقع استراتيجي على نهر الدانوب، واضطر النمساويون معه أن يتخلوا عن وادي الدانوب حتى بلغراد. ثم وصلت رسالة مفادها أنّ قوة تركية قوامها ٧٠٠٠٠ جنديٍّ آخر قوامه ٥٠٠٠٠ آخرون بقيادة سيراسكيير روميلا[١١]، باتجاه نيس. أما بالنسبة إلى النمساويّين فقد آن أوان المعركة الحقيقية. وهذا يعني أنّ على الجيش النمساوي وقوامه ١٠٠٠٠ جندي، أن يتمركز على طول نهر تيميسول المحيط بمدينة صغيرة تدعى كارانسيبس[١٢].

وصاح الامبراطور مبتهجاً: «هنا يجب أن ننتصر. هكذا هندسها التاريخ. ففي هذا المكان نفسه حقّق الأمير أوجين نصراً ساحقاً، على الأتراك، وهذا هو المكان الأفضل لنهزمهم من جديد».

نعم ستشهد كارانسيبس معركة أخرى. غير أنّ ما سيجري هناك ربما يكون فريداً في تاريخ الحروب. ذلك أنّ حادثة عرضية تعرّض لها الجيش النمساويُّ سيكون لها الدور الحاسم في انهيار معنوياته خصوصاً وأنّ «الجزء الأسوأ منه قوامه أفراد قبائل بربرية، ومعظمهم لا ثقة لهم بقادتهم»[١٣].

في ليل ١٩ سبتمبر ١٧٨٨، حالك الظلمة، عبرت طلائع

الهوصار(*) الامبراطوري جسر تيميس في كارانسيبس. لكنّهم لم يجدوا جيشاً تركياً عندما بلغوا ضفة النهر الأخرى. غير أنهم وجدوا عربة ويليزيين[١٤] جوّالين رحبّوا بهم وقدموا لهم الشنبص والفتيات. وبعد مساومة، لم تطل كثيراً، حول الثمن ترجّل الهوصاريون عن جيادهم وانغمسوا في العربدة. وبعد بضع ساعات عبر الجسر أوّل دفعة جنود مشاة وقد نال منهم الظمأ. غير أن الهوصاريّين كانوا قد اشتروا كل الشنبص. وحرصاً منهم على تجنب القادمين غير المرحّب بهم، شيّدوا على جناح السرعة دشم حماية حول موقع البراميل، ثم قاموا بمطاردة جنود المشاة؛ الأمر الذي استفزّ الجنود الطامئين.

لعلعت رصاصة تبعها صراخ، ثم تدحرجت جثة. امتشق الهوصاريّون سيوفهم، هاجموا المشاة، ودحروهم. لقد جفل المشاة من لعلعة الرصاص، لكن بعد أن امتصوا الصدمة الأولية، بدأوا هم أيضاً بإطلاق النار، وسرعان ما نشبت معركة حقيقية صغيرة شهدت مزيداً من إطلاق النار، وسقط فيها عدة قتلى. حاول الجنود، بعدئذٍ، شنّ هجوم مباشر، بيد أن الهوصار لم ينثنوا. قام المشاة بخدعة لإخراج الهوصاريّين من وراء دشمهم. فراحوا يصرخون «توركي! توركي!» حيث أنّ مجرّد فكرة مواجهة الجيش التركي أخافت الهوصار السكارى ففروا عبر الجسر. كذلك فعل المشاة الذين خافوا من الفكرة التي كانوا يصرخون بها فحاول جنرالهم منع تراجعهم، فوقف ساداً الطريق أمامهم وهو يصرخ:

(*) الهوصار، Hussars، جندي في إحدى الوحدات العسكرية الأوروبية المنظّمة على طريقة سلاح الفرسان الهنغاري الخفيف في القرن الخامس عشر. (المترجم).

«Halt slehen blebeiben! Halt!»(*) لكن بدون فائدة، فهؤلاء رجال هنغاريّون، لومبارديّون أو سلوفاكيّون ونادراً ما يوجد بينهم من يتكلّم الألمانية. وما سمعوه من الكولونيل لم يكن وارداً في قاموس أوامرهم المحدود. فقد تعلّموا سماع كلمة «Vorwarts»(**) ولم يسمعوا قط بكلمة «Halt!» وربما، ببساطة، أساؤوا فهمها، ربّما أرادوا فقط التراجع بدلاً من خوض المعركة.

بقي الضابط النمساوي يصرخ «Halt! Halt!» ثم إن بعض الجنود الصغار اختلطت عليهم الأمور فظنّوا أن رئيسهم يصرخ «الله! الله!» وعندئذٍ بدأ إطلاق النار بغزارة.

في الوقت نفسه، على ضفّة النهر الأخرى كان الجيش النمساوي قد خلد إلى النوم، لكنه استيقظ فجأة على لعلعة رصاص من الضفة الأخرى. فحسبت طلائع الجيش أن أولئك هم الأتراك. ولم يستطيعوا أن يتبيّنوا، في تلك الظلمة الحالكة المخيفة، سبب اندلاع الرصاص وساهم صخب المعركة، أنين الجرحى، وصرخات المحتضرين في تكثيف رعبهم. فما سمعوه وما لم يستطيعوا سماعه عزّز في نفوسهم إحساساً عميقاً، خوفاً كبيراً من الموت.

كان في وسط المعسكر حظيرة لجياد العربات، فاضطربت الجياد من ذلك الصخب، حطّمت السياج وانطلقت هاربة، مصدرة صوتاً يشبه هجوم فرقة خيّالة. وهذا ما تخيّله فعلاً قائد الجيش فأمر مدفعيته بإطلاق النار، فأضيء الليل بأضواء زرق تعقبها

(*) توقفوا..

(**) تعني إلى الأمام.

انفجارات، وسقط مزيد من الجنود. وتعالى جئيرٌ: «الأتراك! الأتراك! أنج بنفسك! لقد ضاع كلّ شيء!».

وسرعان ما استبد الذعر بالجيش كلّه، فغدا من العبث أن تحاول إخبار ذلك الجيش المتعدد اللغات، ماذا يجري على الجانب الآخر، من الجسر. فتراجع الفوج الأول، وكذلك تبعته الأفواج الأخرى، وسرعان ما تراجعت جحافل الجنود الهاربين في موجة مدّ بشري. ولم تستطع معظم الأفواج من التفاهم أو التحدث مع بعضها، بسبب اختلاف منابتها القومية واللغوية، مِمّا جعل كل واحد منها يخال الآخرين أعداءً يهاجمونه. وعندما سيطرت عليهم فكرة أنّ قطعان الأتراك بسيوفهم المقصوفة سينقضّون عليهم، أطلقوا النيران على صفوفهم الهاربة إلى الوراء.

كان الامبراطور الذي لم يبرأ من مرضه، غافياً في عربته. أطلّ منها، شبه غائب عن الوعي بفعل النوم والدواء، فسمع صراخ الغوغاء المسعورة يقترب منه. ساعده حرّاسه على امتطاء صهوة جواده، لكن اندفاع الحشد كان أسرع، فأطاح به جانباً. حاول أحد حراسه أن يقف في وجه سيل الجنود الهاربين، فلم يستطع الصمود طويلاً، فسقط أرضاً ولفظ أنفاسه تحت وطأة أقدامهم. انتهى الأمر بالامبراطور الذي هوى عن صهوة جواده، إلى النهر؛ ودفعه خوفه من الوقوع في أيدي الجنود الأتراك إلى أن يزحف بثيابه المبلّلة إلى إحدى بيوت كارانسيبس ومن هناك أخذه حرسه الشخصي ثانية. (وهذا ما جرى بالضبط، تقريباً، مع أخيه الأرشيدوق فرانز، الذي أنقذه في نهاية المطاف أحد أفراد جيشه).

فرّ سائقو عربات الأسلحة، بالأحصنة، وتبعهم، بسرعة، المدفعيّون على الأحصنة التي كانت تجرّ المدافع، تخلّوا عن كلّ شيء واندفعوا في موكب هارب دهس كلّ من تجرأ على الوقوف

في طريقه. وقتل جرّاء ذلك عدّة ضباط، وتملّك الذعر الجميع. فلم يتبقّ واحد لم يركض، يلعن، يصلّي، يطلق النار أو يموت. ونهبت البيوت، واغتصبت النساء، وأحرقت القرى. وامتلأت طريق الهرب بما تركه الجنود وراءهم من بنادق، صهوات جياد، خيام، جياد نافقة، وكلّ ما يمكن أن يتخلّى عنه جيش مندحر. أخيراً وبعد طول عناء استطاع الجنرالات أن يوقفوا ذلك الهروب المجنون. إنّ الصدمة التي تلت ذلك الخراب كانت مذهلة، فالجيش أصبح بقايا خراب.

وعندما وصل الوزير العظيم بعد يومين برفقة جيشه إلى حدود كارانسيبس لم يجد أمامه جيشاً نمساوياً. لا بل وجد قرابة ١٠٠٠٠ قتيل وجريح نمساوي، قام الجنود الأكراد بقطع رؤوسهم.

ماذا لو...

ماذا لو ـ استطاع الضباط النمساويّون أن يتحدّثوا إلى جنودهم بلغتهم القوميّة؟

ربّما ما كان الذعر ليدبَّ بينهم قط.

الحقائق:

أرسل الامبراطور عقب كارثة كارانسيبس رسالة إلى أخيه يخبره فيها: «لا أعرف كيف أكمل، لقد جفاني النوم وأمضيت ليلتي نهباً للأفكار السوداء».

وكتب الامبراطور برقية رداً على سفيره كاوينتز: من المحال الآن حساب حجم الكارثة التي وقعت بجيشنا بسبب جُبن بعض الوحدات العسكرية. لقد انتشر الذعر وسط الجنود، مثل النار في الهشيم، في كارانسيبس، وعلى طول عشرة فراسخ إلى تيمسفار. وتعجز كلماتي عن وصف السلب والقتل الرهيبين اللذين حلاّ بنا.

فقط الكونت كينسكي الشجاع وفوج فرسانه استطاعوا إيقاف جحافل جيش الباشا التركي ومنعها من محق الجيش النمساوي بعد كارانسيبس. وبعد ذلك الانهيار نجح العجوز لاودون في تنظيم صفوف الجيش ثانية وتحقيق سلسلة انتصارات للنمسا. ثم حلّ الشتاء، وأوشك الامبراطور على الموت؛ الأمر الذي أنهى حملة ١٧٨٨.

واعتلى سليم الثالث عرش السلطنة في ربيع ١٧٨٩ وقاد جيش السلطنة في الحرب. بيد أن الأتراك اصطدموا هذه المرّة بصلابة الماريشال لاودون، الذي أحبط هجومهم وأخرجهم من بانات. وعاد نهر الدانوب نمساوياً من جديد. ومات الامبراطور جوزيف الثاني ولم تزل رحى هذه الحرب دائرة، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة قال: «كل ما أتمناه هو سلام دائم في أوروبا كلّها».

في ١٤ تموز ١٧٨٩ اجتاح مواطنو باريس سجن الباستيل. وبدأ عصر جديد، لن تعرف فيه أوروبا السلام على مدى ربع قرن قادم.

كان برميل شنبص هو العامل الحاسم في كارانسيبس.

(١) نقلت معظم هذه المقتطفات عن أ.ج. غروس هوفينغر الذي كان موجوداً في معسكر الامبراطور. والسبب جلي، في عدم نشر شهادته في النمسا، بينما نشرت في ألمانيا ١٨٤٧ بعنوان تاريخ الامبراطور جوزيف الثاني.
(٢) هاجمت النمسا الحصن التركي في بلغراد في ٢/ ديسمبر ١٧٨٧، بيد أن الحرب لم تعلن إلا في ٢/ شباط ١٧٨٨.
(٣) النص الأصلي باللغة الفرنسيّة.
(٤) ترانسيلفانيا، وهي تابعة لرومانيا، حالياً.
(٥) لقد فضّل النمساويون البيروقراطيّون الذين أهملوا هذه الإحصاءات، على الاستعانة بالموظّفين الأكفياء.
(٦) أ.ج. غروس هوفينغر.
(٧) كان الروس، بسبب غبائهم الدبلوماسي، يحاربون الآن ضد جيش التحالف البروسي ـ السويدي. يكتب كاوينتز: «لا يسعنا التعويل على الروس. فقد تركونا ننام مع الوعود».
(٨) تلك الملكة العامة التي يتحلّى بها الرجال العظام وتمكّنهم، في لحظة، من إدراك مزايا هذه المنطقة أو تلك، ثم تسخيرها لمصلحتهم ومصلحة جيوشهم، (فريدريك الأعظم).
(٩) قيل إنّ الأمير بوطمكين تآمر مع كاثرين على عدم مساعدة جوزيف.
(١٠) لقد تأثّر الأتراك بهذه المأثرة إلى حد أنّ الباشا التركي أمر بتكفين جثة الملازم أول لوبريسكي، بالحرير وإعادتها إلى الامبراطور.
(١١) والي إحدى الولايات التركية، مشهور بقسوته.
(١٢) كارانسيبس، معروفة اليوم بـCaransebecs، قرب تريموشفارو الرومانيّة. وربما جاءت التسمية من قصيدة الشاعر الروماني أوفيد: cara mihi sedes:، وهي مثوى الشاعر.
(١٣) أ.ج. غروس هوفيبخر.
(١٤) تجار من أصل غجري.

الفصل الخامس

حفنة مسامير واترلو، ١٨ حزيران ١٨١٥

«إن نجحت الخطّة فهي جريئة، وإن فشلت فهي متهوّرة».

الجنرال كارل فون كلوزوتيز
في الحرب ١٨٣٢

كان الجنرال راسخاً كطود على صهوة جواده الذي يتقدّم الجيش بثلاثين خطوة. وبدت عيناه، في وجهه الأسمر، أكثر زرقة من المعتاد. راح يراقب فرسانه بهدوء، إنّهم نخبة النخبة، إنّهم فرسان الامبراطور، رجال صناديد فخورون بدروعهم البراقة وعُرفِ الحصان الطويل الذي يزيّن خوذهم الإغريقية. عبرت وجهه ابتسامة رضى رقيقة. نعم، بهؤلاء الرجال يستطيع أن يغزو الجحيم ويعود سالماً. كان الجنرال يعرف شيئاً واحداً وهو كيف أنّ النصر يتوقّف على انقضاضهم السريع على دفاعات العدو.

كان الهواء مثقلاً برائحة عرق الحيوانات، رائحة مسحوق البارود الزنخة، شحنات ضراوة الرجال ـ ضراوة موجّهة إلى عدو يربض فوق تلال بعيدة، كلّ رجل منهم مشغول بأفكاره الخاصة، غافل عمّا يجري حوله. ولا سلطان للخوف على هؤلاء الرجال،

فهم شجعان مدرّبون على الطاعة العمياء. خمسة آلاف قطعوا الأراضي الخصبة عبر النمسا، بروسيا، إيطاليا وروسيا، عبروا أماكن خالدة الأسماء مثل ـ أوسترليتز فارغام، جيفا، فريّدلاند، بورودينو. لقد كلّلوا أنفسهم بمجد أبدي.

طاف الجنرال بناظريه على وجوه رجاله التي تحمل آثاراً قاسية من معارك عديدة خاضوها من أجل امبراطورهم، تراتيل مجد وموت. وكان بينهم وجوه جديدة كثيرة، جُنّدت لتسدّ مكان مَنْ سقطوا. مراهقون نضجوا بسرعة كبيرة؛ أولاد لم يخبروا بعد صخب المعركة، ولم يتذّوقوا لحظات النصر. المعركة، وحدها، لا تدور حول المجد والصخب، فالمعركة تدور حول الموت.

بلغ أصيل ذلك اليوم ذروته والجنود المترجّلون لا يزالون متيّقظين برباطة جأش منذ الظهيرة، عندما سمعوا انفجار أول طلقة مدفعية. وكان باسكال لو مونيور، الرقيب ـ الرماح في الفوج الرابع من جيش الفرسان، يعاني من جرح بليغ في جبهته؛ أصيب به، قبل يومين، خلال مناوشة مع فرسان اللورد أوكسبريدج عند تقاطع طرق استراتيجي في كواتربرا. الذباب يغطّي الجرح، غير أن لومونيور لم يحرّك ساكناً ليهشّ الذباب عن جرحه المنتن المؤلم. ذلك أنّ ضبط النفس هو أول درس، وربما الأكثر بربرية، يتعلّمه الفرسان؛ التألّم بصمت.

جرت تعدو نحو القوات مجموعة ضباط يرتدون قبعات مريّشة، يتقدّمهم رجل رفيع القامة ممتلىء الجسم، ببزّة سَنيَّة لجنرال فرنسيّ. كان اسمه أسطورة: ميشيل نيْ، أمير موسكو، أشجع الشجعان، تجاهل الضابط المترجّل تراتبية الرتب وتقدّم مباشرة من الجنرال ديلورت، آمر وحدة فرسان، توقّف أمامه مبتسماً وقال: «يسعدنا أن تنضمّ إلينا ثانية، أيها الجنرال».

يحظى ديلورت بمكانة مميّزة في قلب الماريشال. ففي ذلك اليوم، في جيفا، قصف البروسيون بمدفعيتهم موجات الفرسان المهاجمين فوجد نيْ نفسه معزولاً عن فرسانه غير أنّ ديلورت، وهو أبسط الفرسان في ذلك الوقت، اندفع إلى سهل مفتوح ليؤمّن تغطية، بجسده وأجساد فرسانه، للجنرال. فقام نابليون شخصياً بترقيته إلى رتبة ملازم أول. إنّ خبرة ديلورت العسكرية جرّاء مشاركته في حملات مختلفة، وربما إخلاصه لامبراطوره، كان لها الدور الرئيسي في التطوّر السريع لحياته المهنية. وكان ينظر إلى ندبات جروحه كإمارة على شجاعته. وفي الساعات التالية، سيكون لخبرة هذا القائد وانضباطه الصارم الفضل في مساعدة الجنود الأغرار على تجاوز عثرات المعركة القادمة. وهو يعرف أنه لا بدّ أن يموت الكثير، لكن الذين ينجون سيفتخرون بخوض المعركة وحسمها لصالح امبراطورهم وفرنسا.

التفت نيْ إلى قائد القوات، الجنرال ميلهود.

هل أُصدر الأوامر، سيّدي الجنرال؟

أومأ ميلهود برأسه.

«لتستعدّ فرق الفرسان».

خمسة آلاف خيّال، بما فيهم كتائب دورمون وألوية دوبرفبيه الخفيفة، مصطفّون بمواجهة عدوّ تحميه مدفعيته، لن تكون مواجهة سهلة. لقد تمركز قادة سرايا الخيّالة على بعد عشرين خطوة أمام سراياهم التي اصطفت ستون، خيّال في الخط الأول، وستون آخرون في الخط الثاني.

«الفرقة الأولى؟».

«جاهزة».

«الفرقة الثانية؟».

«جاهزة...» تقدّم ميلهود من الصف الطويل، عدة خطوات، على صهوة جواده، رفع سيفه الضالع(*) وحيّا الرجل ذا القبعة المريّشة بالأبيض.

«سيّدي المارشال، إنّ الفوج الرابع في جيش الفرسان ينتظر أوامرك».

رفع نيْ، لبرهة من الزمن، بصره إلى السماء التي لا تعرف عذراً ولا شفقة. ثم حملق إلى الخيّالة الفرسان، الرمّاحين الحمر، قنّاصة خيّالة بالسهام. انكسرت الشمس على ٥٠٠٠ درع برّاق، ورؤوس رماح فولاذية.

«من أجل فرنسا! إلى الأمام!».

خبط خمسة آلاف سيف على فولاذ دروعهم.

«يحيا الامبراطور!».

صدح بوق، رفع أمير موسكو سيفه الضالع عالياً كيما يراه كل الجنود الراكبين، التحم بروح الجماعة، وتقدّموا يصعدون التلة خبباً.

الساعة الرابعة وثلاث دقائق عصراً.

التاريخ، ١٨ حزيران ١٨١٥.

المكان واترلو.

عندما هرب نابليون الأول من إلبا في ٢٧ شباط ١٨١٥، أطلق شرارة المئة يوم التي لم ينم فيها أحد قرير العين في عاصمة أوروبا. وما أنْ وصل نابليون إلى باريس حتى شرع في إعداد

(*) سيف وحيد الحدّ أعقف قليلاً يستخدمه الفرسان، المترجم.

جيش هو في طريقه الآن إلى مواجهة قوّتين معاديتين في فلاندرز. كان نابليون مدركاً أنّ السرعة والمفاجأة هما أساس النجاح، خصوصاً أنّه سيواجه عدوّين مهيبين. آرثر ويلساس، دوق ويلينجتون، بطل حرب الجزيرة، وخصمه اللدود القديم مارشال جيبها رد فون بلوتشر، «البروسي الحديدي».

لقد خَبِرَ بلوتشر جيّداً، لكنّه لأوّل مرّة يخوض حرباً ضد الويلنجتيين. ولطالما عزا سلسلة الهزائم الفرنسيّة خلال حرب الجزيرة إلى عجز حلفائه وليس إلى التفوّق التكتيكي لتشكيلات الويلينجتيين. وهكذا، جرى أنّ أحد ألمع القادة العسكريين ارتكب الخطأ القاتل واستخفّ بعدوّه. واستطاع نابليون بفهمه الفذّ لأية حالة مفترضة، أن يكتشف الخلل المتأصّل في انتشار حلفائه: فقد كانت قوّاتهم مجزأة. فانتزع المبادرة ودخل بلجيكا وهزم الإنجليز والبروسيين كلٌ على حده قبل أن يتّحدا. وفي ١٢ حزيران انضم إليه نيْ الذي غيّر ولاءه، مرّة جديدة، بعد ثلاثة أشهر من وعده للملك لويس الثامن عشر بأن يسلّمهُ نابليون في قفص حديدي».

بيد أنّ نابليون ١٨١٥ لم يعد ذلك النابليون الخائف في أوسترليتز وجيفا. فقد استوفت شدة الأمر ضريبتها. ولم يكن نابليون واترلو على ما يرام لا نفسيّاً ولا جسدياً، فهو يعاني من إسهال مزمن، وبواسير خارجية تعيقه في ركوب الجواد. فبدأ يرتكب أخطاء قياديّة، ويترك كثيراً من المسؤوليات ليقوم بها آخرون. وكانت خطيئته الأساسية في واترلو أنه أساء توزيع الأدوار الرئيسة. ذلك أنّ العديد من جنرالاته القادرين على المبادرة والقيادة. قد توفوا، أو غيّروا تحالفاتهم. فقد قُتل دوفي في مارينو، ولانس في أسبرن، وانتحر جونو بالرصاص. وهنالك الذين غابوا، مثل ماسين، مورا، ماكدونال، سوشيه، سانت سير،

أوجيرو. وكان بيريتير، قائد الأركان الفذّ، خسارته الكبرى، واضطر نابليون أن يستعيض عنه بقائد غير استراتيجي وهو سول. وترك الامبراطور في فرنسا دافو وعيّنه حاكماً في باريس، كي يحمي ظهره من أي انقلاب ملكي، وسلّم جناحه الأيسر إلى نيْ، ذلك القائد الفارس القادر على أعمال جريئة لا تصدّق، لكنه، في الوقت نفسه انفعالي سريع الغضب. ثم أسند قياد الجناح الأيمن إلى غروتشي، جنرال متقاعد متحجّر القلب يفتقد للحماسة السائدة وسط مرؤوسيه. وقد وصل إلى ويلينجتون تقريراً يقارن بين جيش نابليون في ١٨١٥ وبين حماسة المنتفضين في معركة فالمي في ١٧٩٢، الذين كانوا قادرين على أعمال بطوليّة. أو كما عبّر عنها الجنرال فو في مذكّراته: «لم تتميّز قواتنا بالحماسة والروح الوطنية فحسب، لا بل تميّزت بغيرة حقيقية على امبراطورها وضد أعدائه».

تألّف الجناح الأيسر من جيش نابليون من خمسة فيالق مشاة، إضافة إلى الحرس الامبراطوري، وفيالق الفرسان، وكانت فيالق المشاة بقيادة كلٍّ من ديرلون، ريل، فاندام، جيرار ولوبو. أما قادة الحرس الامبراطوري فهم فريان، موران ودويزم؛ وفيالق الفرسان بقيادة ميلهود، كيليرمان، غويو ولوفيفر؛ وأسند إلى غروشي قيادة الجيش الاحتياطي.

كان في مواجهة هذا الجيش الهائل قوة مؤلفة من جيش ويلينجتون وقوامه ٩٣٠٠٠ بريطانيٌّ، هانوفيري، هولندي، بلجيكي، برونزويكي ونوسارسي؛ وجيش بلوتشر وتعداده ١١٧٠٠٠ بروسيّ. في حين أنّ الجيش النمساوي وتعداده ٢١٠,٠٠٠ بقيادة فورتز شوارتزنبرغ، والروسي تعداده ١٥٠,٠٠٠ بقيادة باركلي دوتولي، لا يزالون بعيدين عن ساحة المعركة

الفعليّة، رغم الأهمية الكبيرة للقدرة العسكرية لقادتهم، أكثر من تعدادهم مثل ويلينجتون. وصلابة بلوتشر.

ماذا بوسع ولينجتون أن يفعل بعد أن تحرّك نابليون بقواته شمالاً؟ لا شيء، هذا إذا استطاع المرء أن يصدّق الكاهن سبنسر مادان الذي كتب من بروكسل في ١٣ حزيران؛ «في هذا اليوم اصطحب الدوق النبيل السيّدة جون لينو إلى لعبة الكريكيت وذلك لعدم وجود أيّ شيء آخر يمتّعها...».

في ليل ١٤ ـ ١٥ حزيران، تقدّم الفرنسيّون فجأة على شارلروا وباغتوا البروسيّين في معسكرهم وأُجبر بلوتشر على الإنسحاب في ليجني. وفي هذه اللحظة بالذات انشق الجنرال الفرنسيّ شوان بروموون والتحق بالبروسيّين وأطلعهم على استراتيجية نابليون. وحالما علم الامبراطور بهذه الخيانة، أمر نيْ باحتلال الطريق الرئيسي الموصل إلى كواتربرا ليمنع ويلينجتون وبلوتشر من الانضمام إلى البروسيين. غير أن نيْ عجز عن مواجهة قوة بريطانية رمزية. أما نابليون الذي كان قد تناول دواءً منوّماً لمقاومة آلام الديزنتاريا، لم يسمع بفشل نيْ إلا في صباح اليوم التالي، بينما أمضى بلوتشر ليلته في بناء دفاعاته حول ليجني. أرسل سول إلى نيّ في كواتربرا: «إنّ مطلب جلالته أن تهاجم أيَّ قوة أمامك وبعد دحرها تنضمّ إلينا لنحاصر البروسيين.

قام نيْ بهجوم جديد، في صباح ١٦ حزيران، على كواتربرا. عندئذٍ فقط أدرك ويلينجتون الأهميّة الاستراتيجيّة لتقاطع الطرق هذا، فقام بإرسال وحدات عسكرية جديدة شيّدت تحصينات دفاعية قويّة. وبينما كان نيْ يتقدم بقواته الراجلة شيئاً فشيئاً، أمر نابليون فيالق ديرلون بالتحرّك لمساندة نيْ. من ناحية ثانية، إنّ أمر نابليون المكتوب على عجل أثار ارتباكاً عندما أخطأ نيْ في

تفسيره، فقام بإبعاد قوات ديرلون عن تقاطع كواتربرا. وراحت قوات ديرلون تتنقل عبثاً بين جبهتي المعركة. الأمر الذي جعل هذه المناورة تحرم نابليون من ثالث قوة في جيشه التي لا تشارك الآن على جبهة كواتربرا ولا على ليجني حيث نابليون يهاجم بلوتشر في العمق. «سينهار الجيش البروسي إذا قاتلتم بشجاعة. ساندوا الامبراطور، إنّ مصير فرنسا بين أيديكم»، بهذا الكلام حضَّ الامبراطور قواته على الهجوم. فقوّض حماسة القوات الفرنسيّة خط دفاع بلوتشر. كان الامبراطور يراقب المعركة من طاحونة هوائية، ويتوقّع أن يهاجم نيْ خاصرة قوات بلوتشر، فقال عندئذٍ لجيرار، «من الممكن حسم الحرب خلال ساعات ثلاث. فإذا نفّذ نيْ الأوامر لن ينجو مدفع بروسي واحد». غير أن نيْ لم يظهر. ولو وصل في الوقت المناسب، لأمكن إخراج القوة العسكرية البروسية من الميدان، ولربما تغيّر معها مستقبل أوروبا أيضاً.

جرت الأمور بعكس ما تمنّى البروسيّون. فقد أصيب جواد بلوتشر وسقط فوق الجنرال العجوز. وتُرِك ينفق فوق الجنرال الذي نجا من الموت بفضل حصافة مساعده الذي غطّاه بمعطفه أثناء مرور الفرسان الفرنسيّين فأنقذ حياة الجنرال البروسي. انتهت المعركة بسقوط ١٦٠٠٠ جندي بروسي و١١٠٠٠ من جيش نابليون. وبغياب بلوتشر الذي خاله الجميع ميّتاً الآن، ناب مكانه قائد أركان جيشه الكونت أوغست فون جنيشناو. واستطاع إنقاذ فرقه بسلسلة مناورات رائعة. وقد اعتبر حنيشناو، المغفّل في نظر حلفائه الإنجليز أنه خُدع من قبل ويلينجتون. فقد وعد الدوق أن يحارب إلى جانبهم. وبناءً على الوعد أمر جنيشناو البروسيّين بالانسحاب إلى ليبج، بعيداً عن الإنجليز. غير أن بلوتشر الحديدي

لم يمت. فقد وجدوه في فناء مزرعة يفرك كدماته بفصوص الثوم ويشرب البيرة. وعندما علم بخطط جنيشناو أمرهم بنسيانها وأمر الفيالق الثلاثة بقيادة فون بولو، بيرش وزيتين بالتوجّه إلى واترلو، آخر موقع تواجد فيه ويلينجتون.

ولأن نابليون لم يكن واثقاً من النصر على بلوتشر، فقد أمر غروشي و٣٣٠٠٠ من رجاله بمطاردة البروسيّين عبر نهر الرين. فأرسل بلوتشر الماكر عدة فرق سيّئة صعبة المراس، في ذلك الإتجاه. وقع غروشي في الفخ وانطلق يطارد تلك الفلول، باتجاه الشرق. وحالما سمع ويلينجتون بهزيمة بلوتشر، أصبح من المحال عليه الدفاع عن موقعه في كواتربرا. اتضحت الخطّة الفرنسيّة. فقد أراد نابليون أن يقطع عليه طريق العودة ويضربه في الجنب. فأمر بانسحاب فوري إلى الموقع الثاني المرتفع، واتفق أن كانت تلّة صغيرة تفضي إلى سهل مونت سان جان أمام قرية واترلو. فقرّر أن يخوض معركة هناك ـ هذا إنْ استطاع المارشال البروسي أن يدعمه بفيلق واحد على الأقل.

لقد فقد نيْ جرأته القديمة، وبدلاً من ملاحقة الإنجليز المتراجعين، توقّف مع جنوده في معسكر في العراء. غضب نابليون كثيراً من ضياع هذه الفرصة، وقرّر أن يعالج الأمر بنفسه فانطلق في هجوم لا هواده فيه. عندئذٍ تدخّلت القدرة الإلهية فأرسلت عاصفة رعدية أوقفت تقدّم الفرنسيّين قبل أن يلحقوا الإنجليز، ونجا جيش ويلينجتون من الدمار. وحرّر الامبراطور قبل أن يأوي إلى الفراش رسالة إلى غروشي: «إن جلالته سيهاجم الجيش الإنجليزي الذي تمركز في واترلو. ويرغب جلالته في أن تتّجه إلى ويفر لتكون قريباً منا، وتبقى على تواصل مع عملياتنا، وأن تدفع أمامك فلول الجيش البروسي التي تسلك ذلك الإتجاه».

وصل في الساعة الثانية فجراً ردّ من غروشي يقول فيه أنّ البروسيّين قد انقسموا إلى طابورين: جماعات صغيرة يمكن أن تلتحق بويلينجتون، بينما تبقى القوات الرئيسة بإمرة بلوتشر تنسحب إلى لييج. ولسوء الحظ أنه جرى العكس تماماً. إذ بينما نام الامبراطور كانت القوّة البروسية الرئيسة تتّجه لمؤازرة ويلينجتون.

١٨ حزيران ١٨١٥ هدأت الرياح الممطرة مبشّرة بصباح مشرق. تناول نابليون الفطور مع جنرالاته في مركز قيادته في روسوم فارم، وقد كتب المارشال سول وصفاً بليغاً عن موقع ويلينجتون المنيع في مونت سان جان.

فهزأ الامبراطور قائلاً: «تعتبره الآن جنرالاً عظيماً لأنه هزمك مرّة؟ إننا نتفوّق عليه بتسع مرّات».

وكان قد أخذ معه ٧٢٠٠٠ مقاتلاً و٢٤٦ مدفعاً لمؤازرة ويلينجتون الذي بحوزته ٦٧٠٠٠ مقاتلاً و١٥٦ مدفعاً. غير أن نابليون، المدفعي العبقري، عرف بخبرته أنّ قوة الرجال الضاربة وعدد الخناجر لا يُعتدّ بهما. إنّما التعويل الأساسي على مكان تمركز المدفعية. وقد جعل من هذا الفن براعة حقيقية. وكان لتقدّم المدفعية الحديثة الدور الحاسم الذي تبوأته الحراب قبل نصف قرن مضى. وأدّت تكتيكات الامبراطور إلى سيطرة المدافع على بنادق المشاة القديمة. وكان الجنرال المفتش على سلاح المدفعية، في عهد لويس الثالث عشر، غريبوفال هو الذي طوّر ذلك السلاح. فاخترع قادمة المدفع النظامية مِمّا سمح بانتشار سريع للمدفعية المهاجمة. كانت حشوة طلقة المدفعية التي يستخدمها الفرنسيّون ومدفعية التحالف، تزن ما بين ١٤ـ ١٦ رطلاً، تتناثر نتفاً عندما

تطلق على المشاة. وكانت قذائفها كرات معدنية أو عنقودية، تطلق بإشعال فتيل في حجرة الانفجار، أو فتحة الإشعال المفتوحة في البرونز الصلب.

كان نابليون يرتدي معطفاً رمادياً، وشاحاً بنفسجياً وبنطالاً أبيض ارتدى فوقه جزمة هو صاري. ركب حصاناً رمادياً صغيراً بعض الشيء. وقد اصطفت قواته في تشكيل قتالي استعداداً لاستعراضها[1]. جنود قناصة (fantassins)، هم صاريون، جنود في سلاح الفرسان رمّاحون، فرسان مدرّعون. كلهم صاحوا بصوت واحد: «يحيا الامبراطور».

التفت الامبراطور إلى نيْ وقال: «إذا نُفِّذت تعليماتي جيداً فسوف ننام الليلة في بروكسل». وستنجح الخطة ـ إذا نفذناها في الحال!

فتدخّل الجنرال درووت، وهو مدفعي قدير، سيّدي، إنّ رطوبة الأرض ستعيق انتشار مدفعيتنا التي تجرّها الجياد. فمن الأفضل أن نؤجّل الهجوم ساعة. ولسوء حظ فرنسا اقتنع نابليون من درووت. فعاد الامبراطور، معتلّ الصحة، ليستريح في مزرعة دوكايلو حيث نام ساعتين. بأية حال فقد أراد أن ينتظر وصول احتياطيي غروشي من وافر. وكان خطأً قاتلاً، إذ أنّ مَنْ تقدّم باتجاه نابليون لم يكن غروشي، إنما بلوتشر وقواته الأفضل بقيادة الجنرال فون بولو.

رغم الأذيّة الجسديّة البالغة فقد بقي بلوتشر بكامل قواه العقلية، وأملى رسالة إلى كواتر مارشال موفلينغ يطلب فيها أن ينطلق بأقصى سرعة إلى الدوق ويلينجتون.

وافر، ١٨ حزيران ١٨١٥، ١ج١٠٢ Uh.

«سعادة الجنرال.

إني، رغم مرضي، سأنطلق على رأس جيشي لأهاجم الخاصرة اليمنى لجيش العدو في اللحظة التي يهاجم فيها نابليون جيش دوق ويلينجتون. وإذا مرّ هذا اليوم من غير أن يهاجم العدو، فأعتقد أننا سنقوم غداً، معاً، بهجوم على الجيش الفرنسيّ»(٢).

كان دوق ويلينجتون من موقعه المطلّ على طريق بروكسل يراقب، قلقاً متردّداً، قوات نابليون المصطفة باستعداد. فقد وزّع بونابرت، ذلك الثعلب المكّار، قواته بشكل ذكي. فسيقوم غروتشي بالتأكيد بمهاجمة خاصرة قوات الحلفاء المعادية. فهل سينسحب؟! القرار بالانسحاب أو بالهجوم سوف يُحَلُّ بالنسبة إليه. إذ بينما أوى نابليون إلى النوم. وصل خيّال بروسي على حصان يغطّيه الزبد، ليسلّم رسالة المارشال، ويضيف قائلاً:

«إنّ سيدك الفيلد مارشال بلوتشر يرغب بإبلاغك أنّ الجنرال فون بولو تحرّك بقوّاته منذ انبلاج النهار، تتبعها قوات بيرش. ويرغب أيضاً أن يخبرك أنّ فرسان زيثن إضافة إلى الفيلقين البروسيّين الأول والثالث سيكونان في حالة جاهزيّة للتحرك في أي وقت».

لقد انطوت الرسالة على معلومة أخرى ولم يستطع ويلينجتون أن يصدّق حظه الجيد هذا. ذلك أن الأحمق غروشي قد أخذ احتياطي قوات بونابرت واتجه بها شرقاً! فانتهى فجأة ذلك الخطر المحدق بخاصرة جيشه. الأمر الذي جعل ويلينجتون يقف ويحارب، وكل شيء يعتمد الآن على مدافعه ١٥٦ لتوقف هجوم المشاة حتى وصول المساعدة البروسية.

امتطى المارشال بلوتشر صهوة جواده وخاطب جيشه قائلاً:

«يجب أن نتقدّم، يا أبنائي، قد تعتقدون ذلك مستحيلاً، لكن

لا بدّ منه. لقد وعدت أخي ويلينجتون بذلك، ولا أظنكم تريدونني أن أحنث بوعدي[٣]».

تناول الجنود البروسيون بنادقهم، وبدأوا المسير.

* * *

في الساعة الحادية عشرة صباحاً امتطى الامبراطور صهوة جواده، وسط جنرالاته، كان شاحب الوجه واهن الجسد. تجاهل «اعتلال صحته الآني»، والتفت إلى جنرالاته الملتفّين حوله وأشار إلى الطاحونة الهوائية في مونت سان جان، وقال: «أيّها السادة، هناك عدوّكم. وهدفنا الأول تدمير مواقعه القويّة في هوغومون ولاهاي ـ سانت. ولا يسعنا دخول أي معركة فعّالة ما لم ندرك ذينك الحصنين الجانبيين». وتذكّر معارك كبيرة أخرى. فتوحات قام بها منذ زمن طويل.

«سيّدي، الفرسان جاهزون».

«لينتظروا دورهم ففي البداية سيهاجم ريل بفيالقه، يؤازرهم جيروم».

لقد درس نابليون ضباطه جيّداً. نيْ رائع في قيادة فيالق الفرسان. ربما هو سريع الاستثارة، لكنه مغامر بالتأكيد، ويقود اليوم كافة قوات الخاصرة، المشاة والفرسان. فهل سيتمكّن من قيادتها جيّداً؟

«انضمّوا إلى وحداتكم، أيّها السادة».

أعطى نابليون إشارة البدء بالمعركة في الساعة ١١,٣٠، فدوّت قذائف ١٢٠ مدفع كبير عندما انطلق الفيلق الثاني بقيادة ريل لمهاجمة قصر هوغومونت الذي تدافع عنه فرقة الحرس الثانية بقيادة الكولونيل ماكدونيل. لكن بدلاً من أن يدرك جيروم وريل

التحصينات بمدفعيتهم المتحرّكة، عمدا إلى المهاجمة بموجات متتابعة بجنود المشاة، الأمر الذي كبّدهما خسائر كبيرة في تلك الكتائب وبدون أيّة نتائج. لقد صمد هوغومونت رغم أن مشاة الفرنسيّين استطاعوا خلال المعركة من اقتحام بوابة القصر، واندفع إلى باحته تشكيل كبير من الجنود المسلّحين بغَدارات، رُدّوا على أعقابهم بمقاومة مستميتة من قبل حملة الحراب بقيادة الكابتن ويندهام والرقيب جيمس غراهام، واستطاعوا إغلاق الباب بمساعدة ثلاثة آخرين. بعدئذٍ انطلق الرقيب غراهام إلى تحصين خارجي تلتهمه النيران وذلك لإنقاذ أخيه الجريح، ثم عاد ليتابع إطلاق النار على الفرنسيّين عبر فتحات الرمي.

كان ويلينجتون يراقب المعركة من تحت شجرة دردار كبيرة تمتدّ على طول حافة مونت سان جان، ورأى أمواج المشاة الفرنسيّين تنكسر على جدران القصر بينما قذائف المدفعية تتساقط على مونت سان جان، لكنه كان قد تعلّم عدم وضع الجنود في موقع يعرضّهم لنيران المدفعية، فوضعهم في موقع خلفي لا تطاله مدفعية الفرنسيّين. ولم يدفع إلى الأمام إلا بقوّة رمزية هولندية ـ بلجيكية بقيادة الجنرال بيلاندت وهذه تعرّضت إلى هزيمة نكراء.

أثناء ذلك كانت القوات الاحتياطية ٣٣٠٠٠ بقيادة غروشي في حالة عطالة بينما قائدها يتناول فطوراً دسماً في هوليرت هاوس برفقة الجنرال جيرار، لكنهم جميعاً يسمعون أصوات الانفجارات البعيدة.

«لقد افتُتحت المعركة»، علّق غروشي مازحاً رغم تجهّم وجهه.

فألح عليه جيرار: «سيّدي الجنرال، يجب أن نتوجه فوراً إلى مدافعنا». لم يصغ إليه غروتشي إذ عليه أن يلتزم بأوامر امبراطوره، تلك الأوامر البسيطة التي لم يستطع أن يفهمها كما يجب.

فشلت فيالق سيل وجيروم في السيطرة على القصر أمام صمود قوات حرس هوغومونت. فأمر الامبراطور نيْ باحتلال مبنى لاهاي سانت. فاستطاعت قوات نيْ وبعد معركة حامية الوطيس تلاحم فيها الجيشان، أن تدخل إلى جنائن القصر، لكنّهم فشلوا في السيطرة على البناء الذي استبسل الميجور بارينغ برفقة فيلق الملك الألماني. في الدفاع عنه فشل الهجومان إذاً، وبقي ذينك الحصنان يشكّلان تهديداً جدياً للقوات المهاجمة.

وطرأ على المعركة عامل حاسم جديد، في الساعة الواحدة والنصف، فقد ظهرت في الأفق طلائع النجدات التي ينتظرها الامبراطور، فحدّق عبر منظاره ليرى قوات كثيرة تتقدّم نحو ميسرة ويلينجتون. فتنفس الصعداء ـ إنّ غروتشي يتحرّك باتجاه الخاصرة المكشوفة لقوات الدوق. ولم تطل بهجته، إذ سرعان ما أُحضِر إليه سجين ألماني، فنزل عليه الخبر كالصاعقة. لم يكن غروتشي مَنْ لاح في الأفق، لا بل قوات فون بولو البروسية القادمة لمؤازرة ويلينجتون! كان الامبراطور يعتقد أن قوات غروتشي وتعدادها ٣٣٠٠٠ ستقطع الطريق على وصول النجدة البروسية، وتحصّنه ضد المفاجآت، فأرسل إلى غروتشي يقول «إنّ بولو على وشك أن يهاجم ميمنتنا؛ لذلك انطلق فوراً كي تنضمّ إلينا وتسحق بولو، وهذان العملان ستقوم بهما في آنٍ معاً[٤]». وأمر الفرسان الخفيفة الحركة بقيادة دوبرفيي ودورمون أن يحموا ميمنته من التقدّم البطيء للقوات البروسية، وأرسل الفيلق السادس بقيادة لوبو للالتحاق بمشاته. كان الامبراطور واثقاً أنّه يمتلك القدرة والوسيلة لسحق ويلينجتون قبل أن تصله التعزيزات البروسية وتغيّر توازنات المعركة. أعاد نابليون تقييم الوضع، فرأى أن هوغومونت ولاهاي ـ سانت لا يزالان في قبضة العدو، وأنّ التعزيزات البروسية لا زالت

تتواصل وتهدّد ميمنته. فقد آن أوان مهاجمة القطاع الأوسط لويلينجتون.

«سول، أصْدِرْ الأمر للفيلق الأول لإيرلون، وقل لنيْ أن يدعمه بمساعده فرسان ميلهود».

«لكن البروسيّين، يا سيّدي...».

«اللعنة على البروسيّين، سننال من ويلينجتون قبل أن يستيطعوا الوصول إلى هنا...».

وعرف أنّه كان محقاً، فقد تقدّم البروسيّون بحذر زائد لا يؤثّر على موازين المعركة، وكانت مهمته الأساسيّة هي أن يقوّض القطاع الإنجليزي الأوسط.

لم يبارح ويلينجتون مكانه تحت شجرة الدردار. وكانت القذائف تتطاير من فوقه وتسقط في الحقول وراءه بدون أن يتأذى منها. ولم يشعر بحرارة الشمس القوية، إذ أن ذهنه كان مشغولاً بما يجري على المنحدر أمامه. تحرّكٌ جديد، فقد بزغت من دخان مدفعيّتهم الكثيف جحافل جنود مشاة، إنها فيالق ديرلون وقد دعمتها مدفعية خفيفة، وسرعان ما احتلوا مزرعة ساندبيت وبيبلوت، غير أن لاهي ـ سانت بقيت صامدة. كان ويلينجتون قلقاً فقد بدأت الفجوة بين أفواج قواته تتّسع بشكل خطير. فنادى على بايلادنت «أيها الجنرال، لا يسعك أن تنسحب؛ وإلاّ تزعزعت صفوفنا». فهم بايلاندت الوضع، لكن كيف تستطيع قوته المتواضعة أن تهزم أربعة فيالق جديدة؟

تفقّد ديرلون طابور رجاله الذي يسير على قرع الطبول. كان منظراً مهيباً، آلاف الحراب تلمع تحت الشمس. صعدت فيالقه ببطء مرتفع مونت سانت جان. أربعة فرق تتقدّم ببطء، في تشكيل كتيبة، إنها طريقة هجوم خرقاء. وكان الامبراطور، في روسوم،

يراقب، غاضباً، عبر منظاره، مجريات الأمور. شاهد أربعة وعشرين صفاً من الجنود تصعد المرتفع، عبر حقول حنطة سوّتها المدفعية بالأرض. إن هذا التشكيل الهجومي يجعل طابور الجنود عرضة لنيران مدفعية ويلينجتون. وقد فات أوان إصدار أمر لقوات ديرلون لدخول المعركة بتشكيل هجومي عريض بعمق ثلاثة صفوف على طول خطوط الفصل. لم يكن يسعه إلاّ أن يأمل ويصلّي. ولأول مرة يجد الامبراطور، أعظم جنرالات عصره، نفسه بمواجهة خصم يوازيه دهاءً، شخص اكتشف، لتوّه، ارتباك ديرلون فأعطى أوامر ستغيّر مجريات الجولة التالية في هذا الصراع اليائس.

لقد خاض الرقيب جاك معارك عدة. في النمسا، وأغرام وبوردينو، بيد أنه لم يشهد أمر هجوم مثالي كهذا. سال العرق من وجهه جراء جهد الصعود، ورأى أمامه في الأعلى الأفواه النهمة للمدفعية البريطانية. تساءل في نفسه، لماذا هي مدفعيّتهم صامتة؟ فدهمته فكرة مفاجئة تُفقِد الحس: هناك شيء ما بينهم وبين المدفعية البريطانية. ومع ذلك لم يخامره أي إحساس غير الثقة بوشوك المعركة. فالطبول تقرع والطوابير تتقدّم.

كان الجنرال ديرلون غاضباً، ولا يعرف ماذا ينتظر قواته المتقدّمة. فصاح، «أين هي تلك التعزيزات القويّة الملعونة؟» فالمشاة بدون فرسان لا يقلّ وضعها سوءاً عن الفرسان بدون مشاة. إن الفرسان هم عيونه، وعليه الآن أن يتقدّم على نحو أعمى.

بعد هذه المراقبة من موقعه في روسوم، انكبّ نابليون على خارطته، وأصدر أمراً: أرسلوا في طلب نيْ كي ينجد ديرلون.

«سيّدي، إنّ نيْ يخوض المعارك في هاي ـ سانت».

«أرسلوا إذن إلى كيليرمان.

«سأرسل الأمر فوراً»، أجابه سول. وفي الحال انطلق خيّال عبر حقل يتعرّض إلى قصف مدفعي متواصل. ولم يُبلَّغ أمر الامبراطور إلى وحدة الفرسان. وبقي كيليرمان وخيالته الـ٣٦٧٨ منتظرين، بينما تسلّقت قوات ديرلون نحو مونت سان جان. وصلت قواته إلى خط الدفاع الأول وأطاحت بالقوات الهولندية ـ البلجيكية بقيادة بايلاندت. وعندما شاهد نابليون عبر منظاره هزيمة ذلك الجيش المستنزف، بدا له أنه قد انتصر في ذلك اليوم.

كان الجنرال البريطاني بيكتون واقفاً على قمة التلة، أشبه بتمثال رب منزل، يراقب ببرود أول رتل مشاة فرنسيّ يصعد التل. فأمر مساعده: «قل لرجالنا ألاّ يتحركوا حتى أرفع قبعتي».

عندما كان الرقيب غورملين، المسلّح بغدّارته، يتقدّم كتيبته وقد أوشك أن يصل ويفر رود المغمور بالماء، رأى رجلاً على صهوة جواد يلوّح بقبعته. وقبل أن يستطيع تسديد غدارته إليه. رأى أمامه فجأة رتلَيْ جنود بقبعات حمر، وكأنهم أشباح نهضت للتوّ من القبور. وعندما أصبح الجنود على بعد أربعين خطوة منهم أطلقوا نيران بنادقهم فانهار الصف الفرنسيّ الأول وحار الجنود الفرنسيّون ماذا يفعلون، أراد بعضهم أن يتقدّم، توقف آخرون ليطلقوا النار. وآخرون ولّوا هاربين. كان غروملين قد تلقى طعنة لكن، تبارك اسم الله، لم يمت. فتلقى طعنة أخرى ولم يسقط، لكنه شعر بالدوار جرّاء الصخب والدخان، فبدأت تغيب عنه مجريات الأحداث ولم يعد يرى أمامه غير الموت ورتل جنود ينهار. فصرخ غاضباً، «يحيا الامبراطور» ورددت صيحته آلاف الحناجر التي نجت من نيران البنادق القاتلة. ولم تعد هناك حاجة لسماع أوامر الهجوم، فتسابقوا ـ فرادى ومجموعات إلى صعود المنحدر تتقدمهم حرابهم. حاول جندي بريطاني أن يهرب غير أن

غروملين انقض عليه. فنهض من بين سنابل القمح صف آخر، لكن الفرنسيّين كانوا مستعدين، هذه المرّة، فبادروا بإطلاق النار أولاً، وردّوا البريطانيين على أعقابهم، بحماس جلي. لكن في غمرة الاندفاع الحماسي ذاك تقوّضت صفوفهم الهجومية المنظمة. فتفرَّق الجنود فرادى ومجموعات واشتبكوا مع البريطانيّين جسداً لجسد، وانقضّ بعضهم على الموتى المحتضرين والجرحى. علقوا جميعاً في صراع مميت، كانوا يجأرون كحيوانات مسّها الجنون، هرب بعضهم، وعلق البعض الآخر في رحى فوضى طاحنة حتى...

حتى أوعز الجنرالان البريطانيّان باك وكيمبت، الأمر إلى فرقتيهما الرابضتين وراء التلال المطلة على ويفر رود: «ثبتوا الحراب!» عندما أصبح الفرنسيّون على مقربة منهم شهر أحد الجنرالين سيفه وأطلق أعلى صرخة في حياته: «اهجموا!» فهب الفوجان هبة رجل واحد، وانطلقوا هابطين المنحدر. لم يسمع المجنّد الغرّ جون ماك غراث، من الأحياء الفقيرة في جلاسكو، أزيز الرصاص، فقد شغله عن ذلك رؤية الشياطين الفرنسيّين مرتبكين، خائفين، فاغري الأفواه ومعقودي الألسن، فيما الآخرون من حوله يجأرون، يصرخون ويتدافعون متجنبّين الطعنات، تعثّر غراث وسقط في حفرة قذيفة، ونهض وسقط ثانية. كان الالتحام شركاً وسُحق الهجوم الفرنسيّ المهلهل. الجميع أطلقوا النار، جُرحوا، طعنوا وتعثروا، ولم يفتأ الموت ينتشر كنهر جارف. وجد الرقيب غروملين(٥) نفسه في معمعة المعركة، سقط اثنان من رجاله مخلّفين ثغرة في الرتل المهاجم، فوثب، وقد اسود وجهه من كثرة الدخان، ليسد مكانهما بجسده، بيد أنه لم يرَ سوى معاطف حمر تتجه نحوه وهي تطلق النيران. بدأت البنادق تتساقط وشهد

غروملين انهيار خطّ هجومه. تلقّى طعنة في صدره فخرّ على ركبتيه، وأحسّ بطعم الدم في فمه. «هل سأموت؟» تساءل وهو يبذل جهداً أخيراً ليلقم بندقيته طلقة، ثم تلى صلاته الأخيرة: «هدفاً. أتوسل إليك، امنحني هدفاً». في تلك اللحظة لاح له فارس على صهوة جواده، فسدد الرقيب الجريح بندقيته وضغط على الزناد ببطء. فهوى الجنرال بكتون من فوق صهوة جواده.

فرّ مَنْ تبقى من جنود ديرلون، ووجد غروملين نفسه محاطاً بجثث متعفّنة وجرحى وقتلى روت دماؤهم التربة الخصبة، ولوّنت بالأحمر سنابل القمح الموطوءة. فهذه جثة إنجليزي، وذاك فرنسيّ أصيب بجرح بليغ، وهو يلفظ كلمته الأخيرة. وهناك ملازم أول جلس أيضاً يحاول وقف نزف الدم مِمّا تبقى من ذراعه التي قطعتها شظية قنبلة.

«طاردوهم!» أمر قائد الفرسان الإنجليزي اللورد أوكسبريدج، بهدوء فزجّ بفرسان من فيلقَيْ سومرست وبونسونبي في المعركة، انطلقوا ليعترضوا طريق فلول الفرنسيّين، لكنّهم فوجئوا بمحضر فرنسيّ متقدّم، فوقعوا في شرك التهلكة. حاول أوكسبريدج الذي أدرك ذلك الخطر، أن يقنعهم بالتراجع، لكن أوامره ما كانت لتلجم جنود الفرسان البريطانيّين.

حتى هذه اللحظة لم يرَ الكولونيل مارتيج ورماة رماحه أي فعل، فصاحوا: «يحيا الامبراطور» وانطلقوا إلى جانب سكوتس غراي التابعين لوبنسونبي. بينما كان بونسوبني قد انفصل عنهم وتلاحقه الآن دزينة رماة رماح، عبر الحقل. اخترق جسده ثلاثة رماح[٦] بيد أن الفرسان الفرنسيّين لم يعرفوا مَنْ الذين قتلوه. وسرعان ما بدأ الفرسان الإنجليز يولّون الأدبار «لو استطعنا تنظيم تشكيلاً من مئة رجل، لاستطعنا الانسحاب والحفاظ على حياة

الكثيرين؛ لكننا عجزنا عن مواجهة هجومهم المضاد عندما التحم مشاتهم مع مشاتنا». لقد ذهب أمر أوكسبريدج بحياة الكثيرين من خيّالة ويلينجتون. فقد قتل ١٠٥٨ فارساً من أصل ٢٤٠٧ فارس تابعين لسومرست وبونسونبي(٧).

أصبح الزمن عامل ضغط على نابليون، فالبروسيّون يتوافدون على مدار الساعة، وليس هناك أخبار عن غروتشي. صمدت لاهاي ـ سانت أمام نيْ، لكن هذا الأخير كانت أفكاره قد بدأت تجمح نحو أهداف أعظم ـ إلى القطاع الأوسط السليم لويلينجتون. أصبح ويلينجتون أسير تصوّره، ولن يسمح لرجل آخر أن يحصد المجد الأخير. وصوّرت له أناه المتورّمة أنه الوحيد القادر على اتخاذ القرار وسيفوز به. بهذا القرار، انطلق إلى فيالق الفرسان التابعة للجنرال ميلهود. اصطفت أربعون سريّة خيّالة فرنسيّين على أهبة الاستعداد، وكان نيْ مقتنعاً أنه سيمحو أثر الإنجليز من ساحة المعركة بفعل الهجوم الساحق لفرسانه.

كان بوسع نيْ أن يُغيّر وجه التاريخ، لكن ليس بالطريقة التي أراد. فقد ارتكب، هنا، الخطأ التقليدي لأي فارس، بأن هاجم المشاة بدون مشاة تدعم فرسانه. ولطالما كانت قوته في السرعة الخاطفة لنخبة فيالق فرسانه، ليهتم الآخرون بالمشاة الداعمة. وتجاهل حقيقة أنه لم يكن يوماً قائد فرسان، إنما قائد جناح جيش كامل؛ وأنّ المشاة لن يتحركوا إلا تنفيذاً لأمره. لكنّه وهو الفارس، نسي أمر المشاة الذين لم يستطع أن يراهم. ولم يوعز بالأمر إلى كتائب ريل الإثنتي عشرة المستعدّة لمساندة هجوم الفرسان. وانحاز القدر.

«سيّدي المارشال، إنّ فيلق الفرسان الرابع مستعد».

شخص نيْ، لبرهة، بعينيه إلى السماء التي يعرف أنها لا

ترحم ولا تعذر؛ ثم نظر إلى سراياه. خمسة آلاف درع ورأس رمح تعكس أشعة الشمس، أعلام ترفرف. أعاد المارشال حساباته للمرّة الأخيرة؛ بهجوم كاسح سريع فردّ العدو من وراء مدافعه، ثم نقضي على تشكيلاته الرباعية. نعم، ستنجح الخطة. يجب أن تنجح! إنه يعرف من خبرته السابقة أنّ العامل المعنوي في هجوم ناجح للفرسان أكثر تدميراً من الخسارة التي قد يسبّبها العدو. وسيهرب الإنجليز عندما يواجهون فرسانه! ولهذا السبب لن يقسّم وحداته، بل سيهاجم على جبهة واحدة. انتصب المارشال فوق ركابه. «في البدء، التحيّة لفرنسا». تراصف خمسة آلاف فارس في وحدة صلبة، تجمعهم الروح القتالية، ثم تقدموا يصعدون المنحدر ببطء. كانت الساعة حينئذٍ الرابعة وثلاث دقائق، عصراً.

تقدّم الفرسان الفرنسيّون في أرتال تدعمهم نيران مدفعيّتهم. لكن هذه الأخيرة سرعان ما توقّفت عن إطلاق النار. وسيطر على ساحة المعركة صمت مؤقت عندما بدأت الوحدات تتحاذى على تشكيل رتل واحد على مدّ البصر. كانت وحدة ميلورت في قلب الهجوم، وتوجّه فرسانها مباشرة إلى مهاجمة البطاريات الإنجليزية. وعندما أطلقت المدفعية الإنجليزية رشقتين من القنابل المتشظية، انطلقت من فوهات المدافع العملاقة آلاف الكريات المعدنية المكوّرة. أشار نيْ بسيفه السابر إلى الأمام، إشارة للهجوم، فانطلق خمسة آلاف فارس دفعة واحدة، فمادت الأرض تحت وقع حوافر الخيل. «يحيا الامبراطور».

نظر الكولونيل كورنيليوس فرازر، قائد كتيبة في فرقة ماتيلاند، إلى طريق بروسيلز ـ شارليروي، فرأى أمامه منظراً عصيّاً على التصديق، موجة من الفولاذ، ممتدة من هوغومنت إلى لاهاي سانت، تتقدّم باتجاه موقعهم وراء ويفر رود. «سيسحقوننا»، فكّر

لنفسه فيما لم يبد وجهه أي خوف. لا وقت للخوف. «إلى تشكيلاتكم الرباعية فسرعان ما سيدخلون مجال الرمي. لكن كم رشقة سيستطيع رماته أن يحقّقوا؟ رشقتين، ثلاث؟ سيسحق المهاجمون مدافعه، بالتأكيد، قبل أية رشقة أخرى.

إنهم يتقدّمون كالبنيان المرصوص، رتلان يتّجهان مباشرة نحو كمرات النار القاتلة. تمزّقت القنبلة الدخانية أشلاءً، كبت الجياد، سقط الفرسان أرضاً، بيد أن الهجوم استمر. مع نفخة البوق، رُفع خمسة آلاف رمح فوق الجياد المتقدّمة. ودوّت رشقة مدفعية، معادية، أخرى وسقطت على الرتل المهاجم...

«لقّم!... أطلق!... لقّم!... أطلق!».

«هذه سرعتنا القصوى...».

«إخرس، لقّم واطلق، أنت هناك، إثبت...».

أحسّ جون كوتلر، الرقيب المدفعي الصارم الوجه، بإمرة الكابتن دوكليفر، أنه كبر مئة عام. رغم خبرته العسكرية الطويلة، لم يشاهد مثل هذا الهجوم الانتحاري الذي يزحف مباشرة نحو فوهات المدافع التي تلفظ نيران الموت، كلّها كانت تطلق، لكن لا شيء كان بوسعه وقف هجوم بطولي لخمسة آلاف فارس.

أدرك الجنرال ديلورت هذه المعادلة فوراً: إنّ سرعة فرسانه لن تسمح للعدو بتلقيم مدافعه من جديد؛ فرجاله مسرعين كلٌّ منهم يريد أن يشارك في سحق الجيش الإنجليزي.

حاول مدفعيو أكوتلر أن يلقّموا حشوة مضاعفة مع كل سبعين خطوة. تجمّعت الأحصنة وراكبوها على كلا الجانبين، حتى الفرسان القتلى حملتهم جيادهم فوق صهواتها ووصلت بهم إلى

موقع كوتلر الذي صرخ «الرماة، إلى التشكيلات الرباعية!» قبل أن يرمي بنفسه تحت أحد المدافع.

كان نيْ في المقدّمة، وأصيب فرسانه برشقة قذائف أخرى جندلت بعض الأحصنة والفرسان. في هذا الوقت انتظم الجنود الإنجليز في تشكيلات رباعية دفاعية. وشاهد المدفعيّين يتخلّون عن مدافعهم ويلجأون إلى تشكيلات المشاة. وصل جنوده إلى خطّ مدفعية العدو يفصلهم عشرون متر عن تشكيلاته الرباعية. حمله جواده إلى موقع المدفعيّة مباشرة، لكنّه استدار عائداً، لأنّ الجواد أصيب بطلقة بندقية. مطّ جذعه من فوق رأس الجواد وأمسك بلجام جواد سقط فارسه، ثم قفز فوق صهوته. جرى الأمر كلّه، بمنتهى السرعة، فلم تمض سوى خمس دقائق بعد امتطائهم صهوات جيادهم، وهم الآن وسط تشكيلات الإنجليز مجرّدين من مدفعيّتهم.

وعندما اقتربت موجة المهاجمين من موقع الكولونيلوس فرازر أنزل سيفه آمراً «أطلق!» فلعلع الرصاص، لكن الطلقات ارتدت عن صدور الفرسان المدرّعة كارتداد البَرَد فوق سطح. «أطلقوا على الجياد!» صاح رقيب. سقط بعض الفرسان، لكن الآخرين اندفعوا إلى الأمام ومزّقت رماحهم صدور الأعداء، بينما أحصنتهم تقفز فوق العربات و الجثث، تدور حول التشكيلات التي تشتّتَتْ. «الرتل الثاني، أطلق!» وابل رصاص جديد. بينما الصف الأول يوجّه حراب بنادقه إلى الجياد المهاجمة، كان الصف الثاني المحميّ بالرصاص يلقّم بنادقه.

لأول مرة منذ أن قاد هذا الهجوم، جلس نيْ رابط الجأش يرقب تطوّرات المعركة. لقد فقد قبعته المريّشة وهناك ثقوب في سترته التي يرتديها فوق الدرع، بيد أن كلّ هذا لا يهمّ مقارنة مع

أنّ وحداته قد تجاوزت خطّ دفاع البريطانيّين. دحروا وحدة الجنرال ألتن، وشتتوا شمل رجال مايتلاند. وسحق فرسانه المدرعون فلول العدو. لقد انقضى اليوم وسيُذكر اسمه، ميتشل ني، أمير الامبراطورية الذي صنع هذا النصر، حينما يتكلّم الرجال عن الانتصارات العسكرية المجيدة والقادة العظماء. في واترلو. لقد انشرح صدره لرؤية مدفعية ويلينجتون صامتة وسط حطام المعركة.

أصيبت شجرة الدردار العتيقة بشيء ما خلّف ثغرة دائرية في قشرتها بيد أن الدوق الحديدي لم يلاحظه. فقد استحوذ هجوم ني على كل انتباهه، وراقب بقلق متزايد تشكيلاته الإنجليزيّة، الهانوفرية، البرونسويكية والألمانية العشرين المعزولة. لقد صمدت حتى الآن لكن إذا تراجعت إحداها، ضاع كل شيء. غير أن قلقه الأكبر انصب حول فقدان مدفعيّة الذي جرّده من إمكانية صدّ أي هجوم مشاة، يدرك جيّداً أنه، لا بدّ أن يلي هجوم الفرسان. فكان خياره الوحيد أن ينسحب أو يصمد ويواجه الإبادة. وراح يراقب مزيداً من الفرسان يخترقون جبهته. لكن أين المشاة الفرنسيّون الذين سيعززون انتصار نابليون؟ متى سيوجّه الرماة الفرنسيّون المدافع الإنجليزيّة على التشكيلات الإنجليزيّة؟

تنهّد الدوق الحديدي: «آه لو كان الوقت ليلاً، أو لو وصل البروسيون...».

غير أن البروسيّين قد أُوقفوا عند بلانسينوا.

لقد انذهل الامبراطور من إطلاق النار المستمر من الجناح الأيمن. لقد شاركت مدفعية فون بولو في القصف. ولهذا لم يلاحظ هجوم ني المتهوّر في حينه. وعندما لاحظه صاح: «بسرعة

يا ني، اعمل بأقصى سرعة، إنك ستقودنا إلى كارثة».

قال له سول: «هذا الرجل لم يتغيّر، وكما حدث في JENA سيساوم جلالتكم على النصر».

«أين مشاته الداعمة؟» سأل الامبراطور، «زَجهم في المعركة، يا سول، وأرجو من الله ألا يكون قد فات الأوان».

لقد اكتظت ساحة جبل القديسة جان بفرسان نيْ الذين يدورون بجنون حول التشكيلات الإنجليزية؛ وهذه كانت على ثلاثة أنساق تتقدّمها حراب مشرّعة مثل أشواك الهشيم! والمدفعية وحدها، أو هجوم مشاة مسلّحين بالبنادق، يمكن أن يشتّت شملهم. بيد أنّ المدفعية الفرنسيّة لم يكن بوسعها إطلاق نيرانها من غير أن تؤذي فرسانها. والمدفعية الأخرى، الإنجليزيّة، في مرابضها أسيرة الفرنسيّين(٨).

لقد صمدت قوات الكولونيل فرازر. ورغم ثقته المطلقة في جنوده فقد ارتاب في حكمة الدوق وقدرته على اتخاذ موقف صلب كهذا على طول الجبهة. لقد أدرك أنه خسر المعركة عندما انقض الفرسان على مدفعيته. وبقي السؤال الوحيد: متى سيوجّه الفرنسيّون فوهات مدفعيته على جنوده؟ غريب أنهم لم يفعلوا ذلك. وبدلاً من ذلك، ضيّعوا وقتهم في مطاردة فلول جنوده. وقد صمد جنوده في وجه الأعداء، براياتهم الثلاث، راية اتحاد جاك، راية الامبراطور، راية البطولة الملونة، راية الكتيبة. وأدرك فرازر أنه إن سقط أحد هذه الخطوط الدفاعية، سيحاول نصف وحدته حماية أنفسهم كيفما اتفق. وكان تشكيله المقاتل في حركة مستمرة: ينتشر، يحتشد ويعيد تشكيل صفوفه. فعندما يطلق رتل النيران، يتراجع آخر ليلقّم بنادقه. وكان رماة الرماح الفرنسيّون يجدون مشقّة كبيرة في التعامل مع الجنود الراجلين. لقد شعر

فرازر بالصدمة وبألم حارق في ساقه، فقد نتأ عظم عبر درعه. فانتزع بندقية جندي ميّت واستخدمها عكازاً. طلقة أخرى أردت حامل الراية. فبذل جهداً مضنياً ليأخذ الراية ويرفعها عالياً ليراها الجميع. لم تهن عزيمة الجنود الإنجليز، كما أوضح فرازر فيما بعد. «لم يتصرّف الفرسان بنبالة، ولم يواجهوا من قبل مشاة صناديد كهؤلاء».

في لحظة عصيبة كهذه تظهر دائماً صفات القائد العظيم، التفت ويلينجتون إلى رود أوكسبريدج، قائد فرسانه وسأله: «ماذا لديك؟».

عندي يا سيّدي، فرسان دورنبرغ، أرينسشايلد، برونسويك، فان ميرلين وغينغي».

«كم عددهم؟».

«أربعة أو خمسة آلاف».

«ادفع بهم إلى ساحة القتال، فوراً. أسرع قبل أن يزج بونابرت بمشاته. يجب أن نستعيد مدفعيتنا، وإلا ضاع كل شيء. «تهيأ الفرسان الإنجليز للهجوم. وكان في طليعة الجيش إنسكيلينج وسكوت غراي.

لقد سمع الكولونيل هيمز، مساعد نيْ وقع حوافر الخيول القادمة ـ فرسان أوكسبريدج. التفت هيمز وحدّق فجأة بفوهات المدافع الإنجليزية الصامتة، كان لا يزال حيث تركه فرسانه. لقد نسوا في غمرة انتصارهم أمر المدافع، فلم يبذلوا جهداً لإخراجها من ساحة المعركة، ولا لإبطال فاعليتها. فإن استطاع خيّالة ويلينجتون ردّ فرسانه على أعقابهم...؟ بحث هيمز عن قائده، لكن نيْ كان مشغولاً في إصدار الأوامر إلى وحداته كي تصد هجوم الخيالة الإنجليز. فاضطر هيمز أن يتّخذ قراره، وبسرعة.

فصاح: «المسامير! سمّروا المدافع!»(*).

كان شائعاً في تلك الأيام تعطيل مدفعية العدو، مؤقتاً، وذلك بدقّ مسمار بدون رأس في فوّهة المدفع، وفي كلّ وحدة فرسان رجال اختصاصيّون في هذا المجال يحملون معهم باستمرار مطارق ومسامير، في أعدالهم. «المسامير ـ المسامير ـ اللعنة ألا يحمل أحدكم مسامير؟» وركض هيمز بيأس يتزايد، على طول خط جنوده وهو يصيح «المسامير؟».

حملة المسامير ماتوا، والأحياء ليس لديهم منها شيء. حفنة مسامير فقط كانت كافية لتعطيل تلك المدافع، ولو وجدت فما كان البروسيّون، ولا أي شيء آخر، بوسعه إنقاذ ويلينجتون في ذلك اليوم.

فيما بعد وقعت المعركة الأكثر عنفاً وبطوله في تاريخ معارك الفروسية، لم ولن يشهد التاريخ هكذا صراع طاحن وحشي بين عملاقين؛ فرسان نابليون الامبراطوريّين في مواجهة ألوية ويلينجتون. وقد أطبقت قوات سكوت غراي وإنسكيلينج على الفرسان الفرنسيّين قبل أن يستطيعوا استعادة زخمهم. وكانت هذه الوحدات قد أحرزت شهرة تستحقها خلال حرب البنينسيولا. انقضّ الإنجليز على الفرنسيّين في معركة طاحنة ردّدت فيها الجبهتان قعقعة الفولاذ على الفولاذ. شارك في هذه المعركة هوصار أرينسشايلد، فرسان ديلورت، رماة الرماح السود بقيادة برونسويك، والرماة الحمر بقيادة ستويرز، وفرسان دويرنبرج. عولت عاصفة من حولهم، كأنّ الأرض كلّها هبّت تصرخ بهم

(*) يسمر المدفع: يعطل المدفع القديم تعطيلاً مؤقتاً بإقحام مسمار ضخم في فوّهته.

بغضب وصل إلى مركز الأرض. وسرعان ما غطّت جثث الفرسان والجياد ساحة المعركة، انهارت التشكيلات القتاليّة وخيضت المعركة برجل لرجل.

كتب الملازم أول هاميلتون من سلاح سكوت غراي: «وضع أحد رماة الرماح الحمر رمحه على رأس جوادي، ضربته بسيفي وأنا أمرّ بقربه فجرحته، وربما أنقذت حياتي بذلك، لكنني خفت أن يطلق عليّ النار من غدارته، فقد كان الرماة الحمر يفعلون ذلك كما سمعت(٩)».

تناول الفارس باسكال لومونيير غدارته وأطلق النار على وجه فارس مرّ بقربه. حاول رمّاح أحمر، آخر، أن يطعنه برمحه، فعالجه باسكال بسيفه وأسقطه عن صهوة جواده، ، لكنه تلقى عندئذٍ ضربة قوية على خوذته، جعلته يتأرجح على صهوة جواده ثم يسقط ببطء ويتدحرج على الأرض ويفقد تركيزه بسبب ألم حارق، لكنّه صحا في الوقت المناسب، ليرى حصان مهاجمه واقفاً على قائمتيه الخلفيتين يصهل، قبل أن يهوى عليه بحوافره الفولاذية.

كانت معركة الفرسان قصيرة وعنيفة جداً، وبينما أُرهق الفرسان الفرنسيّون من صعود المرتفع وصل الإنجليز بكامل حيويّتهم. وراح نيْ يحاول رد فلول جيشه أعلى وأسفل المنحدر، وبينما جُندلت الجياد من تحته بقي هو حياً. لكن جهده باء بالفشل؛ ذلك أن فرسانه نازلوا أندادهم وانهزم الفارس الفرنسيّ الذي كان عصيّاً على الهزيمة ذات يوم بدأ المشاة الإنجليز بالتوافد إلى الميدان واستطاعوا بحرابهم طرد بقية الفرسان من ساحة القتال. وعانى نيْ من كرب المسؤولية؛ فبدلاً من أن يقود الفرسان بدعم من المشاة، تناسى أمر القوات الأكثر أهمّية لدى الامبراطور - ولم ينجح في إسكات مدفعية ويلينجتون.

كما يجري غالباً بعد لحظة الهياج القصوى في المعركة، فترت همّه الفرسان الإنجليز وهم يعيدون تجميع أنفسهم. وبدلاً من التورط في مطاردة فلول الفرنسيّين، وتعريض أنفسهم إلى نيران المدفعية الفرنسيّة استجابوا لصوت البوق الذي دعاهم إلى التجمّع وراء خط مدفعيّتهم، بينما انطلق المدفعيّون إلى اتخاذ مراكزهم وراء مدافعهم.

ثم حدث المتوقّع، فدوّى صوت المدافع، وصفير القذائف، وأصابت أول قذيفة فلول الفرسان الفرنسيّين المنسحبين. وتكرّر المشهد نفسه على طول الجبهة. وراحت المدافع الإنجليزية الواحد بعد الآخر تلفظ الموت لهباً أصفر وكرات حديدية تسقط على الفرسان الهاربين. ولم يجد نابليون مناصاً من مراقبة فلول فرسانه يمزّقهم وابل نيران المدافع[١٠].

بينما راقب الدوق الحديدي ولورد أوكسبريدج بارتياح كبير نجاح هجوم الفرسان الإنجليز. دوّى صوت المدفعية الفرنسيّة من جديد، لتغطية انسحاب نيْ. وهنا حدث أمر تحوّل إلى أشهر نوادر التاريخ العسكري. إذ عندما أصابت قذيفة مدفع ساق لورد أوكسبريدج، قيل إنه صاح: «والله، يا سيّدي، فقدت ساقي».

فقال له ويلينجتون: «والله أصدِّقك، يا سيّدي».

عندما رأى نابليون هزيمة نيْ أمر: «اجلبوا مشاة ديرلون فوراً».

«لا يزالون يعيدون تشكيل أنفسهم، يا سيّدي».

«فلاهوت، إركب إلى كيلرمان، وأبلغه أن يدعم نيْ بكل ما لديه».

كان عليه أن يدرك، وهو يصدر أوامره، أنّه قد فات الأوان.

لكن لم يكن بوسعه أن يتخلّى عن نيْ يخاطر بنوبة هلع عامة وسط قواته على خط النار. وبيما اتجه كيلرمان إلى مساندة نيْ، كان هذا الأخير يتّجه مسرعاً حيث كان ديرلون يعيد تجميع فيالقه. «صديقي ديرلون أسرع، لأننا إن متنا هنا، فسنموت بقذائف اللاجئين...»
لقد نطق نيْ بنبوءة[١١].

عمّت الفوضى وأخذ قادة الفرسان على عاتقهم تكرار حماقة نيْ ودفعوا بفرسانهم إلى التهلكة. في البدء هاجمت فرقة هيريتيبر الأولى، تلتها فرقة روسل ثم فرقتا غويوت ليفيبفر، كلها هاجمت بدون خطط أو أوامر محدّدة. واحتشد عشرة آلاف فارس في خط جبهة طوله أقل من خمسمائة متراً، واكتظت ساحة المعركة بحيث أصبح محالاً تنفيذ أي مناورة. ولم يستطيعوا أكثر من تقديم أنفسهم هدفاً مثالياً لنيران المدفعية، خصوصاً أنّ كلّ مدافع ويلينجتون أعيدت الآن إلى العمل، وراحت تصبّ عليهم النار والموت! ولاقى هجوم الفرسان الثاني مصيراً مشابهاً لمصير سابقه. الآن فقط شاركت كلّ المدافع المئة وست وخمسين بقصف غزير على خط الجبهة الفاصل. كانت مجزرة مروّعة.

انضم فيلق الفرسان الثاني التابع لبلوتشر، لكن بقيادة زيثن بشاربيه المتدليَيْن فوق شفتيه، على حصانه الرمادي الذيل، إلى فيلق بولو. هاجمت قوات الفيلد مارشال حرس نابليون الجديد وسرعان ما سلبوه قرية بلانسنوا. لكن نابليون دفع بكتيبة واحدة من حرسه القديم، فتغلغلت بين القوات البروسية مثل سفن حربية بين قوارب صيد، فاضطر البروسيون إلى التوقف.

اتخذت المعركة منحى آخر مع توقّف القوات البروسيّة. استطاعت قوات نيْ الراجلة، أخيراً، الاستيلاء على المنازل في

لاهاي سانت؛ وهذا ما أجبر القطاع الإنجليزي الأوسط على الاستسلام. وقام ني، بعد ما تجاوز كارثة هجوم فرسانه، بدفع مشاته على طول طريق بروكسل. وهذه هي الخطة الأفضل، طرّاً، لتطويق قوات العدو؛ وكان بمقدور عدة كتائب إضافية أن تحرز النصر. لو سحب نابليون الآن قوة رمزية من الحرس الامبراطوري لدعم هجومه لاستطاع في تحويل اختراقه إلى طريق للعدو. تذكر قول نابليون: «يتوقّف مصير المعركة على لحظة واحدة، فكرة واحدة... تحين اللحظة، وأدنى قوة احتياطية تحسم المعركة». ولهذا السبب يسحب نيْ قواته التي تدعم كولونيل هيمن، ويدفع بها إلى الامبراطور H.Q.

صرخ الامبراطور، وهو لا يزال غاضباً من كارثة الفرسان التي تسبب بها نيْ، «مشاة! من أين تريدني أن أجلبها لك؟ أتظنني أصنّع مشاة؟» يحارب الامبراطور الآن على جبهتين وقد زجّ بمعظم احتياطيه بمواجهة البروسيّين ذوي المعاطف السود بقيادة بلوتشر. مع ذلك بقي لديه كتائب النخبة الأربعة عشرة، ثماني من الحرس القديم، وست من الحرس المتوسّط. لو تصرّف بيرثيير كقائد حقيقي لوجد، بسرعة، الفرصة السانحة ليضرب ضربته، ويقنع امبراطوره. غير أن سول ليس بيرثيير. وربما كان نابليون غاضباً، تعباً أو مريضاً، بأية حال، لم يفعل شيئاً، وترك فرصته الأخيرة تفلت منه.

تلك كانت لحظة ظهور در ألت بلوتشر وجيشه! «VORWARTS MEINE KINDER» إذ تعاقبت موجات القبعات السود التي اجتاحت بلاسينوا وبدأت تتقدّم باتجاه خاصرة نابليون المكشوفة عند لابيل اليانس. أصدر زيثن أمره إلى قائد جيشه، الكولونيل فون بريتش، لينضمّ مع فرسانه إلى القطاع الإنجليزي الأوسط.

كان نابليون قد أدرك في هذا الوقت حماقة رفضه دعم نيْ بمزيد من المشاة. لكنه بقي معتقداً أنّ بوسعه أن يسحق قطاع الإنجليز الأوسط، الذي تضعضع بشدّة كما حصل لجيشه هو. فقرّر بناءً عليه، أن يراهن بكل ما لديه الآن، بحرسه القديم المحترف والمدلل. فأصدر أمره: «دوروا، اطلب من فريان أن يأخذ خمس كتائب من رماة القنابل ويصعد إلى هناك» وأشار إلى طاحونة مغلقة على جبل سانت جين. رافقت الفرسان فرقة موسيقية تعزف نشيد الفرسان، وأحضر ٦٠٠٠ رام إلى لابيل أليانس ووقف بين يدي نابليون الذي، رغم تلوّيه من الألم، امتطى جواده وقادهم إلى المارشال نيْ في لاهاي سانت. «إليك المشاة أيها المارشال. فاحتل تلك التلة الملعونة».

فات أوان ما نريد، إنّ العدد ضئيل. شكّل فريقان هذه القوة للهجوم. كان منظرهم ساحراً بمعاطفهم الزرقاء الطويلة، كتافيات كبيرة بكشكش أحمر يرفرف في الأعالي، فوق فراء الدببة. وفي جراباتهم يحملون البزة الرسمية الاحتمالية لنصرهم في بروكسل.

«إلى المعركة، انطلقوا!» فتقدمت خمس كتائب رماة بمفردها لمواجهة الجيش الإنجليزي.

في تلك اللحظة انشق أحد ضباط نابليون وأفشى خطط هجوم الامبراطور إلى ويلينجتون الذي لم يتبق لديه الكثير من الجنود. فقد أبيدت معظم كتائبه وما تبقى منه لم يعد ذا فائدة. عندئذٍ، وعلى جناح السرعة، شكّل كتائب من الجرحى وفلول الجيش وأشرك آخر احتياطييه وأقام خطاً دفاعياً جديداً على جبل سانت جين.

في الساعة ١٩,٣٠ وصلت غزارة المدفعية الفرنسيّة أقصاها فمادت الأرض من تحت الطرفين. وهذه المرّة لم تُصَوّب نحو الأعلى، فكان ويلينجتون يرى قذائفها وهي تصيب قطاعه الأوسط،

حيث وضع حرس مايتلاند وألوية آدم الخفيفة. وسرعان ما حجبت كثافة دخان مدفعيته، خطوط دفاعه.

شاهد الكابتن باول، من الحرس الأول الراجل، رجاله يمزّقهم وابل القذائف المتساقطة عليهم. الشظايا تفغر الأرض، تحصد الأوصال، تفتح ثغرات كبيرة في تشكيل رماته، شرّدت أحصنة المدفعية، وأحصنة بلا فرسانها تجوب الحقول، أجساد مبعثرة كدمى محطّمة. وكان دوي القذائف يبتلع صراخ الجرحى. وجدت بعض الوحدات ملاذاً آمناً وراء جدار صغير على طريق ريفي، بيد أنّ غالبيّتهم وقعوا وراء أكوام تراب خلّفتها قذائف المدفعية، أو، ببساطة، احتشدوا وراء جثث رفاقهم وكان دويّ المدافع على درجة من القوة هدهدت رجال باول في نوم أبدي آمن مخادع. فتشبثوا بالأرض بأصابعهم بانتظار المصير المحتوم. كيف سيستطيع رجال صدمهم دوي القنابل، أن يصدّوا هجوماً إذا عجزوا عن تلقيم بنادقهم؟ ولا خيار أمام باول؛ فهو لا يستطيع أن يسحبهم. فالأوامر صدرت من الدوق نفسه: «اصمد حتى الرجل الأخير، إذا لزم الأمر، فمهما يكن، عليك تمرير الزمن حتى يصل البروسيّون». وفجأة توقّف دويّ المدافع كما بدأ. انقشع الدخان، وأطل خط الجنود الإنجليز، على منظر يرهب القلوب. إنه كتائب الحرس الامبراطوري تتقدم بطريقة عسكرية مثالية.

رفاقهم كلّهم خارج الجبهة، فريان بوريت دومورفان، هارلت، ميتشل، ماليت، هينريون كان يقودهم نيْ، الذي طرحه جواده أرضاً بعد أن أصيبت قوائمه. نهض نيْ بمساعدة فارسين وتابع تقدّمه سيراً على قدميه، شاهراً سيفه. تقدّم رماة القنابل بخطوات بطيئة راسخة، وعلى وجوههم سيماء عناد لا يُقهر. في مواجهتهم على الجبهة الأخرى فوهات المدافع الإنجليزيّة وقد

أزهرت ورود حمر مميتة. لفظت المدافع، التي فشل فرسان ني في تسميرها، قذائف تشظّت إلى آلاف من الكرات المعدنية القاتلة. وبدأت الثغرات تكثر في صف الجنود المهاجمين، غير أنهم تابعوا تقدّمهم على وقع الطبول. «تراصّوا! تراصّوا» صاح قادتهم. فتراصّ الجنود وتابعوا سيرهم بسرعة مضاعفة، الآن، بعد أن تسارع قرع الطبول. وسرعان ما وصلوا إلى قمة التل، بمواجهة المدافع الإنجليزيّة التي تلفظ النار.

لقد تقدم الجنرال البلجيكي تشيسي إلى الأمام بست مدافع من احتياطي مدفعية فان دير سميثين الهولندي وأسند سبطاناتها على التخوم المشرفة على ويفرود، صامتة منتظرة.

كان الفوج الثالث والثلاثون، التابع للجنرال كولن هالكيت يتراجع، فعمد الكولونيل إلى رفع علم الفوج عالياً علّه يستطيع جمع رجاله حوله. لكنه سرعان ما سقط، وحجبه دخان قذائف مدفعية الكولونيل سيرجون كولبورت التي كانت لهم بالمرصاد. وقام الكولونيل كولبورن، ذلك الأرستقراطي الطويل. الذي تدرّب في ملاعب إيتون، وقد أطلق عليه رجاله لقب «آكل النيران»، بقيادة كتيبة مشاته الخفيفة في تشكيل مماثل لصفوف الفرنسيّين[(١٢)].

وصلت الكتيبتان الأولى والثانية من فوج الفرسان الثالث، إلى قمة التل، فارتفع فجأة، عند خاصرتهما جدار من ذوي البزّات الحمر وأطلقوا عليهم نيران بنادقهم، فرفع ثلاثمائة قناص بنادقهم عالياً وخرّوا أرضاً.

كان الكابتن باول من الحرس الامبراطوري الأول يتقدّم مباشرة في الاتجاه المعاكس لتقدّم الرتل الفرنسيّ، وشاهد ما حدث. لقد صعدوا المرتفع وهم يصيحون «يحيا الامبراطور».

وتابعوا تقدّمهم حتى أصبحوا على مسافة خمسين خطوة من جبهتنا، عندما أُمرت الفرقة بالنهوض. وسواء كانت صدمة الظهور المفاجىء لذلك الجيش بقربهم، وقد بدا كأنه نبت فجأة من الأرض، أو بسبب غزارة النيران التي أمطروهم بها، فقد أسقط في يد الحرس الامبراطوري الذي ما فشل من قبل قط في أي هجوم[١٣].

هبَّ رجال كولبورن، اقتحموا الدخان، وغابوا عن النظر لبرهة قصيرة، ثم وجدوا أنفسهم فجأة على بعد خمسين خطوة من خاصرة المهاجمين الفرنسيّين، كان الملازم أول جاولر مسؤولاً عن قيادة السريّة، فاستطاع أن يرى الحرس يتوقّف، قبل أن يسمع الأمر الحاد يصدر عن قائدهم.

«نصف الكتيبة استدر إلى اليسار... سدّد!... أطلق...»[*] استدار الحرس كرجل واحد وأطلقوا النار، فمزقّت صليَتهم تلك الصف الأول من جنود جاولر. دمدم أحد جنوده المتمرّسين، وهو يعضّ بأسنانه على الخرطوشة ليلقّم بندقيّته من جديد: «هيا يا أولاد، النصر الآن لمن يقتل أكبر عدد...».

عرف الكولونيل كولبورن أنّه لن يستطيع أن ينجو من الصلية الثانية المميتة. وضع قبّعته على رأس سيفه ورفعها عالياً وصاح: «انهضوا يا رجال! انهضوا واهجموا عليهم!» وانطلق أمام جنوده متّجهاً مباشرة إلى وسط الكتيبة المعادية الأقرب إليه. سمع طقطقة مغاليق البنادق التي فرغ الرماة من تلقيمها. دوّت في أذنية صلية أخرى. تداعى خط هجومه وسقط رجال كالمطاط الرخو.

(*) بالفرنسيّة في الأصل.

تعثّر الملازم أول جاولر، واصطبغت سترته بدم جندي غرٍّ فقد نصف وجهه. تردّد الملازم لبرهة، فكّر بالشاب الغرّ الذي تعمّد، أن يتلقّى الإصابة بدلاً منه... لا بدّ أن يكون في السماء مشكاة خاصة لجندي غرٍّ... صلية أخرى مزقّت في صفوفه.

حدث الآن شيء أنقذ الكتيبة الثانية والخمسين من الإبادة المحقّقة. فبسبب هجوم الكتيبة الثانية والخمسين على خاصرتهم المكشوفة، وبسبب انشغال نصفهم في الميسرة لمواجهة الهجوم البريطاني، فقد وضعت الكتيبة الفرنسيّة في الزاوية المنحرفة بالنسبة للمدفعية الهولندية بقيادة الجنرال تشيسي. ومن أعلى التلة انطلق هدير يشبه تصدّع الأرض، ذلك أنّ مدافع الجنرال تشيسي، الست، أطلقت من على بعد مئتي خطوة رشقة جيّدة التصويب حصدت صفوف الرماة وبعثرتهم كقوارير خشبيّة متطايرة. غير أنهم بقوا مخلصين لشعارهم: «الحرس لا يستسلم أبداً».

صاح كولبورن، «الكتيبة الثانية والخمسين، اتبعوني!» ورفع الراية. كان الملازم جاولر لا يزال حيّاً، رغم أن طلقة بندقية طوّحت خوذته عن رأسه. مشى الخطوات الأخيرة كمسرنم ينقاد لنداء داخلي: من أجل الملك والوطن! كلّ شيء أمامه كان يتحرّك ببطء. عيناه يغشاهما دخان أبيض، رجال يسقطون وآخرون يحلّون مكانهم... دوّت صلية نار أخرى... مدفعيّتنا؟ مدفعيّتهم؟ ويخرج من وسط الدخان مزيد من الرجال... ينخرون، يعولون ثم يطلقون صرخة أخيرة مروّعة. قُذفت حربة باتجاه وجه جاولر، صدّها بسيفه فانحرفت وأصابت صدره. أقعى خدراً، وشعر بالدم ينزف من صدره، لكنه نهض ثانية وتابع تقدّمه... من أجل الملك والوطن!... رأى أحد أفراد الحرس الامبراطوري وقد انطوى على نفسه بعد إصابته بقذيفة وثيابه قد تمزّقت على جسده...

صاح الكولونيل كولبورن، «الكتيبة الثانية والخمسون، إتبعوني!».

«نحن الكتيبة الواحدة والسبعون، يا سيّدي!».

«لا بأس اهجموا، لن يستطيعوا الصمود...» فوثبَ رجال الحرس البريطاني للانقضاض على أعدائهم. «لا هوادة! لا هوادة!».

كانت صدمة الفرنسيّين كبيرة، كلّ قادتهم قد ماتوا، وانهارت صفوفهم... وجد نيّ جواداً آخر، امتطاه وحاول، لآخرة مرة، أن يجمع حوله رجاله المبعثرين، فصاح «معي يا أصدقائي»، أو شاهدوا جنرالاً فرنسيّاً يموت بشرف، لكنّه لم يمت في ذلك اليوم، ونفقت خمسة جياد من تحته.

وصل زيثن على رأس فيلق الفرسان البروسي الثاني في الوقت المناسب، وحسم المعركة لصالحه. وعجز نيْ عن وقف المحتوم، وحدث ما لا يُصدّق. لقد تراجع الحرس الامبراطوري!

وسرى وسط الجيش الفرنسيّ عويل يهدر كموجة، «في الأمر خيانة، اهربوا!» وقف نابليون يتفرّج كيف تحوّلت المعركة إلى كابوس. إذ كان جيشه المتغطرس يتمزّق الآن، يتحوّل إلى مجموعة أجساد عاجزة ممزّقة الثياب، مسوّدة الوجوه، أما راياتهم الامبراطورية فلم تعد مرفوعة عالياً، بل يتعكّز عليها الجرحى. وعلى القمة البعيدة، قرب شجرة دردار رأى شخصاً وحيداً، ثم جنود العدو يسدّدون بنادقهم ويطلقون عليه...

ولأوّل مرة منذ بدء المعركة يقود ويلينجتون جواده إلى حافة المرتفع. وعلى مرأى من الجميع، نزع قبعته ببطء وأشار بها صوب الفرنسيّين. نهض جنوده لدى رؤيتهم تلك الإشارة أربعون ألف رجل متعدّدي الجنسيات، كان نابليون قد وصفهم ساخراً

«رعاع متعدّدو اللغات»، بقيادة فيفيان على رأس الهوصوريّين وفاندليير على رأس سلاح الفرسان هبطوا سفح التل الملطّخ بالدماء.

أمر نابليون آخر ست كتائب لديه أن تستعدّ للمعركة، غير أن قَدَرَهُ كان قد أُقرَّ. توزّعت كتيبة الرماة الأولى، من الحرس الامبراطوري، نخبة النخبة، في ثلاث مجموعات رباعية حول الامبراطور. أمر ويلينجتون إحضار المدافع، التي بقيت قرابة ساعة بين أيدي الفرنسيّين وهذا قد يبدو لنابليون عصياً على التصديق. ووضعت المدافع على بعد ستين ياردة من المجموعات الفرنسيّة.

خيّم صمت كئيب... أبونا الذي في السموات...... MON DIEU... LIEBER GOTT انضمّ البريطانيون والهانوفيريّون، البلجيكيون والهولنديون تحت قيادة بلوتشر البروسي، وحاصروا ما تبقى من امبراطورية نابليون. لن يستسلم الحرس الامبراطوري القديم المهيب، سيفون بوعدهم لامبراطورهم، حتى آخر نفس.

الموت دون الاستسلام، ذلك هو شعار الحرس. طلب ويلينجتون من الجنرال كامبرون أن يستسلم، لكن قائد الحرس الامبراطوري هذا سار بجواده إلى وسط تشكيل الكتيبة الأولى، وردّ على ويلينجتون ببطولة وحشية: «خراء!»(١٤). حدّق رماته بنظرة تحدٍ، أخيرة، إلى المدافع البريطانية الفاغرة الأفواه. كانوا يدركون ما سيحدث عندما يُنزل ويلينجتون قبعته. سيتلاشون وسط الدخان والرعد...

انتهت واترلو. لفّها الظلام، بينما عزفت الفرقة البريطانية «الله يحمي الملك»، وعزفت الفرقة البروسية «LIEBER GOTT WIR LOBEN DICH». والتقى الفيلد مارشال العجوز مع الدوق الحديدي. انحنى بلوتشر من فوق جواده وعانق ويلينجتون.

قال لهم بهدوء: «MEIN KAMERAD, QUELLE AFFAIRE»[١٥].

غطّت ساحة المعركة جثث سبعة آلاف بروسي، خمسة عشر ألف إنجليزي وخمسة وعشرون ألف فرنسيّ. وربما كان قول ويلينجتون أفصح وصف لهذه المعركة: «لا حزن سوى خسارة المعركة يوازي حزن ربحها»[*].

ماذا لو...

ماذا لو - قُتِل بلوتر عندما سقط عن جواده في لينجي، ونفّذ جنيشناو خطّته وسُحب الجيش البروسي باتجاه لييج؟

لولا الدعم البروسي، لكان سُحِقَ ويلينجتون.

ماذا لو - عمل غروتشي وفق تقارير جنود استطلاعه بدلاً من مطاردة الفرقتين، الطعم، أو لو استمع إلى جيرار واتجه إلى حيث سُمع دويُّ المدافع؟

لكان أوقف تقدّم البروسيّين ومنعهم من الوصول إلى ويلينجتون ودعمه[١٦]

ماذا لو - استطاع فرسان ديلروت إيجاد حفنة مسامير ونجحوا في إبطال فاعلية مدافع ويلينجتون؟

كانت أُخرجت المدفعية الإنجليزيّة من المعركة، وما كان لا البروسيّين، ولا أيّ شيء آخر، ليستطيع إنقاذ ويلينجتون في ذلك اليوم.

ماذا لو - انتصر نابليون في واترلو؟ كان سيخسر في يوم آخر.

(*) أراد ويلينجتون أن يقول أن لا رابح في الحرب. المترجم.

الحقائق:

رغم أنّ واترلو هي المعركة الوحيدة الحاسمة في تاريخ الحروب النابليونيّة لكنّها لم تفضِ إلى تغييرات حاسمة.

لقد رسّخ الإنجليز في ١٨٠٥ تفوّقهم البحري الحاسم بفوزهم بمعركة ترافلغار (الطرف الأغَر)، ومنذئذٍ أضحت إنجلترا سيّدة بحار العالم. وأصبح الشعار البريطاني الحاكم المطلق خلال المئتي سنة اللاحقتين.

انهارت الامبراطورية الرومانيّة المقدّسة بعد عظمة دامت ٨٠٠ عام عندما تخلّى الامبراطور فرانسيس الثاني عن عرش النمسا العام ١٨٠٦. وحلّت مكانه كونفيدرالية ألمانية مهلهلة مؤلفة من أربعين ولاية ملكيّة كلّها خاضعة لوصاية بروسيا، القوة العسكرية التي بزغت حديثاً.

حطّم نابليون آخر أثر للاقطاعية الأوروبيّة في JENA AND AUERSTADT ومنذئذٍ وُلِدَ ما يعرف اليوم بالقوميّة الأوروبية، التي دمّرته بعد سبع سنوات، في ١٨١٣، خلال معركة القوميّات في ليبزيغ.

كانت واترلو الختم الذي مهر سقوط نابليون.

دمّرت الثورة الفرنسيّة العالم القديم. فبنى نابليون عالماً جديداً. وسواء أعجبنا الأمر أم لا فإنّ عصرنا الجديد يبدأ منه. فعندما يعمُرُ العمل الرائع طويلاً، يحمل في طياته مسوّغات وجوده...

إنّ العامل الحاسم في واترلو جِدُّ مضحك. حفنة مسامير مقطوعة الرؤوس وبضع مطارق كانت غيّرت مسار المعركة.

(١) لم يكن هذا مجرّد عرض، إنما استعراض قوّة لإخافة العدو.
(٢) (٣) باللغة الفرنسيّة.
(٤) قد يبدو الأمر عصياً على التصديق، ذلك أن غروتشي عندما رأى، أخيراً، القوات البروسية تقطع طريقه وتتقدّم نحو مونت سانت جان، لم يقم بأي شيء لإعاقة تقدّمهم.
(٥) نجا غروملين من تلك المعركة، وكتب عنها بعد عشر سنوات.
(٦) تكمن سخرية القدر هنا أنه قُتل لأنه اعتبر حصانه الأفضل أكثر قيمة من المعركة، فتركه وراءه ولم يمتطه إلى المعركة.
(٧) هوسلر.
(٨) لقد قيل إنّ الفارس لا يترجّل عن حصانه إلا إذا سقط ميتاً. وربما هذا التفسير المعقول لعدم استخدام الفرسان الفرنسيّون للمدفعيّة الإنجليزيّة التي أسروها.
(٩) الملازم أول هاميلتون من سلاح سكوت غراي (هـ.ت. سيبورن).
(١٠) ربما استطاع الفرسان مهاجمتنا ست أو سبع مرات تحت تغطية المدفعيّة، وحشرونا في الزاوية تحت مدافعنا. وصلت سرية أو اثنتين إلى حافة المنحدر، عند خط جبهتنا، لكنّهم تراجعوا عندما شاهدوا فرساننا يهجمون. فاغتنمنا الفرصة وأطلقنا خلفهم الدمار. / رودیارد/ ضابط في مدفعيّة ليود.
(١١) أُعدم نيْ في ديسمبر ١٨١٥.
(١٢) كان مشاته البالغ عددهم / ٥٢/ يواجهون ٢٥٠ رجلاً ومن خلفهم ثلاثة صفوف، أي يواجهون قوة ١٠٠٠ بندقية تطلق عليهم عن بُعد ٥٠ ياردة. كانت تدعمهم الكتيبة التاسعة والخمسون.
(١٣) من تقرير الكابتن باول إلى الميجور جنرال سيبورن.
(١٤) يطلق على هذا التعبير في العامية الفرنسيّة كلمة كامبرون.
(١٥) بعد نهاية المعركة كتب المارشال بلوتشر رسالتين: واحدة إلى زوجته، والثانية وصيّة إلى ملكه: «أطلب من سيادتكم ألا تدع الدبلوماسيين يضيّعون هذه المرّة، ما حققه الجنود بدمائهم».
(١٦) كتب نابليون في مذكّراته: «إنّ المارشال غروتشي، ورجاله الـ٣٤٠٠٠ ومدافعه الـ١٠٨، قد اكتشف سراً يبدو مستحيلاً، ألا وهو عدم تواجده في ساحة المعركة في جبل سانت جان ولا في ويفر رود». كان دفاع غروتشي: «إنّ القائد العام في الحرب هو فقط من يأتيه الوحي، وعلى ضباطه تنفيذ الأوامر فقط».

الفصل السادس

الأمر الرابع بلاكلافا ٢٥ أوكتوبر ١٨٥٤

ليس من شأنهم أن يجيبوا،
ليس من شأنهم أن يفسّروا
من شأنهم أن يقاتلوا ويموتوا،
إلى وادي الموت نزل الجنود الستمئة.

ألفرد ـ لورد تنيسون، ١٨٠٩ ـ ١٨٩٢

يوم خريفي رائع، ومن على قمّة الجبل يبدو الوادي الجنوبي الفسيح يستحمّ بأشعّة الشمس. تشكيلان من الفرسان أحدهما بمواجهة الآخر؛ التشكيل الرّوسي الضخم ببزّاته الرّمادية، واللواء البريطاني الثقيل، بقيادة الجنرال سكارليت، يبدو صغيراً ببزاته الحمراء. كان الاشتباك وشيكاً. وفجأة قامت الوحدة الحمراء الصغيرة، على غير المتوقّع، بصعود الجبل وبدأت الهجوم!

على بعد ٥٠٠ متر من خاصرة الفرسان الروس، المكشوفة، جلس لواء الفرسان الخفيف ساكناً يلعن ويشتم. ذلك أنّ اللورد لو كان أرسل، قبل بضعة أيام، برقيّة مفادها: «إن المهمّة الرئيسة للألوية الخفيفة هي تأمين حماية الجيش من كلّ المفاجآت. ولا

يحقّ لهم الاشتباك مع العدو أو مطاردته بأيّة حال من الأحوال، إلا وفق أوامر محدّدة».

ولهذا السبب فإنّ اللورد كارديجان، قائد اللواء الخفيف، بقي في مكانه ولم يحرّك ساكناً. ولم يخطر له قطُّ أن يبادر ويتصرّف من تلقاء ذاته. هكذا جلس هو ورجاله السّتمائة في وضع حرج، يراقبون الجنرال سكارليت، بشاربيه البيض، شاهراً سيفه متقدّماً وحدته الثقيلة في هجوم انتحاري على خمسة آلاف حارس روسي.

كانت السّاعة الحادية عشرة صباحاً.

إذا تأمّلنا في أحداث حرب الكريميان ١٨٥٤، يمكننا القول أنّ غباء القادة يتزايد طرداً مع علوّ رتبهم. وكانت قيادة وحدات النّخبة في الفرسان البريطانيّين مشروطة بامتلاك مؤهّلَيْن: اللقب والمال. قائد الفرسان لو كان يفتقر إلى الذّكاء والخبرة. وبلغ غباؤه ذروته عندما عيّن صهره اللورد كارديجان تحت إمرته المباشرة. فكلاهما يكره الآخر، ويتّفقان فقط في غطرستهما على جنودهما، وولعهما بالبزّات البراقة، والنيّاشين والعظمة.

إيجابية وحيدة يمكن أن تُعزى إلى القائد العام اللورد راجلان، هي إنّه لم يشارك في أيِّ قتال. وفضّل أن يراقب المعارك عن بُعد. حتى في الحرب ضدّ روسيا لم يفتأ يشير إلى حلفائه الفرنسيّين، باعتبارهم أعداء. هذه العوامل الرئيسة الثلاثة قادت لواء الفرسان الخفيف إلى الدار. ووجد شعراء العصر الفيكتوري، لاحقاً، ضرورة ملحّة في التركيز على البطولة، وغضّ البصر عن عجز القادة العسكريين. ومضى مئة عام قبل أن يَرِد في الموسوعة البريطانيّة: «يجب اعتبار حرب الكريميان أسوأ حملة عسكريّة في التاريخ البريطاني».

مفتاح النصر في بلاكلافا يكمن في السّيطرة على الطرّق

الجبليّة وطريق وورنزوف الاستراتيجية التي تقود مباشرة إلى معسكر الحلفاء. وقد عُزِّزت الدفاعات على هذه المرتفعات تحسّباً من أيّة مفاجآت روسيَّة، فبُنيت ستة متاريس دفاعية عُزِّزت باثني عشر مدفع ثقيل. ووزّعت هذه المدافع على طول سلسلة المرتفعات الرئيسة التي تفصل بين الواديين الجنوبي والشمالي.

مع بزوغ فجر ٢٥ أوكتوبر تقدّم ١١٠٠٠ جنديً مشاة روسي، يَدعمهم ٣٨ مدفع، باتجاه تلك المتاريس. أرسل اللورد لوكان، قائد الفرسان، برقيّة عاجلة إلى اللورد راجلان. قرأ القائد العام للجيش تلك البرقيّة، لكنّه لم يفعل أكثر من الإدلاء بتعليق صغير: «حسن جداً، أرجوك أبلغ اللورد لوكان أن يوافيني بأية معلومات جديدة».

وقع اللورد راجلان فريسة هاجس فكرة واحدة وهي أنّ هجومه كان مجرّد خدعة، ذلك أنّ قوة المشاة الروسية الرئيسة لا تزال في سيباستوبول، وأنّ الأمير مينشيكوف عازم فقط على مهاجمة قوّات التحالف التي تحاصر معقله. وهكذا، بقي راجلان يراقب المعركة القادمة بسلبيّة تامّة؛ وهو يشرف من موقعه على فيلد هبرنبرجل على الواديين اللّذين يقتسمان ظلال شمس الصّباح. كان راجلان محاطاً بمساعديه، زوجات بعض الضبّاط الإنجليز اللواتي انضممن إلى أزواجهن في هذه الحملة، لكن على يخوتهن الخاصة، وأحد مراسلي التايمز، ويليام هووارد روسل. وفي قاع الوادي تزحف القوات المعادية مثل جيوش النمل، واقتربت من مواقع راجلان على المرتفعات الجبليّة.

فوجىء ألف جنديً تركيً، من قوات الحلفاء، الرّابضين في هذه التحصينات، بمحافل المشاة الروس تزحف نحوهم، بدون أدنى تحرّك من قبل الفرسان البريطانيّين لإنقاذهم. وسرعان ما

اجتاح الرّوس أربع متاريس وقتلوا بعض الجنود الأتراك بينما فرَّ الآخرون وهم يصرخون. وراقب راجلان، مرعوباً، الروس وهم يحتلون مواقع سبعة مدافع من عيار ١٢ باوند، وهذه سيكون لها دوراً رئيسياً في الكارثة القادمة.

اللورد جورج باجيت، قائد الألوية الخفيفة في حال غياب اللورد كارديجان. سحب وحدته واتخذ موقعاً تكتيكيّاً في نهاية الطرق الجبليّة. لقد توقّع أن يرى فعلاً ما حالما بدأ الرّوس هذا التحرك المتوقَّع. كان الموقف على درجة من الخطورة أجبر اللورد كاريجان على قطع فطوره على ظهر يخت في مرفأ بلاكلافا وركب جواده عائداً لينضمّ إلى وحدته.

اقتنع قائد قوّات التحالف أخيراً بالدّليل غير القابل للدحض، بعد سقوط تحصيناته الأربعة، أنّ معسكره في بلاكلافا كان هدف القوات المعادية. وأصدر اللورد راجلان أوّل أوامره الأربعة: «على الفرسان أن ينتشروا في الأرض الواقعة على شمال خط التحصين الثاني الذي يشغله الأتراك».

لم يفهم اللورد لوكان كيف ينفّذ الأمر. إذ لا وجود لخطّ تحصين ثانٍ، إلا إذا قصد مربضَيْ المدفعين. وهذان لا يزالان بحوزة الجنود الأتراك. وإذا أخرج فرسانه من مكمنهم على الطريق الجبليّة في قِمّة التل فإنه يُخلي المدخل إلى بلاكلافا، كما تُرفع الحماية عن القوة العسكرية الوحيدة القادرة على وقف الروس الأحد عشر ألفاً ومنعهم من النزول إلى معسكر الحلفاء. أمر لوكان، وقد أعماه الغضب، الجنود الذين أرسلهم راجلان أن يكتفوا بالمراقبة ريثما ينفّذ هو الأمر، وبذلك يعفي نفسه من مسؤولية الكارثة المحتّمة لاحقاً. انسحب لواؤه وترك البوابة مفتوحة. ووقف بين الجيش الروسي والكارثة ٥٥٠ من الجنود

الاسكتلنديّين، إضافة إلى مئة من المرضى اقتيدوا من أسرّتهم ووُضعوا وراء صخور وسُلِّموا بنادق، وبعض الأتراك الذين هربوا أمام الهجوم الروسي على المتاريس، وهؤلاء لا يُعتمد عليهم. وبدأت جحافل الروس تزحف نحوهم ببطء. أصدر الكولونيل كامبل أوامره إلى جنوده الاسكتلنديّين: «لا يمكنكم الإنسحاب، يجب أن تموتوا في مواقعكم».

هاجمت أربع سرايا خيالة قوة كامبل الصغيرة. هاجم الخيالة وهم خائفين من الأتراك المصدومين، الذين تخلّوا عن بنادقهم وولّوا هاربين. وبدا للروس أنّ عبور القمّة الأخيرة والدخول إلى مضيق بلاكلافا أصبح سالكاً. بيد أنهم تفاجأوا برتلين من الاسكتلنديين، بمعاطفهم الحمر، نبتوا من الأرض فجأة وجعلوا التاريخ مثل شريط أحمر رفيع ينتهي رأسه بسلك فولاذي[1].

لقد قرّر الاسكتلنديّون ألا يزهقوا حياتهم رخيصة. بوغت الروس، لجموا جيادهم وتوقّفوا. دوّت صلية بنادق فجندلت أرتالاً من الفرسان الروس، تبعتها صلية ثانية ذهبت بأحصنة وفرسان آخرين. ارتبك الروس، وزادت حميّة الاسكتلنديّين فانطلقوا صاعدين التلة، لاهثين وقد ثبّتوا الحراب على البنادق. كان على كولونيلهم أن يوقفهم: «كتيبة ٣٩ توقّفوا. اللعنة على ذلك الحماس».

صلية ثالثة، دقة التسديد، قصمت ظهر الفرسان الروس فولّوا الأدبار، ولاحقتهم صيحات الاسكتلنديّين المنتصرين[2]. أُنقِذَ الخط الأحمر الرفيع وخُلد هذا الفعل الصغير. بأيّة حال فقد كان جزءاً بسيطاً مما سيليه. إذ لا تزال بلاكلافا مهدّدة بالقوة الرئيسة من الفرسان البروس. وبما أن قادة الجيشين المتحاربين متساويان في عدم الكفاءة، لم يفكّرا في إرسال قوات استطلاع

وكاد جيشاهما أن يصطدما ببعضهما كما يجري في أي حادث طرق.

تمركز اللورد راجلان في موقع بعيد عن ساحة القتال مسير نصف ساعة إذا ما احتاج إرسال أحد فرسانه بأمر ما. إضافة إلى أنّ تمركزه على ما يشبه شرفة عالية تطلّ على الوادي قد سلبه من أي رؤية واضحة للأرض؛ فما بدا له منبسطاً جافاً، كان، في الواقع، رابية نديّة. لقد أصدر الآن أمره الثاني؛ «لتنطلق ثماني سرايا راكبة من سرايا الجند الثقيلة، وتتوجّه إلى بلاكلافا لمساندة الأتراك المنهارين».

عندما وصل هذا الأمر إلى قائد السرايا الثقيلة، كان الأتراك المطلوب دعمهم قد هربوا من ساحة المعركة، ويتعلّقون بأية وسيلة توصلهم إلى الميناء. كان الجنرال سكارلت ذو الوجه الأحمر والشاربين الأبيضين الكبيرين؛ الدمث، حسن الطباع بخلاف الإيرلات(*) المتغطرسين، قد استلم أمر راجلان ونفّذه. غير أنّ هذا التحرك ذهب بقواته بعيداً، مباشرة عبر الطريق التي تتقدّم عليها قوّة الفرسان الروسية الرئيسة. ولم يعد أمام سكارلت مفرٌّ من القيام بأحد الأعمال البطولية التي يتقابل فيها الفرسان مع الفرسان، كما فعل من قبله اللورد أوكسبريج في هجومه الساحق ضد فرسان نيْ في واترلو.

كان الفرسان الرّوس عشرة أضعاف فرسانه، على أقل تقدير. أربعة آلاف فارس روسي مقابل ثلاثمائة بريطانيّ. استل سكارلت سيفه الضالع وأمر فرسانه بالهجوم، أن يصعدوا التلة في صفٍّ

(*) جمع إيرل، وهو لقب إنجليزي أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت.

واحد! تفاجأ الروس بتهوّر هذه المناورة غير التقليدية، لدرجة أنّ بوقهم توقّف عن النفير. فوجد الروس أنفسهم في أسوأ وضع يمكن أن يعلق فيه الفرسان؛ أن يقوموا بأيّ هجوم فعال وهم واقفون. فمن البداهة بالنسبة إلى أي قوة ـ متحرّكة مثل الفرسان، أن ترتبط فعاليتها بحركتها. اندفع الاسكتلنديون بمعاطفهم الرمادية والإنيسكيلينج(٣) بقيادة الجنرال الغاضب سكارلت، واشتبكوا مع الروس، لكنّهم سرعان ما ضاعوا وسط حشد الفرسان الروس الضخم. وأيُّ مراقب من علٍ كان سيشهد منظراً لا يُصدَّق. فالبريطانيّون بمعاطفهم الحمر منتشرون في كلّ مكان، جُزَيْرات صغيرة مبعثرة، شديدة الغضب. ورغم ذلك، لم ينهاروا ولم يسقطوا، بل كانت صيحاتهم القتالية تُسمع بوضوح، وهم ينطلقون كالمسعورين مسدّس بيد وبالأخرى سيف. وانخرطت سرية الجند الخامسة، الخط الثاني من قوة سكارلت، في قتال عنيف، وهم يشقّون طريقهم وسط حشد القوات الروسية ببزّاتها الرمادية. وبدأ جيش الفرسان الروسي ينهار. وشارفت اللحظة المناسبة، على الهجوم النهائي الحاسم. انتهى احتياطيُّ اللواء الثقيل، والتحم أفراده في قتال فرديٍّ، بينما وقف ٦٠٠ فارس من اللواء الخفيف يراقبون المعركة على بعد خمسمائة ياردة، أي على مسافة دقيقة واحدة بالنسبة لجواد يعدو. لم يتلقّوا أمراً بالهجوم. كانوا فوق صهوات جيادهم يتحرّقون غيظاً وعجزاً وهم يراقبون المعركة، بينما رفض قائدهم كارديجان الإشتراك في المعركة بدون تلقي أوامر عُليا.

اضطر لاحقاً أن يدافع عن سلبيّته، بامتثاله لأوامر سابقة من رئيسه الأعلى. «لقد أمرني الفريق إبرل لوكان ألاّ أغادر مكاني مهما يكن الظرف، وأكتفي بالدفاع عنه في حال هاجمه الروس. ولم يهاجمني الروس».

وهذا يُظهر بوضوح أنّ الرجل ليس كفوءاً أبداً، بل إنَّه على درجة خطيرة من الغباء. ويضمّ لواؤه سرية الرَّماحين السَّابعة عشرة بقيادة موريس اللماح الشُجاع، الذي تخرّج من المعهد الملكي العسكري[٤]. وقد أطلق عليه رجاله لقب «هرقل الصغير». بسبب قامته الربعة الممتلئة. يتمتّع بشعبية كبيرة وسط جنوده. توازي شعبية صديقه الحميم الكابتن إدوارد نولان. كلاهما شارك في أربع معارك، وحشرا رئيسيهما المتغطرسين في خانة الإحتقار المطلق. ذلك أنّ موهبة قائد الفرسان تكمن في إدراكه لضرورة التحرّك السريع واغتنام الفرصة السانحة. منذ العصور الوسطى حتى عهد نابليون كان القادة العظام يُقيِّمون وفقاً لهذا المبدأ. لكن لا لوكان ولا كارديجان يمتلكان شيئاً من تلك المواهب. وحالما بدأ الروس بالفرار، انطلق الكابتن موريس على جواده إلى كارديجان: «سيّدي، ألن يطارد لواؤكم العدو الهارب؟».

«كلا، لديَّ أوامر بعدم مبارحة مكاني».

«لكن، يا سيّدي، من واجبنا اغتنام هذه الفرصة».

«كلا، يا سيّد، لن أخالف الأوامر، ردّ ثالث إيرلات كارديجان».

«اسمحوا لي، إذاً، يا سيّدي، أن أصطحب كتيبة الرمّاحين وأطارد العدو. وكما ترى، إنهم في حالة ارتباك وفوضى».

«كلا، يا سيّد. لن أسمح لك بتصرّف كهذا» ردَّ اللورد بنبرة فظّة، وبدا ضيقه، واضحاً، من إلحاح مأموره. التفت موريس، وهو في قِمّة غضبه، إلى بعض القادة الموجودين، وقال: «اشهدوا أيها السادة أني طلبت الإذن ولم يسمح لي». فنطق أحد الرمّاحين المتحلّقين من حولهم؛ بما كان يجول في ذهن رفاقه: «يا إلهي أيّة فرصة نضيّع سوف ندفع ثمنها غالياً».

نجا الروس الهاربين عبر ممر جبلي، وتوقّفوا بعد ذلك في نهاية الوادي الشمالي ليفكّوا أحصنة مدفعيّتهم. في نهاية العمل المظفّر، أرسل اللواء الثقيل، واستمر الجدال حامياً حول هذه المسألة لعدّة سنوات تلت في أعمدة صحيفة التايمز. إنّ عمل سكارليت البطوليّ المذهل قد غيّر مسار المعركة المتوقّع. ورأى اللورد راجلان الآن أنّ الفرصة سانحة لتجاوز هزيمة التحصيّنات الدفاعية، ومعها مدافعه القوية. فأرسل الأمر الثالث إلى اللورد لوكان: «على الفرسان أن يتقدّموا ويغتنموا أيّ فرصة لاستعادة المرتفعات. وستساندهم المشاة، التي أُمرت لتتقدَم على جبهتين».

لقد انطوت كلمات هذا الأمر على مشكلة رئيسة. فعندما استلمها اللورد لوكان قُرئت بطريقة مختلفة. فقد وردت نقطة توقف بعد كلمة «أُمِرَت». وقد كتبت كلمة تتقدّم «advance» بحرف كبير Advance، وهكذا يصبح معنى الرسالة أنّ على فرسان لوكان أن يتقدّموا على جبهتين مع الألوية الثقيلة والخفيفة. علاوة على ذلك، فهم اللورد أنّ عليه استعادة المتاريس بدعم من المشاة التي أُمرت. فانتظر نصف ساعة، لكن لم يظهر في الأفق أيُّ مشاة. وإذا تقدّم بدون مشاة فسينتهي الأمر إلى كارثة. واضطر إلى قمع رجاله من اللواء الثقيل الذين كانوا لا يزالون يعيشون حلاوة الانتصار السابق، ويتوقون للتحرك. وفي تلك اللحظة أضيف إلى المأساة عامل جديد. فقد لاحظ أحد مساعدي راجلان تحرّكاً في مواقع المتاريس المحتلة من قبل العدوّ.

«وحقّ جوبيتر، إنهم يسحبون مدفعي». صاح اللورد كارديجان مندهشاً. وفقدان المدافع يعني انتصارَ محققاً لصالح الروس. (في الواقع، كان الروس ينقلون قطع المدفعية المستولى عليها، ليركّزوها حيث يتوقّعون أن يأتيهم الهجوم). بناءً عليه

أصدر راجلان أمراً سريعاً إلى مساعدِهِ، الجنرال إيريلي. فكتب الجنرال، على عجلة، بقلم رصاص(٥).

سيعرف لاحقاً بـ«الأمر الرابع» المشؤوم: «يرغب اللورد راجلان أن يتقدّم الفرسان إلى الجبهة بسرعة ـ يطاردون العدو ويحاولون منعه من سحب المدافع. يمكن أن ترافقهم قوات الخيّالة. سيساندكم الفرسان الفرنسيّون من الميسرة. نفّذ فوراً. (التوقيع) د. إيريلي».

سلم إيزلي هذا الأمر المكتوب على عجل، إلى مساعده الكابتن إيريلي، المراسل الرسمي. تدخّل القدر، هذه المرة، بشخص الكابتن إدوارد نولان. نولان هذا وصديقه موريس «هرقل الصغير» يضمران ازدراءً «للإيرلات المتغطرسين» تناول الرسالة، وقبل أن يستطيع أيّ شخص إيقافه، قاد جنوده إلى الطريق المفضي إلى الوادي الشمالي. وعندما كان ينزل المنحدر ناداه اللورد راجلان: أيها الكابتن، أبلغ اللورد لوكان أنّ الفرسان يجب أن يهاجموا فوراً.

أي رجل آخر كان سيعيد التفكير في الأمر ويغيّر مجرى الأحداث القادمة. بيد أنّ الكابتن فولان ليس كذلك، فهو رجل طموح ولا يزال حانقاً من العجز المخجل للواء الخفيف خلال الهجوم البطولي الذي نفذّه اللواء الثقيل. إنه رجل عنيد وشجاع حتى التهوّر. انطلق إلى إيرل لا يكنّ له إلا الإزدراء ـ ويقول عنه «ذلك الطاووس المنفوخ الريش يعجز عن اتخاذ قرار مستقلّ». وقف مشدود القامة أمام اللواءين وقال: «إليك أوامر اللورد راجلان، يا سيّدي». وسلّم الرّسالة إلى اللورد لوكان، الذي وجد نفسه في حيرة كبيرة بعد أن فرغ من قراءتها. فبخلاف راجلان الذي يساعده موقعه المرتفع على رؤية أيّ متحرّك، إنّ لوكان يتمركز في قعر

الوادي ولا يستطيع أن يرى المواقع المحصّنة، ولا أيّ جندي روسي، على طول الوادي الشّمالي. ومن المؤكّد أنه لم يرَ أيَّ مدافع يجب استعادتها كما ينصّ عليه أمر راجلان. جلس نولان وصبره ينفذ من شدّة غيظه، بينما هو يقرأ الرسالة ويبرّم شاربيه. طفح كيل الكابتن نولان ولم يستطع كظم غيظه أكثر، فامتقع وجهه وتطايرت كلماته الحانقة الزاخرة بالكره: «سيّدي، إن أوامر اللورد راجلان الأخيرة تقضي بأن ينفذ الفرسان هجوماً فورياً».

نظر اللورد بغطرسة صريحة إلى مساعده: «نهاجم، يا سيّد، أية مدافع نهاجم، يا سيّد؟».

ليس القدر شيئاً يمكن اختياره، إنه يأتي خبط عشواء، يؤثّر على حياة المرء ومماته. إنّ القدر حدث يعتمد، كلياً، في وقوعه على إرادة أناس آخرين. تماماً كما يُتخذ قرارٌ غبيٌّ، وكما يوجد أشخاص أغبياء بما يكفي لينفّذوه بحذافيره. أو كما حدث في هذه اللحظة، كلمات شديدة الغطرسة تستثير رداً حاقداً. فكلّ العوامل الضرورية لحدوث كارثة عسكرية متوفّرة: إيرل متغطرس. أمرٌ مشوّش. وكابتن حامي الرأس. إدوارد نولان، الفارس اللامع، الذي كان متفرّجاً سلبياً على الفرصة الضائعة ـ سمح للغضب أن يتغلّب على الحلم بسبب لا فاعلية قائده الأخرق، الإيرل المغرور. رفع قائد فوج فرسان النخبة، ذراعه لم يُشر إلى ناحية المدافع البريطانيّة المستولى عليها داخل مواقع التحصين الأربعة فوق الجبل، بل أشار باتجاه نهاية الوادي، نحو فوّهات مدفعية الأمير مينشيكوف.

«ذاك هو عدوك. تلك هي مدفعيّتك».

بعبارة واحدة صكّ ضابط مهتاج مصير اللواء الخفيف. غادر نولان اللورد لوكان وانضم إلى صديقه الكابتن موريس من سرية

الرماحين. وانخرطا في محادثة حيويّة، لكن موريس لم يكشف عن مضمونها قطُّ، ودافع حتى نهاية حياته عن إيمانه الرّاسخ بأنّ إدوارد نولان قد أبلغ اللورد لوكان التعليمات بحذافيرها كما حفظها عن راجلان.

واجه اللورد لوكان معضلة لم يكن مستعدّاً أن يحلّها بمبادرة شخصيّة منه. لقد التزم بالقوانين الملكيّة الشديدة الوضوح: «... إن الأوامر التي ستُرسل مع الضابط المعاون يجب أن تطاع بالجاهزيّة نفسها وكأنّها صدرت مباشرة عن القائد الذي أرسلها...».

شدّ لوكان سترته، هزّ كتفيه وسار مختالاً إلى مقدّمة اللواء الخفيفة، حيث يجلس اللورد كارديجان. ولأوّل مرة منذ بداية حملة الكريميان يتوجّه الإيرل الثالث لوكان بالحديث مباشرة إلى رجل يحتقره كثيراً، الإيرل السابع كارديجان.

«أيها اللورد كارديجان يجب أن يتقدّم اللواء الخفيف إلى الوادي الشمالي، وسيلحق بك اللواء الثقيل».

كان يجب أن يدرك لوكان وكارديجان أنّ هذا الأمر يعادل التضحية بالفرسان الإنجليز. ولولا الكره المستحكم المتبادل بين الإيرليّين، لو ناقشا الأمر بدلاً من الاكتفاء بالتحديق أحدهما إلى الآخر، لأمكن إنقاذ اللواء الخفيف. أخيراً قال كارديجان: «سيّدي، إسمح لي أن ألفت انتباهكم إلى أنّ الروس قد وضعوا في الوادي أمامنا مدفعية، وعلى الجانبين مدفعية ورماة بنادق أيضاً.

«أعرف ذلك»، أجابه لوكان وهزّ بكتفيه، ثم أضاف، «لكن هذه مشيئة راجلان».

لم يستطع اللورد جورج باجيت، النائب الثّاني لكارديجان، أن يصدّق أذنيه. فهذا منتهى الوحشيّة، أن ترسل فرسان بدون دعم

من المشاة، إلى لعبة رمي الحدوات(*) من حشد مدفعيّة. لقد أشعل للتو، سيجاراً نفيساً، فهل يطفئه؟ فقال لنفسه، «إلى الجحيم، بوسعي أيضاً أن أستمتع بتدخين آخر سيجار».

تقدّم منه كارديجان على ظهر جواده، وقال اللورد جورج، «لدينا أوامر بالهجوم إلى الأمام. ستتبعني في الصف الثاني، وأنتظر منك دعماً قويّاً».

«لك ذلك يا سيّدي»، ثم عضّ على سيجاره، وقفل عائداً على صهوة جواده، ليشكّل صفوفه من لواء الجند الرابع الخفيف ولواء الهوصاريّين الثامن.

في الوقت نفسه، شكّل كارديجان صفَّ هجومه الأول. كتيبة الهوصاريين الحادية عشرة، كتيبة الجند الخفيفة الثالثة عشرة وكتيبة الرمّاحين السابعة عشرة. في اللحظة الأخيرة سُحبت كتيبة الهوصاريّين الحادية عشرة إلى الوراء لتُشكّل صفاً ثالثاً. أخذ اللورد كارديجان مكانه في طليعة الجيش، امتشق سيفه وأصدر أمره بصوت جهور: «سيتقدّم اللواء ـ سيراً، خطوة عسكرية ـ خبباً». تقدّم اللواء الخفيف، في عرض عسكري منتظم، في وادي الموت.

* * *

خيّم صمت على ساحة المعركة، فلا إطلاق نار، ولا هتافات. مجرّد صمت. اصطف جنود إنجليز على جانب الوادي يتفرّجون على هذا المنظر الذي لا يصدق، جيش من ثلاثة أرتال يتقدّم إلى حتفه. ولا بدّ أنهم تساءلوا ماذا يجري في عقل القائد الذي يقود وحدته إلى دمار مؤكّد(٦).

(*) لعبة قوامها رمي خدوة أو ما شابه بحيث تطوّق مسماراً معدنياً مغروساً على مسافة ٣٠ أو ٤٠ قدماً. المترجم.

على طول مرتفعات الفيديوكين، على الخاصرة اليسرى من اللواء الخفيف، وضع الروس ثماني كتائب مشاة، أربع سرايا خيّالة، وأربعة عشر مدفعاً. وعلى الخاصرة اليمنى تقع المتاريس، وقد وضعوا فيها إحدى عشرة كتيبة روسيّة وثلاثين مدفعاً، إضافة إلى بطارية مدفعية ميدانية. وفي قعر الوادي كانت حشود الفرسان الروسية بالانتظار، تدعمها اثنتا عشرة بطارية مدفعية ثقيلة. وبمواجهة هذه الجحافل تتقدّم قوّة عسكرية قوامها ٦٧٣ جندياً خفيف السلاح، يتقدّمهم اللورد كارديجان. وسيكون هذا أعظم أيام حياته، البالغة سبعة وخمسين عاماً، في هذه الحياة، ربما لم يكن شديد الذكاء، غير أنّه عاشها بشجاعة. كان على صهوة حصان أشبه بتمثال، نصباً رائع الجمال، بالألوان الزاهية لبزّته الملكية الزرقاء، ياقته الفرو المزركشة وريشة النعامة الكبيرة على قبعته المردودة(*).

مزّق الصمتَ دويُّ مدفع روسي. وسرعان ما ازداد عدد القذائف المتساقطة، التي حوّلت الأجساد أشلاء. شعر الكابتن موريس أنّه عارٍ ومكشوف، «مثل خنفساء تزحف على طول قعر الوادي». اختلس النّظر إلى التلال، من حولهم، فرأى الروس خلف التلال والأجمات. ووقعت في تلك اللحظة حادثة لم تُفسَّر قط. ذلك أنّ الكابتن نولان، الذي كان يسير بجانب الكابتن موريس، نخس جواده. فصاح الكابتن موريس في إثره: «لن ينفعك هذا يا نولان!» لكن هذا الأخير اندفع إلى الأمام عابراً خط الهجوم الأول للواء، وفي تصرّف عسكري غير متوقّع، لا سابق له، وقف أمام اللورد كارديجان. كان لا يزال شاحباً، بينما لوّح

(*) قبعة مردودة الحافة إلى أعلى في موضعين أو ثلاثة. المترجم.

نولان بسيفه وصرخ مثل المجنون. لكن دويُّ الإنفجارات حجب كلماته. ولن يتاح لنا أن نعرف بماذا كان يفكّر نولان. بيد أن التفسير المحتمل هو أنه أحسّ بالذنب، عندما أدرك خطأه الفادح وهو يقود رفاقه إلى موت مؤكّد، فحاول أن يوقف تقدّم اللواء. غير أن شظية قذيفة مزّقت صدره. كان الجرح بليغاً، فظهر قلبه منه، رغم ذلك بقي للحظات يصرخ وهو متمسّك بقياد حصانه. لقد أخرجته تلك الشظيّة من صف الفرسان المتقدّمين قبل أن يتوقّف حصانه عن السير، وهوى نولان ميتاً من فوق حصانه.

بلغ اللواء المهاجم منتصف الوادي. فانهالت عليه قذائف المدفعيّة الروسيّة من كلا الجانبين. كان هدفاً مثالياً لحممها القاتلة. اقشعّر بدن الكابتن موريس، فهو لم يخبر من قبل لحظة مروّعة كهذه ـ قذائف تنهمر على مقدّمتهم، مؤخّرتهم ووسطهم، ورصاص البنادق يئزّ في الهواء، يحصد الرجال والجياد. نظر إلى الوراء. رجاله يسيرون خلفه. يتقدّمون وسط غيوم الدخان الكثيفة والغبار، ويتطايرون أشلاء مع التراب والحجارة. شعر بالعجز، لكن غريزته أشارت عليه أن يندفع إلى الأمام بأقصى سرعة ممكنة. واستقر رأيه على أن أهون الشرّين هو الخروج من كماشة النار هذه لمواجهة نيران المدفعية في المقدّمة. غير أن كارديجان لن يصدر الأوامر بالهجوم، انطلق موريس إلى قائده. «سيّدي، علينا أن نهاجم بسرعة وإلاّ تكبدنا خسائر فادحة».

«نعم، يا سيّد، أعتقد أنك محق. لكن هذه أوامر اللورد لوكان. رُصّ صفوفك، وتابع على النحو نفسه، عُدْ إلى مقدمة جنودك». ربما كان هذا المسير الاستعراضي البطيء، المتعمّد، سبب دمار اللواء الخفيف المهاجم.

يراقب راجلان، مرعوباً، من موقعه أعلى التل، هذا الجنون في الأسفل. ويعجز عن فهم ما يجري في رؤوس هؤلاء الرّجال. لمدّة اعتقد أنّ أوامره كانت واضحة تماماً: استعيدوا المدافع في المتاريس العالية! والآن يهاجم هؤلاء الحمقى وسط مدفعيّة من ثلاث جهات! كان راجلان يرى بوضوح بريق السيوف وسط انفجار القذائف. انخرط الضبّاط من حوله في البكاء يجب أن تكون الكلمة الأخيرة للجنرال الفرنسيّ بوسكو: «هذا عرض رائع لكنّه لا يصلح للقتال».

ازداد سقوط القذائف، وازداد معه عدد القتلى والثغرات في صفوف المهاجمين. وهذا ما دفع اللورد لوكان الذي كان يتقدّم وراء اللواء الخفيف، أن يأمر لواءه الثقيل بالتوقّف.

«لقد ضحّوا باللواء الخفيف، ولن يستطيعوا فعل ذلك باللواء الثقيل. أيضًا. وكلّ ما يسعنا فعله هو تأمين الحماية للواء الخفيف في حال تراجعه». وهكذا توقّف اللواء الثقيل يتفرّج مرعوباً، على اللواء الخفيف وهو يتلاشى وسط الدخان في نهاية الوادي.

لم يعد بوسع الكابتن الفرنسيّ موريس أن يتفرّج على هذه المجزرة. فاتخذ قراراً شخصياً، وقاد قناصته الإفريقيّين في هجوم على المدافع الروسيّة على مرتفعات فيديوسكين. ونجح محاربو جبل الأطلس نجاحاً باهراً. فاستطاعوا إسكات المدافع والبنادق على ميسرة كارديجان. كان الرتل الأول المهاجم قد وصل، تقريباً، نهاية الوادي وأصبح في مواجهة المدفعيّة الروسية هناك. لم يكن أمامهم سوى ثانية أو ما شابه كي يستوعبوا المشهد، وسرعان ما استقرت أعينهم على فوهات المدافع... لا مجال للخوف ولا مناص من التقدّم إلى الأمام. وبدون أوامر، انطلق الراكبون المتبقّون إلى الهجوم، وقد أحنوا جذوعهم فوق رقاب

جيادهم. استلّوا سيوفهم وأطلقوا صيحاتهم الدفاعية. سقط المزيد من الجنود، وارتدّت أحصنتهم إلى الوراء مخترقة صفوف الرتل المهاجم. ودوّى هدير هائل عندما أطلقت كل المدافع في الوقت نفسه. فتعثّر المزيد من الأحصنة، وسقط المزيد من الجنود. تابع الرتل الثاني بقيادة اللورد باجيت، الذي يعضُّ سيجاره من شدة غضبه، وطأت أحصنتهم الجثث كي يقدّموا أقصى دعم ممكن للورد كارديجان. أصيب جواد باجيت في خاصرته، لكنّه كبا إلى الأمام. ووجد اللورد الشاب نفسه محاطاً بأحصنة سقط فرسانها. رصاص يئزُّ في الهواء ومدافع تلفظ لهباً أصفر؛ ولا يزال جنود اللواء الخفيف يهاجمون. وتواصل دويّ القذائف والصياح «تراصوا! تراصوا! توجّهوا إلى الوسط!» حصدت قذائف المدفعيّة رتل الفرسان المهاجم؛ وطغى دويُّ القذائف على وقع حوافر الخيل. كان اللورد كارديجان في المقدّمة، ولا يفصلهم عن فوّهات المدافع إلا بعض عشرات من الياردات، ثمانون... سبعون... ستون... ربما ينجحون في نهاية المطاف. بيد أن الاثني عشر مدفعاً، دفعة واحدة، أمطروهم بقذائفها. تبخّر رتل المهاجمين الأول، طار فرسانه من فوق صهواتهم، أو دفنوا تحت جيادهم. تقدّم الرتل الثاني وسط الدخان ورائحة النتن. قاتلوا كالقطط البريّة، لكن لا يسعهم فعل شيء أمام جحافل الفرسان والمشاة الروس المتقدّمين.

المدهش في الأمر أنّ الكابتن موريس كان لا يزال على صهوة حصانه، عيناه تحرقانه من شدة كثافة الدخان، لم يستطع أن يرى كارديجان أو أيّاً من أفراد اللواء. لقد تشتّت انتباهه بسبب غيوم الدخان الكثيفة فوق صف المدافع. حاول أن يفكّر بما حدث، ولماذا لا يزال هو، دون كل الآخرين، حياً، وماذا سيحدث الآن

في طريق العودة. ولم يعد أمام رجل شريف مثله زجّه قدره في هذا الوضع، إلاّ أن يلّم شتات مَنْ تبقّى من رمّاحيه ويخرج بهم من هذا الجحيم. وعندما لاحظ حشداً من الفرسان الروس يتقدّمون نحوهم، نادى، على مَنْ تبقى من كتيبة رمّاحيه، عشرين رمّاحاً، «الكتيبة السابعة عشرة، اتبعوني!» وهاجم، بهذا العدد الضئيل، الزحف الروسي. عول كالذئب، وراح يسبّ ويشتم مع كلّ حركة. كان الكولونيل مايو قد جمع بعض الناجين من كتيبة الجند الثالثة عشرة الخفيفة، وهبَّ لنجدته. استطاعا معاً دحر الجنود الروس إلى ما وراء مدفعيّتهم. تلاهما باجيت، وانخرط في المعركة هو ومَنْ تبقّى من كتيبته الحادية عشرة. ضربوا الروس في الخاصرة ودحروهم من ساحة المعركة. إنقضّت كتيبة الجند، الرابعة، الخفيفة على المدفعيّين الروس وقضت عليهم؛ وهذا ما أسكت المدفعيّة الروسية أخيراً. بينما كانت هذه الانتصارات المنفصلة تُنْجَز، تقدّمت قوّة روسية ضخمة باتجاه كتيبة الهوصاريّين، الحادية عشرة، فكان على الإنجليز أن ينسحبوا بسرعة. أوقف اللورد جورج باجيت عملية الهروب. «أوقفوهم يا أولادي! إذا لم توقفوهم سوف يُقضى علينا». أطاعوه كرجل واحد. تجمّع الناجون من الكتيبتين الرابعة والحادية عشرة، وكان عددهم سبعين فرداً. صاح جندي: «إنهم يهاجموننا من الخلف، يا سيّدي». سأل اللورد جورج: «ماذا يسعنا أن نفعل؟ ألم يرَ أحدكم كارديجان؟».

قاد كارديجان الهجوم، نجا منه، ثم ركب جواده عائداً. قطع الجبهة، ببزّته الزاهية، بسرعة عشرين خطوة أمام خمسمائة من الفرسان الروس. لقد عرفه قائدهم الأمير رادجيويل ومنع جنوده القوزاقيّين من قتله. ونجح كارديجان في الإبتعاد عنهم، غير أنّه

كان يجهل أيّ مصير حلّ ببقية أفراد اللواء الخفيف. لم يشعر بمسؤوليته عن الكارثة، فقد أدّى واجبه و«قاد اللواء بالزخم المناسب».

قضى الجنود الروس على مَنْ تبقى من الرجال القادرين على الركوب، السير أو الزحف، في المقدّمة والمؤخّرة. وغطّت قعر الوادي جثث الجنود البريطانيّين، وواصلت المدفعيّة الروسية، من مواقع التحصين على المرتفعات، قصف مَنْ تبقّوا أحياء. وخاطر الكابتن موريس بقيادة مَنْ تبقّى من رجاله إلى المؤخّرة حيث التقى هناك مع اللواء الثقيل.

في هذا الوقت، كان كارديجان في طريقه إلى الجنرال سكارليت وبدأ يسرد له سلسلة اتهاماته، ليس ضد أوامر اللورد راجلان، بل من الإهانة التي تلقاها على يد الكابتن نولان. «يا لوقاحة ذلك الرجل، أيُّ تمرّد! فقد وقف أمامي، على صهوة جواده، يصرخ كامرأة مجنونة». فرفع سكارليت، في هذه اللحظة يده، وقال له: «يا سيّدي، أنت جَنَيْتَ على الكابتن نولان».

كان الإنسحاب مروّعاً أكثر من الهجوم. فقد كانت الجياد تنزف بغزارة، وجرجر الجرحى أنفسهم على طول الوادي. وبعدئذٍ وصل الجنود الروس، لكن لحسن الحظ، وبسبب الإرتباك، تعرضوا لنيران رفاقهم، فتراجعوا فوراً. ولم ينجح من الحصار إلا سبعين جندياً من كتيبة باجيت الحادية عشرة وكتيبة الجنود الخفيفة الرابعة، وذلك بالإلتحام بجيادهم المتعبة مع الرمّاحين الروس. تجمّع مَنْ نجا من كتيبة الرمّاحين وانضموا إلى الناجين من الكتيبة الثالثة عشرة وانطلقوا، كأنهم يقتحمون الجحيم، وسط المشاة الروس[٧]، الذين ارتعبوا لدى رؤيتهم يغيرون عليهم، فولّوا الأدبار

يصرخون: «أشباح». وهكذا استفاد آخر الناجين من اللواء من اختراقهم المباغت.

«أيّ دمار مروّع امتد على طول هذا الميل الأخير! أكداس من جثث الموتى، والجرحى؛ كلّهم أصدقائي»، هذا ما كتبه اللورد باجيت في مذكراته، في تلك الليلة.

وقعت بعدئذٍ مصادفة. إذ عندما كان اللورد جورج باجيت، عائداً من المدافع والمجزرة، التقى مع الإيرل كارديجان، على جواده، يتقدّم من الإتجاه الآخر. كان باجيت شديد الغضب، ولديه المبرر المقنع. فبعد أن تلقّى أوامر من كارديجان بتقديم «أقصى دعم ممكن»، فهو يرى الآن قائده يتقدّم، لكن من المؤخّرة.

«مرحباً، باللورد كارديجان، ألم تكن هناك؟»

«أوه، أعتقد أني لم أكن».

سمع الجنود هذه المحادثة القصيرة، ونقلوها بدورهم إلى صحافي يغطّي أخبار الحروب، فتسبّبت بانتشار إشاعات بأنّ كارديجان لم يشارك في الهجوم. وهذا غير صحيح. لقد شارك بالهجوم، لكنّه عندما رأى لواءه ينهزم، ركب جواده وهرب من غير حتى أن ينظر وراءه.

عاد فقط ١٩٥ فارساً من أصل ٦٧٣ نزلوا إلى الوادي، ومات المزيد منهم متأثّرين بجراحهم بسبب انعدام العناية الصحية المناسبة[٨].

منذ أن أصدر اللورد كارديجان «سيتقدّم اللواء!»، دام الفعل عشرين دقيقة فقط، لكنّها عشرون دقيقة ستدخل التاريخ مثل «هجوم اللواء الخفيف».

. . . أو كما وردت في قصيدة خالدة تمجّد شجاعتهم:

«أخطأ شخص ما:

ليس من شأنهم أن يجيبوا،

ليس من شأنهم أن يفسّروا،

من شأنهم أن يقاتلوا ويموتوا،

إلى وادي الموت نزل الجنود الستمائة».

ماذا لو. . .

ماذا لو ـ كان الأمر الرابع أكثر وضوحاً؟

لربما استطاع اللورد لوكان يفهم مضمونه ولم يتورّط في زجِّ الفرسان في المعركة بدون مشاة داعمة.

ماذا لو ـ كان سلوك اللورد لوكان أقلّ غطرسة تجاه الكابتن نولان المتهوّر؟

لكان اللواء الخفيف هاجم المتاريس، استعاد المدافع البريطانيّة، وفوّت على شعراء العصر الفيكتوري الاستفادة من تلك المادة الدرامية.

الحقائق:

تحمل نهاية حرب الكريميان شاهداً على العجز البيِّن لقادتها. ولم تقع أيَّةُ معركة «تذكر ما بين أوكتوبر ١٨٥٤ وإبريل، ١٨٥٥ رغم ذلك، فقد تكبّد الحلفاء ١٨٠٠٠ إصابة في تلك الفترة. لكنّهم لم يموتوا برصاص الروس، إنما بسبب الجوع، الكوليرا والبرد[٩]. رغم وجود ٩٠٠٠ معطفاً في مخازن بلاكلافا، لكنّها لم توزّع على الرجال. ذلك أن أوامر الملكة لا تسمح بمنح الجنديّ إلا معطفاً واحداً كلّ ثلاث سنوات. . . وهكذا قضوا ـ مثلما قضى

جيش نابليون، قبل أربعين عاماً، أو كما قضى جيش هتلر في الشتاء الروسي، بعد تسعين عاماً[١٠].

تعرّض اللورد لوكان وكارديجان، إلى هجوم عنيف من الصحافة، بعد عودتهما إلى لندن، الأمر الذي قاد إلى إجراء تحقيق عسكري. وفي يوليو ١٨٥٦ شكّلت لجنة من الجنرالات، سمّاها البعض «محكمة التطهير البيضاء»، وبرأت اللوردين. فألقى اللورد راجلان بالمسؤولية على عاتق مساعده الذي أساء نقل الأمر الرابع. أما الجنرال إيريمي، الذي خطّ الأمر الرابع، قال في ذكرى ذلك الهجوم المشؤوم: «أشياء كهذه ستقع في الحرب».

العامل الحاسم في بلاكلافا كان الغباء والعناد. أمرٌ سيّء. الصياغة وكلمات طائشة من ضابط متهوّر.

(١) خدم اللورد راجلان الملازم أول تحت إمرة ويلينجتون في واترلو. ولا يزال يعيش في عصر المعارك بالحراب. وغاب عن ذهنه العلوم والمكننة اللذين اجتاحا أوروبا. والكتاب الوحيد الذي قرأه هو الكونت مونت كريستو (C.Hibbert).

(٢) الأمير مينشيكوف، القائد العام للجيش الروسي. كانت سيباستوبول بالنسبة له الذروة التي ستقود إلى نهاية كارثية على الصعيدين الدبلوماسي والعسكري.

(٣) لقد اعتمدت التايمز اللندنية تقرير راسل، عن الأحداث في بلاكلافا. ولا يزال يعتبر أفضل مراسل حربي حتى وقتنا الحاضر.

(٤) W.H. Russel, the times Dispatches.

(٥) قاد السير كولين كمبل في ١٨٥٨ القوات نفسها لفكّ الحصار عن لوكنو في الهند، وفي ذاكرته أحداث بلاكلافا.

(٦) بمحض الصدفة، قاتلوا معاً جنباً إلى جنب كما حدث في واترلو.

(٧) كتب مورس في مذكّراته: «كلّما زادت معرفتي باللورد لوكان، واللورد نولان ازداد ازدرائي لهما. يا لهما من جاهلين متغطرسين!».

(٨) لا يزال الأمر موجوداً حتى هذا اليوم.

(٩) حدثت الكارثة بسبب غياب التواصل بين اللاعبين الخمسة الرئيسيّين: راجلان، إيريي، لوكان، كارديجان والمتهوّر نولان.

(١٠) في نهاية الانسحاب كان عدد الباقين من رمّاحي الكابتن موريس سبعة وثلاثين، وثمانية فقط من كتيبة الجند الخفيفة الثالثة عشر.

(١١) جُسِّد هذا الأمر من قبل إيرول فلاين وديفد نيفين في فيلم ميكائيل كورتيز، «هجوم اللواء الخفيف».

(١٢) قام فلورانس نايتنتجل بعرض هذه الفضيحة على الرأي العام، فكانت نتيجتها أن أدّث حرب الكريميان إلى تأسيس الصليب الأحمر الدولي.

(١٣) انظر الفصل الرابع عشر.

الفصل السابع

ثلاث سيجارات أنتيتيام ١٧ سبتمبر ١٨٦٢

«صنع رجلاً في خندق، ومدفعاً جيّداً على تلّةٍ فوقه،
ولسوف يقتل ثلاثة أضعافه، حتى لو لم يكن جندياً جيّداً».

الكولونيل ثيودور ليمان، قائد جيش الاتحاد

يرتجف الرقيب جون بلوس وهو يحاول، قبل بزوغ الفجر، أن يرى عبر السديم الكثيف، النُهَيْر الصغير أمام المعسكر، المؤقّت، للوحدة الهندية السابعة والعشرين، شمال شاربسبورغ، ولا يوجد في هذا الصباح البارد أية شعلة من تلك التي يحب الجنود أن يتحلّقوا حولها طلباً للدفء. لقد حَظَّر قائد المعسكر هذا الطقس. فاستبدله رجال «المحارب القديم جو هوكر» بالقهوة علّها تمدّهم بشيء من النشاط.

«ستقع معركة هنا اليوم. لقد انتقل جيشنا كلّه من بوتوماك إلى هنا، تذكّروا كلامي هذا، ستقع معركة اليوم»، قال ذلك بنبرة جندي خبر المعركة من قبل.

على بعد مئة ياردة عبر الخليج الصغير، على جبل نيكودويموس، يقف الملازم أول الاتحادي جاربر يحاول أن يرى

عبر السديم نفسه من موقعه خلف بطارية مدفعيّة تابعة للجنرال جيب ستيوارت. ذلك أنّه شاهد مساء أمس جيش الاتحاد وهو يتمركز في مواقعه ليقطع على بوبي لي الطريق إلى واشنطن.

ارتفع السديم فجأة واستطاع أن يرى ظلالاً باهتة تتحرّك في معسكر الأعداء. فأمر مدفعيّته أن تقصفهم.

كانت الساعة السادسة إلاّ ربعاً في الصباح الباكر، عندما بدأ اليوم الأكثر دموية في الحرب الأهليّة الأميريكيّة.

لقد أدرك روبرت. ي. لي جيداً أنّ لا أمل أمامه، مع ضعف تنظيم قواته الجنوبيّة. في مواجهة قوات الشمال. عليه أن ينهي هذه الحرب، وبسرعة. ولهذا السبب قام بتحرّك جريء هو أهل له. ضربة في عمق العدو: واشنطن، عاصمة الأمة! وبعد فوز روبرت لي في المعركة الثانية في بول رون في آب، وجد نفسه مضطراً لمواصلة الضغط على جيش الاتحاد كي تبقى صفوفه مخلخلة، وفي الوقت نفسه، يعيد تزويد جيشه من مخازن العدو المليئة. بناءً عليه، أرسل «حجر العقبة» جاكسون مع ست فرق عسكرية للإغارة على فيري هاربر، والجنرال جيمس لونجستريت إلى هاجرستون للقضاء على فلول الاتحاديين. استغرقت إعادة تنظيم صفوف الجيش، يومين، بعدئذٍ عزم على التحرك نحو فيلادلفيا، بالتيمور، واشنطن. ستنتهي الحرب خلال أسبوع، إن لم يكن خلال أيام. لأجل ذلك، أرسل في ١٠ سبتمبر ١٨٦٢ نسختين، بخط اليد، عن تفاصيل خطة الهجوم وفق أمر خاص رقم ١٩١.

في الثالث عشر من سبتمبر، بينما كانت الفيالق السبعة من الجيش الاتحادي تتعقب الكونفدراليين قرب هاجرستون، توقّفت مجموعة استطلاع بقيادة الرقيب أول جون بلوس والرقيب بارتون ميشيل، في المكان نفسه الذي كانت تخيّم فيه قوات الاتحاديين،

صباح ذلك اليوم. كان الرماد في مواقد المعسكر لا يزال دافئاً. ولاحظ بلوس وجود ظرفٍ مليء. وعندما فتحه سقط منه طرد ملفوف بالورق الأبيض رأى فيه بلوس ثروة. رفعه عن الأرض صائحاً مبتهجاً: «هيه، أيها الفتيان، انظروا، إنها سيجارات! بارتون، هلاّ أعطيتني شعلة!».

لم يكن لدى بارتون شعلة، وبينما انشغل في البحث عن كبريت، انشغل بلوس بالنظر إلى الأوراق. ورغم أنه لا يجيد القراءة إلاّ أنّ الختم والتوقيع الرسميّين لفتا انتباهه إلى ضرورة عرضها على رئيسه. ألقى الملازم نظرة سريعة عليها ثم بدأ يرتجف. فالسيجارات تَرَفٌ غير متوقّع بالنسبة لأولئك الرجال الشماليّين، وغير المتوقّع أكثر منها كانت الأوراق التي لُفّت بها: أمر بالمعركة صادر عن الجنرال لي![1] فنقلها الملازم فوراً إلى الجنرال جورج ماكيلان، القائد الأعلى لجيش البوتوماك. وبسبب سيجارات لُفّت على عجل، قاد القدر جيشين إلى المواجهة.

التفت الجنرال جورج برينتون ماكيلان، في ربيعه الثالث، قائد ميدانيٌّ لجيش الاتحاديّين، وكان يسمّيه مرؤوسوه «نابليون الصغير»، إلى الجنرال أمبروز برونسايد وقال مبتسماً: «إذا لم أقضِ على بوبي لي، لك أن تنعتني بما تشاء».

هذه فرصته التي لا تُصدّق. فالخطة توضح أنّ لي قد قسم قواته قسمين. وأدرك ماكليلان أنّ القدر، للمرة الأولى في حياته، قد وقف إلى جانبه، فهو يستطيع الآن أن يدق إسفيناً بين جناحي جيش عَدوّه. فقد كانت مناورة نابليون، لقبه، المفضّلة: أنْ فرّق جيش عدوك ثم اقضِ عليه. رغم ذلك، وقد يبدو الأمر عصيّاً على التصديق، تردّد ولم يفعل شيئاً. فلم يشكّل أيّة فرقة للاستطلاع، ولم يصدر أية أوامر ولم يجرؤ أحد من رؤسائه أن

يشور عليه بذلك. وهذا يثبت أنّ جيش الاتحاديين يقوده عدد من الرجال ليسوا أكفياء كما ينبغي. الميجور جنرال إمبروز بورنايد، رجل وسيم يبذل أكثر من طاقته. العميد جوزيف فاييتينج جوهوكر، طموح، دؤوب، لكنه يفتقر إلى شخصية القائد الحازم. العميد إدوين. ف. سومنر، قائد الفرسان، المتكلّس وغير الكفوء. العميد جوزيف فانسفيلد، في ستينيّاته، على أبواب التقاعد.

اصطدم القادة الشماليون أولئك بجيش قوامه جنود متمرّدين، شرسين وروحهم المعنوية عالية جداً كانوا مسلحين ببنادق إنفيلد عيار ٥٧٧. مداها المجدي، وبدقة، ٥٠٠ ياردة بخلاف بنادق نابليون التي كان مداها المجدي ٥٠ ياردة. إنها سلاح نموذجي يناسب شخصية الجنود الكونفيدراليّين. بيد أن قوة الجيش الجنوبي تكمن في قيادته القوية. قادة ستبقى شهرتهم ذائعة الصيت على مدى قرون: روبرت. ي. لي، ستون وول جاكسون، جيمس أولد بت لونجستريت، جيب ستيوارت، امبروز باول هيل ـ وكلّهم قادة أفضل وأكثر شجاعة من خصومهم. وهذه قوة الكونفيدراليّين الحقيقية.

أبلغ أحد الجواسيس لي أنّ خطته وقعت في يد الاتحاديين، وأنّ الجيش الشمالي كله متجّه الآن إلى موقع على الطريق إلى واشنطن، لكن لي يكنّ إزدراءً عميقاً لخصمه الشمالي ماكليلان. فكّر لي في احتمال أن يعاق تراجعهم بسبب النهر، وأنّ العدو أكثر منهم بثلاثة أضعاف(٢)، فوجد أنه من الأفضل أن يتوقّف عند نهر، غير معروف في ماريلاند، أنتيتام. على بعد ثماني وأربعين ساعة. وأعدّ الميدان للمعركة.

١٧ سبتمبر ١٨٦٢ كلا طرفي المعركة، أولئك المقاتلين في

سبيل قضية أو لأيّ سبب آخر، كانا، جميعاً، في معسكرين في العراء. رجال من أمثال الرقيب بيلي بوي كونز من حقول القطن في ألاباما. كان قد احتفل قبل ثلاثة أيام بعيد ميلاده التاسع عشر. لقد بلغ هو والعديد من رفاقه آخر أيام حياتهم الغضّة. دبّت الحركة في المعسكر. كان بعض الرجال يحتسون القهوة، بعضهم الآخر يحدّق، من خنادقه، عبر السديم الكثيف. كان الجيش المتمرّد يعاني من الإسهال، وقد استنزف هذا المرض قوّة الرجال. لكن ما إن بدأ إطلاق النار حتى كَنّتْ عقولهم عن الانشغال بالبحث عن شجرة أو تأمين حماية شخصية. فالرقيب بيلي بري يترقّب إطلاق النار، بلهفة، فهو يكره أولئك اليانكي. «ما الذي أريده؟ أن أقتل بعضهم، ثم أمضي إلى ملاحقة الفتيات، أستلقي في السرير وأرشف الويسكي. أعتقد أني لن أستطيع ذلك إلا بعد انقضاء هذه الليلة».

في الغابة الشمالية، وعلى بعد بضع مئات من الأمتار عن النُهَيْر، كان الرقيب الاتحادي بلوس، الذي وجد السيجارات، كغيره من الجنود في المعسكر، يعرف أنّ لا مناص من الحرب. وهذا ما أكّده ملازم سوقي وقح، قادم من الغرب. لكن بلوس لم يكن متحمّساً لهذه الحرب، كغيره، ليس لأنه خائف، إنما بسبب البرد والإسهال الناجم عن أكل البسكويت القاسي. «لا أستطيع الانتظار حتى أعود إلى المنزل وأتناول طعاماً جيّداً».

في مركز قوات الاتحاديّين في براي هاوس، كان الجنرال ماكليلان يزرع الأرض جيئةً وذهاباً وهو في غاية التوتّر، ذلك أنّ كلّ شيء متوقّف على الأمر التنفيذي: الرجال على أهبة الاستعداد والمدافع في مرابضها. لكنّه لا يستطيع أن يتخذ قراره. وقف وسط قادته يدرس الخارطة بألوانها المختلفة والأسهم المرسومة

عليها بقلم رصاص. جيش لي القادم من شمال فرجينيا متمركز على طول خط يدعمه من جهة الشمال جيب ستيوارت وخيالته، ومن ثم يلتفّ حول مدينة شاربسبورغ على طول نُهَيْر أنتييتام حتى نقطة التقائه نهر البوتوماك في الجنوب. أصدر ماكليلان في الساعة الخامسة والنصف صباحاً أمراً مشوّشاً يمكن فهمه على أكثر من نحو خاطىء: «هاجموا ميسرة العدو، شقوا صفوفه من أجل الهجوم الرئيسي، وكلّني أمل أن تحقّقوا أكثر من ذلك، وحالما ينجح أحد أو كلا تحركات الخاصرة، هاجموا العمق مع أي احتياطي قد يتوفّر لدي».

تتقدم مجموعة مناوشة من قوات الفيدراليّين، وسط سديم الصباح، على طول هاجرستاون تورنبيك. تلوح على التل كنيسة البلدة المطليّة بالأبيض، وأمامها وضعت مدافع فُصلت عن أحصنتها، إنها نابليون مين مَزَرْدْ (أمهات نابليون الحقودات)، ومن خلفها رماة ماهرون أطلقوا عنان حمم الجحيم دفعة واحدة.

حاول الطرفان القصف بالمدفعيّة حالما تبيّنا أهدافهما، وكانت كثيرة. لقد ارتقى الجنرال «فايتيبخ جو» هوكر إلى مستوى كنيته عندما دفع فيالقه بتشكيل عريض نحو خط الكونفدراليين. فقصفتهم مدفعيّة ستون وول جاكسون، المتمركزة أمام الكنيسة، بقنابل عنقودية. وكان قسم من مدفعيّة جيب ستيوارت فوق نيكديموس هيل. وبذلك يصبح الفيدارليّين بين فكّيْ مدفعيّة الكونفيدراليين.

أعيق الهجوم الأوّل لهوكر، فطلب إحضار مدفعيّته إلى الأمام. أحضرها المدفعيّون بواسطة عربات تجرّها الأحصنة، وثبّتوها على تلّة صغيرة تطلّ على هاجيرستاون تورنبيك، في حقل ذرة، رقعة ذهبيّة، على بعد ثلاثين أكراً من كنيسة دونكر.

يقول الجنرال هوكر: «من أشعة الشمس الساقطة على حراب

الجنود، التي أعلى من شجيرات الذرة، عرفنا أنّ الحقل مليء بجنود العدو، فأمرت بحشد كلّ مدفعيّتي الاحتياطية، لأُشركها في المعركة معاً».

كريهة هذه القذائف ـ فذخيرة المدفعيّة عبارة عن طلقة تحتوي مئات من كريات الرصاص، وعندما يطلق المدفع تتمزّق الطلقة فتتطاير هذه الكرات الرصاصيّة، وتكون فتّاكة إذا ما استعملت ضد حشد مشاة مثل هذا المختبىء في حقل الذرة.

بوسع المرء أن يتخيّل ما يجول في ذهن أولئك الشبان المرابضين تحت سوق الذرة، محنيّي الرؤوس، لا يرون ما يجري من حولهم إلا عندما يُقضى عليهم وعلى حقل الذرة فجأة. وما يجري الآن قد يكون العمل الأكثر دموية في هذ الحرب الأهليّة. حشد مدفعيّة مقابل حشد مشاة مختبىء في مكمنه. يندفع الجنود الاتحاديون إلى حقل الذرة فتنزلق طليعتهم فوق أرض أحالتها الدماء طيناً. مروّعة جداً هذه المجزرة، لكن هوكر يتابع هجومه العنيف عبر حقل الذرة، ويتسلّق التلة أمام الكنيسة قبل أن يصل لواء ستون وول التكساسي ويستعيد الموقع. وتشهد الساعة التالية هجومات وهجومات مضادة. وتتبادل مدفعيّة الطرفان إطلاق النار، الكونفدراليّون من كنيسة دونكر، والفيدراليّون من ما وراء حقل الذرة. ويتلفون كثيراً من الحقول خلال كرّهم وفرّهم. هاهنا تتوقّف أرتال، وهناك تتقدّم، بعضها يتراجع وأخرى تُباد.

تتعالى صيحات الكتيبة الهندية السابعة والعشرين، اتبعوني! «فتجيبها صرخات الفرجينيّين اتبعوني!».

الرقيب بلوس وسط المجزرة، يرى الرجال ينهارون ويهربون، يطاردهم جنود، رماديو البزّات، بصيحاتهم التي تقصم الظهر. وتتكسر موجة البزّات الزرق على حراب البزّات الرمادية.

ثم تنقلب الصورة وتطارد البزّات الزرق البزّات الرمادية التي تهرب صاعدة التلة الصغيرة نحو الكنيسة. كانوا بين كرٌ وفرٌ مثل قشة في مهبّ الريح. يسيرون ويعدون فوق جثث رمادية وزرقاء ـ أما الجرحى فقد وحَّد الدم ألوان بزّاتهم.

كان بين الجرحى بلوس الذي وجد السيجارات الثلاثة، وهو يشعر الآن بمسؤولية عن هذه المجزرة التي يقتل فيها الأخوة. فقد قاد فصيلة مناوشة التفّتْ حول ميمنة الكونفدراليّين لكنّهم اصطدموا بفرسان جيب ستيوارت الذين قضوا عليهم، ولم ينج غير بلوس بعد أن تظاهر بالموت.

بدأ الاتحاديّون المتفوّقون عدداً وعدة يسيطرون على ميسرة الكونفدراليّين. وقد وصلت موجة البزّات الزرق إلى مواقع مدفعيّة المتمرّدين عند كنيسة دويكر. وينقلب القدر على لي. يمتطي الجنرال هوكر، بعد أن تأكّد انتصاره، صهوة جواده الأبيض المهيب، فيبدو مثل منارة وسط بحرٍ هائج.

كان في المعركة قناص متمرّس، أوسي ديفيس من الكتيبة التاسعة عشرة من المسيسيبي، ما إن لاح له، وسط الدخان الكثيف، فارس على جواد أبيض فوق التل، حتى لقّم بندقيته. لم يكن يعرف غريمه، لكن يكفي أنّه ضابط. سدّد هذا القناص، الذي تعلّم الرماية على يدَيْ والده مذ كان في الثامنة من عمره، وبهدوء ضغط على الزناد. فصهل جواد أبيض وهوى هوكر من فوقه. لم تكن الإصابة قاتلة، لكنّها عطبت ساق هوكر. وعندما حمله مساعدوه خارج ساحة المعركة، تأكّد الجنرال أنّ هجوم فيالقه الاتحادية ستكسب المعركة وهناك قول عسكري مأثور: إن ذروة الهجوم الناجح هي لحظة الخطر الأعظم. وفي هذه اللحظة يجب أن يتواجد قوة دعم إضافية لتعزز النصر الذي تحقّق بالهجوم

الأولي. إنه يتطلّب تعزيزات توسيع الثغرة والسيطرة على الأرض. إنّ نابليون الصغير، ماكليلان، يكرّر الآن الخطأ الفادح نفسه الذي ارتكبه نابليون في واترلو. فقد تردّد ماكليلان مطوّلاً وضيّع فرصة إحراز النصر. فبدون قائدهم الديناميكي هوكر تتكسّر فيالق الاتحاديين على يد الكونفدراليّين. ففي الوقت الذي تؤمر فيه فيالق العميد الاتحادي مانسفيلد بالانخراط في المعركة يكون الخط الرمادي قد استقرّ. مع ذلك، ينجح الجنرال العجوز في عبور حقل الذرة ويكاد يصل كنيسة دونكر عندما يُجبَر رجاله على التوقّف منهكي القوى. لقد هُدر كثير من الوقت بعد هجوم هوكر المظفّر استطاع لي خلاله أن يدفع بجزء من قوات لونجستريت الاحتياطية لسدّ الثغرة. وامتلأ الحقل الممتدّ عند قدمَيْ الكنيسة البيضاء، بأكوام من الجثث. وأصيب العميد مانسفيلد بجرح مميت، وانسحبت فيالقه الاتحادية. لقد تكبّد الاتحاديون خسائر فادحة: سحقت فرقهم الواحدة تلو الأخرى، وعمّت الفوضى صفوفهم. وأصبحت ميمنة ماكليلان بدون قائد ميداني الآن، ومع ذلك لم يبذل جهداً لتلافي الأمر. وضباطه يصدرون أوامر متناقضة يبطل أحدها الآخر.

خمد القتال بعد أن سُحِقَ الفيلقان الاتحاديان اللذان قادا الهجوم، ولم يكن عدد الجنود الكونفدراليّين كافياً لشن هجوم مضاد. وعلى مدى الساعة التي تلت جعلت مدفعيّة الطرفان الأرض تميد من تحتهما. واتضح شيء واحد فقط، وهو أنّ هجوم الاتحاديين في الشمال قد أخفق.

بدأ الهجوم الثاني قرابة التاسعة صباحاً، في الغابة الغربية. كان الجنرال إدوين سومر، ذو الخمسة وستون عاماً، قائد فرسان فيلق الاتحاديين الثاني عشر. يتوقّع أن يؤمر بالهجوم حالما تُطلق

الرصاصة الأولى. غير أنّه استمع إلى دويّ المدفعيّة على مدى ساعتين بدون أن يتلقّى أمراً بالهجوم. فأرسل مساعده، الكابتن جون هاستينغ، إلى مركز قيادة ماكليلان، لكن هذا المبعوث لم يصل أبداً. وبدلاً من ذلك يُقاد جانباً ويُبَلّغه مساعد الجنرال: قل للجنرال سومر، «أنّ هذه مجرّد مناوشة. وسوف نزوّدك بالأوامر عندما يكون الجنرال ماكليلان جاهزاً لإشراك الفيلق الثاني عشر في المعركة.

حتى قبل تبليغ الرسالة، وبدون تبصّر فيما يجري أو أين يقاتل «ذلك اللعين بوبي لي»، قرّر سومر ذلك الفارس غير الكفوء بوضع كلّ ثقله العسكري في مركز الهجوم وكانت مشكلته الحقيقيّة أنّه لا يعرف بدقّة أين هو مركز الهجوم، ولا القوى التي تواجهه. والأسوأ من ذلك، وفي غمرة أوامره المشوّشة، لا يزجّ بكامل قوّته الضاربة في هجوم واحد، بل يواجه كل موجة معادية بتشكيل وحيد. يتقدّم بفرقته اللواء المهاجم ويعلق بين فكي صفوف الكونفدراليّين. في الغابة الشماليّة، على جانبه، يوجد احتياطي القوات الكونفدراليّة بانتظار أوامر شخص وحيد وهو ستون وول. تنقض فرقتان على خاصرة سومر وتنزل به هزيمة منكرة. ولم يكن لدى سومر ما يفخر به بعد هذا الهجوم الأرعن سوى عدة آلاف من الإصابات. فتروّعه هذه النتيجة فجأة، ويتراجع كي يمنع باقي فرقته من دخول هذه المجزرة. لكنّه يصل بعد فوات الأوان، إذ أن فرق اللواء الثاني عشر قد أصبحت على مشارف الغابة الشرقية، متوقّعة أن تلحق بفرقة القيادة. ولا يعرف قادتها شيئاً عن المجزرة التي حلّت بفرقة سومر القيادية. وعندما يرون بعض المعاطف الزرق يقرّرون أنّ ذلك هو مسرح المعارك، ويوجّهون أرتالهم في ذلك الاتجاه، نحو طريق ريفي ضيّق. تحرّكَتْ فرقتان، بدون

سابق معرفة، نحو النقطة الأضعف في صفوف الاتحاديين، بقيادة بضعة من الرفاق الألبامانيّين.

يرى الجنرال لي الخطر الوشيك. وبخلاف القائد الاتحاديّ، الذي لا يرى من موقعه فوق براي هاوس وعبر منظاره سوى نقاطاً فضّية تتقاتل، فإنّ لي في معمعان المعركة(٣). ينطلق إلى فرقة ألباما السادسة، التي تسيطر على طريق قرية منخفضة، حيث يؤكّد له قائد الكتيبة: «أيّها الجنرال إنّ قواتك الألبامية ستبقى هنا حتى غياب الشمس أو النصر». وستدور رحى بعض القتال الضاري حيث تنخفض هذه الطريق ياردة عن مستوى حقل الذرة. ولهذا السبب سمّاه المزارعون الطريق الغائر. واسمه على وشك أن يُغيَّر الآن. وهذا يسم لحظة المجد بالنسبة لمجموعة جنوبية صغيرة بقيادة الرقيب بيلي بوي كنز، الألبامي الذي يحبّ الويسكي ومطاردة الفتيات. انتزعوا ركائز من سياج مزرعة وصنعوا منها متراساً على طرف الطريق، بحيث يستطيعون أن يطلقوا النار من ورائه من غير أن يكونوا هدفاً سهلاً لنيران الفيدراليّين المهاجمين. وراقب بيلي بوي عبر الركائز الخشبيّة فرق سومر تصطفّ وكأنها تستعدّ للتفتيش. وتبدو غير متعجّلة. تستهل مسيرها بأربعة أرتال تتقدّم وكأنّها في استعراض عيد الفصح. يتذكّر شيئاً كان والده قد أخبره إياه عندما خرجوا مرّة لصيد البط: «سدد دائماً على آخر بطة في السرب، عندئذٍ لن تلاحظ الأخريات غيابها، وبذلك تحصد الكثير منها». يزحف بيلي على طول المتراس ليخبر رماته أنْ يتقيّدوا بتلك النصيحة: «لا تطلقوا على الرتل الأول. وعندما يستعدّون للإطلاق أحنوا رؤوسكم، دعوهم يطلقون ويبددون طلقاتهم، عندئذٍ سددوا جيّداً، لكن على الرتل الثاني الذي لم يطلق بعد فهذا يمنحنا الوقت لنلقّم ثانية، إذ

يجب أن نكون أسرع من هؤلاء اليانكي، وعندئذٍ سنقضي عليهم».

لم يعد لديه ما يضيفه. يغمض عينيه ويناجي الله بصمت. لم يعد الأمر بيديه. تمرّ لحظات صمت طويلة، لا يسمع فيها إلا دوي انفجارات بعيدة وخبطات منتظمة لأقدام أرتال جند. يرتعب بيلي بوي عندما يروي أحد جنوده نكتة. فيهشه: «إخرس، يا ولد». لكن هذا الولد عمره ثلاثين عاماً على أقلّ تقدير، بينما بيلي في ربيعه الثاني وصغير جداً على أن يموت. ينظر من فوق الطنف. لا يزالون بعيدين؛ لننتظرهم كي يقتربوا أكثر، ثم نرسلهم إلى الجحيم. يقف ضابط وراء جنوده الرابضين في الطريق المغمور، وينتظر حتى يصبح الشماليّون على بعد ياردة من أول صف رماة مستعد للإطلاق. فتدوّي فرقعة وتطير قذيفة من فوقهم. ينحني الضابط، تسقط في الغابة لكن لا يتأذى أحد من جنوده. يتولى بيلي بوي أمر قطاعه.

يقول بلطف: «الألباميون»، ثم يصرخ آمراً «اطلقوا النار». تسديداتهم قاتلة، فيترنح الرتل المهاجم، يسقط بعض أفراده، ويتوقّف من نجا منهم، في حالة من الفوضى. يستغرق التلقيم نصف دقيقة، وهذا زمن كافٍ لإطلاق صلْيَتين إضافيتين على ذوي المعاطف الزرق قبل أن يهربوا. مخلّفين وراءهم أكداساً من الجثث أمام المتراس.

والنتجية أنّ هجوم الاتحاديين على الميسرة قد فشل. وهلك فيلق هوكر، وجنود فانسفيلد أيضاً. يُجرح هوكر، ويموت فانسفيلد. يفشل هجوم سومر فشلاً ذريعاً. يصمد الفيدراليّون، من غير أن يستخدم ماكليلان كلّ احتياطييه..

حاولت فرق سومر، تكراراً، أن تشقّ درباً عبر الطريق المغمور. اندفع رجاله إلى الأمام تسبقهم صيحاتهم الغاضبة على

الرابطين وراء المتراس. توقّفوا ليطلقوا النار، فكان توقّفاً ليموتوا أيضاً. تكدّس الجرحى والقتلى بأعداد ضخمة أمام ما سيعرف في التاريخ بـ«الممرّ الدامي». توافد المزيد من رجال سومر، لكن بلا فائدة، وعانى المتمرّدون أيضاً خسارات فادحة، لكن لا شيء سيجعلهم يتزحزحون من مكانهم. لأنّهم وعدوا قائدهم بوبي لي ألاّ يتخلوا عنه، أو سيموتون دونه، وبرّوا بوعدهم.

نجح فوج نيويورك في التسلّل إلى خاصرة الألباميّين، من حيث يستطيع أن يشرف على الطريق. كان المدافعون الشجعان مكشوفي الظهر. أمطروهم بوابل من النيران، فسقطوا الواحد بعد الآخر. وبقي بيلي بوي ورجاله المتبقّين يعيقون التقدّم الجبهي. إنّ الأمر برّمته مذبحة شنيعة ومنتهى البطولة في آن معاً. ويتناقص عدد الألباميّين مع بيلي بوي من ستين إلى ثلاثين...

إنها اللحظة الحاسمة بالنسبة للجنوب. إذا نجح هجوم سومر، فسوف يقسم الجيش الجنوبي إلى قسمين غير فعالين، لذلك يجب أن يظهر ماكليلان الآن فعاليته ويرسل احتياطيّيه الجدد إلى المحور ويدافع بجيش فرجينيا الشمالي إلى البوتوماك. يدرك لي الخطر المحدق بمحوره. فيدعم خطوطه بكلّ ما لديه من رجال فيحلّ الطباخون والإداريون مكان مَنْ سقط من الجنود. ويغصّ الطريق المدمّى بأكداس الجثث. وفجأة تحدث معجزة تضطر موجة الجيش الأزرق إلى التوقّف. ويتساءل لي ماذا ينوي ماكليلان أن يفعل، وإذا صدقنا ما كُتِب، فإنّه لم يفعل شيئاً.

يحشد سومر مزيداً من الجنود بينما يبقى ماكليلان عاجزاً عن اتخاذ قرار لإطلاق احتياطيّيه. ولم نعثر على تفسير معقول

لهذا الأمر. ربما لم يقم ماكليلان بتعزيز وضعه. معتمداً في قراره ذاك على التقرير المشؤوم حول فشل هجوم سومر، وحقيقة أن الاتحاديّين قد فقدوا معظم قادتهم الكبار: هوكر، مانسفيلد وريتشاردسون. بناءً عليه خلص ماكليلان إلى أنّ جناحه الأيمن، كلّه، قوامه ٣٠٠٠٠ ألف رجل، بقيادة فرانكلين. وبدلاً من أن يأمرهم بالهجوم، وتقويض محور لي، يضعهم في حالة دفاع وتنهار خطة ماكليلان القتالية: فيمتدّ القتال، كالنار في الهشيم، من الميسرة إلى المحور، ويوشك أن يصل إلى الميمنة.

كان العميد أمبروز بورنسايد، قائد ميسرة ماكليلان ينتظر منذ الصباح الباكر الأمر بالهجوم. إنّها التاسعة صباحاً الآن، ولم يتلق ذلك الأمر. في هذا الوقت يفشل هجوم الاتحاديين الممتدّ من ميمنتهم حتى المحور. أخيراً، تصل رسالة إلى مركز قيادة بورنسايد: «يطلب إليك الجنرال ماكليلان أن تهاجم، لأنّ كلّ الأمور تسير على ما يرام».

شقّ بورنسايد هجوماً على نهير انتيتيام، وكلّه اعتقاداً أن محور لي قد انهار. إنّه هجوم متأخّر جداً وغير منسّق. واتفق أن جاءت فكرته الذكية حول إمكانية نقاط التقاطع عند النهير، من أسئلة طرحها على فلاحَيْن صادف أنهما معاديان لفكرة الاتحاد. وانصبّ تركيز بورنسايد على جسر سيحمل اسمه إلى الأبد فأمر فوجي بنسيلفانيا ونيويورك أن يحتلا الجسر. لكنّه صادف مشكلة، رغم أنّه لم يَلْقَ مقاومة. ذلك أنه حجب عن قواته مخصّصاتهم من الويسكي لمدة أربعة أيام. وبدأوا يطالبون بها قبل البدء بالهجوم. حتى بعد حصولهم على حصة معقولة من الكحول، لم

يهاجم الجنود بالحماس الكاف، واستغرق منهم اجتياح الجسر ساعتين، إنّ ميزان القوى المدافعة في مواجهة أربع فرق مهاجمة.

دفع بورنسايد غالياً ثمن تأخّره. شيء مثير للسخرية أن يبذل فيلق كامل كل ذلك الجهد ليقطع باع(*) عرضه ثمانية أقدام فقط. ينخفض مستوى الماء في نهير أنتييتام صيفاً، واستطاع جنود بورنسايد الـ ٣٠٠٠٠ اجتياز هذا النهر الضيق بسهولة. علاوة على ذلك، لا يوجد أيُّ جندي جنوبي على ضفة النهر، وطولها ميل، وذلك لأنّ قوات لي قليلة جداً ولا يستطيع الاستغناء عن بعضها لحماية ضفة النهير الطويلة. ويبرّر ذلك أنه ما مِنْ جندي سيدخل الأدغال الكثيفة التي تمتدّ على ضفة النهير، وهو محق في ذلك ولم يخضْ في ماء النهير، في ذلك اليوم، أي جندي شمالي.

في الشمال بلغت المعركة مأزقاً عويصاً؛ ذلك أنّ التضحية بالقوات الألبامية، في المحور، تسبّبت بتوقّف فيلق بورنسايد، لكنّه استمرّ يبذل جهده لاختراق ميمنة لي. ولا يزال الوضع حرجاً بالنسبة إلى روبرت لي. من ناحية ثانية، هناك عنصر جديد على وشك أن يدخل المعركة على شكل مجموعة متمرّدين، يرتدون البزّات الزرق، هذه المرة. وهؤلاء رجال الجنرال الكونفدرالي إمبروز باول هيل، وقد حصلوا على هذه البزّات والبساطير الجديدة من مخازن الجيش الاتحادي التي احتلوها في هاربر فيري. فكان هيل يدفع فرقة على طول سبعة

(*) الباع: هو المسافة الفاصلة بين دعامتي جسر. المترجم.

عشر ميلاً من هاربر فيري إلى بوتلر فورد، وسيتّضح لاحقاً أن هذا هو الهجوم المحوري الأقوى في هذه الحرب الأهليّة.

قام سكوتس بإبلاغ ماكليلان عن توجّه هيل للانضمام إلى جيش لي العرمرم. ولا يزال لدى ماكليلان فيلقاً كاملاً بقيادة فرانكلين، إضافة إلى فرسانه الاحتياطيّين. وكان لي محقّاً في التعويل على ضعف خصمه. وقد خَطَّ «نابليون الشاب» نهاية سيرته العسكريّة عندما، ابتلى بعدم الثقة ـ بالنفس، فشل في إصدار الأمر إلى ١١٠٠٠ فارس احتياطي لإيقاف تقدّم هيل. وارتكب خطأً فادحاً أيضاً عندما غفل عن إخبار قائد ميمنته، الجنرال بورسنايد، عن فِرق العدو الوشيكة الوصول.

وقع الهجوم الثالث في سهل بعد ظهر ذلك اليوم. رغم مشكلة الويسكي، والصمود الذي أبدته فرق الجنوبيين، فقد استطاع بورنسايد بهجومه الضعيف، أن يحتل الجسر. فزحفت فرقه الأربع وتجاوزت باع الجسر من دون أية مقاومة. وسرعان ما سينقسم جيش لي إلى قسمين. ولحسن حظ الجنوب، فإنّ، بورنسايد «الملتحي» لم يستعجل في زجّ قواته ما دام لم يتلقّ أوامر بذلك، ولم يكن لديه أدنى فكرة أيضاً عن الوضع النهائي.

واتخذت المعركة منحى دراماتيكي. فمنذ أن تواجه الجيشان، دخلت آخر مجموعة من احتياطي لي في الوقت المناسب. ويتقابل الجنرال هيل مع الجنرال لي عند غابة صغيرة. ويضفي ظهوره أهمّية خاصة على إحدى أغرب مظاهر هذه الحرب. يتعانق الصديقان. ويقول لي بارتياح كبير «لقد وصلت في الوقت المناسب، انضمّ برجالك إلى الميمنة».

كما فعل نابليون في واترلو مع قوات بلوتشر البروسية، فقد كرّر الجنرال بورتسايد الخطأ نفسه عندما لاحظ فجأة غيمة جنود

سوداء تقترب، من بعيد، نحو خاصرته. نظر عبر منظاره، ولوّح بيده كي يهدّئ رئيسه. كلّ شيء على ما يرام. إنهم يرتدون بزّات زرقاء. هؤلاء، في أسوأ حال، القوات التي وعد بها ماكليلان، إنهم فلول الاتحاديين. فأمر بعدم إطلاق النار على القادمين الجدد ببزّاتهم الزرقاء. وتبيّن أن الأمور ليست على ما يرام عندما انطلق حصان أحد الضباط، والدم يتدفّق من فتحات جسده، تائهاً في ساحة المعركة. خاله بورنسايد حصان أحد قادة فرقه. لكن ريثما أرسل أوامره وأعاد تنظيم فرقه، أطبق عليه فيلق هيل.

وغدت الآن معركة الأمبروزيّين هيل وبورنسايد. وأثبت أمبروز الجنوبي مقدرة أكبر بكثير من الشمالي ـ إذ أن دفاع رجاله العنيف، وقد عُزّز بضراوة هائلة، أوقف هجوم الفيدراليين. وضج الميدان بصيحات المتمرّدين المتوحّشة. حتى دويُّ مدفعيّة الاتحاديين لم تستطع أن توقف دوامة الدم تلك. لقد فلت زمام الصراع عن السيطرة، فالقتال في كلّ مكان، مات قادة، وفقدت مراكز القيادة السيطرة على الوضع خصوصاً أنهم لا يعرفون أين تقاتل وحداتهم، أو مَنْ بقي منها في ساحة المعركة. وتفقد التفاصيل التكتيكية قيمتها فالجرحى يملأون ساحة المعركة، ويطغى على صراخهم دويُّ المدافع، التي يتبدل بعضها القصف عن بعد مئة ياردة فقط. ثم تصمت المدافع فجأة. ويساور القلق لي وهيل فقد نفد خرطوش بنادق جنودهم. فلو شنّ ماكليلان هجوماً مضاداً لسحق فيالقهم. لكن ليس هناك إمارة هجوم مضاد، لأن العدو أيضاً يعاني وقتاً عصيباً. وقد اندحر جيش برونسايد عبر النهير. وتوقّف المتمرّدون على ضفته.

وقسم المعركة بعد الساعة الخامسة. وتنتهي إحدى أكثر المعارك دمويّة في الحرب الاهلية. وبقي كلا الطرفان مسيطراً على

الأراضي نفسهاُ تقريباً، التي كانت بحوزته قبيل اثنتي عشر ساعة. وامتلأت أرض المعركة بالجرحى والقتلى ١٤٠٠٠ جنوبي و١٢٠٠٠ اتحاديٍّ.

جُرح الرقيب بلوس لكنه عاش وشارك في معركة أخرى. وقتل في جيتيسبورغز الرقيب كونز(٤)، الشاب الذي أراد مطاردة الفتياتُ استقر في المزرعة ليشرب الويسكي. أما الرقيب بيلي بوي فقد مات في الممرّ الدامي.

بعد أن وضعت المعركة أوزارها، كتب شاب من وينكينسون إلى أمه يخبرها أنّه خبر ذلك "المدافع العظيم بين السماء والأرض".

وضع جرّاح جنوبيّ يداه الملطختان بالدم على وجهه ليغطي دموعه، وانفجر يصيح: «إنّي أكره المدافع».

وجد ديفيد ستروثر، المراسل الحربيُّ المتميّز في ويكلي هاربر، جثثاً منتفخة ومسودة. فكتب في تقرير: "انطمر كثيرون تحت التراب، مُزّقوا، حُطّموا، وداستهم الأرجل إذ بدوا ككتل من التراب. وكنت مضطراً أن أدقق النظر كثيراً قبل أن أتبيَن أنهم كائنات بشرية".

كانت الكلمة الأخيرة في حقل الذرة من نصيب الكونفدراليّين. فعندما توقّف ضابط اتحاديّ ليقول لأحد المتمردين المحتضرين: «لقد صمدتم وقاتلتم جيّداً ردّ عليه المتمرد: «نعم، وهنا نرقد!»».

* * *

ماذا لو. . .

ماذا لو. لم يكن الرقيب بلوس مولعاً جداً بالسيجارات؟

لكان روبرت. ي. لي قد وجد الطريق سالكاً إلى واشنطن.

ماذا لو- تصرّف ماكليلان بحزم أكبر عندما وقعت بين يديه خطّة هجوم لي؟

لكان استطاع أن يشقّ جيش لي الكونفدرالي ويمزّقه إرباً.

وفي كلتي الحالتين كانت الحرب ستنتهي.

الحقائق.

لم يُحسم شيء في ساحة المعركة. ذلك أن أمبروز بورنسايد ليس ستون دول جاكسون، وجورج ماكليلان ليس روبرت. ي. لي.

كانت أنتيتان، أو شاربسبورغ، كما يسمّيها البعض، نصراً معنوياً بالنسبة إلى لي، ونصراً سياسيّاً بالنسبة إلى الاتحاديّين. والعامل الذي يلقي بظلاله الآن فوق أنتيتام هو أن ابراهام لينكولن قد أخذ زمام المبادرة، وتغيّر وجه الحرب إلى الأبد.

إن موقعة انتيتان منعت بريطانيا وفرنسا من الاعتراف بالولايات الكونفدرالية الأميركية، ولو اعترف البلدان الأوربيّان الرئيسيّان بها، لانشقت الولايات المتّحدة إلى جمهوريتين منفصلتين، ٢٢ ولاية متّحدة، و١٣ ولاية كونفدرالية.

وقدمت أنتيتان الفرصة الأفضل لأبراهام لينكولن كي يصدر ميثاق الاعتاق(٥).

تفكير تاريخيٌّ بَعْدِيٌّ: بدراسة متمعّنة لتكتيكات انتيتام، كان بوسع السلطات الأوروبية أن تتفادى المجازر الهائلة التي

حدثت خلال الحروب الأوروبية ١٨٦٦ و١٨٧١، وعلى أدقّ وجه، تلك التي وقعت في مستهل الحرب العالمية الأولى. إن هول نيران المدفعية الكثيفة ضد المشاة كان شديد الوضوح، لكن لا أحد استفاد من تلك العبرة.

كان العامل الحاسم في أنتييتام ظرفاً فيه ثلاث سيجارات. وبسببه استمرت الحرب الأهلية الأميركيّة أربع سنوات دامية، إضافية.

الهوامش

(١) كانت تلك نسخة مرسلة إلى الجنرال أ. ب. هيل.

(٢) كان تعداد جيش الاتحاديين ٨٧,٠٠٠ بينما جيش الكونفيدراليين ٣٠,٠٠٠.

(٣) سيُجرح لي خمس مرات في ذلك اليوم قبل أن يُنقل إلى المؤخّرة.

(٤) قاد أحد أفراد سلالته، هاري جوزيف كوتز، الهجوم ضد هيل في فيتنام ١٩٤٣.

(٥) قانون يمنع الرق.

الفصل الثامن

كونتان وأميز واحد كوينجراتز
٣ تموز ١٨٦٦

Ihr glaubt Ihr ein Reich gegründet.

Und habt doch nur ein volk zerst? rt.

Franz Grillparzer. 1866

«تعتقد أنّك أسّست امبراطورية.
لكنّك دمّرت أُمّة».

يأمر قائد حصن كونيجراتس النمساوي، بفتح بوابات التحكّم بمياه السدّ، فيتدفّق الماء غزيراً ويرتفع منسوبه حول الشرفات المفرّجة(*). كانت درب السير الوحيدة القائمة فوق المنحدرات المغمورة بالماء، مكتظّة بجنود جيش متقهقر. وانتشر خلف متاريس الحصن ضباط يصدرون أوامرهم باللغة الألمانية،

(*) جدران ذات فتحات على سطح حِصْن يطلق منها النار.

الهنغارية، البولندية، الصربية ـ الكرواتية والإيطالية، محاولين فكّ هذه الكتلة البشرية المتشابكة أمامهم. فعلى مدّ البصر يتقدّم جيش، ببزّات بيض ملطّخة بالوحل، هباب البارود، والدم، من صوب النهر إلى بوابات الحصن. عربات تصرّ عجلاتها تحت ثقل أكداس الجرحى فيها، انحرفت عن الطريق وسقطت في المياه، التي لا يزال منسوبها يرتفع. وتعالت صيحات مَنْ يغرقون، طالبين النجدة. دفعت المدافع فوق حافة الجسر، وأجبر الخيّالة جيادهم على هبوط الجسر المنحدر، فكانت النتيجة أنْ كسرت رقاب الخيالة أو رقاب الجياد. أَسرِعْ أيها الجيش أسْرِعْ، فقد ضاع كلّ شيء. وارتفع ضباب المساء ببطء فوق الحقول المغمورة بالماء وفرد عباءته فوق هذه المأساة.

لم ير قائد الجيش شيئاً من هذا المشهد. ذلك أنه آخر مَنْ غادر ساحة المعركة، وعبر جسراً آخر. من جهة الجنوب، قبل أن يصل المنزل نفسه الذي انطلق منه في صبيحة ذلك اليوم؛ منذ اثنتي عشرة ساعة مضت، لكنّها ستؤثر على مستقبل أوروبا. وجد الجنرالات المهزومين متحلّقين حول طاولة. رفع الرجل النحيل الكثّ الشاربين كأسه، أخيراً وقال: "لنشرب في ذكرى كلّ الرجال الذين سقطوا اليوم سدى». قبل اثنتي عشرة ساعة كان يقود ٢١٥٠٠٠ جنديّ تفيض في عروقهم حماسة الشباب. وقد عاد بهم الآن، ببقيّة جيش كان يعتزّ بنفسه. نهض الجنرال ببطء وخرج. امتطى صهوة جواده وانطلق.

مع هبوط الظلام، أرسل قائد الحصن إلى امبراطوره يقول: «كلّ فيالقي مشتّتة داخل كوينجراتز وحولها، وليس بالإمكان القيام بأي عمل دفاعي. أرجو أن تمدّني بالأوامر.

لم تصله أيّة أوامر.

لقد طغى على حرب ١٨٦٦ بين النمسا وبروسيا، ظلال حرب فرانكو والنمسا ١٨٧١، بيد أنّ هذه الحرب هي التي هيّأت المسرح لسياسة التوسّع العسكري البروسيّة، التي انتهت بتأسيس الامبراطورية الألمانية الهوهنزلرنية(*) في قاعة المرايا في فرساي. ولو انتصرت النمسا في معركة كوينجرانتز، لما ذكر التاريخ أوتو فون بسمارك بأكثر من أنّه شخص كان طموحه أكبر من قدراته، وأحبطت خطّته العظيمة لتوحيد ألمانيا أو ذهبت أدراج الرياح. وما كان التاريخ عرف القيصرين فيلهلم الأول والثاني، وربما لم تكن قد وقعت الحربان العالميتان الأولى والثانية. ولما غدت أنظمة الزحف الألماني هي النموذج العسكريُّ الفعّال عبر العالم.

كانت استراتيجية بسمارك غاية في البساطة: إبعاد جيوش الامبراطور الفرنسيّ المغرور نابليون الثالث، عن ساحة المعركة أكبر فترة ممكنة ريثما يهزم النمساويّين ويعيد سيطرة البروسيّين على ألمانيا. واقتضت هذه الخطة نصراً ساحقاً وسريعاً. لكنّه نصر لن يُذلّ النمسا. فقد أراد إبقاء فيينا على الحياد في حال دخوله الحرب مع فرنسا، بل علاوة على ذلك، أرادها حليفاً مستقبليّاً ضد روسيا التي تشترك معها بحدودها الشرقية[1]. واقتضى الأمر جرأة وسرعة. ولهذا السبب، وظّف بسمارك أداته العسكريّة بحكمة وحنكة كي ينجح في فرض إرادته السياسية. وأجهضت جيوش الامبراطور فرانز جوزيف كلّ هذه الثورات بمنتهى الوحشيّة. ففي منتصف تسعينات القرن العشرين بدأ الجيش النمساوي، مؤسّسة هابسبورغ الرئيسة، بعد ستمئة عام يتداعى إلى السقوط. ويتحمّل

(*) هوهنزلوني أسرة ألمانية حاكمة ينتسب إليها ملوك بروسيا ١٨٧١ ـ ١٩١٨، وأباطرة ألمانيا من ١٨٧١ ـ ١٩١٨.

الجيش بمفرده مسؤوليّة خسارة حربين ضدّ إيطاليا (١٨٥٩) وبروسيا ١٨٦٦، وهما عدوان أضعف منه نسبياً.

كان العامل الحاسم في تينك الهزيمتين هو عدم كفاءة قادة الفيالق النمساويّة الذين أضاعوا سنوات السلام الميترينيكيّة الطويلة في صخب الاحتفالات بدلاً من تدريب رجالهم على السلاح، ولم يهتموا كفاية بروح الجيش المعنوية، إلاّ فيما يخصّ مضاعفة حصتهم من النبيذ قبل الانطلاق إلى ساحة المعركة. وأُغدقت الأموال على الضباط غير الضروريّين، وعلى النظام البيروقراطي الصارم. وكانت قيادة الجيش فاسدة وغير كفوءة، وقد أهدرت ميزانيتها على الرواتب بدلاً من شراء أسلحة حديثة. وجرى تجاهل التقنيّات الحديثة التي ثوّرت طريقة إدارة المعركة في العصر الصناعي المزدهر. ممّا أدّى إلى وقوع إصابات فادحة أفضت أخيراً إلى تمجيد قوّة نيران المدفعيّة البروسية «نيدل غَنْ» بأكثر مِمّا تستحق.

لا يزال قادة وحدات الجيش النمساوي حتى منتصف القرن يتبعون وإلى حدٍّ بعيد خطة الهجوم النابليونية المبالغ فيها. بناءً عليه كانت تزحف جيوش كثيرة في عمليّات هجوم عديمة الفائدة. رغم ذلك فقد أبلت قوّات المشاة النمساوية بلاءً حسناً، جرّاء قيادتها الممتازة. فقد صمدت في موقعة ماجينتا ١٨٥٩ في وجه الفوريا فرانسيس وردّ الفرنسيّين على أعقابهم[٢]. وفي سولفيرينو دحر الكونت ستاديون الحرس الامبراطوري لنابليون الثالث قبل أن يضطر إلى الإنسحاب[٣]. في ذلك اليوم، أظهر الجيش المتعدّد القوميّات صلاحيّةً، خصوصاً بوجود قائد لامع على رأس الجيشين النمساوي والهنغاري؛ فقد كان الجنرال لوديويج ريترفون بنديك قائداً محبوباً من قبل مرؤوسيه ورؤسائه ومحطّ احترام أعدائه أيضاً الذين سمّوه «البايارد النمساوي»[٤].

كان بنديك مجرياً، وهذا يعتبر نقيصة في التراتبيّة العسكريّة النمساويّة. لكن سرعان ما اكتشف الفيلد مارشال العجوز راديتزكي كفاءاته القياديّة[٥]. وكان بنديك إبان اندلاع الحرب مع بروسيا، في الثانية والستين، الرجل المناسب لقيادة القوات النمساوية. وقَبِلَ بنديك، متردّداً، هذا المنصب نزولاً عند رغبة امبراطوره. في البدء، وكما أوضح هو، لم يعرف شيئاً عن مسرح الحرب البوهيمي، حيث ستجري كلّ معاركه؛ ثانياً فقد خاض حروباً ضد الإيطاليين والفرنسيّين، فقط، ولم يواجه البروسيّين من قِبْل. والأهمّ من كلّ ذلك، إنه كان مدركاً جيداً لإمكانياته الشخصيّة. رغم أنّه كقائد جيوش جريء، لم يستطع أن يرى نفسه قائداً لجيش تعداده ربع مليون رجل. وفرض عليه الامبراطور، كي يزيد الأمر سوءاً، قبول قائدي أركان حرب غير جديرين بهذا المنصب. أولهما كريمانيك ذكيّ لكن كسول، وهينكشتاين عدواني لكن مغفّل. وعندما سمع بنديك عن تعيينهما بمرسوم امبراطوري، أعلن: «إنهما لا ينفعان في هذا المنصب إلاّ بقدر ما أنفع أنا في أليف أوبرا». لقد كان بنديك رجل معركة، لا رجل مناصب. وقصمت ظهره هذه المهمّة الملقاة على عاتقه. وشمّ رائحة الهزيمة في الهواء من حوله منذ لحظة تسلّمه أمر التعيين.

في مواجهته كان الكونت هيلموت فون مولتك، بروسي حصيف متحجّر القلب. وقد درس هذا القائد نتائج الحرب النمساوية الإيطالية ١٨٥٩ واكتشف أنّ قوة نيران المشاة هي التي ستحسم المعارك القادمة. بناءً عليه، وكي يحقّق ذلك النصر التكتيكي سلّح مشاته بدريزي «نيدل غَن»[٦] يتمّ تذخيرها من مؤخّرة الأسطوانة. وجرّبها في الحرب ضد الدانمارك ١٨٦٤

فمشاته متفوّقون الآن بكثافة نيرانهم، إضافة إلى أنّ إمكانية تلقيم بنادقهم وهم في حالة الانبطاح ترجّح كفّة النتائج لمصلحتهم. ومات هيلموت مقتنعاً أنّ بنادقه ستحسم المعركة لمصلحة الجيش البروسي في مواجهة بنادق النمساويّين التي تُلقَّم من فوّهاتها[٧]. أثناء الهجوم، ورغم أنّ العدوّ كان يطلق النار من وراء ساتر حماية لم يستطع تلقيم بنادقه بالسرعة الكافية لإيقاف مشاة مولتيك ومنعهم من إمطار صفوف عدوّهم بنيرانهم الغزيرة، في حين كان بوسعهم، أثناء الدفاع، أن ينبطحوا أرضاً ويتصيّدوا العدو المهاجم.

إذاً غدت «النيدل غَن» ملكاً، فقد بقيت المدفعيّة «ملكة ساحة المعركة». وتكمن قوّة الجيش النمساوي في مدفعيّته الرائعة. فغداة هزيمته في سولفيرينو عزّز الجيش النمساوي تسليحه بالبنادق ومدافع (تُذخَّر من الفوهات) عيار ثمانية أرطال، مصنوعة من الفولاذ.

وعندما أدركت البحرية البريطانية الملكيّة أنّ تفوقها البحري سيتوقّف على المحرّكات البخارية، والسفن المدرّعة، بدؤوا التجارب على مدافع ثقيلة مزوّدة بسبطانات فولاذية وتلا ذلك عهد اختراع جديد. فقد وجد ألفريد كروب، صاحب مصنع فولاذ، طريقة ثورية لتبريد الفولاذ في تبريد اسطوانات الفولاذ من غير أن تتشقّق. وهكذا ولدت المدافع التي تلقّم بقذائف. فزوّد مولتيك مدفعيته الميدانية بهذه المدافع الجديدة. بيد أنّ المدافع بحد ذاتها لا تستطيع أن تقرّر نتيجة المعركة. القادة وحدهم يستطيعون ذلك. واصطف على جانبَيْ موقعة كونيجراتز نصف مليون جنديّ بانتظار أوامر قادتهم.

تلقّى مركز القيادة النمساوي في كوينجراتز رسالة من الجنرال

جابلينتز تفيد بأنّ فيلقه انتصر في تروتينو. إنّه خبر طيّب. لكن حجم الإصابات في صفوفه كان ثلاثة أضعاف خسائر البروسيّين. تلك هي المشكلة. ويعرف بنديك أنّ الجيش النمساويّ لم يتدرب على استخدام البنادق، ويعتمد كلّياً على حرب السلاح الأبيض، حتّى في حالة الدفاع. وفي الوقت نفسه، كان بنديك يتلقّى وابلاً من برقيات امبراطوره. فردّ عليه: «أطلب من جلالتكم أن تعقدوا هدنة. فهناك كارثة محتومة تنتظر الجيش» فجاء ردّ الامبراطور حاداً ومختصراً: «إنّ الهدنة مستحيلة. آمرك، في حال انعدام أيّ خيار آخر، أن تنسحب بشكل منظّم. هل وقعت المعركة؟».

لم يترك أيّ خيار أمام بنديك. فاختار أن يتمركز في كونيجراتز. فكان موقعاً دفاعياً ممتازاً، حيث تستطيع مدفعيته تغطية ساحة طولها ألفي ياردة. وتتمركز قواته الرئيسة على قمة منحدرات متقدّمة، ومن ورائه إلب ريفر (نهر الالب). وعن شماله غابة كثيفة تمنع تقدم تشكيلات عسكرية كثيفة، وتمركزت ميمنته على شاطئ النهر. كانت مهمّة الميسرة تقديم الدعم، وتستطيع الإنسحاب إلى مرابض المدفعية.

طالما كان مبدأ مولتيك «امشوا منفردين، قاتلوا مجتمعين».

قام الجنرال البروسي بمغامرة محسوبة وقسم جيشه إلى جيشين رئيسيّين يهاجمان في آن معاً. ويعتمد نجاح هذه المغامرة على أسبقية تقدّم جناحي الجيش المهاجمَيْن. قاد الجيش الأول كروان برينس، وقاد الثاني برينز فريدريك كارل. لو كان بنديك يمتلك مواهب نابليون العبقرية، لهاجم جناحَيْ الجيش البروسي وحقّق نصراً مؤكّداً. إنّ الفرص الطيّبة تأتي مع الجرأة، وهذه كانت في الجانب البروسي. لم تكن دورية الفرسان الاستطلاعيّة النمساويّة مغامرة وبذلك بقي بنديك جاهلاً بمكان تواجد البرينس

فريدريك كارل. في الواقع، أنّ الجيش البروسي الثاني قد انضم إلى جيش الألب بقيادة فون هبروارث خلال مناوشات عند جتشتاين، بينما تعزّزت القوات البروسيّة الرئيسيّة بفيلقَيْ فون بونين وشتينمتيز. واحتاج ذلك الأمر إلى مناورة دقيقة. وأطبق الجيشان البروسيّان في الأول من تموز على الجيش النمساويّ. وبعد دراسة متأنيّة لمواقع الاستراليّين، كما نقلت له دوريات استطلاعه خلص مولتيم إلى أنّ تشلوم هي مفتاح الحلّ، وهي قرية صغيرة هادئة تنتشر حول كنيسة وطريق رئيسيّة، تحميها غابة تعرف باسم سويبوالد.

في منتصف ليل الثاني من تموز، قدّم الجنرال مولتيك خطّته النهائية إلى ملك بروسيا. أمر جيش الإلب أن يهاجم ميسرة البروسيّين، وأمر جيش فريدريك كارل، الذي تعزّز بفيلق فون بونين، أن يهاجم القطاع البروسي الأوسط بينما، في الوقت نفسه، ستترك القوّة الرئيسيّة بقيادة كروان يرنيس لتهاجم ميمنة العدو. وساءت حالة الجوّ، واستمر هطول المطر طوال الليل. وانطلق الجيش الثاني، وسط الوحول، بقيادة فريدريك كارل في الثالثة فجراً، بينما بقيت القوة الرئيسة بقيادة كراون برينس في المعسكر حتى حلول الصباح.

أمضى ريترفون بنديك الليلة في نزل «زور ستادت براغ». نظر من نافذته فرأى صباحاً رطباً مبشّراً بالمطر، وضباباً يرتفع فوق حقول الحنطة المداسة. فجلس ليكتب رسالة لزوجته: إذا رافقني حظيّ القديم فيمكن أن تكون النهاية سعيدة. وإن لم يكن الأمر كذلك، فدعيني أقول بتواضع: «إني وقبل أن ألفظ أنفاسي سأفكّر فيك أنت، بامبراطوري وبالنمسا. إني مرتاح البال، وسأكون سعيداً عندما أسمع دويّ المدافع».

وسمع قصف الرعد قبل أن ينهي رسالته.

كلا العدوين لم يكن لديهما معلومات كافية أحدهما عن الآخر. فقد كان بنديك في موقع تكتيكيٍّ جيّد، رغم أنه يسلّم ظهره إلى نهر الألب. ووصلت طلائع جيش برينس فريدريك كارل إلى بيستريز فالي في الساعة السابعة. كان يعتقد أنّ الجيش البروسي متمترس عبر النهر ـ وفق الاستراتيجيّة العسكريّة المنطقية ـ وبدون أن ينتظر وصول جيش كراون برينس البروسي، أرسل فوج فرسان كي ينصبوا الجسر عبر البيستريز في سادوا. فاصطدموا بكتيبة قناصة نمساوية(٨)، كانت متمركزة هناك كقوّة حماية متأخّرة. ورغم المباغتة، استجابت البطاريات النمساوية بسرعة وأمطرت البروسيّين بوابل نيرانها، وأجبرتهم على الإنسحاب بعد خسائر فادحة. عقب ذلك، أرسل الأمير البروسي عدّة كتائب مشاة مهّد لها قصف مدفعي سوّى القرى الصغيرة، على الضفة الأخرى، بالأرض.

وأثناء حدوث هذا الاشتباك الأوّلي، كان بنديك لا يزال في طريقه إلى مقرّ قيادته. وصل مركز القيادة قرب قرية ليبا حيث قابل كريسمانيك، الذي علم في تلك اللحظة أنّ الأمبراطور قد صرفه من الخدمة. وفرح هينكشتاين، المساعد الثاني لبنديك، لسوء حظ زميله.

درس بنديك الوضع: قطاعه الأوسط قوامه ٤٤٠٠٠ رجل و١٣٤ مدفعاً؛ وقوام ميسرته ٥١٠٠٠ رجل و١٤٠ مدفعاً، وفي الميمنة ٥٥٠٠٠ رجل و١٧٦ مدفعاً. وقواته الاحتياطية ٤٧٠٠٠ جندي، ١١٥٠٠ فارس و٣٢٠ مدفعاً. لقد شيّد بنديك موقعاً منيعاً هذا في حال التزم قادة فيالقه بالأوامر ولم يغادروا مواقعهم، قرّر بنديك أن يدفع بجزء من مدفعيّته الاحتياطيّة لتعزيز موقعه الأوسط.

ولأجل ذلك، قام بجولة تفتيش على وحداته الاحتياطية. فوجد «بايارد النمسا» محبوباً كعهده به، والقوات تهتف له «هورا!» أو «زيفيو!» أو «إلجين!» بينما كانت فرق الأفواج تعزف مارش رادتزكي. بعدئذٍ صعد إلى التلة كي يشرف على ساحة المعركة. كان قد أُخبِرَ أنّ فيالقه الثلاثة المتقدّمة قد تراجعت بانتظام إلى الغابة الكثيفة. وعندما حاول البروسيّون أن يتقدّموا وجدوا أنفسهم تحت وابل نيران مدفعيّة بنديك. وهلك القسم الأعظم من الكتائب البروسيّة بالمدفعيّة النمساوية في غابة سويبوالد.

سقطت القذائف الأولى في وادي بستريتز بينما كان كراون برينس يتناول فطوره، ثم استعرض فوج جنده[٩]. وصل جنديٌّ على صهوة جواد: «أودّ أن أبلغ سموّكم أنّ المعركة قد بدأت». الحادثة ذاتها تكرّرت منذ خمسين عاماً في واترلو. لقد هاجم فريدريك كارل (نابليون) وسمع كراون برني (غروتشي) دويَّ القنابل من بعيد. والفارق الوحيد هو أنّ قوات كراون، بخلاف الخطأ الذي ارتكبه غروتشي، تحرّكت باتجاه مصدر دوي المدافع.

واتضح أمر واحد للنمساويين. لقد أخطأ مولتيك خطأً فادحاً عندما هاجم بجيش واحد فقط. فقد كانت فرصة النصر محقّقة، خصوصاً بغياب أيّة أمارة عن وصول بريتس البروسي وجيشه الرئيس. ولم يكن نزوة ذلك الأمل الذي خامر بنديك في أن تُضعِف مدفعيّته المتفوّقة صفوف البروسيّين. لكن مع حادثة على وشك الوقوع، كان بإمكانه أن يحقّقه رغم كلّ المصاعب.

كان الكونتان فون فرانشسكي وفون فيستيتش قائد الفيلقين النمساويين، ثريين من أسرتين مرموقتين ويربآن بنفسيهما تلقّي الأوامر من ذلك الـ«ريتر» كي يثبتا في موقعهما، الجناح، لصدّ الهجوم المتوقّع من جيش كراون برينس، الذي لم يلح في الأفق

بعد. فقد سئم الكونتان من الانتظار في موقعهما القيادي من دون المشاركة في قتال العدوّ. فارتكبا خطأ في تقدّمهما والإبتعاد ألف ياردة عن خط الدفاع النمساوي الرئيسي، الذي واجه حتى تلك اللحظة سلسلة مرتفعات محصنة بإحكام. وكان بنديك قد وضع كل الترتيبات ليتجنب هذه الحالة تحديداً. لكن الكونتَيْن، خرقا ذلك الترتيب، تقدّما باتجاه الفرقة البروسية السابعة بقيادة الجنرال فون فرانشسكي الذي وجد نفسه عرضة لهجوم جحافل المشاة النمساويّين في سويبوالد. ولم يستطع النمساويون استثمار قوتهم البشرية في الدروب الضيّقة للغابة الكثيفة، وفقدوا بذلك فاعلية هجوماتهم. بالسلاح الأبيض، الانتحارية. فتكرّر هنا ما جرى في أجينكورت، إذ اشتبك الصفّ المهاجم الأول في قتال ضارٍ، رجلاً لرجل، بينما لم يستطع الصف الثاني أن يتدخّل في المعركة. وسرعان ما اكتشف البروسيّون أن النمساويّين قد هاجموا من غير أن يفكرّوا في حماية خاصرتهم التي هاجمتها الآن الفرق البروسيّة، وفلت زمام أمور المعركة التالية، من أيدي القادة النمساويّين - فهاجمت وحداتهم بدون أوامر، وانسحبت وحدات أخرى لحماية الخاصرة، بينما أسفر الضغط البروسيُّ المنضبط عن احتلال قرية سيستوز. لاحظ الجنرال فيستيش خطأه فأرسل فرقة لسدّ الثغرة. فاستعمل البروسيّون بيوت القرية كمتاريس، وأطلقوا النيران من نوافذها ومن فوق جدرانها على موجات الهجوم البيض. كانت معركة غير متكافئة ومات فيها تقريباً كلّ الضباط النمساويّين ومعظم جنود الفرقة الثانية عشرة، والإيطاليين في الفرقة السادسة والعشرين.

ترأس الجنرال فون فيستيش هجوماً بالسلاح الأبيض على القرية، قاد هجوماً شجاعاً لكنّه قاتل، وجُرح فيه جرحاً بليغاً وقتل

أيضاً مساعده. حلّ الجنرال موليناري محلّ الجنرال فيستيش. ولم يستطع الكونت ثون، الذي عجز عن فهم ما يجري لجنود فيستيش، أن يطيق صبراً، فنزل بفيلقه الثاني إلى سويبوالد. كيف حارب أولئك النمساويون! إنهم شجعان، لكنّهم انتحاريون. عزفت الفرق الموسيقية نشيد رادتيزكي، رفع الضباط سيوفهم وتقدّمت كتائبهم. لم يطلق جنوده النار، واعتمدوا فقط على «فولاذ حرابهم البارد». وماذا يفعل ذلك كلّه أمام «النيدل غَن»، البندقية، الجديدة السريعة. فلم تستطيع معظم الكتائب أن تقترب أكثر من خمسين ياردة من صفوف البروسيّين الأولى. وسقطت الكتائب النمساوية، الهنغارية، الإيطالية والكرواتية، الواحدة تلو الأخرى في مجزرة مروّعة. وكان البروسيّون بقيادة فون فرانشكي يعرفون أنهم يجب أن يوقفوا الهجوم وإلاّ قضى النمساويون على قوات البروسيّين الرئيسة. لقد أبيدت الفرقة السابعة. كانت الأوامر لديها «اصمدوا وموتوا». وقد صمدوا وماتوا رجلاً لرجل. مات أربع وثمانون ضابطاً وألفان وست وثلاثون رجلاً. لكنهم أفشلوا الهجوم النمساوي.

أحبط بنديك عندما علم بمخالفة قائدَيْ الفيلقين لتعليماته الدقيقة، ونزلوا إلى سويبوالد وتسبّبا بتلك الخسائر الفادحة؛ إنه الخطأ ذاته دائماً مع ذينك الأرستقراطيّين النمساويّين غير المنضبطين. وفرغ خطّ دفاعه الشمالي تماماً. الآن، من المدافعين، بسبب تحركهما غير المناسب. لقد فات أوان استدعائهم الآن. ولحسن الحظ لم يكتشف العدوُّ تلك الثغرة الدفاعية بين سويبوالد ومواقع الوحدات التي تحمي ضفة النهر. ولم يستطع بنديك أكثر من الضراعة إلى الله ألا يكون كراون برينس في أيّ مكان قريب من ساحة المعركة. ولم يتأخّر وصول الجواب.

وصلت، في الساعة الحادية عشرة والنصف، رسالة تفيد بأن وحدات حرس كراون برينس تقترب من ميمنته. فشحب لونه، جعّد الرسالة ودسّها في جيبه. وكلّ شيء يتوقّف الآن على التحرّك الحاسم للفيلقين الرابع بقيادة فيستيش (موليتاري) والثاني بقيادة ثون ليسدا الثغرة في خطّ الدفاع النمساويّ.

في الوقت نفسه، وبعد تسع دقائق من تلك المعركة الدموية، بالسلاح الأبيض، وآلاف الإصابات، استطاع النمساويّون الشجعان، أخيراً، أن يخترقوا الجبهة إلى سويبوالد. لكنهم سمعوا فجأة صوت البوق يدعوهم إلى الإنسحاب. «إنسحبوا؟ تراجعوا إلى الوراء؟ تعنون أن نتخلى عن ما أنجزناه بعد هذه التضحية الكبيرة؟» هذا هو السؤال الذي ردّت به الوحدات البولندية، الهنغارية، الرومانية، الكرواتية والإيطالية. «ماذا يعنون بقولهم، إنسحبوا إلى الوراء؟» فقد هزموا البروسيّين. هل كان نصرهم عديم الأهمية إلى هذه الدرجة؟ وهل سالت تلك الدماء الغزيرة سدىً؟ مَنْ يستطع فهم ذلك؟ لم يستطع الضباط فهمه، ولم يستطيعوا شرحه لجنودهم خصوصاً أنّ القادة الباقين بعد المجزرة لا يتكلّمون إلاّ الألمانية. والشيء الوحيد الذين كانوا واثقين منه هو أنّ الفرقة الموسيقيّة توقّفت عن عزف نشيد راديتزكي. وخيّم الصمت على الغابة التي حوّلوها إلى مقبرة. وانسحبوا إلى الوراء سريّة تلو الأخرى، متخلّين عن قتلاهم وجرحاهم. الآن وقد اضطرت القوات إلى الإنسحاب فلم يعد لتضحيتها معنى. وفقد الجنود أي رغبة في القتال، بعد أن شعروا أنهم خذلوا. فخرجوا من بين أشجار الغابة الكثيفة المحطّمة ليجدوا أمامهم برج كنيسة تشلوم.

امتطى بنديك صهوة حصانه وانطلق ليتأكّد بنفسه إذا كان الجنرال موليناري قد امتثل لأوامره وسحب كتائبه بسرعة إلى

مواقعها الرئيسة. غير أنّ الكتائب كانت تنسحب أرتالاً عندما هاجمتها الفرق البروسيّة بقيادة كراون برينس.

وصل كراون برينس وجيشه في الوقت المناسب. فدرس الأمير الحالة بالسرعة القصوى. فهو يرى النار تلتهم القرى المنتشرة باتجاه بريستريتزفالي. من الواضح أنّ جيش فريدريك كارل قد انهزم. والوضع يقتضي عملاً فورياً ضد ميمنة الجيش النمساويّ. لكن أمامه منحدر قاسٍ مكشوف يُتوِّجهُ صف من أشجار الدردار. لقد أدرك أنّ هذا سيكلّفه غالياً، لكن لا مناص من المغامرة. فأوعز إلى كتائب حرسه أن تنتشر بتشكيلاتها. وشرعوا يصعدون التل الذي أسماه ليندينبرغ[١٠]. فأطلقت المدفعيّة النمساوية النار، من بعيد، على صفوف الجند المتقدّمة. لكنّهم لم يتعرّضوا لرصاص البنادق، ولم يظهر أمامهم مشاة العدو. فهل كان ذلك الشيطان المجرم بنديك يخطّط لكمين؟ هل ستنطلق كتائبه النمساوية كعاصفة من فوق المنحدر، بحرابهم وصيحتهم (هورا) الكريهة تلك؟ لكن، لم يحدث شيء من ذلك القبيل.

بلغ الحرس البروسي صف الدردار، ومن هناك رأى خطوط النمساويّين المهجورة! فأمر كراون برينس بالهجوم الفوري والإستيلاء على المدفعيّة النمساوية المهجورة. فصعدت الكتائب البروسيّة المنحدر واجتاحت موقعهم المتقدّم، وأصبح بالإمكان رؤية الجيش النمساوي، لا بل أيضاً، رؤية طوابير الجيش البروسي المتقدّمة بقيادة قائد الفيلق الجنرال فون بونين.

كان أبيانو هو المسيطر على قرية تشلوم ذات الموقع الاستراتيجي. وفي الساعة الخامسة عشرة إلا ربع وصل الكولونيل نيوبر إلى مقر قيادة بنديك، شاحب الوجه وقال: «رسالة لكم، يا سيّدي».

«لا يوجد بيننا أسرار، يا عزيزي نيوبر. ما هو هذا الأمر الهام؟».

فتحلّق أركان حربه من حوله ليسمعوا مضمون الرسالة:

«في هذه الحال عليّ أن أبلغكم أنّ البروسيّين قد احتلوا تشلوم».

«لا تهزر، يا نيبور».

«أقول الحقيقة، يا سيّدي، لقد احتل البروسيون تشلوم».

الآن، شحب وجه بنديك فقفز على صهوة جواده، ولحق به أركان حربه. لكن ما إن وصلوا القِمّة ورأوا قرية تشلوم أمامهم، حتى هطل عليهم وابل من الرصاص. فقُتل حصان هينكشتاين، وسقط الأمير إيسترهيزي عن جواده، وأصيب الكونت غروين بجرح خطير. وما الذي جرى لأبيانو وفرقته؟ لا أحد يعرف شيئاً، سوى أنّ البروسيين قد اقتحموا مركز النمساويّين. إنها مسألة دقائق. فأسرع بنديك إلى فيلقه الثالث ليساعده في إخراج البروسيّين من القرية. وصلت وحدة هنغارية. ولأوّل مرّة افتقدت صيحته إلجين (هورا) رائحة الكحول. ولأوّل مرة لا يُظْهِر الهنغاريون حماساً في اللحاق بجنرالهم ماجيار.

بينما كان الفيلق الثالث ينخرط في الهجوم، اجتاحت القرية أمواج متتالية من البزّات البيض. مدفوعاً بضراوة المعركة، وبمحاولته لتحضير جنوده على بذل جهد خارق، امتطى بنديك جواده وانطلق أمام جنوده ليقود الهجوم بنفسه. تمترس البروسيّون في المزارع والبيوت. جعلوا من فناء الكنيسة وسورها متراسهم الأخير، وكان في صفوفهم الملازم الشاب بول فون هيندينبرغ[١١]، وخسر النمساويون، في ظرف عشرين دقيقة، ثلاثمائة ضابط وأكثر من ألف رجل. لكنّهم نجحوا في العودة إلى

القرية. وأحاط فوج بالكنيسة وأسر ثلاثمائة جنديٍّ بروسيٍّ. غرس قائدهم والدرسي راية فوجه أمارة الوقفة الأخيرة. وجُرح الأمير أنطون فون هوهينزوليرن ووقع في الأسر. ثم وصل أشهر الأفواج النمساوية، Die Deutch meister، وكان النمساويّون قد استعادوا معظم القرية. ولا يزال الجنرال فون هيللر، قائد الوحدة البروسيّة، وبعض من مساعديه، صامدين. وفي هذه اللحظة وصل الفيلق الرئيسيّ بقيادة فون بونين، إلى المدافعين.

«حمداً لله، أنكم وصلتم»، قال الجنرال البروسي.

«وبأعداد هائلة، أيها الجنرال».

الآن ستعود الأمور إلى نصابها، قال الجنرال فون هيللر ـ وهوى ميتاً عن صهوة جواده. وانطلق فيلق فون بونين البروسي إلى الأمام. فكان الهجوم المضاد مظفراً. التفوا حول خاصرة النمساويّين ودحروا ذوي البزّات البيض خارج القرية.

أطلقت المدافع النمساوية نيرانها عن إحدى التلال باتجاه تشلوم. فلفت هذا الفعل الشجاع انتباه ألف بندقية، وقُتل آمر الرمي الكابتن غروبيين. فصمتت المدافع فجأة. وعندما وصل أول البروسيّين إلى مدفعيّة غروبيين وجد ضابطين وخمسة وعشرين رامٍ، كلّهم موتى. ولا شيء الآن، سيقف بوجه الزحف البروسيّ.

وعندما عجز بنديك عن سحق جحافل القوات البروسية الجديدة المتدفّقة إلى تشلوم، قرّر أن يوجه كلّ انتباهه إلى اختراق الخاصرة حيث تخلى مسبقاً قائدي فيلقيه، ثون وفيستيش عن موقعيهما. من غير أن ينتظر الأوامر من مولتيك، هاجم كراون برينس فوراً فيلق ثون واقتحم خاصرته المكشوفة. ولم يعد لدى النمساويّين ميمنة بعد أن سحقت قواتهم الرئيسة.

أبلغ بنديك، بحلول الساعة الخامسة عشرة أنّ ميسرته

تراجع، أيضاً، أمام الهجوم المكثف لجيش إلب البروسي، وبعد أربعين دقيقة بدأ البروسيّون يتقدّمون على ثلاثة محاور. لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة إلى بنديك، لكن عليه أن ينقذ ما يستطيع إنقاذه؛ وهو مضطر، من أجل ذلك، أن يؤمّن حماية طريق الإنسحاب عبر جسور الإلب. فأعقب ذلك سلسلة معارك فروسيّة لا يبزّها رعباً وحجماً إلا هجوم نيْ اليائس في واترلو. وعلت غيوم من الغبار حيث يتقدّم الفرسان، يتقابلون وينسحبون. واشتركت مدفعيّة الطرفين في معركة الفرسان، فزادت الفوضى فوضى.

في عصر ذلك اليوم، تفقّد ملك البروسيّين والجنرال مولتيك ساحة المعركة. كانت خسائر الطرفان فادحة: ٤٤٠٠٠ نمساوي و٩٠٠٠ بروسي، يغطّون ساحة المعركة: سويبوالد، وتشارك النمساويون والبروسيّون الموت في دزينة من القرى المدمّرة.

انتهت المعركة، لكن الميدان أصبح ملك الموتى.

ماذا لو...

ماذا لو ـ وصل جيش كراون برينس في الوقت المحدّد، أي في بداية المعركة؟

لاستطاع فَيْلَقا ثون وفيستيش أن يدافعا عن موقعهما أو يصدّا الهجوم البروسي.

لاستطاعت المدفعيّة النمساوية المتفوّقة أن تربح معركة ذلك اليوم.

الحقائق:

التفت جنرال بروسي، بعد انتهاء المعركة، إلى بسمارك وقال له: «سعادتكم أصبحتم الآن رجلاً عظيماً، لكن إذا تأخّر كراون برينس في الوصول، فستصبحون الآن الوغد الأعظم». هزّ بسمارك

رأسه موافقاً، وعلّق، مستخدماً عبارة ويلينجتون الشهيرة: «نعم، لقد كانت خطّة محكمة».

كانت القوات البروسية منهكة القوى وأعجز من أن تطارد النمساويين المنهزمين. وهذا يناسب جداً خطط بسمارك السياسية. فقد كان بحاجة إلى النمساويّين من أجل خططه السياسيّة العالمية، مستقبلاً. بخلاف مولتيك، الذي وبُّخ جنرالاته في ذلك المساء بسبب فشلهم في استغلال النصر بشجاعة أكبر. (وهذا يظهر أن الحرب قضية حساسة جداً يجب ألا يترك أمر حسمها للجنرالات. فجعل مولتيك مهمته التالية إعادة صياغة النظرية التكتيكية لجيشه. فقد أدرك بوضوح أنّ «النيدل غن» لم تكن ملك المعركة، بل دقة الرماة النمساويّين الذين لم يكن بينهم وبين ربح المعركة إلا شعرة واحدة[١٢]. وساعدته ملاحظته النزيهة في كوينجراتز على كسب المعركة ضد فرنسا في ١٨٧٠.

تلقّت فرنسا، في موقعة كوينجراتز، شرَّ هزيمة سياسيّة تشبه هزيمة النمساويين. ووجد نابليون الثالث نفسه مضطّراً إلى مواجهة القوة البروسيّة العسكريّة الناشئة. وأسرع الفرنسيّون في تسليح مشاتهم ببنادق تشيزبون[١٣] للحدّ من تأثير «النيدل غن» البروسيّة، حتّى أنّ فرنسا طوّرَت سلاحاً أشد فتكاً، وهو La mitrailleuse ميتراليوس ـ البندقية الآلية[١٤]، لكنّهم استخدموها كسلاح مدفعيّة. وهكذا لم يستثمر على الوجه الأكمل هذا السلاح الأكثر تطوّراً تقنياً، في دعم صفوف المشاة.

وتلقّى الجنرال بوديغ ريتر فون بنديك مكافأة فَظّة مقابل ولائه. تلقّى رسالة من فيينا: «لقد رأى جلالة الامبراطور أنّه لا بدّ من إجراء تحقيق مع سيادتكم نظراً لمسؤوليتكم في إدارة الحرب...».

ومثل بنديك أمام محكمة عسكرية سريّة. كان قرار المحلّفين مقرّراً مسبقاً ـ لا بدّ من وجود شخص مذنب، وهو بالتأكيد ليس من الأرستقراطية النمساوية. وأُجبر بنديك، الهنغاري البسيط، على توقيع تعهّد بعدم إفشاء مضمون حديثه مع الامبراطور. ثم طرد من الجيش بدون أي احتفال[١٥]. وهكذا توفي «بايارد النمسا» كرجل كسير النفس.

أعيد تنظيم قيادة الجيش النمساويّ. وانشغلت القيادة الجديدة بإصلاح مواطن الضعف الناتجة عن كارثة كونيجراتز. وبقي الأمبراطور فرانز جوزيف محايداً في الحرب الفرنسيّة ـ البروسيّة ١٨٧٠ـ ١٨٧١ وتوّج فيلهلم الأوّل أمبراطوراً، وسارت ألمانيا الموحدة تحت البسطار البروسي إلى الحرب العالميّة الأولى ١٩١٤.

لم يعد باستطاعة الأمبراطوريّة النمساوية، ذات الستمائة عام، أن تلعب دوراً مسيطراً على الساحة الدولية وخسر جيشها، على جبال بوهيميا، فرصته الأخيرة في تقرير مجرى التاريخ.

العامل الحاسم في كونيجراتز كان عدم التزام الكونتَيْن النمساويَيْن بالأوامر الصارمة، إضافة إلى الوصول البالغ الأهمية لجيوش الأمير البروسي.

(١) تعتمد سياسة بسمارك على عدم خوض معركة على جبهتين. وعندما جرى تجاهل سياسته هذه في مستهل الحرب العالمية الأولى، تسبّبت بخسارة ألمانيا للحرب.
(٢) كان النمساويون بقيادة الكونت غيولا سينتصرون في ذلك اليوم لو لم يخف قائدهم.
(٣) رغم أن نابليون الثالث بعث إلى باريس برسالة: «معركة عظيمة،نصر عظيم».
(٤) كان بايارد رجلاً فرنسيّاً من القرن السادس عشر عُرِف باسم «بايارد، لا عيب فيه، لا خوف لديه».
(٥) لا يقتصر ذكر راديتزكي على إنجازاته العسكريّة، بل إن جوهان شتراوس قد ألّف مقطوعة موسيقيّة تحمل اسمه وتختتم بها احتفالات العام الجديد في النمسا، كلّ عام.
(٦) أطلقت عليها هذه التسمية بسبب طول سبطانتها التي يوضع فيها خرطوش كرتوني. تردد الجيش الإنجليزي في استخدامها. وقال اللورد واڤيل: «لا مكان في الحرب للأسلحة الحساسة». لكن الفرنسيّين، وبعد دراسة النتائج الحاسمة لاكونيجراتز، زوّدوا جيشهم ببندقية تشيزبوت، التي طوّرها أ.م. تشيزبوت ١٨٦٣، وكانت متفوّقة على بندقية دريزي البروسية.
(٧) كان في بنادق الدريزي عيب واضح. فبعد عدة صليات يصعب إخراج الخرطوش من أكرة الإنفجار ويتسرّب الغاز غزيراً فيؤذي الرامي؛ وبذلك يصعب عليه وضع خده على البندقية وهذا يفقده إمكانية التسديد المحكم، فبدلاً من ذلك راحوا يطلقون النار في حالة الوقوف، والبندقية مسنودة على الورك.
(٨) قناصة، أو صيادون، هم جنود متمرّسون يعملون كفريق حماية وهم مشهورون بمهارتهم العالية في الرماية والاستفادة من التضاريس الطبيعية.
(٩) عزا كراون برينس تأخره، بعد الحرب، إلى سوء أحوال الطرق نتيجة الأمطار الغزيرة.
(١٠) مرتفعات الماسلود.
(١١) بطل موقعة تانينبرغ في الحرب العالميّة الأولى.
(١٢) الإيضاح الأفضل هو أن الملك لم يسمح للبروسيّين أن يتقدّموا من الوسط

(تشلوم) قبل أن تجعل المدفعيّة النمساوية من ميمنة البروسين هدفاً لها.

(١٣) عانى البروسويون من خسائر فادحة، عندما هاجموا في تشكيلات سرايا، العام ١٨٧٠.

(١٤) الموديل الأول منها يطلق ١٥٠ طلقة من البندقية.

(١٥) لقد سرق خادمه الشخصي زيّه العسكري. وعندما سمع كراون برينس بذلك، أعطى ميدالياته إلى بنديك.

الفصل التاسع

معركة عادلة سبيون كوب
٢٤ كانون الثاني ١٩٠٠

«بخلاف السودانيين الذين يصمدون في معركة عادلة،
إن البويريّين يهربون دائماً على صهوات جيادهم الصغيرة».

الجنرال لورد. هـ. كيتشيز
كيب تاون، ١٩٠٠

أيّ جحيم هذا...؟ صاح بيرت برود بنت، رامي بندقية، من فصيلة رماة لانكشاير الثانية. تلك كانت كلماته الأخيرة قبل أن يسقط جرّاء رصاصة في الرأس، وتدحرجت خوذته فوق المنحدر الشديد. كان أول القتلى يومئذٍ، لكنّه لم يكن آخرهم.

٢٤ كانون الثاني من القرن الجديد. ماذا كان يجري حقيقة، على تلك التلّة الغامضة ذات الاسم الأكثر غموضاً سبيون كوب، لذلك الجيش الاستعماري الجيّد التدريب، ببزّاته الكاكيّه وخوذاته المموّهة لقد جاؤوا من وطنهم الذي يبعد آلاف الأميال، ليحاربوا في بلد لا يعرفونه ولا يهمهم أمره. حتى إنّهم لم يحاربوا جيشاً، بل نملاً، أفاعي ورهطاً من المزارعين الفظّين الذين رفضوا أن

يصمدوا ويموتوا في معركة عادلة. ويختبىء الآن الجنود المحترفون، المرتبكون الخائفون، في خنادق سطحيّة فوق حيد ضيّق. لقد احتلوا هذا الموقع ليلة أمس، ثم صنعوا متاريس، كيفما اتفق، وغطّوا في النوم. والآن!

رفعت حرارة الشمس الإفريقية سديم الصباح الذي كان يغطّي قِمّة الجبل، حوالي الثامنة والنصف صباحاً. واختفى ذلك الحيد الضيّق الذي أشار إليه قائدهم، فوق خارطته، قبل أن يتسلّقوا التلة ليلة أمس. أصبحوا مكشوفين الآن. والأسوأ من ذلك إنّهم لا ينظرون إلى الأسفل، بل إلى الأعلى! ويمتدّ أمامهم منحدر عليهم صعوده للوصول إلى القمة. كانوا على نجد تحيط به ثلاث قمم يربض فوقها عدوّهم! ولِوَصفِ الوضع بدقة أكثر: لم يكونوا فوق قِمّة، وعلاوة على ذلك كانوا فوق التلة الخطأ!

غير أن الكولونيل أليك ثورنيكروفت، الذي قاد تقدّم كتيبة العميد ي.ر.ب وودجيت، البالغ عددها ١٨٠٠ رجلاً، صاعداً المنحدر، أدرك ذلك المأزق المميت. فاتّصل مع وودجيت الذي أمره بتقدّم فوري حتى بلوغ ريف صخري على حافة التل. لكن وقبل أن تقطع السريّة الأولى منتصف الطريق تلقّت وابلاً من نيران وحدة متطوّعي كارولينا الذين كانوا رابضين وراء تلك الصخور. وأسقط في أيدي جنود وودجيت الذين لم يجدوا ما يفعلونه غير الغوص في الأرض بحثاً عن ملجأ. لكن أين الملجأ؟ فالأرض قاحلة مسطّحة، تتناثر فيها بعض الصخور الصغيرة. وانفجرت الأرض من حولهم، فجأة بنبع دخان، وأمطرهم البوبريّون، المختبئون جيّداً خلف ريف صخري آخر، بوابل نيران بنادقهم الموزير. فلم يستطع جنود فرقة لانكاستر أن يتقدّموا أو يتراجعوا. فمكثوا مكانهم مثل خنافس أُلصقت بالأرض.

بدأ الأمر ليلة الثالث والعشرين، عندما استأجر وودجيت غريبَيْن، ليسا بويريَيْن، يعيشان في ترانسفال، ليرشداه إلى قمم المرتفعات الاستراتيجية. وربّما كان ذلك المرشدان أقلّ مِمّا ادعيا، وربّما كانا بويريين متنكّرين، ومهما كان الأمر. فقد هربا في ظلمة الليل وسط ارتباك الجنود البريطانيّين الذين تُركوا ليشقّوا طريقهم بأنفسهم. وصل المشاة المتسلّقون بقيادة إليك ثورنيكروفت، أخيراً ما اعتقدوه قِمّة الجبل، فقد سمعوا فجأة همسات تسأل: «مَنْ هناك؟».

ولشدة المفاجأة نطق الكولونيل عفوياً بكلمة السرّ، «واترلو»، فتلقّى على أثرها، هو وجنوده وابلاً من الرصاص. فأصدر الكولونيل أمراً تناقله كلّ جنوده: «ركّب الحربة!» وخيّم الصمت في الفترة التي كان يلقّم فيها الرماة بنادقهم.

صاح الكولونيل «هجوم!» فكانت وحدته أوّل القوات الواصلة إلى القمة، هبّوا كرجل واحد وهجموا على خط البويريّين، وهم يصرخون ملء حناجرهم: «ماجوبا!»، اسم المكان الذي هُزم فيه البريطانيّون العام ١٨٨١ على أيدي البويريّين.

لقد نجت «ماجوبا!»، فانسلّ البويريون هاربين ليلاً. بقي منهم خمسة عشر متطوّعاً. لقد تفاجأوا بالأمر مثل عدوّهم، فلم يتوقّعوا أبداً أن يحاول البريطانيون احتلال التلة لأنها لن تفضي بهم إلى أي مكان.

أطلق البريطانيّون، بعد استيلائهم على القمة، ثلاث صيحات تهليل ليعْلموا قائدهم في الوادي أنهم حقّقوا المهمة. وسمع الجنرال وارن هتافاتهم وهو في خيمة القيادة.

«هكذا إذاً، احتلّوا القِمّة؟» قال مبتسماً.

«نعم، يا سيّدي»، أجابه مساعده.

«هل توجد مقاومة؟» سأل وارن وراح يدقّق النظر في خارطته الميدانية.

«نادرة، يا سيّدي، والخسائر قليلة جداً، وهذا أمر سار».

لو تصرّف بشكل جيّد، لكان رجاله قد تجاوزوا المنحدر السهل على الجهة الأخرى من كوب واتّجهوا مباشرة إلى نجدة الحامية البريطانية المحاصرة، وهذا هو الهدف الرئيسي لهذه العمليّة. ومع ذلك لم يفعل الجنرال وارن أيّ شيء.

كانت الأوامر: «احتلوا القمة وتمسّكوا بها» ولم يكن الجنرال تشارلز وارن قائداً ألمعياً. وبما أنّهم لم يتلقّوا أوامر أخرى، حاول فوج لانكاشاير أن يحصّن موقعه ويحفر خنادق دفاعيّة لكنّه أقلع عن ذلك عندما وجد الأرض شديدة الوعورة. وقد دحرجوا بعض الصخور واحتموا بها، ثم ناموا. وكان العميد ي.ر.ب. وودجيت «رجلاً لطيفاً»؛ فمنح قوّاته، المتعبة من تسلّق المنحدر، فترة استراحة. وهذا أيضاً لم يفعل شيئاً؛ لم يرسل دورية استطلاع لتستكشف المنطقة أمامه؛ لا بل انتظر وصول أوامر إضافية من الفرقة. ولم تصل أيّة أوامر. فقد انقطعت الاتصالات كلياً بين بوللرووارن، وبين وارن ووحداته الأمامية.

وقبل أن تسقط خيوط الضوء الأولى على المرج الإفريقي المتناثر الأشجار، زحف الضباب صاعداً سفح الجبل وحجب عنهم الرؤية. ثم انقشع ثانية.

«أيّ جحيم هذا..؟» لقد فات الأوان. سبق السيف العذل!

لقد بنى الهولنديّون في ١٦٥٢ مستوطنة صغيرة على رأس الرجاء الصالح، مركزاً تجارياً لسفن شركة شرقي الهند الهولنديّة. فقد كان الشرق مركز تجارة الحرير والتوابل، لا إفريقيا السوداء غير المستكشفة بعد. ثم إن الحروب النابليونيّة والباكس بريتانيكا

هما اللذان حدّدا سياسة بريطانيا البحرية. فالبحرية الملكيّة بحاجة لمحطات تزويد بالوقود في كلّ أرجاء العالم، ورأس الرجاء الصالح يقع على الطريق إلى الهند. فدفعوا البويريين (وهذه تسمية هولندية للمزارعين) إلى اليابسة في المداخل. قام البويريّون بهجرتهم الكبيرة في العام ١٨٣٠ واستقروا في أورينج فري ستيت وترانسفال، بينما استقرّ البريطانيّون على طول الساحل في رأس الرجاء وناتال. وسارت الأمور على ما يرام طيلة الخمسين عام التالية، حتى ١٨٨٦، عندما اكتُشف الماس في كيمبري والذهب قرب ويتووترسراند. أثار هذان المعدنان اهتمام بارونات المال البريطانيّين، خصوصاً سيسيل رودس، الذي بنى ثروته في عالم المناجم وخلّف اسمه بعدئذٍ على مقاطعة بأسرها، روديسيا. وحاول دفع الحكومة البريطانيّة إلى احتلال الإقليم الداخلي. وفشلت محاولة رودس لطرد البويريين من جوهانسبورغ، وقادها ضابطه الفاشل ليندر ستار جاميسون. فلقّنت رودس درساً، وعلّمت البويريّين أنّهم بحاجة إلى بنادق، وقوّة جيّدة التدريب لتحميهم. فقايض رئيسهم بول أوهم كروجر الذهب ببنادق الموزر ومدافع كروب، مع الألمان. وكانت هذه المدافع أفضل من كلّ سابقاتها في الحروب، فمسحوق البارود المستخدَم فيها لا يخلّف وراءه دخاناً أسود، كما ثبت لاحقاً. وهذا قلب ميزان المعركة التالية، إذ ترك الرماة الإنجليز غير قادرين على تحديد موقع الأهداف التي يريدون قصفها.

مثل كلّ الاكتشافات الأخرى، فقد اكتشف القطن المتفجّر صدفة. كان الكيميائي الألماني فريدريك شونبين يبحث عن قطعة فيبر جديدة لمستخدمه، صاحب مصنع قطن. فعالج القطن بمزيج من النتريك والسولفوريك أسيد فحصل على نترات السيلولوز

(نيترو سيلولوز)، المشهور باسم القطن المتفجّر، وهو أساس البارود اللادخاني. لم يعرف صاحب المصنع ماذا سيفعل بهذه «المادة غير المفيدة»، التي بالكاد يستطيع استخدامها لصنع قمصان سريعة الاحتراق. في الوقت نفسه، وجد ألفريد كروب الذي كان يعمل على تطوير مدفعه الفولاذي، فائدة كبيرة في استخدام هذه المادة كدافع مسيّر لقذائف مدفعه.

قدّم لهم الألمان المدافع والمدرّب، الميجور ألبريخت، الذي تعلّم التجارة خلال حرب فرانكور بروسيا. فسرعان ما شكّل قوّة، نخبة، مدفعيّة الفري ستيت، وكانت الوحدة الوحيدة في قوات البوير التي ترتدي بزّات نظامية. وعلّمهم مبادىء المدفع القذاف[١]، لكن الأكثر أهمية، أنه دربهم على التغيير السريع لمواقع الوحدات، تُطْلَق المدافع منفردة من مواقع خفيّة، بينما لا يزال العدو يستخدم مدافع نابليونية الطراز يصطف ستّة منها في منطقة مكشوفة.

كان الصراع وشيكاً. ففي يونيو ١٨٩٩، جلس البريطانيّون والبويريّون إلى طاولة المفاوضات، في عاصمتهم بلويمفونتين. قاد الوفد البريطاني المفوّض السامي في رأس الرجاء، سير ألفرد ميلنر، كان يشعر بفوقية كبيرة وهو بزيّه الرسمي. بمواجهة رجل عجوز أبيض اللحية، إنه «أدهم» كروجر ببذلته السوداء وقبّعتة، ويبدو أشبه بفلاح منه برئيس. وصلت مباحثاتهم الودّية إلى مأزق انفجر في ١١ أوكتوبر ١٨٩٩. ووقعت حرب البوير الثانية، التي سمّاها الأفارقة تويد فريهيد سورلوج.

كان البريطانيّون واثقين أنّ البويريين سيعتمدون على الكثافة البشريّة المهاجمة كما فعل الدراويش السودانيّون في أم درمان قبل عام، في ١٨٩٨ وقاد حملتهم الجنوب إفريقية الجنرال ريدفيرس

بولر، الذي سرعان ما حقّق لقب «ريفيرس بولر»(*). فقد انتقل بالتقنية العسكرية إلى مستوى جديد من اللافاعليّة عندما أمر، باعتباره قائد مركز التدريب، أن تجري المناورات فقط بين التاسعة صباحاً والخامسة عصراً، تتخلّلها استراحة في وقت الظهيرة، ولم يسمح لأيّ جندي أن يبحث عن ملجأ عندما يصاب.

ساعده في القيادة الفريق سير جورج وايت وقد وصل إلى ناتال قبل رئيسه بولر: اتخذ وايت قراراً بعبور توجيلا ريفر، ذلك الحاجز المائي المخيف، والتقدّم إلى ليد يسميث، رغم أنه يعرف أنّ فرقته، البالغ تعدادها عشرة آلاف جندي، ليست قادرة على مواجهة الخمسة وثلاثين ألف بويري الذين احتلوا مقاطعة ناتال. وحدث ما كان يجب أن يحدث. طُوّق جيش وايت، الصغير، وبدأ الحصار الكبير حول ليديسميث. لقد قاد عمله الأخرق هذا، الذي يفتقد إلى أي حسّ عام أو عسكري، إلى سلسلة كوارث حلّت بالبريطانيين.

أوّل سلسلة من الهزائم عُرفت باسم «الأسبوع الأسود» وقعت في أورينج فري ستيت، حيث وقع البريطانيّون بقيادة الجنرال ميثوين في كمين نصبه لهم البويريون بقيادة الجنرال بايت كرونجي عند مودير ريفر في ٢٨ نوفمبر ١٨٩٩، وبلغت خسائر البريطانيّين ٢٤ ضابطاً و٤٦١ جندياً.

بعد أسبوعين فقط، في ١١ ديسمبر ١٨٩٩، اصطدم ميتوين مع كرونجي ثانية، لكن في ماجر سفونتين هذه المرّة. ولم يكن ميثوين رجلاً يقبل النصيحة أو يعتبر من الخطأ. فأمضى نهاراً كاملاً

(*) ريدفيرس بولر، اسم علم كأي اسم آخر، يمكن، أو لا يمكن، أن يشكّل بشقّيه معنًى متكاملاً. أما «ريفيرس بولر» فتعني بولر النقيض..

يقصف تلّة يعتقد أنّ بايت يسيطر عليها، ولم يكن الأمر كذلك. وبعد أن اعتقد أنه قد دمّر كلّ المقاومة البويريّة، أمر العقيد واتشوب أن يقود ٣٥٠٠ جندياً اسكتلندياً إلى قمة الجبل تحت مطر ليلي غزير، وكان قصف الرعد فوق قمم الجبال يبدو لهم كقذائف المدفعيّة.

لقد أرسل ميثوين رجال واتشوب إلى فخ قاتل. فقد علم كرونجي، من مراقبيه، بكلّ تحركاتهم فأمر مدفعيّته المتمركزة على القِمّة فوقهم أن تمطرهم بقذائفها، وأن تصبّ نيرانها القاتلة على فلول البريطانيّين ذوي الرقاب الحمر. وأصيب الكثير منهم بالظهر وهم هاربين من ساحة المعركة. وعُثر على العقيد البطل واتشوب ميتاً في إحدى خنادق البويريّين. هذه الكارثة كلّفت البريطانيين ٨٦ ضابطاً و١٠١١ جندياً، بين قتيل وجريح. إلاّ أنّ البويريّين تكبّدوا ٢٠٠ إصابة هذه المرّة. من جديد، لم يشعر بولر، القائد الميداني، بأيّ قلق ولم يفعل شيئاً كي يؤنّب جنراله الأخرق.

كارثة أخرى حلّت بالبريطانيين في ذلك الأسبوع الأسود، في ١٠ ديسمبر ١٨٩٩، تسبّب بها الجنرال ويليام جاتاكر المشهور بباكاتشر، عند تقاطع سكك حديد ستورمبرج. سار هذا الأحمق بثلاثة آلاف جندي في الإتجاه الخطأ، وترك خلفه الرجل الوحيد الذي يعرف الطريق. وعندما انبلج الفجر، وجد البريطانيون أنفسهم عند سفح جبل شديد الانحدار، وعلى قمته كان البويريّون يحتسون القهوة. وبوسعكم تخيّل مفاجأتهم عندما رأوا البريطانيّين يبتعدون عنهم قبل أن يطلقوا النار عليهم. لقد نفّذ البريطانيّون انسحاباً جنونياً طلباً للأمان. وهنأ الجنرال جاتاكر نفسه لأنّه لم يفقد إلا ٨٩ رجلاً، لكنّه لم يأخذ في الحسبان ٦٣٣ رجلاً الذين وقعوا في الأسر لأنّه نسي، ببساطة، أن يأمرهم بالانسحاب.

تلقّى جاتاكر في ذلك المساء رسالة من رئيسه ريدفيرس بولر: «أتمنّى لك حظاً أفضل في المرّة القادمة».

لم يأتِ سقوط بولر على يد قائد البويريّين، بل على يد قائد فرقته، الفريق تشارلز وارن. ربّما لَمْ تُخرّج الأكاديميّة العسكريّة البريطانيّة أسوأ منه، على الإطلاق. وقد استُدْعِيَ هذا الرجل المتقاعد، في التاسعة والخمسين من العمر، من قبل اللورد ولسي، قائد القوات البريطانيّة، وسأله كيف يعامل حملة البوير، فقال وارن: «أقصف بالمدفعيّة، هاجمْ أرتالاً، ثم ارفسْ جوني بوير على مؤخّرته العارية».

لا بدّ أنّ بولر كان مدركاً لنقاط ضعف وارن، مع ذلك كلّفه بشق الهجوم الحاسم على سبيون كوب.

لكن في البدء كانت كولينسو ١٥ ديسمبر ١٨٩٩.

إجتاز بولر وقوّاته المروج الإفريقية المتناثرة الأشجار، سار بمحاذاة خطّ السكة الحديد الذي يفضي من مدينة دربان الساحلية إلى ليد يسميث. كان نهر توجيلا، غزير الجريان، هو العائق الوحيد أمام قواته المتفوّقة عدداً وعدّة المسرعة لإنقاذ حامية الجنرال وايت، البريطانية، المحاصرة في لديسميث. وبما أن بولر لم يكن يؤمن بفائدة قوات الاستطلاع الأمامية، استرشد بخارطته التي عفى عليها الزمان. كان أمامه أربع نقاط تقاطع محتملة: بوتجيتر دريفت، تريتشار دريفت وكلا النقطتان يجب عبورهما على عربات تجرّها ثيران، وجسران في منطقة كولينسو، أحدهما جسر حديدي منصبي للسكة الحديد. فاختار بولر ذلك المعبر، الذي يعرف أيٌّ مبتدىء، أنّ وراءه كمين. ولم يكن الجنرال البويري لويس بوثا مبتدءاً ولم يكن بوثا مضطراً لاعتماد دفاعات معقّدة، ذلك أنّ أيّ حس فطري سليم سيعتمد الاستراتيجية ذاتها. لقد

نسف بوثا جسر السكّة الحديد لكنّه لم يمسّ طريق الجسر بأذى كي يقود البريطانيّين إلى شرك. ولم يقع البريطانيّون في ذلك لكن ليس بسبب نباهة قائدهم، لا بل لأنّهم لم يعرفوا موقع تلك الطريق، أما بوتجيتر وتريتشارد دريفت فتقعان بعيداً أعلى النهر وتحيط بهما أيضاً سلسلة جبال أعلاها سبيون كوب. غير أنّ بولر اكتشف على خارطته «بريدل دريفت» بعد قرية كولينسو داخل قوس النهر، فقرّر أن يعبر عن تلك النقطة.

انفتح أمام البريطانيّين سفح أخضر قليل الانحدار يفضي إلى النهر، لكنه من جهة أخرى حقل إطلاق نار مثالي بالنسبة للبويريّين، المتمترّسين في الخنادق وتحميهم سلسلة التلال الحيويّة في هذا الميدان. كانت ميمنة بوثا هي الثغرة الوحيدة في دفاعاته، لكن البريطانيّين لم ينتبهوا إليها لأنهم لم يرسلوا استطلاعاً.

أمر بولر بدفع المدفعيّة إلى الأعلى، واقتضى ذلك مزيداً من الوقت أنفق في وضع فروع أشجار وراء الدواليب المعدنيّة كي لا تغوص في التربة الرطبة. وما إن ثبّت مدفعيّته في أماكنها حتى دكّ بنيرانه التلال المحيطة، معتقداً أنّ البويريّين متمركزون خلفها. لكن البويريّين، بخلاف الاستراتيجيات العسكريّة الأكاديمية، لم يتمركزوا هناك، بل حفروا خنادقهم وتمركزوا في السهول قرب النهر. كانوا قريبين جداً من البريطانيّين، لو هاجم هؤلاء عبر النهر.

أعدّ بولر هجومه ليبدأ في ١٥ ديسمبر ١٨٩٩. وكان في هذه الدراما شخصان رئيسان لعبا دوراً حاسماً فيها: العميد هارت قائد الكتيبة الإيرلندية الخامسة، والكولونيل لونج قائد الكتيبتين الرابعة عشرة والسادسة والستين للمدفعيّة الميدانية، قوامهما اثنا عشر مدفعاً، تدعمهما ستة مدافع بحرية ثقيلة بقيادة الملازم أول أوجيلفي. إنّ ما حدث في كولينسو فريد من نوعه.

في السادسة من صباح يوم ضبابي، أمر هارت كتائبه الأربع أن تسير بتشكيل قتالي منظّم، تهبط المنحدرات الخضراء وتتّجه إلى موقع بريدل دريفت، وهي مخاضه ضحلة كان يفترض أنها داخل الالتفافة الضيّقة لنهر توجيلا. فقد كرّر بفعلته هذه هجوم اللواء الخفيف، مدافع إلى اليمين، مدافع إلى اليسار، وإلى وادي الموت نزل ستمائة فارس(*)... لكن هذه المرة لم يكونوا ستمائة بل أربعة آلاف.

لا بدّ أنّ البويريّين تفاجأوا لرؤية العدوّ الذي يتقدّم نحوهم بتلك التشكيلة النابليونيّة من مخلّفات القرن التاسع عشر (مجموعة جنود تتقدّم على شكل مربّع) يتقدّمهم جنرال برفع سيفه عالياً، وبقرب جواده يجري دليله المحلّي، ومن ورائه رماة دبلن بغدّاراتهم والإنيسكيليخ، مع الكونوتيّين وفي المؤخّرة يسير فوج البودريّين (من جنوب اسكتلندة). أربع كتائب قوامها أربعة آلاف روينكس (ذوي الرقاب الحمر) على جبهة طولها ٨٠٠ ياردة فقط. إنّه انتحار. وكان البويريون منتظرين في خنادقهم العميقة، الممتدّة على ثلاث على جهات منحنى النهر، وقد هيّأوا بنادقهم الموزر، التي تحقق إصابة قاتلة على مسافة ٢٠٠٠ ياردة.

تقدّم هارت بلوائه الإيرلندي بدون أيّ مقاومة تُذْكَر. أما المناوشين المنتشرين على الجانب الآخر من النهر فقد تَمّ إبعادهم ببضع طلقات. فكانت هذه أكثر اللحظات إثارة لحياة الجنرال. ولم يفكّر قط أين تتمركز مدفعيّة البويريّين أو جيش بوثا. غير أن كتيبة المدفعيّة الثالثة والستين التابعة لبارسون أطلقت عدّة قذائف

(*) التشبيه هنا مع قصيدة تنيسون ـ راجع مطلع الفصل السادس. المترجم.

على التلال البعيدة، أمامه. وقد حدّد الرماة مواقع العدو وفق المعادلة المنطقيّة للقتال. إلا أنّ البويريّين لم يعتمدوا ذلك المنطق القتالي. بل اعتمدوا على الغريزة وحدها.

أشار الدليل المحلّي إلى اليمين وقال لهارت «أيها الجنرال، ها هي المخاضة هناك».

انتصب الجنرال فوق صهوة جواده، وأشار بسيفه إلى النقطة التي دلّ عليها دليله. دار فوج هارت بتشكيلة المنتظم، ثم انطلق بخطّ مستقيم متّجهاً نحو تحصينات البويريين الذين لم يطلقوا النار حتى أصبح البريطانيون على بعد ٣٠٠ ياردة منهم عندئذٍ أطلق بوثا النار من مدفعه القذائف كروب، عيار /٥/ إنشات. ثم تبعه جنوده.

اختفى دليل هارت، حالما بدأ إطلاق النار، وضاع الجنرال بلا رجعة. تحوّلت الضفة المقابلة إلى تنين ينفث ناراً، وظهر فوراً تأثير الصدمة على الإيرلنديين. وقد وصف الناجون منهم تلك اللحظة: «فوضى وسعار». وتبعثرت تشكيلات هارت النظامية.

صاح بهم من الأعلى، «ضباط وأفراد، بصرف النظر عن التراتب، اصطفّوا في رتل واحد. تفقّد الخارطة المتدلّية من سرج حصانه، فوجد فيها علامة على وجود ما يشبه مخاضة في منتصف منحنى النهر، وبدون أيّ استطلاع إضافي، أمر رجاله أن يعبروها.

«إلى الأمام، إلى الأمام، سأغطّي عبوركم». ثم صاح «ألن تتبعوا جنرالكم؟» كان الرجال ممزّقين بين ولائين مختلفين، ولاءهم للمملكة والوطن وولاءهم لنزعة الحياة داخلهم. لكنّهم وعلى نحو مفاجىء تبعوا قائدهم. قفزت السريّة الأولى إلى النهر..

لم تكن خارطته دقيقة. ففي هذه النقطة يبلغ عرض النهر ثلاثين قدماً، وعمقه عشرين قدماً. والقلّة القليلة التي بلغت الضفة غابت تحت سطح الماء. فقد كان الرصاص. يحصد الجنود في النهر ويرسلهم إلى قعره. تجمّد هارت فوق حصانه، وراح يحدِّق إلى النهر، متجاهلاً الرصاص الذي يئزّ من حوله. ربما كان غير أهل للقيادة، لكنّه شجاع. ربما حَسِبَ نفسه ضد الرصاص. مهما تكن أفكاره، حتى إن كان الأكثر حماقة في العالم، ضد الرصاص أم لا، لا بدّ أنه تساءل في تلك اللحظة لماذا قاد جنوده إلى هذا الشرك.

وقف بولر، بقامته المربوعة، وسط حشد من الضباط، يراقبون تلك المجزرة، من مقرّ القيادة. ورأى من خلال منظاره المزدوج الفوج الإيرلندي الخامس وهو يُباد. ثم التفت إلى ليتلتون. قائد اللواء الاسكتلندي الرابع، وقال له: «إنّ هارت يواجه مشكلة. فخذ رجالك واذهب لنجدته. ابذل أقصى ما بوسعك».

لكن وقبل أن يتحرّك ليتلتون وقعت حادثة جديدة حوّلت الأنظار عن كارثة هارت.

فعلى الميمنة تحرّك هيلد يارد قائد اللواء الإنجليزي الثاني. وقد استشاط غيظاً، الكولونيل لونج، قائد مدفعيّة الميدان، بسبب بطء تقدّم عربات الثيران الست التي تجر المدفعيّة البحرية، فاندفع فجأة أمام مدافعه الخفيفة من الكتيبتين الرابعة عشرة والسادسة والستين، حتى وصل حافة النهر تقريباً. حيث حرّر المدافع من عرباتها. ونجا من سلسلة صليات، لكن وبما أن المدافع تفتقر إلى سواتر الحماية، خرّ جنوده صرعى عاصفة رصاص بنادق الموزر.

لا يزال بولر يحتفظ باحتياطي يُقدّر بحوالي ٨٠٠٠ رجلٍ،

لكن وبدلاً من أن ينشرهم ويقدّم دليلاً عاماً لبقيّة جيشه، سيطرت عليه صدمة مدافع لونج فمنع مساعده من إنقاذ مدافعه الثمينة. لقد نجحوا في سحب مدفعين، في عمليّة بطوليّة لا تصدّق، وقد كوفىء مَنْ قاموا بها بسبع من صلبان الملكة فيكتوريا، لكنّهم فشلوا في إنقاذ البقية. وفقد بولر كلّ لوائه، لكن فقدان المدافع هو الذي زعزع ثقته بنفسه، فأمر بإيقاف المعركة في الحادية عشرة صباحاً.

بعد ظهر ذلك اليوم، وبينما كان البريطانيّون يدفنون قتلاهم بالكرامة القليلة التي تُركت لهم، عبر البويريّون النهر واستولوا على عشرة مدافع. وكما حدث مع نيْ في واترلو، لم يحاول رجال لونج إعاقتهم، وسرعان ما تضاعف عدد المدفعيّة المحرّرة من قوادمها.

بلغت الإصابات في صفوف الإنجليز في هذه المعركة ٧١ ضابطاً و١٠٥٥ جندياً. نصفهم من اللواء الإيرلندي. بينما فقد البويريّون ٤٠ رجلاً فقط. ومع ذلك، إنّ القادم أسوأ.

٢٤ كانون الثاني ١٩٠٠، سبيون كوب، أو لوك ـ آوت هيل ـ ساعة خزي اللواء تشارلز وارن.

يتّضح من التسمية أنّ المكان ممتاز للإطلالة على الريف، وهنا وقف الفورتريكيرز البويريون العام ١٨٣٠ نظروا بذهول إلى أرض ميعادهم. وقد كانت سبيون كوب ديدج جبلاً استراتيجياً حيوياً يؤمّن دربين لعربات الثيران، يفضيان إلى ليديسميث. ويجب احتلال هذين الدربين، وقد أسندت المهمّة إلى الجنرال وارن. أما المذهل في هذه المعركة هو أنّ لا بولر ولا وارن لديهما أدنى فكرة عما سيفعلانه بعد السيطرة على هذا الجبل الاستراتيجي.

«دوق يورك النبيل

لديه عشرة آلاف رجل
قادهم مصعّداً التل
ثم قادهم نازلاً التل...».

بما أنّ كولينسو وقعت في منتصف كانون الأول، فقد انتشر الجيش الإنجليزي في معسكر في العراء على طول ضفة توجيلا ريفر، بدا المنظر أشبه بموقع معسكر ضخم، مدينة خيام على ضفة النهر، وكان موقعاً ممتازاً بالنسبة للإنجليز، فقد طبخوا وغسلوا ثيابهم واستحموا، بينما ناقش الجنرالات استراتيجيّتهم. وصدر أمر عبور النهر من تريتشارد دريفت واحتلال سبيون كوب في ١٨ كانون الثاني ١٩٠٠، وأمضى الجنرال وارن الأيام القليلة التالية وهو يشرف على نقل أشيائه الشخصيّة عبر التوجيلا، بأمان. وكان شائعاً يومئذٍ ألاّ يسافر أيُّ جنرال بدون مؤونة من الخمر، صناديق شمبانيا، إضافة إلى الضروريّات الأخرى للحياة في ساحة المعركة. وعلاوة على ذلك، فقد كان الجنرال المتقدّم في العمر يحب أن يستحمّ في النهر ويترك أمور المعركة إلى مساعديه. حتى في الهجوم، على التلّة ذاتها، عيّن اللواء ج. تالبوت ـ كوك. وعندما تبيّن أنه يعاني من كسر في ساقه ومن المتعذّر أنْ يصعد جبلاً شديد الانحدار، نقل وارن راية القيادة إلى اللواء ي.ر.ب وودجيت. وبينما كان كوك قائداً جيّداً بساق واحدة، فإن وودجيت قائد بساقين لكن بلا رأس.

كان في مواجهتهم الجنرال لويس بوثا، مدوّر الوجه منسكب الشاربين، في السابعة والثلاثين من عمره، «بطل معركة ناتال»، رجل جريء شديد الثقة بنفسه ومحبوب جداً من قبل رجاله، النحيلين الكالحي الوجوه، لم يحلقوا ذقونهم منذ أسابيع، يعتمرون قبعات عريضة الحوافّ، يلبسون الزيّ الفلاحي المحلّي، ويحملون

بأيديهم الفلاحيّة المعروقة، الكثيرة العقد، بنادق الموزر الطويلة السبطانة. ترأس قطاع القِمّتين روستنبرغ قائد مغاوير تشولك بورغر، بجواره على سبيون كوب متطوّعو كارولينا بقيادة هيندريك برنيسلو، ومغاوير بروتوريا بقيادة دانيال أوبرمان، كلّهم قادة محنّكون أتقنوا مهنتهم من خلال مطاردتهم الوحوش البريّة، والتمرّدات القبليّة. وبحوزتهم ثلاثة مدافع كروبس عيار ٧٥مم ومِدْفَعين كروسوت عيار ٧٥مم، وتلك أسلحة مرعبة في ذلك الزمن، خصوصاً إذا أشرف عليها الخبير الألماني، الميجور ألبريخت، ودُعمت بمهارة من قبل وحدات كروجرزدروب، بوكسبورغ، هيدلبرغ وأوتريخت. كان «رجال الغابات النائية» أولئك على وشك أن يلقّنوا كولونيلات امبراطوريّة الملكة فيكتوريا، المحترفين، عدّة دروس.

في الساعة التاسعة من ليل ٢٣ كانون الثاني ١٩٠٠، بدأ اللواء وودجيت هجومه صاعداً الجبل ومع ١٨٠٠ رجل من لواء لانكاشاير وهم خليطاً من غدّاريّ (حاملي الغدارات) لانكشاير ومن لواء لانكاستر الملكي. هرب مرشداهم المحليّان تحت جنح الظلام فتولّى القيادة الكولونيل أليس شورنيكروفت، وهو الضابط القديم الوحيد الذي درس ذلك الجرف الصخري عبر منظاره المزدوج. فصعد مع جنوده المنحدر القاسي.

قبل انطلاقهم في تسلق الجبل، أعطي كلّ جندي كيساً مليئاً بالرمل كي يُحصّنوا الحافة. بيد أنّ الخبر السيء هو أنّ المنحدر كان قاحلاً، أما الخبر الجيّد فهو أنّ في الوادي كثير من الرمل الذي سيُضطرون إلى حمله إلى أعلى التلة. غير أن وودجيت لم يحضر لرجاله البالغ عددهم ٢٠٠٠ رجل، سوى عشرين معولاً ليحفروا الخنادق بها. كانت التلة شديدة الانحدار، والليلة حالكة

الظلمة، أكياس الرمل ثقيلة والجنود يتعثّرون مقطوعي الأنفاس. وسرعان ما عُلّمت الدرب إلى حافة التلة بأكياس الرمل المبعثرة. بينما عانى آخرون من اضطرابات معوية بسبب مياه النهر الملوّثة التي شربوها، وذهبوا يقضون حاجتهم بين الأجمات.

خاطبهم الضابط هامساً: «هيّا يا رجال، لا تتقاعسوا، فهذه التلة تغصّ بالبويريّين».

«حاضر سيّدي...».

«ألا تريدون أن تمرحوا؟» همس الرقباء الممنوعين الآن من الجعير بأصواتهم العالية، كالمعتاد.

«أنا لا أحبّ هذه التلة، يا رقيب، إنّها شرك».

«أوه، إخرس وتقدّم أيّها الجندي».

وسرعان ما تباعدت المسافة بين رأس الطابور وذيله. فقد تعلّم الجنود كيف يبقون بعيدين عن الضباط الشباب المتحمّسين، كي لا يُطلب منهم حمل المزيد من الرمل. ومع ذلك بقيت غالبيتهم يسمعون صخب حفر الخنادق عند حافة القمة.

هرب البويريون الخمس عشر الذين كانوا يتمركزون في جبهة ضعيفة على طول الجرف الصخري للتلة، وانسحبوا منسلّين إلى السفح الخفي.

«الإنجليز فوق التل!».

سيطر ذعر مؤقّت على بعض البويريّين الذين لم يتوقّعوا أن تُهاجم التلة ليلاً. غير أنّ الجنرال لويس بوثا، بقي هادىء الأعصاب كعهده، أمر قادته باحتلال كلّ المرتفعات التي لا يسيطر عليها الإنجليز، أو.أن يحاولوا تجريدهم من المرتفعات الرئيسة، إن صعود التلة لدحر الإنجليز، كان ضرباً من الجنون بالنسبة إلى

البويريّين. مع ذلك، وصلوا منقطعي الأنفاس إلى قمم المرتفعات الحيوية، ألوي كوب، كونيكال كوب وتوين بيكس. وبوسعنا تفهَم دهشتهم عندما اكتشفوا أنّ الإنجليز لم يسيطروا على أي قمّة. لا بل إنهم الآن على قمة التل، بينما الإنجليز عند السفح في الأسفل! ونجحوا في بناء متاريس مؤقّتة قبل أن يدرك الإنجليز خطأهم. إنهم الآن قادرون، مع بزوغ النهار، أن يتصيّدوا الإنجليز، الذين رغم سماعهم صخب العمل لبناء المتاريس، لم يفكّروا في الأمر.

أصدر بوثا، في الوقت نفسه، أمراً آخر سيعزّز العامل الحاسم في المعركة القادمة. فوضع مدفعيّته في أماكن متفرّقة، وخفيّة، يصعب على الإنجليز رؤيتها، رغم أنها ستدك صفوفهم بمنتهى الدقة. كانت تلك مقامرة جريئة، خصوصاً أنّ المدفعيّة وُضعت على مسافة مئة متر، فقط، من جنوده.

«أيّ جحيم هذا...؟» في الثامنة والنصف صباحاً انقشع ذلك الضباب الذي كان يحجب الجبل، وبدأت معاناة اللانكستريين الطويلة. لعلعت مدفعيّة البويريّين، وتساقطت قذائف الكروب والكروسون على طول الجرف. ومن على القمم المحيطة انهمر عليهم وابل رصاص الموزر. وعلق لواء لانكستر في شبه دائرة من الرصاص والفولاذ المميتَيْن. لا مفرّ أمامهم، ولا ملجأ سوى بعض المتاريس الحجرية، فحاول الجنرال وودجيت أن يحمل جنوده على الهجوم. وعندما رفع رأسه ليخاطبهم أصابته شظية قذيفة حاجبه.

سرعان ما تكدّست الجثث بحيث أصبح الأحياء قادرين على استخدامها كغطاء حماية ولم يبق أمام الرجال إلا التشبث بالأرض والصلاة ألاّ تصيبهم شظايا القذيفة التالية نعم، لقد صلّبوا أجسادهم

في تلك البقعة الضيقة، فوق الأرض الصلبة، متوقّعين كل قذيفة تالية أن تسقط فوقهم.

وبقيت القذائف تنهمر عليهم بانتظام، سبع أو عشر قذائف كلّ دقيقة، كانت مجزرة حقيقية، ولا مكان للهروب منها. وحيث أنّ بولرو وارن لم يُعدّ خططاً مسبقة لما سيلي، والجنرالات في الوادي لا يعرفون شيئاً عن الواقع فوق القمم، فقد أرسل وارن رسالة إلى الأعلى: «أثبتوا في أماكنكم».

استطاع الكولونيل ثورنيكروفت أن يمرر آخر رسالة قبل تحطّم قذيفة مبرقته(*) الوحيدة: «لا نستطيع البقاء في العراء فيجب أن نتقدّم أو ننسحب».

لم يتلق ردّا.

لا غرابة في ذلك، فقد أُمر الجنرال وارن باحتلال القِمّة، ولم يُقَلْ له ماذا يفعل بعد احتلالها. تلك كانت مشكلة بولر. ومع ذلك لم يطلب وارن منه أية تعليمات إضافية.

ولم يصدر وارن أية أوامر أخرى من مركز قيادته، ما خلا تساؤلاً: «هل نستطيع أن نرفع إلى هنا بعض المدافع؟» وكان الرد سلبياً. ذلك أنه من المحال جرّ أية مدفعيّة إلى قِمّة التل، لأن السفح، من جهة الإنجليز، شديد الانحدار، ولم يخطر، قط، على بال وارن أن يرسل دورية استطلاع تستكشف ثغرة في دفاعات العدو.

راقب بولر بصمت، من أسفل الوادي قرب النهر، قبل أن يأمر مدفعيّته الثقيلة بقصف التلال المحيطة. غير أن هذا، بدا، عديم الفائدة، فقد تمترس البويريّون في الخنادق، وليس بالإمكان

(*) المبرقة الشمسيّة: أداة لإرسال الإشارات التلغرافية بواسطة أشعة الشمس منعكسة على مرآة.

إسكات مدفعيّتهم التي لا تنشر دخاناً يدلّ على مواقعها. وهكذا، بدّد الإنجليز قذائفهم على الصخور وأماكن أخرى لا قيمة لها. إنّ بولر يفهم، بالتأكيد، الوضع الحقيقي، أفضل من قادة فرقه. لكنه لم يرسل أيّة تعليمات إلى وارن، مثل أنّ استطلاعاته قد حددت بدقة مواقع البويريين على التلال المحيطة بسبيون كوب ـ وترك وارن مع اعتقاده أنّ رجاله يسيطرون على سلسلة التلال. وامتنع بولر عن التدخل في قيادة المعركة وترك الأمر لوارن، الذي كان مشلولاً أو عاجزاً عن التنظيم، بالتالي، كلاهما لم يقدّم أية مساعدة لرجاله فوق التل (كوب).

لاحظ أحد رماة مدفعيّة وارن البحريّة، شخصاً يركض فوق ألوي كوب ربما كان الكشّاف البويري لويس بوثا يتنقل من جلمود إلى آخر ليصل إلى قمة كوب حيث يستطيع من هناك أن يوجّه المدفعيّة البويرية على الأنكستريّين التعساء. بأية حال فقد لوحظ تحرّك في خنادق البويريين، فقامت المدفعيّة البريطانية الثقيلة بدكّ السفح الأمامي لألوي كوب، مستخدمة مادّة الليديت الشديدة الانفجار. أوقع القصف إصابات بالغة في صف البويريّين. لكن لحسن حظ البويريّين أنّ وارن الجاهل بمجريات الأمور، بدقّة، أمر بإيقاف القصف لاعتقاده أن مدفعيّته تقصف جنوداً بريطانيّين استطاعوا احتلال المرتفعات، ولو استمر القصف، قليلاً، بالدقة نفسها، لأُخرجَ ألوي كوب من دائرة التهديد.

فوق على سبيون كوب جحيم، وفي الوادي سقر أقسى. وكانت القذائف تنشر غيوماً من الغبار تزكم أنوف الجنود وتجبرهم على التنفس من أفواههم، فامتلأت رئاتهم بالغبار وبدأوا يسعلون. أما انفجار مادة الكورديت اللاذعة. فقد أدمعت عيونهم وآلمتهم حتى غشيت أبصارهم. وبدا ظل الشمس شاحباً عبر غيوم الغبار البنيّة

الشبحيّة التي خلّفتها الانفجارات. ولم تكن القذائف أقسى عليهم من الظمأ الشديد الذي جعل ألسنتهم المتورّمة كقطع بلاستيكية التصقت في أفواههم. فقد فرغت مطراتهم؛ استهلكوها خلال تسلّقهم الليلي. وتشقّقت شفاههم ونزفت. غَرَفَ أحد الجنود، الذين خبّلهم العطش، حفنة من الرمل الأبيض المتبلّر ورفعها إلى فمه، لكنه ما إن رفع رأسه عالياً حتى أخفضته له رصاصة. ذاك كان القدر المتربص بأدنى إمارة حياة - سيحصدها رصاص القناصة البويريّون الرابضون وراء صخور إحدى القمم المحيطة. وأولئك المتظاهرون بالموت فكانت قرصات النمل، الذي تغلغل تحت ستراتهم، تُجفلهم. أمام الخندق جثة قائد السرية وأسراب الذباب الكبير تطنّ محوّمة فوق وجهه، ورقيب أصيب في فخذه يحاول إيقاف النزف مستخدماً حزام رفيقه الميت. وآخرون جعلوا من رفاقهم الموتى متاريس وراحوا يطلقون النار على الظلال بين الصخور. وهاك جندي مستلقٍ على ظهره يكتب رسالة وداع إلى صديقته.

كان الكولونيل ثورنيكروفت بين جنوده وقد جعل مركز قيادته وراء جدار حجري «رفع على عجلٍ. إنّ جنوده يتطايرون أشلاءً الآن وعليه القيام بشيء ما. نادى على رقيب من سريته وأمره: «تدبّر أمرك واذهب إلى الجنرال وارن، إن الأمر مُلحّ، وبلّغه إننا بحاجة إلى تعزيزات، وأنّ على مدفعيّتنا أن تدكّ هذه التلال المحيطة بنا». وأشار إلى المواقع فوق الخارطة.

«حاضر سيّدي، سأذهب». وكان الرجل يدرك جيداً أن عليه الاعتماد على الحظ والسرعة، وغالباً على الحظ فقط.

«حسن، سأغطّيك بالنار. انطلق!» وشرع الكولونيل يطلق النار من مسدسه حتى فرغت جعبته من الطلقات. وزحف الجندي كالخنفس فوق الجثث والجروف، ثم اختفى.

انقضت سبع ساعات أخرى من النهار، إنها الواحدة زوالاً الآن. ربط أحد الغداريّين محرمته البيضاء على غدّارته ورفعها عالياً فوق المتراس، فحذا حذوه بعض الآخرين. وخيّم الصمت لبرهة فوق الوادي، ثم قفز أكثر من مئة جندي وراحوا يتعثرون في طريقهم للاستسلام للبويريين. كانت الضمادات وبقع الوحل والدم سمات مشتركة بينهم جميعاً.

استغل بعض الرماة البويريّين فترة التوقّف تلك ليتسلّلوا، بين الصخور، إلى ميمنة البريطانيّين. ثم انقضوا فجأة على العدوّ. اقتحموا الدشم الصخرية في عدة أماكن ونشب، لبعض الوقت، عراك دموي شرس بالأيدي، وسُدّدت البنادق إلى الصدور أو البطون مباشرة، أو استخدمت كهراوات، وسقط الرجال بعضهم فوق بعض. وتراجع زخم المعركة شيئاً فشيئاً عندما بدأ الأحياء يسحبون رفاقهم الجرحى أو الموتى، وانسحب البويريون كالأشباح وراء الصخور. الغريب في الأمر أنّ هذا الهجوم المفاجىء قد ساعد الأنكستريين على استعادة روحهم المعنوية. فهلّلوا، «لقد هزمناهم!».

كان الجنرال بولر، وبقربه مستَطْلعوه المدفعيّون، يراقبون الوضع عبر منظاره الميداني. ولم يستطيعوا أن يروا من أين تُطلق القذائف، «اللعنة على ذلك البارود الألماني» شتم بولر. أقنع نفسه أنّ تعزيزاً لمدفعيّته بعيدة المدى يكفي، لكنّه لم يشارك شخصيّاً، بأي عمل فعال في المعركة.

كان الوضع مشابهاً تقريباً، إن لم يكن أسوأ، في مركز قيادة وارن. حاول مستطلعو المدفعيّة رؤية مصادر انطلاق القذائف المدفعيّة، لكن لا فائدة. فقد أخفى الميجور ألبريخت مدفعيّته بذكاء وراء التلال، إضافة إلى أن مدافعه لا تخلّف دخاناً بعد

الإطلاق، وذلك اختراع سيغيّر مجرى الحروب، مستقبلاً.

صاح الضابط البريطاني المسؤول عن مدفعيّة وارن الثقيلة: «أهداف، أريد أهدافاً محدّدة!».

فجاءه الرد سريعاً: «لا يوجد، يا سيّدي، لا توجد أهداف».

تلك كانت معضلة المدفعيّين البريطانيّين. فأمامهم خياران لا ثالث لهما: إما أن يدكّوا سلسلة التلال ويخاطروا بإصابة رفاقهم، أو أن يوقفوا الدعم المدفعي كلياً. ولم يتلقّ مركز القيادة أية رسالة أخرى بعد رسالة المبرقة الشمسية.

جاءتهم الأوامر: «بوقف الدعم المدفعي، بأمر قائد الفرقة، حتى تتضح الصورة أفضل».

خرج وارن من خيمته وحدّق إلى قمة السلسلة. كان يسمع دوي المدافع على طول الجهة الأخرى من السلسلة. حاول سابقاً ضابط استخباراته إرسال مستطلع إلى اللانكستريين على سبيون كوب، لكن الرجل عاد برصاصة في جنبه، ولم يستطع أن يقدّم تقريراً تقريبياً عن حجم الكارثة.

أخيراً وبعد تسلق مضنٍ، ورصاصة في خوذته، وصل رسول ثورينكروفت إلى القائد العام، القائد الوحيد الحي، وكان عليه أن يبلّغ رسالة، ويطلب منه تعزيزات فورية ودعم مدفعي. مع ذلك لن يفعل وارن شيئاً، سيبقيه التردّد مشلولاً.

وهنا تقع حادثة من تلك التي يسجّلها التاريخ. شاب غرّ، لم يخبر الحرب، فاقد الحيلة، شاهد المجزرة، وتجرأ أن يتوسل وارن لكي يرسل احتياطيّيه لإنقاذ رجاله الذين تمّت التضحية بهم. «سيدي الجنرال، إفعل شيئاً كرمى لله».

فزمجر الجنرال الغاضب: «هذا ليس من شأنك! اعتقلوا ذلك

الرجل!» واعتُقِلَ الصحفيُّ المزعج. وكان اسمه وينستون تشرشل.

لم يخطر للجنرال وارن قطّ أنّ أفضل وسيلة لتخفيف الضغط عن سبيون كوب هي في شق هجوم مضلّل على تلة أخرى. لكن هناك رجل آخر فكّر فيه. فقد أرسل ليتلتون فيلقه الإسكتلندي، ذي رويال كينج رايفل، لشنّ هجوم على تلّة توين بيكس من غير أن يستأذن وارن. بدا له ذلك الحلّ الأنسب ما دام البويريّون يركزون هجومهم على سبيون كوب ومحيطها. وسرعان ما تلقّى برقية تفيد بأنّ البويريّين قد استعادوا توين بيكس، وقد وضعت المدفعيّة على قمة التل، أي أن رجاله مهدَّدين بالموت تحت وابل القنابل العنقودية. فأرسل عدّاءً ليبلغهم بوقف الهجوم. غير أن الكولونيل بوكانان رايدل، قائد السيكستي رايفلز، رفض تنفيذ أمر ليتلتون. فقد كان مقتنعاً بضرورة تحرير اللانكستريّين. لكن بعد أن قتل انسحب ضباطه مُكرهين. وكانت وحدة ميدلسيكس، التابعة للكولونيل هيل، قد بلغت القمة، لكنها سرعان ما وجدت نفسها في وضع شديد الخطورة بعد أن حاصرتها كتيبة بويريّة. ولم ينقذهم من الفناء المحتّم إلاّ التدخل السريع للسكوتيش رايفلز بقيادة الكولونيل كوك، التي ظهرت كمعجزة في اللحظة الحاسمة. وتكبّد البويريون إصابات فادحة في هذه المناوشة الحامية الوطيس.

ومن سخرية الأقدار في هذا اليوم، أنّ المعركة كادت تنقلب لمصلحة البريطانيّين في تلك اللحظة. ذلك أن الميدلسيكس والسكوتش رايفلز زعزعا عزيمة البويري تشولك بورجر، خصوصاً أنّ رجاله عانوا كثيراً من القصف العشوائي للمدفعيّة البريطانية، وقد نَفَذَت ذخيرتهم، ولأنه توقّع تدفّق المزيد من الاحتياطيين البريطانيين، أمر بسحب مدفعيّة الكروب من وراء ألوي كوب، رغم أنها هي التي أوقعت الخسائر الفادحة في صفوف الإنجليز.

لقد خشي تكرار الخطأ البريطاني الذي وقع في كولينزو. وأدرك جيّداً أنه بدون المدفعيّة ستنحصر المسألة في الزمن اللازم للاحتياطي البريطاني كي يسيطروا على المرتفعات. فمرّر رسالة إلى البويريِّين المستنزفين يأمرهم بالإنسحاب إذا ما حدث شيء.

الليل يوغل. شعر الكولونيل ثورنيكروفت أنّه معزول من قبل رؤسائه. وليس هناك ما يمكن تحقيقه بالإستمرار. فقد صمد جنوده اللانكستريون الشجعان تحت الحرارة والنار لثلاث عشرة ساعة. وأصدر الأمر بالإنسحاب الشامل بدون العودة إلى وارن.

إنّ انسحاب اللواء اللانكستري من سبيون كوب في ليل ٢٥ يناير ١٩٠٠، سيعرف في تاريخ حرب البوير «باسم سُلَّم الآلام الطويل». تحت جنح الظلام حمل الباقون أحياء رفاقهم الجرحى وانسلّوا من خندقهم. نزلوا المنحدر الصخريّ القاسي وهم يرزحون تحت ثقل رفاقهم الجرحى، معتمدين على بساطيرهم المَخْدُوَّة بالمسامير، واستخدم البعض بنادقهم كعكاكيز. سقط مزيد من الرجال برصاص الرمي العشوائي، من الخلف بدا الذين نجحوا في نزول المنحدر، بوجوههم المتعرّقة السخمة من هباب البارود، كالخارجين من الجحيم. وقد خرجوا منه حقيقةً! بكى أحد الجنود. شعر بالخزي. فانبرى له رقيب يواسيه، «هوّن عليك، يا رجل». لقد ضاع كلّ شيء أيها السفلة... فانضم إليه الرقيب يبكي أيضاً. ثم انخرط الجميع ينشدون «الله قريب منك».

تضحياتهم وآلامهم ذهبت أدراج الرياح. أمر بولر بانسحاب شامل عبر التوجيلا، فَنُعِت بـ«عابر التوجيلا». وصعد البويريون من جديد، وبقوة هذه المرة، سفح سبيون كوب الذي حرثته مئات القنابل.

في الصباح التالي بدا منظر سبيون كوب مَغْثِيّاً. فقد كوّم

البويريّون جثث الأعداء في «خندق اللانكستريين»، ففاضت عنه، إذ أنّ كلّ قذيفة من عيار ٧٥مم كانت تحصد العديد منهم. كانت خسائر البويريين، حسب إحصاءاتهم ٢٢٥ إصابة (بين قتيل وجريح)، ويبدو الرقم متواضعاً قياساً بالالتحام الجسدي الضاريّ، بين الطرفين، للفوز بالمرتفعات، إضافة إلى تأثير القصف العشوائي. أما خسائر البريطانيّين فقد بلغت ٨٧ ضابطاً و١٦٤٧ جندياً.

وستبقى تلّة سبيون كوب في ناتال، وإلى الأبد، تحمل إسم البويريّين الشجعان والوحدات البريطانية التي لا تقل شجاعة عنهم.

وعندما أبلغت الملكة فيكتوريا عن «الأسبوع الأسود»، أجابت: «لا أحد محبط في هذا المنزل. نحن لا نهتمّ باحتمالات الهزيمة، وبالنسبة لنا هي ليست موجودة».

استبدل السير ريدفيرس بولر بالفيلد مارشال لورد روبرتس من قندهار وتلاه لورد كيتشنر من الخرطوم. فتغيّر مجرى الحرب وأُجبر البويريّون على الاستسلام. ففي ٢٧ شباط ١٩٠٠، استسلم الجنرال كرونجي ومعه ٤٠٠٠ بويري وسُلّمت كيمبرلي. واحتل روبرتس بولر مدينة ليد يسميث بعد حصار دام ١١٨ يوماً، في ١٣ آذار، وجوهانسبورغ في ٣١ أيار، وبريتوريا في ٥ حزيران ١٩٠٠ هرب الرئيس «أوهم» إلى هولندا. واستولى البريطانيّون على ترانسفال أورينج فري ستيت. وتابع البويريون النضال على مدى السنتين التاليتين، على شكل هجمات خاطفة، وحرب عصابات. فردّ عليهم اللورد كيتشنر بسياسة الأرض المحروقة.

لم تُصَبْ الامبراطورية البريطانية مجداً من هذه الحرب. لا بل كان البريطانيّون أوّل مَنْ استخدم مؤسّسَة الإرهاب، في جنوب إفريقيا، «ذي كونسيتريشن كامب». فقد سيّج رجالهم كلّ قرى

البويريّين وحبسوا الرجال، الأطفال والنساء وراء الأسلاك الشائكة. وكان واحد من كل ستة أسرى يموت بسبب سوء التغذية. حاولت الحكومة البريطانيّة إنكار وجود المعسكر. غير أن الصحافة كتبت عن ظروفه الوحشية، فاندلعت أعمال شغب معادية للبريطانيين. وشجبه مجلس العموم باعتباره طريقة «بربريّة».

وكتب وينستون تشرشل في ذي جريت ديمواكراسيز: «لا شيء، ولا حتى عجز القيادات العسكرية، عندما يترافق مع هذا العمل الجديد البغيض، زرب الآدميين في الأسر، يمكن أن يبرّر الظروف داخل هذه المعسكرات.

وانتهت حرب البوير الثانية في ٣١ أيار ١٩٠٢.

مات سيسيل روديس بعدها بيومين. وكانت آخر كلماته التنبؤية: «تعتقدون أنكم هزمتم الألمان. إنكم مخطئون. لا زلتم تتشاطرون البلد، وعليكم أن تتعايشوا معهم الآن كما في الماضي».

ماذا لو...

ماذا لو ـ هاجم بولر في الوقت نفسه تريشارد دريفت وكولينسو؟

لما استطاع البويريون القليلو العدد أن يصدّوا الهجوم.

ماذا لو ـ أمر وارن فرقة من احتياطه الضخم كي تنضم لمؤازرة اللانكستريين في مهاجمة تلّة أخرى؟

لم يفعل ذلك، وجرى ما جرى.

الحقائق:

افتتحت حرب البوير قرناً جديداً. واستبدل هنري فورد العربة التي يجرّها حصان بالسيّارة، وأدخل جورج إيستمان أوف دوترفيل، نيْ، «جهاز التصوير الفوتوغرافي بوكس براوني». وفي فيينا نشر الطبيب سيجمون فرويد كتاب تفسير الأحلام.

على المستوى العسكري، لقد جلبت بداية القرن الجديد تطوّراً جذرياً في مجال التسليح والاستراتيجيات. ولاحقاً، بعد نهاية الحرب، كتب الاستراتيجي الإنجليزي، العميد ج.ف.س. «بوني فولر»: «في هذه الحرب، تراجع الرعب القديم من عدو مرئي، ليفسح المجال أمام آخر جديد يخلق إحساساً بالعجز عن التقدّم في مواجهة عدوٍ غير مرئي، فهذا الأخير يثير الريبة في تواجد العدو في كل مكان».

بالنسبة إلى الامبراطورية البريطانيّة كانت حرب البوير إمارة نهاية العهد الكولينالي. ذلك أنّه لبعض الوقت لم يكن بوسع «قطيع الجرذان» أن يهزم الجنود البريطانيّين المحترفين، الذين أطلقوا عليه ذلك الاسم.

واضطر قائد أركان الحرب البريطاني أن يبحث في المرج الإفريقي، المتباعد الأشجار، عن الطريق الصعبة، ذلك أنه لم يعد ممكناً أن تهاجم جنوداً متمترسين مسلحين ببنادق قصيرة السبطانات ومزودّة بمخازن طلقات، بالهتاف «هورا!» وأنت تهاجمهم جبهياً بالحراب. إضافة إلى أنّ البارود عديم الدخان قد لعب دوراً مهماً في تغيير مجريات حرب المدفعيّة عندما حيَّد إمكانية تحديد مواقع مدفعيّة البويريين من قبل المدفعيّين البريطانيّين.

ولم يتعلّموا الدرس، الذي توجّب فهمه، من أجل الحرب القادمة. الحرب الكبيرة.

الهوامش

(١) بينما ترمي المدافع في مسار مستقيم، فإن الهوريتز يطلق القذائف في قطع مكافئ يتجاوز العقبات، وقمم الجبال، ويحقّق الهدف.

الفصل العاشر

صفعة على الوجه تانينبرغ، ٢٨ آب ١٩١٤

الجنرال لوديندوف: «إنّ الروس يقاتلون مثل الدببة».
الكولونيل ماكس هوفمان: «نعم أيها الجنرال،
لكن تلك الدببة تقودها حمير».

محادثة جرت بين لوديندوف وهوفمان في تانينبرغ ١٩١٤

تهاوى الرجل ذو السترة الموحلة فوق جذع شجرة بتولا كانت قد قطعتها شظيّة قذيفة. رفع رأسه ليحدّق إلى السماء داكنة الزرقة وسرب الأوز المبحر عبرها. كم تمنّى لو يستطيع أن يطير معها، لكنّه لا يستطيع. ببطء رفع مسدسه، وضع الفوهة على صدغه وضغط على الزناد.

وانضم الجنرال ألكسندر سامسونوف إلى بقية أفراد جيشه الموتى المتناثرين حول قرية تانينبرغ. يقال أنّه خجل من لقاء القيصر. ولم يدفن لأنهم لم يعثروا على جثّته. كان واحداً من آلاف ماتوا في مستنقعات ماسوريان ليكس في شهر آب القاتل من العام ١٩١٤.

* * *

فالحرب في روسيا العسكرية كانت مجداً عسكرياً بديلاً عن النبالة. وقودها الفلاحون، أما الكونتات فيُرَقَّوْنَ مباشرة إلى كولونيلات؛ الأمراء والدوقات إلى جنرالات. وكان ألكسندر سامسونوف، المُكلَّف القدير، بعلاقاته الجيّدة، هو الإستثناء الوحيد الذي لم يكن أميراً ولا دوقاً.

هو والدوق الأعظم نيقولا، عَمّ القيصر، القائد الأعلى للقوات الروسيّة، قسّما جيشهما إلى قسمين: الجيش الشمالي في مواجهة الألمان في شرق بروسيا، والجيش الجنوبي في مواجهة النمساويّين في جاليشيا البولندية. ولم يُنفِّذ الجيشان الأول والثاني خطّة القوات الشماليّة، بسبب بحيرات ميسوريا التي ستشتّت هجومها ذا الرأسين، ولطالما كانت هذه البحيرات نُذُر شؤم بالنسبة إلى جنود القيصر، وأمامهم الآن بحيرة أوسترليتز. بناءً عليه فإنّ الألمان، رغم أنهم أقلّ عدداً، يتمتّعون بإمكانية عالية على الحركة تساعدهم على مهاجمة كلٍّ من الجيشين قبل أن يستطيعا الاتحاد ثانية.

كان الجيش الروسي الأوّل، في فيلنا، بقيادة الجنرال بافل رينينكامبف، وهو رجل كفؤ لكنّه مفرط في أرستقراطيّته وغطرسته. ولم يساعده أصله الألماني، إسمه البروسي، ولا شارباه الأرستقراطيان في رفع شعبيّته لدى قواته، كما لم تنفع الإشاعة الكثيفة «إنّ جنرالنا ذاهب لزيارة أعمامه الألمان».

وذهبت قيادة الجيش الروسي الثاني إلى ألكسندر سامسونوف، الذي استُدْعِيَ إلى الخدمة بعد أسبوعين من تقاعده. وكان الجنرال يعاني من نوبات ربو حادة، اعتلال جسدي ناجم عن شدّة عاطفية ألمّت به. وليست هذه بالحالة الجيّدة لقيادة جيش، علاوة على ذلك، لا يتمتّع سامسونون بصفات المغامر

مثل منافسه رينينكاميف. لكنّه اشتهر بإصرار حثيث على تنفيذ الأوامر.

كانت بنية القيادة الشمالية تناذراً جديداً لواترلو. الميمنة بقيادة رينينامبف، مغامر سريع الغضب، من طراز المارشال نيْ، صعب المراس، بينما يقود الميسرة سامسونوف، وهو من طراز غروتشي، مفرط الحذر، لا يسير صوب مصدر أصوات المدافع، مع ذلك، تبيّن هذه المرّة، أنّ نيْ المغامر هو الذي لم يتّجه نحو أصوات المدافع.

إنّ مشكلة نوعيّة الضباط العاديّين لم تقتصر على الروس وحدهم، بل نال الألمان نصيبهم منها. فقد كان قائد قواتهم البروسية الشرقية، الجيش الثامن القيصري، الكونت ماكس فون بريتويتز، أرستقراطي بروسي حاز لقباً وحيداً وهو «الجندي البدين». في حين أنّ العقل المدبّر في مركز قيادة الجيش القيصري كان اللواء ماكس هوفمان، ممتلىء الجسم حليق الرأس، لا يحمل أي لقب عائلي أرستقراطي؛ لكنّه سيلعب دوراً حاسماً في المعركة القادمة .

كانت مهمّة الجيش الروسي الأوّل، عند بدء المعركة، قيادة العمليات على طول الجبهة الألمانية، وبينما يبقى الجيش الثاني كاحتياطي قرب وارسو. لكن حالة الجيشين الفرنسيّ والبريطاني قد تدهورت كثيراً على الجبهة الغربيّة. في هذا الوقت كانت المحدلة الألمانية قد اجتاحت بلجيكا، والجنرال فون كلوك يقرع أبواب باريس. فأرسلت الحكومة الفرنسيّة مناشدة مذعورة إلى سانت بطرسبورغ؛ لتنقذ باريس من القوة الألمانية الماحقة. وأصبحت روسيا ماصّة الصدمات. لكن الجيوش الروسية لم تكن جاهزة، ولم ينتبه القيصر إلى حكمة الجنرال العظيم المارشال كوتوزوف، الرجل الذي أوقف زحف نابليون على أبواب موسكو، والذي

صرّح مرّة: «نحن أنفسنا يجب ألا نطرق الجبهة مثل متسكّعين منهكين». في الواقع، إنّ القيصر بتكليفه الدوق العظيم نيقولا، قد دفع بجيشيه الشماليين غير المهيّأين جيّداً إلى الزحف على قلب جونكردوم، شرق بروسيا.

إنّ المعركة التي تشارف على الاندلاع، قد أُقرّت منذ عشر سنوات. فخلال الحرب الروسية ـ اليابانية ١٩٠٤ـ ١٩٠٥، كان ألكسندر سامسونوف وبافل رينينكامبف قائدَيْ فِرقَتَيْن، متساويَيْن في الرتبة. وأُمرت، حينها، فرقة سامسونوف القوزاقية السيبيرية بالدفاع عن مناجم فحم ينتاي في منشوريا. وكُلّفت فرقة رينينكامبف بالقطاع المجاور، وتلقّت أوامر واضحة بدعم فرقة سمسونوف. وهاجم اليابانيّون سامسونوف الذي تكبّدت فرقته كثيراً من الأرواح، بينما رينينكامبف يتفرّج مكتوف الأيدي.

التقى الجنرالان، بعد يومين من هذه الكارثة، صدفة على رصيف محطّة قطارات موكدن. فاندفع سامسونوف الحانق، نحو رينينكامبف، خلع قفازيه وصفعه بهما على وجهه. وبلمح البصر كان الجنرالان يتدحرجان، متشابكَيْن، في الوحل كالأولاد، كلاهما ينتش أوسمة الآخر، يرفسه ويخرمشه حتى تدخّل رئيس أركانهما للفصل بينهما. ولم يستطع أيّ نبيل آخر سوى القيصر أن يمنع المبارزة بينهما. بقيت الكراهية بينهما مستبطنة وكذلك الرغبة بالانتقام. وظهرت هذه الحقيقة جليّة ومحزنة عندما التقى هذان العدوان الرئيسيان، ثانية، حيث عُيّنا لقيادة جيشين متّحدين.

شاهد ذلك الحادث في محطة القطار مراقبون عسكريون أجانب، كثر، من قوميات مختلفة، إنجليز، إيطاليون، أميركيون[1] ـ

وألماني واحد. إنه الكابتن ماكس هوفمان هسّي(*) طويل القامة شبيه بالسجق، ويتكلّم الروسية بطلاقة تامة، وتلك حقيقة قُدِّرَ لها أن تغيّر مجرى الحرب.

ثلاثة جيوش جرارة، ٦٥٠,٠٠٠ روسي و١٣٥,٠٠٠ ألماني، كانوا متّجهين إلى معركة، لم يشهد تاريخ البشريّة الحربي، حتى في عصر التفوّق الذري الحالي، ذلك العدد الهائل من الضحايا البشرية زهقت في معركة واحدة، كما في هذه.

كان السباق إلى المجد على أشدّه. فبينما كان سامسونوف متوقّفاً، بانتظار تعزيزاته، كان الجيش الأوّل بقيادة رنينكامبف قد عبر الحدود إلى شرق بروسيا في ١٧ تموز ١٩١٤. كان البعوض يتدفّق بالملايين عبر الضباب فوق المستنقعات الحدودية. حجبت أسراب البعوض تلك غابة البتولا عن نظر الجنود السائرين على طريق ترابي ـ مُغْبَر، وتسبّبت لهم بسعال حاد. كان طابور الجنود الروس، الطويل جداً، يترنّح في مسيره، ذلك أنّ جنوده قد لبسوا في أقدامهم بعض الأسمال لأنّ أميرهم كان مستعجلاً لشن الحرب ولم يتسنَّ الوقت لقادة المراكز كي يوزّعوا البساطير على الجنود. تلك هي المشكلة فكّر الكابتن فاسيلي كرافيتشينكو، ضابط الاتصال مع مركز قيادة الجيش الشمالي ـ الغربي، وهو يسير بجوار قائده سيرجي ميخايلوفيتش، بمحاذاة الجنود.

علّق ميخايلوفيتش: «يا لها من طريقة للحرب! أنظر إلى هؤلاء الفلاحين على حافة المجاعة، معظمهم لم يطلق رصاصة من قبل. أتسمّي ذلك جيشاً؟ إنّ الألمان ينقلون جنودهم

(*) الهسّي: أحد مواطني هَسْ (ولاية في ألمانيا الغربية). المترجم.

بالقطارات. يأخذون قواتهم المرتاحة إلى حيث يريدون على جناح السرعة. بينما تسير قواتنا حافية وتستنزف طاقتها قبل بدء المعركة».

بقي كرافيتشينكو صامتاً، فتابع الكولونيل كلامه: «المستنقعات عن يميننا ويسارنا، لا نرى إلا المستنقعات والغابات المكسوحة. فماذا ينفع أن يكون عدد قواتنا أربعة أضعاف قوات العدو؟ حتى إننا لا نستطيع نشرهم. لأنهم سَيَتفرّقون إذا حادوا خطوة واحدة خارج هذه الطريق. سيهاجم جيشنا على شكل مجموعات على طول جبهة ضيّقة. ويدرك عدوّنا ذلك جيّداً، وستكون مدفعيّته الثقيلة بانتظارنا. فقد اكتشف الألمان ماهية الحرب العصرية، فهم مدرّبون، انضباطيّون ويعرفون جيّداً تضاريس هذه المنطقة. وأخشى أن ندفع غالياً لقاء درسنا هذا».

كان ميخايلوفيتش مصيباً. فقد صدرت أوامر التعبئة وتدريب الجندي الروسيّ، على جناح السرعة. وعندما تحرّك الجيش عمّت الفوضى وغاب أيّ شكل من أشكال التنظيم والانضباط. فقد انطلق رينينكامبف، المتلهّف إلى أن يسبق منافسه إلى المجد، بجيشه الأول قبل ستة أيام من إعداد سامسونوف للجيش الثاني. وهذا بحد ذاته تسبّب بضربة قاصمة لكلا الجيشين المكشوفَيْ الجانبين.

أرسل قائد الفيلق الألماني الأوّل، الجنرال فون فرانكوا، دوريّة استطلاع سرعان ما اكتشفت وجود ثغرة كبيرة بين فيلَقَيْ رينينكامبف الثالث والرابع. فقرّر فرانكوا، في ١٨ آب. أن يهاجم فأرسل قواته إلى هذه الثغرة وضرب قوات رينينكامبف من الخلف. فأسر الألمان أكثر من ٣٠٠٠ روسي، لكنّهم تكبّدوا خسائر فادحة بالنظر إلى الفارق بين حجم قوات العدوين. مع ذلك

فإن العامل الحاسم في هذا الاشتباك الصغير نسبياً لم يكن عسكرياً، بل اكتشافاً لا يُصدَّق ـ فبعد استجوابهم ضابطاً روسياً، اكتشف الألمان أنّ الجنرال جيلينسكي، قائد الجيش الشمالي ـ الغربي، ينسّق تحركات جيشيه الأول والثاني بواسطة لاسلكي غير مُشفَّر[٢]. بعد أربع ساعات، كان الألمان يتنصّتون على اتصال الروس وتحرّكاتهم.

وصلت تشكيلات رينينكامبف المقاتلة إلى البلدة الألمانية جومبينين، في ١٩ آب. كان رعب الحرب مسيطراً على شرق بروسيا ولا يمتلك الألمان القوّة البشرية الكافية لوقف المدّ الروسي. وفضَّل الجنرال فون بريتويتز الإنسحاب، غير أن فون فرانكوا أقنعه بخوض المعركة. ونجح فيلقا فون فرانكوا وفون بيلو في خوض معركة محدودة، لكن الفيلق السابع عشر بقيادة فون ماكينسون رُدَّ على أعقابه قرب بلدة جومبينين. ولم تكن هذه معركة حاسمة، إلا أن هذه الهزيمة الجزئية للقوات الألمانية قادت إلى نتائج غير محسوبة. فبدلاً من المطاردة الحثيثة للألمان الذين تراجعوا تكتيكياً، توقّف الجنرال بأقل رينينكامبف ليشرب زجاجة شمبانيا احتفالاً بنصره. وهذا يظهر غرابة التفكير الروسي، خصوصاً عندما التفت إلى قائد أركانه وقال له: «بوسعك خلع ملابسك والذهاب إلى النوم، فالألمان ينسحبون».

ولم تكن بالتأكيد اللحظة المناسبة للخلود إلى النوم.

أصيب الجنرال فون بريتويتز بانهيار عصبي بعد هزيمة فيلقه السابع عشر ولم يلاحظ أن رينينكامبف قد اعتبر ورطة جومبينين خطيرة بما يكفي ليتوقّف بقوّاته فيها، وأنّ جيش سامسونوف يتقدّم نحو خاصرة الجيش الألماني من الجنوب، منهكاً بسبب اضطراره إلى عبور مستنقعات باربييت، وليس بوسعهم خوض معركة. رغم

ذلك، فإنّ القائد الألماني المذعور هاتف مركز القيادة الامبراطوري في كوبلينز، وأخبر الكونت فون مولتيك أنه لم يعد قادراً على الدفاع عن شرق بروسيا. ثم، بخلاف نصيحة الكولونيل هوفمان، أمر بريتويتز جنراله بالإنسحاب إلى ما وراء فيستيولا ريفا. وهذا يعني التخلّي عن شرق بروسيا بدون قتال.

لم يكن سامسونوف يعرف، في غضون ذلك، أين هو لأن جيشه لم يكن مزوّداً بخرائط. واعتمد أثناء عبوره الأراضي الروسيّة على الفلاحين كمرشدين، لكن ما إن عبر إلى شرق بروسيا حتى وجد نفسه ضائعاً وسط قرى نائية. وطلب جيلينيسكيمن سامسونوف أن يوحّد قواته مع رينينامبف. وهذا ما لم يكن قادراً على فعله، فقوّاته في حالة ضياع. فلا توجد طرق، ولا مشية نظاميّة ووحداته مضطّرة إلى السير عبر أراضٍ رملية تغوص فيها أقدامهم العارية، حتى الكاحل. وغدت بزّاتهم أسمالاً بالية وغطّت وجوههم طبقة من الغبار، حتى بدوا مثل أشباح سائرة أكثر منهم رجال محاربين، أو طابور أشكال مؤسية. وبدلاً من السير نحو العدو أمضى الجنود وقتهم في البحث عن طعام، يقتلون قطعان الماشية ويسرقون الدجاج. وتقلّص الفارق بين الفرسان القوزاقيين وبين اللصوص وقطّاع الطرق.

وانقطع الاتصال كلياً بين الوحدات، الفرق والفيالق. ولم تعد القيادة العليا للجيش الروسي تعرف ماذا سيفعل العدو. والأسوأ من ذلك، أنها كانت تجهل تحركات جيشها هي. والشيء الوحيد الذي أدركه الدوق العظيم نيقولا، هو أنه لا يوجد أي تعاون بين جيشيه الأول والثاني.

كان سامسونوف شاحباً من شدّة الإنهاك، ويسعل باستمرار. دخل إلى مقرّ قيادته المؤقّت، قائد أركانه، الجنرال بوتوفسكي،

رجل عصبيّ يلبس نظارة أنفية: «سيّدي الجنرال هذه برقية من الجنرال جيلينسكي».

قرأ سامسونوف البرقية: «أسرع في هجوم. إنّ تباطؤك يعرّض الجيش الأول إلى الخطر».

شتم الجنرال ولعن، وسأل أحد ضباطه، قائد وحدة مدفعيّة، يشاركه كرهه: ماذا تفعل بذلك؟ لماذا يبطىء المخبول رينينكامبف؟».

«تلك الرمال اللعينة تعيق حركة الرجال والمدفعيّة. خارت قوى الأحصنة، ويضطر رجالي إلى دفع المدافع بأيديهم. وكل مئة ياردة يتعطّل شيء ما. سنكون محظوظين إذا استطعنا أن نقطع إثني عشر ميلاً يومياً».

وسمع سامسونوف ضابطاً آخر يقول: «إنّ وصول الجيش الأول إلى برلين يتطلّب جهداً كبيراً».

سيكون سعيداً، الآن، إذا استطاع بلوغ شرق بروسيا.

إنّ هزيمة الألمان في جو مبينين قادت إلى أحداث في مركز القيادة، في كوبلينز، ستؤثّر على مجريات الحرب. فقد وصل الجنرال فون كلوك بجيشه الأول إلى مارن على بعد ثلاثين كيلومتراً عن باريس وأُقنع الجنرال فون ومولتيك أنّ الحرب على الجبهة الغربية كُسِبت. وفي الوقت نفسه تعرّض إلى ضغط من قبل القيصر كي يوقف زحف الروس إلى جونكيردوم في شرق بروسيا، «مهد السلالة الألمانية». واتخذ مولتيك قرارَيْن نجم عنهما عواقب وخيمة. كان أولهما تسريح أربعة فيالق احتياطيّة من الجبهة الغربيّة، وهذا سيكلّف الألمان غالياً، لأنه حرمهم من القوة البشرية الضرورية لاجتياح باريس(٣).

وقضى القرار الثاني بتسريح الجنرال فون بريتوينز، ثم تعيين الجنرال المتقاعد العجوز بول فون هيندينبرغ على رأس الجيش الإنجليزي. ومن ميزات هيندينبرغ أنه شخص متّزن وتلقّى أفضل تدريب عسكري بروسي. وإذا ما دُعي، فيجيب بتهذيب: «أنا جاهز». ولعب مولتيك الورقة الرابحة عندما عيّن الجنرال إيريك فون لودیندورف، بطل موقعة لوتش»، قائد أركان هيندينبرغ. والتقى الرجلان، العجوز الفولاذي والشاب، وكلاهما استراتيجي لامع، على رصيف محطة هانوفر، واتخذت الحرب في شرق بروسيا وجهاً جديداً.

سقطت جومبينين في أيدي الروس. توقّف القصف المكثّف. وعمّتْ الفرحة في مركز قيادة رينيكامبف. وظنّ الكثير من الشباب الروس الأمّيين أنهم قد وصلوا برلين. وأمر رينينكاميف بوقف مطاردة الألمان لاعتقاده أنهم قد سُحقوا.

لكن الكولونيل جلاجولف فكّر في الأمر بطريقة أخرى. «إن الألمان لم يُهزموا، بل إنهم يعيدون تجميع قواهم للانطلاق جنوباً كي يضربوا سامسونوف. لا بدّ أنهم يعرفون بمأزقه، وأنّ رينينكامبف لن يحرّك ساكناً كي ينقذه. فذانك الرجلان يكرهان بعضهما لسبب لا يعلمه سوى الله».

في ٢٢ آب، ساءت حالة تموين الجيش الروسي الثاني، فقرّر سامسونوف أن يدفع بجيشه إلى نوفو جيور جيفيسك ومن ثم إلى محطة قطارات سولداو. وهذه الخطوة أبعدته أكثر فأكثر عن جيش رينينكامبف. لكن لم يكن أمامه خيار آخر.

أرسل بوتوفسكي برقية إلى جيلينسكي، يطلب منه أن يحثّ الجيش الأول كي يتقدّم باتجاهنا». فجاءه الرد موجزاً: الجيش الأول يتحرّك غرباً، وأكرّر الغرب ليس جنوباً، كي يحمي لونيجسبرغ.

عندما قرأها سامسونوف، صاح بصوته الخشن: «لم أكن متأكّداً أنّه قد أوغل في السير غرباً، لكنني كنت متأكّداً أنه يتحّرك جنوباً». وكان محقّاً، بالطبع. فإن رينينكامبف لن يساعد، أو ربما لم يستطع أن يساعد الجيش الثاني. فقد توقّفت إمدادات جيشه عندما تغيّرت السكة الحديد من الروسية العريضة إلى الألمانية الضيّقة. على الأقل، هذا هو التفسير الذي قدّمه رينينكامبف كتبرير لفشله في مؤازرة سامسونوف.

قرأ الألمان هذه الإمارة الحاسمة قبل أن تصل إلى سامسونوف. في الحقيقة، لقد حدث عملياً كل ما توقّعه الكولونيل جلاجوليف. فلم تكن الفرق الألمانية تنسحب، بل تعيد تجميع ذاتها. ولم يُسمح لبريتويتز أن ينفّذ قراره بالإنسحاب إلى ما وراء فيستولا. ومن سوء حظّ الروس أنّ مراسلاً يحمل برقية من جيلينسكي إلى الجيش الأول، تتضّمن خارطة انسحاب سريع توضح أهداف الروس، وقع أسيراً في يد دورية استطلاع ألمانية. وفي الوقت الذي وصل فيه قائدا الجيش المعيّنان حديثاً إلى مركز القيادة، كان الكولونيل هوفمان قد وضع استراتيجية بارعة لا ينقصها إلا موافقة هيندينبرغ. وانخرط لوديندورف وهوفمان في العمل مباشرة، معتمدين على خطّة هوفمان، فابتكرا ضربة معلم بالغة الجرأة، تمكّنهم من توجيه ضربات قوية سريعة تُنزل بالعدو خسائر فادحة، وذلك بالاعتماد على قوّة صغيرة سريعة الحركة. واعتمدا، لأجل ذلك، على منظومة السكك الحديدية الجانبية في شرق بروسيا. ثم إنّ إيقاف الألمان للأوامر الروسيّة مكّنهم من معرفة تحركات الجيشين الروسيين الأول والثاني. وغدا واضحاً أن رينينكامبف، بعد جومبينين، قد نال مأربه ولم يقم بأي عمل آخر لمدة ثلاثة أيام متتالية. لكن سامسونوف لا يزال يتقدّم، ولذلك

فإنّه يعتبر الخطر الأكبر، وقضت خطّة هوفمان بتكثيف كل فاعلية الجيش الثامن ضد سامسونوف، بينما تبقى فرقة خيّالة صغيرة تناوش رينينكامبف(٤).

كان سامسونوف يتلقّى، باستمرار، وابلاً من البرقيات من مركز قيادة مجموعة الجيش الشمالي ـ الغربي، تطالبه بوقف مهزلة التقدّم تلك، وتدفعه إلى اللحاق برينينكامبف. غير أن جنود الجيش الثاني كانوا عاجزين عن التقدّم خطوة واحدة، فأمر سامسونوف، في صباح ٢٤ آب، باستراحة قصيرة قبل مواجهة العدو أهدى هذا التأخير يوماً إضافياً للألمان كي يعدّوا كمائنهم جيّداً.

غادر الكولونيل جلاجوليف والكابتن كرافتشينكو الجيش الأول كي يحاولوا إيجاد سامسونوف. طلب منهم فعل ذلك بعد أن فقد مرسال الجنرال جيلينسكي(٥) ولم يصل الجيش الثاني.

«فهو إمّا سجين أو ميّت؛ لكن النتيجة واحدة».

«كم نحن بعيدان عن الجيش الثاني؟».

«الله يعلم، خمسون، ستون، مئة ميل؟».

«لا أسمّي ذلك ثغرة، لأنها أشبه بسهب مفتوح».

«حسن، أريدك أن تحفظ الرسالة غيباً، تحسّباً لئن متّ أنا»، قال جلاجوليف.

«حاضر، سيّدي الكولونيل».

إليك الرسالة:

١ ـ إنّ العدو يخاطر بكلّ شيء في ضربة واحدة. وسيزّج بكل قوّته ضد الجيش الثاني.

٢ ـ إن الإنسحاب الألماني هو في حقيقة الأمر إعادة تجميع قوات لهذا الهدف تحديداً.

٣ ـ يجب أن ينضمّ الجيش الثاني إلى الأول، مباشرة، بينما يتحرّك الأول نحو الجنوب.

«حفظتها؟».

«نعم، سيّدي الكولونيل».

وأنهى جلاجولف كلامه بابتسامة حزينة: «أخشى أنّنا تأخّرنا كثيراً. والعنكبوت في البيت بانتظار الذبابة.

واستخدم الألمان الطائرة، وكانت سلاحاً جديداً في تاريخ الحروب. فحلّقت طائرة، فوكر، استطلاع فوق المنطقة الفاصلة بين الجيشين الروسيّين الأول والثاني. وبناءً على تقريرها عن الفجوة الفاصلة بينهما، وبمهارة مدعومة من هوفمان، نفّذ الرجلان حملة هي الأكثر حسماً وبراعة تكتيكية في الحرب العالمية الأولى. فبينما كان سامسونوف يزحف ببطء نحو الغرب على جبهة طولها ستين ميلاً، سحب لوديندورف فيلقَيْن: الأول من فون فرانكوا، والسابع عشر من فون ماكينسين، من على جبهة رينينكامبف. وكانت خطة جريئة حقاً إذ أنها تركت الألمان، هنا، بخط دفاعي قليل العدد.

كتب أبو الاستراتيجية، كارل فون كلوزويتز، «على الجنرال أن يحتمل الكثير، وهو بحاجة إلى أعصاب قوية. فالحرب ليست معادلة رياضيّات معلومة الأرقام، بل إنها حالة تتداخل فيها القوى النفسية والجسدية. تقصد العمل مع رجال متبايني القوّة، الشخصية والرؤية. والقائد وحده هو العامل المعروف». وكان لوديندورف المثال الأبرز، فقاد قوّاته الألمانية ببراعة جليّة. لكنه اضطر إلى العمل بسرعة كي لا يستقرئ القادة الروس مقصده ويكثفون قواتهم بمواجهته.. فدفع بعدد من فيالقه، بسرعة، إلى مواقع دفاعية كي يعيقوا تقدّم سامسونوف، وأمر، في الوقت نفسه، الفيلق الأول

بقيادة فرانكوا، والسابع عشر بقيادة ماكينسين، القيام بحركة التفاف مزدوجة. لقد سبق السيف العذل.

* * *

وصل جيش سامسونوف إلى نيدينبرغ في ٢٦ آب حيث وجد الكولونيل جلاجوليف والكابتن كرافيتشينكو الجنرال يتناول عشاءه مع معاونه بوتوفسكي. فهمس جلاجوليف: «يسموّنه المُلاّ المجنون «نهض سامسونوف ليحيّيهما. بدا في حالة زرية مثل بقية جيشه. كان اليأس بادياً على محيّاه.

فكان سؤاله الأول «ما هي مشكلة الجيش الأول؟».

«يعتزم الجنرال رينينكامبف أن يتحرّك غرباً خلال يوم أو ما شابه، أيها الجنرال».

«لقد سمعت بذلك. هل تشربون فودكا؟».

«نعم، شكراً». وبعد عدّة كؤوس سلّماه الخارطة والرسالة.

«رائع»، قال سامسونوف، فتح الخارطة ودرسها لبعض الوقت، قبل أن تعلو وجهه تقطيبة حيرة. «هناك مشكلة وحيدة. من يستطيع قراءتها؟».

نظر إليها جلاجوليف من فوق كتفه. كانت الخارطة مكتوبة باللاتينية والضباط الروس لا يعرفون إلا اللغة السيريلية (السلافية).

«شكراً لكما»، قال سامسونوف ثم صرفهما فكان لديهما فرصة لتفقّد حالة الجيش الثاني. ولم يصعب عليهما اكتشاف حالته الجسدية المزرية. ومن بعيد سمعا صوت مدافع ثقيلة.

«هذا ليس صوت مدافعنا، فنأمل أنهم لا يتقدّمون نحونا».

خرج سامسونوف من مركز القيادة. «ألم يعطكما جيلينسكي

رسالة أخرى؟ كنت أتوقّع الإذن لمنع فكرة تطويق القوات البروسية».

«يا إلهي، مجنون هذا الرجل»، فكّر جلاجوليف ثم أضاف: «سيّدي، أرجو أن أخبرك إن المسألة لم تعد مسألة تطويق العدو، لأنه هو يوشك أن يحاصرك الآن».

عندئذٍ جاء أول المشرّدين يركض عبر المعسكر: «البروسيون (الأوهلان) قادمون!» وخلال دقائق لحق به آلاف الروس مذعورين. وبدا الجنرال قد انتزع من المشهد أمامه.

دمدم: «انقطعت أخبار زوجتي عني منذ أيام». ثم شد حزام سيفه، وركب سيارته ليرى ما يجري.

بقي هيندينبرغ ولوديندورف قلقين بسبب الغيوم المرعدة التي حجبت سماء الشمال، فوقهم. وكان رينينكامبف يتقدّم ببطء شديد إلى كونيجسبرغ، لا يخوّله بأن يقوم بأي دفاع. لكن ماذا سيحدث لو قرّر الروسي فجأة أن يحرف رجاله الـ٣٠٠,٠٠٠ نحو الجنوب..؟ فرقتا فرسان ألمانيتان تقفان الآن بين فرق رينينكامبف (اثنين وأربعين) فرقة مشاة وخمس فرق فرسان) وبين دمار الجيش الألماني الثامن. ولم تهدّئ مخاوفهم الرسائل الواردة من الجيش الثاني إلى جيينسكي ومن جيلينسكي إلى رينينكامبف، وحده الكولونيل هوفمان لم يظهر عليه القلق. لأنه كان واثقاً جداً أن لا شيء سيجعل رينينكامبف يتّجه بجيشه جنوباً. ثم وقع ما هو متوقّع. ففي عصر ٢٧ آب، رصدت طائرة فوكر تحرّك وحدة فرسان روسيّة تابعة للجيش الأول، أبلغت الجنرال فون فرانكوا الذي أبلغه بدوره إلى مركز قيادة الجيش الثامن: «شوهد فيلق روسي يتجه نحو ميسرتنا».

كان للرسالة وقع قنبلة وفقد لوديندورف برودة أعصابه.

فالروس يوشكون أن يُطبقوا عليه! فطلب من هيندينبرغ أن يستدعي فوراً الفيلق الأول بقيادة فرانكوا من همته الالتفافية كي يتخذ موقعاً دفاعياً بمواجهة رينينكامبف، كانت تلك اللحظة الحاسمة في المعركة كلها، وانتظر كلٌ من في مركز القيادة الألماني وصول العجوز هيندينبرغ ليتخذ القرار. دخل هورفمان وقال: «جنرال هيندينبرغ، لي حديث خاص معك، لو سمحت». أومأ الجنرال برأسه وسار الرجلان إلى ركن الغرفة.

«تحدّث، يا كولونيل».

هناك أمر يجب إحاطتك به، يا سيّدي. «أعتقد من المهم جداً أن يساعدك في اتخاذ قرارك». ثم أخبره هوفمان عن حادثة موكدن، وعن مسألة «الصفعة على الوجه».

«إذاً، أنت تعتقد أن رينينكامبف...؟» وترك هيندينبرغ الكلمات تنساب على لسانه.

«نعم، سيّدي، أنا مقتنع أن رينينكامبف لن يساعد سامسونوف». أصدر هيندينبرغ الأمر الأكثر أهمّية في تاريخ سيرته العسكرية. ولم يذكر شيئاً، فيما بعد، يشير إلى نوبته العصبية. فتابع الفيلق الأول بقيادة فون فرانكوا تطويقه لقوات سامسونوف. وجرت المعركة كما خطّط لها.

كانت بالغة البساطة. ووقع سامسونوف في الشرك منذ لحظة خروج الجيش الثاني من نيدينبرغ ومهاجمته الوسط المنهك للفيلق الألماني العشرين (فون شولتر)، الذي تلقى دعماً من رجال ألوية[٦] لاندفير التابعة للجنرال فون دير جولتز، وهم فلاحون يقطنون منطقة ألينشتاين تانينبرغ هبّوا للدفاع عن مزارعهم وقراهم. لم تتزعزع الجبهة الألمانية. وسرعان ما وقع سامونوف تحت سد نيران مدفعيّة ماكينسين وتحت رحمة فيلق بيلو الذي سحق الميمنة الروسية.

وعندما حاول سامسونوف أن ينجو بقوّاته باتجاه الشمال الغربي اصطدم بالفيلق الاحتياطي الثالث (فون مورجين)، بينما تحرّك الفيلق السابع عشر (فون ماكينسين) جنوباً للانضمام إلى الفيلق الأول (فون فرانكوا) قرب قرية ويلينبرغ. وكان مفتاح نصر الألمان يكمن في دقة تسديد مدفعيّتهم، التي وجّهتها طائرات استطلاعهم.

بدأ جيش سامسونوف ينهار. فقد أحيط بطوق فولاذي، والمدفعيّة الألمانية تمطره بوابل نيرانها بدون توقّف. وجرى دفع قواته إلى مستنقعات بريبييت لتغرق هناك. وتحوّل الجيش الروسي الثاني إلى قوّة متناثرة. طوابير من الجرحى، أكداس من القتلى، شتّتته الرمايات الدقيقة للمدفعيّة الساحقة. واستطاع الجنرال بنفسه مراقبة القذائف التي تنفجر وسط طوابيره المقاتلة. رأى جنوده يتخلّون عن بنادقهم، والسرايا جميعها، تحاول عبور البحيرة، مثل أطواف خشب سريعة لا تحتاج إلا لمن يسحبها. وغرق الكثير منهم في المستنقعات العميقة. أما الجرحى فقد ماتوا لعدم توفر ضمادات توقف نزف جروحهم. وأرسل بوتوفسكي الرسائل البائسة الواحدة تلو الأخرى. لم يسمعه سوى الألمان. لقد فات الأوان؛ فلا جيلينسكي استطاع أن يفعل شيئاً، ولن يفعل رينينكامبف. اشتد أوار المعركة في ٢٧ و٢٨ آب، و استبسل الروس استبسال اليائسين، لكن ذلك لم يغيّر شيئاً في النتيجة النهائية للمعركة. وأرسل الجنرال هيندينبرغ إلى القيصر بعد بضعة أيام: «أود أن أخبر جلالتكم، وبكل تواضع، أنه قد تَمّ إحكام الطوق حول الجزء الأعظم من الجيش الروسي الثاني».

أرسل سامسونوف آخر رسالة إلى جيلينسكي، مساء ٢٩ آب، «أرسل لكم عتاد وجهاز لاسلكي. سأتقدّم إلى الجبهة الأمامية. أطال الله عمر القيصر».

توسّل إليه بوتوفسكي: «أرجوك، جنرال، استقلّ سيارة، ستكون عوناً كبيراً لك..».

«لست أنا من يجب أن ينجو. دع السيارة تنقل الجرحى. سأمتطي حصاناً وسأتولى، الآن، قيادة الجبهة بنفسي». وكان الجنرال يعرف بأنه لم تعد لديه جبهة تُذكر. لكن بناءً على ذلك امتطى الأحصنة، سامسونوف، وثمانية من قادة أركانه، من بينهم جلاجوليف، كرافيتشينكو، وضابط الاتصال الإنجليزي كنوكس، ومرافق قوزاقي، وحيثما يمشون كانوا يشاهدون الموتى والمحتضرين. أما المسليمين فكانوا مرهقين ومخبولين. وسيعود بعضهم في نهاية الحرب إلى الوطن ليرووا ذكرياتهم عن تلك الهزيمة المخزية، وستقود حكاياتهم عن الرعب إلى ثورة ستغيّر مسار التاريخ على مدى السبعين عاماً التالية. ألقى سامسونوف نظرة أخيرةً على جيشه المشتّت، ثم أمر ضابط الارتباط الإنجليزي، قرابة ظهر ذلك اليوم، أن يرحل: «هذا يوم سعد الأعداء، وسيأتي يوم سعدنا فيما بعد».

التقى، فوق إحدى التلال، بالجنرال مارتوس، أحد قادة فيلقه، وقائد وحدة عسكرية أخرى. فقال له مارتوس: «يؤسفني، أيها الجنرال، أن أخبرك إنه لم يعد هنالك فيلق». وهذا جعله يقرّر، أخيراً، إصدار أمر انسحاب عام. فقد دفع إلى المعركة ربع مليون رجل. والآن لم يبق منهم سوى حفنة رجال مطاردين، محاصرين ومهزومين. غير أن الجنرال بوتوفسكي اقترح عليه أن يُقيّما الحالة، فعلّق الكولونيل جلاجوليف: «ماذا ستقيّم، أيها الجنرال؟ وأين؟ فلم تبق ساحات قتال».

أمامهم، على مسافة قصيرة، سقطت قذائف مدفع على طابور من الجرحى وطوحتهم في الهواء شذر مذر. فركب الكولونيل

جلاجوليف إلى سامسونوف وقال له: «جنرال، يجب أن تغادر هذا المكان؛ انجُ بروحك».

تملاّه سامسونوف، مطوّلاً، قبل أن يردّ عليه بتؤدة: «لماذا؟».

في هذه اللحظة أصابت رصاصة حصان الجنرال.

في ٣١ آب حمل الروس، جميعاً الخبر إلى القيصر: «لقد سُحق جيش سامسونوف». فردّ القيصر على هذا النبأ، «إننا ندين بهذه التضحية إلى فرنسا التي أثبتت أنها حليف مثالي».

«من هو الملام؟ حقاً، من هو الملام؟ حماقة سامسونوف؟ حقد دينينكامبف؟ رعونة القيصر؟ مَنْ؟ الجميع يبحث عن كبش فداء. إنه السؤال الذي سيهيمن على عموم روسيا لسنوات قادمة حيث بدأ شيء ما يحدث في بيتروغراد. وصلت أول دفعة جرحى من الجبهة. وانتشرت حكاياتهم في المدينة كلها؛ ومن هنا، كتابياً أم شفاهياً، إلى عموم روسيا. وكان فلاديمير إلياتش أوليانوفا، المشهور باسم لينين، من بين من سمعوا تلك الحكايا.

إن قرية تانينبرغ الصغيرة غالية جداً على قلوب الألمان جميعاً. وفي هذه القرية، العام ١٤١٠، هزم الجيشان البولندي والليتواني الفرسان التيوتونيّين(*). فاقترح هوفمان على فون هيندينبرغ أن يتوّج انتصاره العظيم بهذا اللقب التاريخي (معركة تانينبرغ).

انتهت المعركة. وترك نوديندورف، بناءً على اقتراح هوفمان

(*) التيوتوني: أحد أفراد التيتون وهم شعب جرماني أو سلتي قديم. المترجم.

فيلقاً ليقضي على مَنْ تبقى من جيش سامسونوف. وقد وصف هيندينبرغ ما حصل فيما بعد بـ«يوم الحصاد» فقد أسروا ٦٠,٠٠٠ جنديّ، ودمّروا، كلياً الفيالق الثالث عشر، الخامس عشر والثالث والعشرين، بينما أوقعوا خسائر فادحة في صفوف الفيلقين الأول والسادس. كانت غنائمهم هائلة. ورُقيَ هونمان إلى جنرال، ولم تتح له الفرصة لإلقاء نظرة على غنيمة المدافع، وطوابير الأسرى المهلهلين. فقد انشغل، مباشرة، في التخطيط لتدمير جيش آخر.

تجمّع الجيش الألماني الثامن المنتصر حول النصب التذكاري في تانينبرغ، وفي ذهنهم معركة أخرى. وأنشدوا ترتيلة الحرب لفريدريك العظيم قبل أن يركبوا القطارات التي ستحملهم إلى الشمال، إلى المواجهة مع الجيش الروسي الأول بقيادة بافل رينينكامبف.

٣١ آب «كم هي الساعة الآن، يا جلاجوليف؟».

«الواحدة والربع، أيها الجنرال».

كان الرجال الخمسة يسيرون في غابة رطبة متباعدة الأشجار. الكابتن كرافيتشينكو، الكولونيل جلاجوليف، جنرال بوتوفسكي، دليل قوزاقي والجنرال سامسونوف. وقد اضطروا إلى الخوض في المستنقعات هرباً من دورية استطلاع ألمانية. فكانت كل خطوة تعذيباً حقيقياً؛ فامتلأت بساطيرهم بالماء، واضطروا مراراً أن يشكّلوا ما يشبه سلسلة بشرية كي يسحب أحدهم الآخر من سبخة. ولم يكسر ذلك الصمت المطبق سوى نوبات السعال الرَبَوي للجنرال. وعندما وصلوا أرضاً صلبه عند تخوم المستنقع لعلع صوت الرصاص، فجأة. انحنى جلاجوليف بحثاً عن ملجأ فرأى أخيلة تتحرك عبر الأشجار أمامهم. وعندما اختفت، تجرأ جلاجوليف ورفع رأسه ببطء فرأى حوله جثتي الدليل القوزاقي

والجنرال بوتوفسكي وقد سقطت نظارته الأنفية. ثم سمع همساً؛ وكان ذلك صديقه كرافيتشينكو. سحبه جلاجوليف من المستنقع وأخذه بين ذراعيه. نظر إليه الكابتن عبر عينين غائمتين، وعلى شفتيه زبد أحمر. وجاهد كي يهمس لصديقه بالعبارة التقليدية، «أتمنى لك طول العمر».

«وأنا أتمنّى لك طول العمر، يا فاسيلي» قال له جلاجوليف والدموع تنهمر من عينيه، وواساه حتى فارق الحياة، بين ذراعيه.

وخيّم الصمت على جلاجوليف الذي وجد نفسه وحيداً. لقد رحل سامسونوف.

ماذا لو...

ماذا لو - لم تقع إشارات الروس في أيدي الألمان؟

لما تجرّأ هوفمان ولوديندورف على تنفيذ خطتهما الجريئة.

ماذا لو - هبّ رينينكامبف إلى نجدة سامسونوف؟

عندئذٍ كان سُحق الجيش الثامن لهيندينبرغ.

ماذا لو - أبقى مولتيك فيالقه الاحتياطية الأربعة في فرنسا، بدلاً من أن يسحبها ليزجّها في الشرق؟

يمكن الزعم بأن الألمان كانوا سيحتلون باريس، ولانتهت الحرب العالمية الأولى في أقل من شهر، ولما زادت ضحاياها عن بضع مئة ألف وليس ملايين كثيرة كما جرى خلال السنوات الأربع للحرب.

ماذا لو - أنّ رجل الساعة هوفمان، لم يفش، في اللحظة الحاسمة، بسرِ حادثة موكدن إلى هيندينبرغ؟

وهذه قصة أخرى. ذلك أن الفيلد مارشال هيندينبرغ قد برّز مرة واحدة فقط، لكنها كانت كافية لتؤمّن النصر للألمان(٧).

الحقائق:

في تانينبرغ كانت نهاية ضبّاط الفيلق الروسي الأرستقراطيّين. وكانت هزيمتهم الختم النهائي على مذكّرة أفول عهد روسيا القيصرية كقوّة مقاتلة. والتفت الألمان الآن إلى رينينكامبف وأبادوا جيشه. فكانت خسائر الروس الإجمالية أكثر من ربع مليون قتيل.

وكانت تانينبرغ السبب المباشر في هزيمة جيش فون كلوك على بوابات باريس. بينما كانت حكايا الناجين من تلك الحرب، السبب في ثورة جنود القيصر. وهكذا تكون تانينبرغ المحرّك للأحداث غير المحسوبة والتي أدّت إلى الثورة البولشيفيّة في ١٩١٧، وأخيراً، فإنّها أدّت إلى نهاية آل رومانوف وآل هوهينزولرن.

وأختم بملاحظة أخيرة للتاريخ. فلم تشارك ولا حتى كتيبة روسيّة واحدة في الاستعراض العسكري الذي أقامه الحلفاء في باريس ١٩١٨ خلال احتفالهم بالنصر، لا بل لم يأت أحد على ذكر شجاعة وتضحية ربع مليون روسي وهبوا حياتهم كي تنتصر إنجلترا، الولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا.

كان العامل الحاسم في تانينبرغ صفعة على الوجه أدّت إلى أفول عهد القيصرية وأفسحت الطريق أمام صعود البلاشفة إلى السلطة.

(١) معظم هؤلاء المراقبين تبوّأوا مناصب رفيعة: سيرجون هاملتون أصبح قائد جيش، كافيجاليا كان وزير الحرب الإيطالي، والكابتن بير شينج قاد القوات الأميركية التي شاركت في الحرب العالمية الأولى.

(٢) اتصالات غير مشفّرة. تجري بواسطة اللاسلكي أو الراديو.

(٣) لقد أوقف الزحف الألماني على بُعد ثلاثين كيلومتراً من العاصمة، خلال المعركة في مارن.

(٤) وتعرف باسم خطة توردينسكولد، حيث قامت مجموعة صغيرة من القوات الدانماركية بقيادة الكابتن توردينسكولد بمناوشة الإنجليز من وراء المنازل ومتنقّلة من شارع إلى آخر، حتى اعتقد اللواء البريطاني أنه في مواجهة جيش دانماركي ضخم، فقرّر أن ينسحب.

(٥) المراسل الذي أسرته دورية الاستطلاع الألمانية.

(٦) ألوية لاندفير: جرى تشكيلها أثناء الحروب النابليونية وهي وحدات ميليشيا محليّة.

(٧) قام الجنرال ماكس هوفمان بزيارة مسرح معارك تاننبيرغ، وقال لصديق كان برفقته: «من غير المجدي أن نناقش السؤال: هل كان بوسعنا كسب موقعة تانينبرغ بدون تغيير القادة؟ لأن جوابي هو، نعم».

الفصل الحادي عشر

لسعة نحلة تانغا، ٥ نوفمبر ١٩١٤

«الحرب صراع بين عقلَين بشريّين أكثر منها صراعاً بين جيشَين مسلّحَين».

من محاضرة في أكاديمية الحرب البريطانية، ١٩٠١

لم تكن جيرمان إيست أفريكا(*)، ولم تكن تانغا مدينة كبيرة أيضاً. حتى جيش الكولونيل بول فون ليتوو ـ فوربيك وقواته ٨٠٠ أسكاري لم يكن يُصنّف في عداد الجيوش الحقيقية. رغم ذلك كلّه، هنا، ساهمت إفريقيا بأولى معاركها في الحرب العالميّة الأولى.

وكانت هذ المعركة مفاجئة لجنود اللواء أيتكين الهنود الثمانية آلاف. لكنّها لم تفاجىء الحامية الألمانية. فقد تلقوا تحذيرات مسبقة، بهذا الخصوص، من قبل المتعاطفين الألمان المقيمين في الهند، وكانت تصلهم تلك التحذيرات في سفينة بريد منتظمة.

(*) كانت تحت الوصاية الألمانية ١٨٥٥ ـ ١٩٢٠، واسمها الحالي راواندا وبوروندي.

وأفادت، جميعاً، أنّ جيشاً إنجليزياً كان ينزل في مرفأ بومباي، وقد وضع ضباطه على أمتعتهم لصاقات كتب عليها «قوات الحملة الهندية «B»، مومباسا، شرق إفريقيا». يفترض أنّ هذه مهمة سريّة، لكن رغم ذلك كتبت الصحافتان الإنجليزية والألمانية بإسهاب عن هذا الغزو الوشيك.

بما أنّ دار السلام، المرفأ الرئيسي في جيرمان إيست أفريكا كان قد أغلق مدخله بسبب غرق سفينة قديمة، لم يتبقَّ للإنجليز إلا مرفأين بحريّين ليهاجموهما. وكان الجيش الألماني قد اتخذ لنفسه موقعاً استراتيجياً بين ليندي وتانغا.

لقد عانى الجيش البريطاني، عند اندلاع الحرب العالميّة الأولى، من ضغط سرعة تقدّم القوات الألمانيّة في فرنسا. لذلك فإنّ أيّ تحدٍّ تستطيع ألمانيا ترسيخه في إفريقيا، يعني إضافة مستعمرة جديدة من ناحية، وتراجعاً في أهمّية الامبراطوريّة البريطانية من ناحية ثانية. وقد أنيط غزو جيرمان إيست أفريكا بوحدة الجيش الهندي، الضعيفة المستوى، حتى أنّ معظم جنودها لم يطلقوا رصاصة واحدة من قبل. ثم إن مَنْ يسند قيادة وحدة سيّئة التدريب إلى قائد غير كفوء، يكون كمن يبحث عن المتابع. فالجنرال أيتيكن يتمتّع بثقة عالية في قدراته الشخصيّة. وخلص بعد ثلاثين عاماً من الخدمة الكولونيالية في الهند أنّ الحملة القادمة في شرق إفريقيا ستكون انتصاراً ضد «حفنة من الحفاة السود بقيادة ألمان جهلة». وفي أول مواجهة مع الحراب المثبّتة على البنادق سَيُلقون سلاحهم أرضاً ويستسلمون. وعندئذٍ سيعتقلهم، يسجنهم ثم يعود إلى بيته بحلول عيد الميلاد في ١٩١٤.

كانت قواته، وقوامها ٨٠٠٠ رجل، مجموعة حفاة مهلهلة جُمعت على عجل في اللحظة الأخيرة. فهم يتكلّمون اثنتي عشرة

لغة مختلفة، وينتمون إلى ستة معتقدات مختلفة، ويقودهم ضباط بريطانيون لم يروا جنودهم هؤلاء من قبل، ولا يتكلّمون لغتهم أيضاً، وفوق هذا كلّه لم تطأ أقدامهم أرض إفريقيا قبل الآن. ولا يُستثنى الجنرال أيتكين، من هذه الحالة. فعندما صدرت إليه الأوامر، شحن قوّاته، فوراً، على عدّة سفن، غير أن الطقس السيئ أخّر إبحارهم ستة عشر يوماً، وأصرّ أيتكين على بقاء قواته على ظهر السفن. فكانت نتيجة حشرهم في كبائن السفن الحارة أنهم عانوا من دوار البحر والإسهال، بسبب كثرة العواصف. ولم تضف هذه التجربة شيئاً إلى روحهم القتالية، لا بل غاب الانضباط، وعمّت الفوضى والشجارات بينهم، حتى الكابتن مينيرتجاغن، ضابط أمن أينكين، وصفهم بأنهم «أسوأ من في الهند» وكتب في إحدى رسائله إلى الوطن «أرتعد عندما أفكّر بما يمكن أن يحدث عندما نقابل مقاومة جدّية». وهذا ما سيقع قريباً.

ومن سوء حظ أيتكين أنّه اصطدم مع الكولونيل بول فون ليتوور فوربيك، أبرع عقل تكتيكي في الحرب العالميّة الأولى. لقد استطاع مع قلّة من مدرّسي الجامعة الألمان، تدريب ألف مساعد محلّي أسكاري اختارهم من أشرس القبائل المحاربة في المنطقة. وجعل من هؤلاء المقاتلين الشرسين جنوداً جيّدي التدريب والانضباط؛ علّمهم كيف يتهيأون للعدو، يكمنون له ويستغلّون أيّ ثغرة في صفوفه. وكان اختبار تخرّجهم تدريباً على إصابة هدف على بعد ٥٠٠ متر. وعلاوة على ذلك كلّه، كانوا متأقلمين مع الأفاعي، الأسود والعقارب، ويعرفون كلّ بقعة في هذه الأرض، بينما لا يملك الإنجليز إلا بعد الخرائط التي انتزعوها من أطلس جغرافي مدرسي.

لم يدرك الجنرال أيتكين أنّ المرونة مطلوبة هنا، وأنّ ظروف

القتال في أدغال إفريقيا تختلف عنها في شبه القارة الهنديّة. ولم يكن أوّل من فشل في تعلّم هذا الدرس من الحروب الكولونيالية السابقة، في إفريقيا، حيث أثبتت البندقية قيمتها كسلاح شديد الفاعلية. إذ لم يحتج الأمر لأكثر من بضعة رجال بيض كي يُنزلوا أفدح الخسائر في صفوف المجموعة المهاجمة[1]. وكان سلاح كهذا مرتفع الثمن بالنسبة إلى الجيش الهندي، يستهلك كمية هائلة من الذخيرة ويعمل على رفع الروح الدفاعية لدى القوات.

كانت تانغا مرفأً صغيراً عتيقاً على طول الساحل الإفريقي الشرقي، بيوتها المطلية بالأبيض خفيضة الأسقف، تحفّ بها حدائق صغيرة جيّدة التنظيم. واستطاع المستعمرون الألمان بمقدرتهم المتميّزة أن يحوّلوا تانغا إلى مدينة بروسية على بحر البلطيق. وأمام مبنى مجلس المدينة، المطليّ بالأبيض ككلّ أبنية المدينة، تنتصب سارية علم طويلة، ترفع فوقها كلّ صباح مفرزة إسكاريّين محليّين، علم ألمانيا بألوانه الثلاثة الأسود، الأبيض والأحمر. ويدير الهر أوراتشر، المحافظ، المدينة بدقة ساعة سويسرية الصنع، ويحرص أن يتعلّم المواطنون الصالحون فضائل المدفعيّة البروسية. وعاش الجميع حياة كولونيالية مستقرة. وبرع رئيسه، البارون الحاكم فون تشني، في إقامة سلام مع قبائل الداخل المقاتلة بتوزيع كريّات زجاجية وصور فوتوغرافية مؤطرة، لامبراطوريته، على زعماء القبائل.

لا بدّ أنّ هذا المرفأ الهادىء كان مفاجأة سارّة للكابتن ف.و. كوفيلد قائد سفينة هـ.م.س. فوكس، عندما وصل مع القوات المرافقة لسفينته إلى تانغا في ٢ نوفومبر١٩١٤ فلم يجد أية إمارة معادية، حتى علم الامبراطورية الألمانية لم يكن يرفرف فوق السارية. ففكّر في نفسه أنه طالما كان ذلك فأل خير بالنسبة لأولئك

القوميّين الهمجيّين. فجدّف الكابتن كوفيلد بنفسه إلى رصيف الميناء حيث يقف الهر أوراتشر بقميصه الأبيض وياقته المنشّاة، ربطة عنقه السوداء وسيدارته، ينتظر وصوله، وبكل لباقة اعتذر له عن تغيّب الحاكم فون تشني، الذي كان في «جولة تفتيشيّة».

«هربورجوماستر، أخبرك باسم جلالته أنّ أيّ هدنة سابقة بين بلدينا تعتبر معلّقة بموجب هذا»[٢].

يبدو أنّ الرجل لم يضطرب من هذا الخبر، انحنى قليلاً، ثم قال: «هركابتان، لا بدّ أنك ستسمح لي أن أتشاور مع رؤسائي».

«أرجو أن تفعل»، قال الكابتن بلباقه. ليس هناك حاجة للعجلة، لكنّه، بأية حال، أراد إثبات إشاعة مقلقة. ذلك أنّ الطوافة الألمانية س.م.س. كونيجسبرغ مصنّفة في سجلات البحريّة البريطانية كزارعة ألغام، وقد أُفيد سابقاً عن وجودها في المياه الإقليمية.

سأل كوفيلد، «لكن قلْ لي، أيّها الرجل الطيّب، هل الميناء ملغّم؟

استرق أوراتشر النظر إلى الطوافة التي تجوب المياه خارج مدخل الميناء؛ كانت مدافعه الثقيلة موجهّة مباشرة إلى مجلس بلدية مدينته الخشبي.

«طبعاً، هر كابيتان، فهذا معيار أساسي في قانون البحريّة الألمانيّة العسكريّة». وهنا اعتذر منه البورغوماستر واختفى. وتركّزت مشاورته مع رؤسائه على إرسال برقية مستعجلة إلى الكولونيل فون ليتوو ـ فوربيك مفادها أنّ قوات الحملة الهندية «B» قد وصلت إلى بلدته الصغيرة. فزج القائد الألماني، على جناح السرعة، سرَيتيه الموجودتَين في مواقع حُصّنت سابقاً على نحو جيّد، بينما خلع هر أوراتشر سيدارته، ولبس زيّه الألماني

العسكري، ورفع العلم فوق السارية، إيذاناً ببدء التحدّي.

في هذا الوقت، كان الكابتن كوفيلد قد أمر بحارة فوكس أن يجمعوا الألغام. وطبعاً لم يجدوا ألغاماً. لكنّهم بددوا الوقت في هذا اليوم الحار، بينما كانت بقية أسطول الجنرال، الغازي، أيتيكن يتصبّبون عرقاً في قيظ المناخ الاستوائي فوق محيط نفطي، وتزايد غيظ الجنرال البريطاني بسبب هذا التأخير. بينما كان بحارته يمضون الوقت في التجديف حول الميناء. غير أن كوفيلد أقنع أيتكين بألاّ يغامر بخسارة سفينة بسبب لغم، وبدلاً من ذلك ينزل القوات الغازية على بعد ميل من الشاطىء. وتبيّن أنّ مكان نزولهم كان منطقة مستنقعات لا يمكن اجتيازها، موبوءة بالبعوض والأفاعي السامة. ولم يدركوا ذلك إلا بعد نزول دفعة أولى من القوات على الشاطىء، بعد حلول الظلام. وبما أن الهنود لم يغادروا قراهم قبل هذه المرة، وقد سمعوا شائعات من بحارة سابقين عن أهوال آكلة لحوم البشر في إفريقيا. وعن وحشية الألمان فقد كانت أعصابهم متوتّرة وتوقّعوا أن يجدوا عدواً وراء كلّ شجرة. وأطلقوا النار على ظلال مرّت بهم، وتبيّن لسوء حظهم أنهم كانوا رفاقهم.

مع انبلاج الفجر الأول تبيّنوا سوء المنطقة. وبدلاً من تغييرها، أمر الجنرال أيتكين المتحمّس لإنهاء الحملة قبل عيد الميلاد، بإنزال كلّ الإمدادات على الشاطىء. كان بينها درّاجات نارية، أجهزة لاسلكي ومعلّبات. وكان الضباط جميعاً، كي يفوّتوا الفرصة على قائدهم، قد جلبوا معهم بزّات الاستعراض العسكري للنصر. واستغرقت هذه المناورات يومين للوصول بقوارب التجديف، المحمّلة بهذا العتاد والأمتعة الشخصية، إلى الشاطىء عبر الشعب المرجانية الخطيرة. فاستغل الألمان هذا الوقت لتعزيز مواقعهم.

بخلاف الجنرال البريطاني، الذي لا يؤمن بالاستطلاع، أرسل ليتوورفوربيك أحد ضباطه ليستطلع المكان عن كثب. أفاد المستطلع البرليني، الذي تنكّر بهيئة صيّاد عربي، أنّ الرأس الساحلي قد بدا له مثل «شاطىء الرين يوم الأحد»، مليء بالمستجمين.

بقي العميد تيجهي مزهواً، ثمانية وأربعين ساعة، بنجاحه في بلوغ لوائه الشاطىء بأمان، وادّعى أمام رئيسه أنّ رجاله مرهقين ولا يستطيعون صعود المرتفع كي يهاجموا البلدة. حتى عندما وصل تاجر عربي مغامر، على متن مركب، ليبيع بضاعته إلى الجنود، قال لأحد ضباط أركان أيتكين أنه لم يلاحظ وجود أي ألماني في هذا القطاع، بقي الجنرال يرفض إصدار الأمر بالهجوم. كان جنرالاً عاجزاً عن اتخاذ قرار، يبدّد الزمن بينما كان الألمان قد عزّزوا دفاعاتهم القليلة بسريّتين إضافيتين.

أصدر الجنرال أيتكين قراره «تقدّم وهاجم»، في ٤ نوفمبر ١٩١٤، بدون أيّة استطلاعات مسبقة. إنّ أيّ جنرال يفشل في استطلاع قطاع معادٍ ويسمح للعدو بتحقيق عنصر المفاجأة، إنما يجلب الكوارث على نفسه وجيشه. وصدرت الأوامر إلى الجنود الهنود في كتيبة المشاة الخفيفة (بالماكوتا) السادسة والثلاثين، وكتيبة الرواد الحادية والستين وكتيبة راجابوت الثالثة عشر، بتركيب الحراب على البنادق، وتشكيل جبهة قتال بعرض ألف ياردة تقريباً. وذلك أمر مستحيل، لأنهم سيضطرون إلى عبور مستنقع منغروف(*)، يغوصون في مياهه ووحوله حتى الركب، من ثم يشقون طريقهم عبر غابة جذوع أشجار وجذور المنغروف ـ تقدّم

(*) شجر إستوائي تنمو جذور جديدة على جذوعه البارزة فوق الماء.

العميد تيجهي تتبعه قواته من اللواء البنغالي لكنّهم لم يروا أي ألماني.

«اللعنة، لقد هرب الألمان»، قال ضابط صغير شعر بالإحباط لعدم تمكّنه من بلوغ المجد. فقام مع قائدَيْ سرِيَّتَيْن بتسلّق التلّة سعياً وراء رؤية أفضل. وما إن رفع الثلاثة رؤوسهم حتى سقطوا موتى. نُفخ بوق، فانتصب في المستنقع صف ألمان أسكاريّون مثل أشباح سود لماعة واندفعوا باتجاه البنغاليّين وهم يطلقون صرخات الموت. فذعر الجنود الهنود، ألقوا بنادقهم وفرّوا هاربين تاركين وراءهم دزينة ضباط قضت على أيدي المهاجمين. حاول الكابتن مينير تجاغن وقف ذلك الذعر الذي استشرى، لكن ضابطاً هندياً استلّ سيفه مهدداً كي يدعه يهرب، فأطلق عليه مينيرتجاغن النار.

أبرق العميد تيجهي إلى السفن أنّه يتعرض لهجوم ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ ألماني، في حين لم يتجاوز عددهم الحقيقي ٢٥٠ جندياً، وكانوا أقلّ من سريّتين، لشوتزتروب السابعة والثامنة. لقد كلفّت هذه المحاولة، الأوليّة، الإنجليز ٣٠٠ إصابة وهرب بقيّة الجنود إلى الشاطىء، وكان بعضهم يصيح طالباً النجدة بعد أن غمرتهم المياه حتى رقابهم.

كان الجنرال أيتكين غاضباً من تصرّف البنغاليين، غير العسكري، ومن الضربة التي حلّت بوحداته، فأمر كلّ احتياطيّيه بالنزول إلى الشاطىء استعداداً للهجوم على ليتوو ـ فوربيك، لكن، مرة أخرى، بدون أي استطلاع. وكشف عن حماقته عندما خلط أضعف وحداته مع أفضل تشكيلين لديه فوج لانكاشاير الشمالي، وفوج جورخاس للرماة الكشميريّين.

«سنخوض المعركة بالفولاذ البارد». قال أيتكين عندما تعرّض ثانية لقصف بحرية هـ.م.س. فوكس. وأصدر أوامره، من جديد،

إلى قادة الوحدات أن يهاجموا بعد تثبيت الحراب على البنادق.
في هذا الوقت كان الشاطىء قد غصّ كثيراً بالعتاد بحيث أعاق حركة القوات التي بدأت تنزل إلى الشاطىء وتُجاهد كي تشق طريقها وسط الجنود الهنود المنتفخي العيون، ليتلقوا الأوامر بمهاجمة العدو الذي اختفى، ثانية، في المستنقع.

وضع ليتوو ـ فوربيك خطّه الدفاعي المرعب، على بعد ثلاثمائة متر خارج المدينة، على طول سدّ ترابي أقيم سابقاً لوقف زحف المستنقع، وجرى تمويه كل الوحدات، جيّداً، خلف صفوف البامبو المحيطة بالمستنقع، وارتبطت معه كل وحدة بهاتف ميداني. وفي الأمام مُدّت أسلاك شائكة مموّهة بأوراق وزهور المستنقع. هكذا، فإن تجاوز هذه الدفاعات بالحراب سيكون مهمّة انتحارية. في الواقع لم يكن القائد الألماني بحاجة لترتيب الكمين لأنّ فوج الخدمة الامبراطورية الهندي تعثّر به من تلقاء نفسه. وشق الجنود الهنود طريقهم وسط الوحل وتعثروا بجذور المنغروف الناتئة فوق الماء، وهم يعانون من الحرّ والعطش. بينما كان القناصة الأسكاريون جالسين على قمم أشجار البا أوباب(*) يتصيّدون الضباط ذوي السيدارات اللماعة. ثم فتح الألمان نيران بنادقهم الآلية التي أظهرت فعالية عالية، وفتحت ثغرات كبيرة في صفوف الوحدات المهاجمة.
وجرت الأمور كما خطّط لها ليتوو فوربيك. وبدأ صف الهنود المهلهل يتخبّط وسط المستنقع، يطلق النار على أدران الأشجار فوقه وعلى رفاقه، مرات كثيرة. كانت طليعة الجيش تنسحب والمؤخّرة لا زالت تتقدم، مما خلق فوضى كبيرة جعلت منهم أهدافاً مثالية لرماة البنادق الألمان. لم يستطع سوى اللانكاشايريون الشماليّون

(*) البأوباب: التّبلدي، شجر إستوائي عريض الجذع.

والجورخاسيّون أن يتقدّموا بشجاعة كبيرة، وبعد معركة دامية بالسلاح الأبيض استطاعوا أن يحتلوا مبنى إدارة الجمارك المحلي. ومن ثم انطلقوا إلى البلدة حتى بلغوا هونيل دوتشر كايسر. وأنزلوا العلم الألماني الثلاثي الأرقام ورفعوا مكانه (ذي يونيون جاك) علم الاتحاد. وتلقّت السفن الراسية في البحر منظره بفرح غامر.

أصبحت الحالة شديدة الخطورة على ليتو ـ فوربيك ومساعديه فون برينز والميجور كورت. فقد اقتحمت القوات البريطانية البلدة، وإذا لم تُوقف، فسوف تدقّ سريعاً باب المستعمرة الذي سيفتح على مصراعيه. وهرب بعض الجورفاسيين الأغرار أمام ضربات الحراب المعقوفة القاتلة، واختبأوا في المباني. وتطلّبت إعادتهم إلى صفوف القتال خطوة جريئة. فقد استفزّهم الأرستقراطي البروسي ليتوو ـ فوربيك قائلاً: «هل أرى أمامي نساءً، أم أولاد مقاتلي واهيهي وأنجوني المعتدّين بأنفسهم؟» لكنّهم ما كانوا ليتحركوا، حتى يحدث أمر آخر.

فعندما قفز أحد المواهيهيّين الأسكاريّين محاولاً أن يهرب أخذ الكابتن فون هاميرشتاين، قائد السريّة، زجاجة نبيذ نصف ملأى، ورماه بها فأصابت فروة رأسه، وسقط أرضاً وسط ضحكات الأنجونيّين. تلك كانت الشعرة القاصمة. فحمل الواهيهيّون القبليّون الغاضبون بنادقهم، نسوا رفيقهم وجبنه، ثم انطلقوا يطاردون الميجور فون يرينز وهم يصيحون «واهيندي ني وادودو». ولحق بهم القبليّون الأنجوينون، يصرخون صرختهم القبليّة الخاصة بالحرب، وهم يسندون بنادقهم ومسدساتهم اللامعة على أكتاف بعضهم البعض الآخر، ركضوا عبر البلدة وطردوا الجوخاسيّين. وسرعان ما تحوّل الشجار بين الأنجونيّين وحراب الجورخاسيّين إلى مذبحة مريعة، قُتِل فيها الميجور فون برينز،

بينما حصدت البنادق الآلية الألمانية، وسيوف الأسكاريّين الكتيبة البومبيّة، وانتهت المعركة. لكن وبسبب الاندفاع المستمر لسريّتيه الواهيهيّة الرابعة والأنجونيّة الثالثة عشرة، انكشفت ميسرة ليتووفوربيك على الجنود الانكشاريّين في محيط مبنى الجمارك.

بخلاف خصمه الألماني الذي قاد المعركة من خندقه الأمامي، بحيث يستطيع متابعة مجرياتها واستثمار كلّ فرصة سانحة، في الحال. بقي الجنرال البريطاني على متن سفينة القيادة، فلم يستطع أن يرى ما يجري، على الأرض، بسبب كثافة الغابة، تلقّى الجنرال أيتكين رسالة من قائد اللانكاشايريّين الشماليّين، يصف فيها بدقّة المواصفات القاتلة للبندقية الألمانية الآلية، ويطالب بدعم مدفعي تمهيداً لهجومهم على الجبهة الألمانية. لكنّه لم يتلقّ أية تغطية من المدفعيّة البحرية، فالجنرال أيتكين شلّه عجزه عن الفعل، لم يكن أمام اللانكاشايريّين خيار لتقليل حجم إصاباتهم سوى إمطار أشجار البامبو الصغيرة بنيران بنادقهم ـ التي لم تُجْدِ لأن الألمان وأسكاريّيهم كانوا في ثغورهم الآن. لكنّها منعتهم من استخدام بنادقهم الآلية الأكثر دقة وفتكاً. لم يلاحظ القادة البريطانيون أن الأسكاريّين قد نفذت ذخيرتهم، ويستعدون الآن لشن هجوم أخير، يائس بالحراب.

تلك كانت اللحظة الحاسمة المتاحة لانتصار البريطانيين. غير أنّ حدثاً غير متوقع، قط هو الذي أنقذ الألمان. كان المستنقع محاطاً بأشجار مميتة، مثل بعض الغابات المتحجّرة، كانت أغصانها الرمادية، المحروقة، تطاول السماء. ويتدلى من هذه الأغصان سلال ضخمة تشبه شكل السيجار، استخدمها المواطنون المحليّون فيما مضى كخلايا نحل، والنحل الإفريقي عدواني وكبير الحجم. لعسله طعم حامض شهي بالنسبة للذين يعرفون كيف

يحمون أنفسهم من لسعاته وذلك بدهن وجوههم وأذرعهم بطبقة كثيفة من الشحم.

غير أن صخب إطلاق النار المستمر قد أقلق هدوء منتجي العسل، أو ربما أصيبت السلاسل وتشظّت الخلايا أو لأي سبب كان، طارت أسراب النحل المتجمّعة حول قمة الأشجار، قبل أن تهاجم المتقدّمين من الجيش البريطاني، بلسعاتها القاسية. فسرت موجة ذعر بين الهنود الذين تلقوا لسعات كثيرة، فولوا الأدبار وفي إثرهم أسراب النحل الغاضب. وبوسعنا أن نتصوّر كيف بدا للجنرال أيتكين، الموجود على متن سفينة القيادة، منظر مئات من الجنود يومئون مسعورين، وقد تخلّوا عن بنادقهم، وراحوا يحرّكون أذرعهم كطواحين الهواء وهم يندفعون من مستنقع المنغروف باتجاه المحيط. كيف لا والجنود يهرولون هاربين تسبقهم صيحاتهم المسعورة رغم عدم وجود إطلاق نار! . . فعلّق أحد الضباط: «يا إلهي، أيّها الجنرال، لقد هُزم رجالنا ثانية. فأي عمل بطولي قام به الألمان؟».

جاءه الجواب بسيطاً: حتى جهنم لا تقارن بنحلة غاضبة. لكن لماذا لم يهاجم النحل غير الهنود؟ ربّما يتعلق الأمر برائحة الجسد، تماماً كما تشمّ الكلاب رائحة الخوف. وكوفىء أحد الجنود بالصليب العسكري لأنّه لم ينقطع عن إرسال برقياته رغم تعرضّه لثلاثمائة لسعة. وكانت أول مرة في التاريخ العسكري يمنح وسام البطولة للشجاعة في مواجهة هجوم جوي.

غضب أيتكين من جُبن جنوده، فأمر أخيراً مدفعيّته البحرية بقصف تانجا. سقطت القذيفة الأولى فوق مشفى محلي، مكتظ بجرحى بريطانيين. وسقطت معظم القذائف الأخرى فوق قواته المنسحبة. وعندما وصل اللانكاشايريون إلى الشواطىء، أخيراً،

علّق رقيب مانشستري، بفظاظة: «لم أهتمّ لذلك الألماني الذي قصفني، لكن أن تلسعني نحلة في إستي فهذا لا يحتمل».

عندما هدأت ساحة المعركة ثانية وعاد النحل إلى خلاياه، أحصي القتلى والجرحى، فكانت خسائر الألمان ٧٠، الأوروبي ١٥ و٥٤ أسكاري. بينما ترك البريطانيون وراءهم ٨٠٠ قتيل. ومثلهم جرحى ومفقودين، ربّما غرقوا في المستنقع. أعيد تجهيز الأسطول المهزوم واتجه إلى مومباسا ثانية، حيث تلقى الإهانة الأخيرة، رفض مفتش الجمارك في المستعمرة البريطانية أن يسمح لسفينة أيتكين بالدخول إلى الميناء لأنها لم تدفع رسوم الرسو.

صُدِمَتْ إنجلترا بنتيجة المعركة الأولى في إفريقيا. كيف استطاعت حفنة مساعدين سود إنزال هذه الهزيمة النكراء بالحملة البريطانية القوية؟ لا بدّ من إيجاد مبرّر. وذهبت صحيفة التايمز إلى إتهام بول فون ليتوو ـ فوربيك باستخدام سلاح تكتيكي جديد: أسراب نحل مدرّب على القتال. ولم يجرؤ أحد على الاعتراف أن الجنرال أيتكين لم يكن الرجل المناسب كي يُرسل إلى مسرح حرب لم يستطع فهمها. فقد عفا الزمان على فكرته النابليونية حول «التقدّم والهجوم» بحراب مثبتة على البنادق. واكتشف قادة التحالف، في آب ١٩١٤، أن تكتيكات كهذه لم تعد مجدية على الجبهة الغربية، ولن تُجدي حتماً، في إفريقيا. إن إطلاق موجات بشرية ضد قَبَلِيّين جيّدي التدريب متمترسين في مكامنهم ومسلّحين ببنادق آلية، كان ضرباً من الحماقة. حتى عندما كتب قادة تكتيكيّون، أمثال البويريّين وليتوورفوربيك، كتاباً عن الحرب الاستعمارية، لم ينس الكولونيل الألماني، في السنوات اللاحقة، أن يمتدح مساعديه، النحل.

ماذا لو. .

ماذا لو ـ نجحت حملة الجنرال أيتكين؟

كانت جيرمان إيست أفريكا قد أصبحت تانجايانيكا البريطانية (تانزانيا الحالية)، ولانتهت الحرب العالمية الأولى، بشقَها الإفريقي، في ١٩١٤.

الحقائق:

لقد استطاع اللواء بول فون ليتوو ـ فوربيك بقوة قوامها ١٥٥ ضابط وجندي ألماني ١٢٠٠ إفريقي أسكاري و٣٠٠٠ حمّال، أن يهزم ببراعة ١٢٠٠٠٠ من القوات البريطانيّة الاستعماريّة بقيادة الجنرالَيْن الإفريقيين الجنوبيَيْن سموتس وفان ديفينتر. لقد حارب الأسكاريون حتى آخر يوم في المعركة، ولم يستسلموا إلا في يوم الهدنة، في ١٩١٨.

وبالنسبة إلى معركة النحل، فإنّ الأسلحة التي خلّفها البريطانيون خلفهم على شاطىء تانجا سمحت لبول ـ فوربيك بتشكيل فوج جديد وتزويده بالأسلحة البريطانية الحديثة، واستئناف القتال لمدة أربع سنوات أخرى.

رُقيّ الكولونيل فوربيك إلى رتبة لواء. وكُسّرت رتبة أيتكين من جنرال إلى كولونيل.

سرب نحل غاضب كان العامل الحاسم في تانجا.

الهوامش

---

(١) الغريب في الأمر أن هذه التقنية قد طوّرها الإنجليز في أم درمان ١٨٩٨ ضد أتباع المهدي. حتى إن الإنجليز قد حوّلوها إلى أغنية:

(٢) شو ما صار نحنا عنّا ماكسيم غَن، وهُمَّ ما عندهم شَيْء.

(٣) كورت أسمان، قاتل في المستعمرات الألمانية.

الفصل الثاني عشر

ديرهالت بيفهيل فرنسا، ١٥ أيار ١٩٤٠

«لقد خسرنا المعركة من أجل فرنسا».

قال وزير الدفاع الفرنسيّ إلى وينستون تشرشل ١٥ أيار ١٩٤٠.

هبطت طائرة نقل ألمانية ـ جونيك ٥٢ اضطرارياً قرب ميشلين سور ميوز، وعلى متنها قائد أركان فرقة المشاة السابعة، وبحوزته خطط تفصيليّة عن الهجوم على فرنسا. ووقع في الأسر قبل أن ينجح في إحراق خرائطه، الأمر الذي كشف خطّة الهجوم الألماني على فرنسا، في الربيع، عبر جبال الأردينز وميوز عبر الحدود الجنوبية لبلجيكا. أرسلت الخطط فوراً إلى الجنرال موريس جاملين، قائد جيوش الحلفاء، لكنه لم يصدّقها. كما لم يصدّق توكيدات قائد استخباراته، في المكتب الثاني، الكولونيل بايول، الذي تحقّق من صحة المخطّط من عميلهم، برنارد، في وزارة الحرب الألمانيّة في برلين[١].

أصرّ جاملين أنه لم يستطع أي جيش أن يعبر جبال الأردينز، رغم أنّه منذ عامين فقط، وخلال مناورات الجيش الفرنسيّ، التي

أشرف عليها بنفسه، استخدم الجنرال بريتالت ذات الخطّة الموجودة في الخرائط الألمانية. أخيراً أبرقت قوّات الاتصال الفرنسيّة الموجودة في برلين، إلى جاملين، كي ينتظر هجوماً ألمانياً في سيدان في ٨ أيار. ولم يتأخر الهجوم إلاّ يومين.

صبيحة ١٠ أيار، أُنزلت فرقة مظلّيين خاصة، تدرّبت على هدف وهمي مشابه، على حصن Eben Emael الذي يسيطر على ثلاثة جسور حيويّة على طول الحدود بين فرنسا وبلجيكا. وسيطرت القوات الألمانية على هذا الممر الحيوي خلال عشرين دقيقة، فأصبح الطريق إلى فرنسا مفتوحاً.

تعرّف العالم في ١ سبتمبر ١٩٣٩، لأول مرة على استراتيجية الألماني بليتزيكريدج، فقد اعتمدت على هجمات سريعة للمدرّعات مترافقة مع ضربات جويّة تكتيكية. وكان المدفعي الألماني الفذ هينزجودرديان قد طوّر هذه التقنية خلال سنوات الحرب[٢]. وبينما طوّر الألمان نخبة مدرّعة، كان الجيش البريطاني قد زوّد دباباته ببنادق آلية. لكن حتى مدرعاتهم، ماتيلدا، الثقيلة لم تستطع مجاراة المدرّعات الألمانية السريعة. وزاد في الأمر سوءاً أنّ المدرعات الفرنسيّة لم تزد سرعتها عن ٤كم/ سا، كيما تسمح لجنودهم المشاة بالاشتراك في الهجوم.

بينما كانت سرعة الدبابات الألمانية ٦كم/ سا.

رغم احتجاجات البولنديين وُضع مَنْ كانوا قائمين على خطط الحلفاء العسكرية، في معسكرات اعتقال. لقد أدرك الجنرال لويس جاكسون خطتهم تلك، عندما أشار إلى المعركة الحاسمة في الحرب العالمية الأولى، وهي اختراق المدرعات البريطانية لمدينة أمينيز: «كانت المدرعات استثنائية، كذلك كانت الظروف التي اقتضتها، ولا يُرجّح أن تتكرّر. وإن تكرّرت فستلقى رداً آخر».

لقد عانى الفرنسيّون أيضاً من قصر البصر، إذ قال الجنرال جاميلين «نحن لسنا بولنديّين» فقد اعتمد على قوة خطّ ماجينو. وكانت نقطة ضعف هذا الخطّ الدفاعي في أنه لم يسوّر الشريط الساحلي كلّه، بل انتهى عند الحدود البلجيكية! لقد افترض الفرنسيّون، خطأ كما تبيّن لاحقاً، أن ذلك سيدفع الألمان إلى الهجوم عبر هولندا، حيث تستطيع الجيوش الفرنسيّة، البلجيكيّة والإنجليزيّة، أن تسحق هجومهم على طول الشاطئ المحصّن لنهر الديل. إنّ كثافة قوى الحلفاء في فلاندرز، تحديداً، أدّت إلى هزيمة الفرنسيّين.

قدّم الجنرالان فون روتشويدت، قائد أركان الجيش الأول، والجنرال أريك فون مانشتين، إلى هتلر خطّة سيرهم السريعة إلى النصر. فاقترح عليهما هجوماً سريعاً مفاجئاً بالمدرّعات وسبع فرق عبر النقطة الأضعف في الدفاعات الفرنسيّة، عبر جبل أردينز الكثيف الأشجار؛ على أن يقوم الجيش الثاني بقيادة بوك بهجوم تضليلي من حيث يُتوَقع، من هولندا على طول طرق الحرب العالمية الأولى. وقع الفرنسيّون في الفخ، بمن فيهم المارشال العجوز هنري بتاي بطل موقعه فيردين، الذي قال: «لا يمكن اختراق الأردينز؛ هذه المنطقة ليست خطيرة».

كانت ١٥٠كم من الغابات الكثيفة تفصل خطّ ماجينو عن نهر الديل المحصّن، في بلجيكا، ومن أجل هذه الخطة الألمانية المفتاحية، خُصّصت ١٤ فرقة مدرّعة للجنرال جاميلين وحده، في مواجهة ٤٥ فرقة ألمانية مدرّعة.

وأشيعت أساطير عن الاجتياح الألماني السريع الحاسم. مثل أنّ الانتصار كان بسبب تفوّق المدرعات الألمانية الثقيلة. لكنه ادعاء كاذب. فقد كان لدى الألمان ٢٥٧٤ دبابة[٣]، مقابل ٣٢٥٤

دبابة للحلفاء. إضافة إلى أن مصفّحات ومدافع الحلفاء أفضل من مارك I ومارك II الألمانية. لكن الأمر ببساطة كان احتقار الفرنسيّين للجنرالات. فقد طوّروا عقلية ماجينو، وبنوا خطّتهم كلّها على مفهوم جامد، على استراتيجية قتالية عفى عليها الزمن، وفوق هذا كلّه، بالغوا كثيراً في تقدير قوة خطوط دفاعهم. (فقد سقط خط ماجينو بيد الألمان بعد يوم من استسلام فرنسا!)[٤].

مع ذلك، يميل التاريخ إلى تجاهل معركة ثانوية خاضتها ٧٤ دبابة بريطانية قرب أراس أثبتت أهميّة استئناف الحرب. فقد وصلت طلائع الدبابات الألمانية إلى سيدان وميوز. ووصلت تقارير خاطئة، تفيد بأن الدبابات الألمانية قد عبرت ميوز، ووصلت إلى الجنرال كوراب قائد الجيش الفرنسيّ التاسع[٥] الذي ذُعر وأمر بانسحاب عاجل. فجرى استبداله بالجنرال جيرود الذي أُسِرَ في اليوم التالي.

عبرت دبابات الجنرال رومل، في ١٣ سبتمبر، النهر على جسر عائم بُنِيَ على عجل، ولم يلقوا مقاومة فعبروا خطاً دفاعياً فرنسياً جديداً قبل أن يهبّ الفرنسيّون للدفاع عنه. ففتح هذا الطريق ثغرة كبيرة في خط الدفاع الفرنسيّ. كان تقدّم المدرعات سريعاً جداً، لدرجة أن الألمان لم يشغلوا أنفسهم بالتوقّف لأسر جنود الحلفاء. ومشت طوابير الجنود المستسلمين على جانبي رتل المدرعات الألمانية، وكان بعضهم لا يزال يحمل سلاحه، يتوقف بعضها من حين إلى آخر ويقوم طاقمها بجمع سلاح جنود الحلفاء، ثم يهرسونهم تحت جنازير المدرعات.

كان لا يزال لدى الفرنسيّين ثلاث فرق مدرعة قادرة على وقف الزحف الألماني المدرّع، ورغم أنّ قيادة استخباراتهم العسكرية أكّدت، الآن، أن الألمان ليسوا في طريقهم إلى بلجيكا،

فإنّ الجنرال جاميلين، ذلك الرجل الذي لم يهيئ نفسه قط لتغيير مفاهيمه المسبقة ولا ينزعج قط لعجزه عن التكيّف السريع مع الظروف المتغيّرة، كان أحد الأسباب الرئيسيّة للهزيمة الفرنسيّة. وعندما استبدل جاميلين بالجنرال ويغان، واتُّخذَ قرارٌ سريعٌ ـ بعد فوات الأوان ـ بتحريك ثلاث وحدات مدرعة إلى الموقع، فقد أبيدت الفرقة الفرنسيّة المدرّعة الأولى على يد الفيلق الألماني المدرّع التاسع عشر بقيادة جودريان قرب بومونت. أما الفرقة المدرعة الثانية بقيادة الجنرال برونشي، فقد وضعت في المكان الخطأ بسبب خلل في خط سير القطار، والفرقة الثالثة نفذ وقودها قبل أن تصل إلى الجبهة.

ثم إنّ التحركات اللاحقة للتعزيزات الفرنسيّة والبريطانية واجهت مصاعب أخرى خطيرة، «ليست من فعل الألمان». فقد تدفّق آلاف اللاجئين من شرق فرنسا وبلجيكا، وسدوا الطرق الرئيسيّة. وجلبوا معهم كل واسطة نقل يمكن أن تتخيّلها ـ عربات أطفال، عربات يد بدولاب واحد، عربات قطر وجرّ ـ مُلِئَت بكل شيء يملكونه أو يعتقدون بحاجتهم إليه، وحملوا معهم في نوبة ذعرهم تلك أشياء تافهة عديمة النفع ـ جيتارات، صور ومظلات. وسرعان ما نفد وقود السيارات، أو سلبها من أصحابها آخرون حاولوا أن يصلوا بأسرع وقت ممكن. وتوقّفت هذه العربات في منتصف الطريق، مضيفة اختناقاً مرورياً إلى ذلك الفيضان البشري. اضطر الجياع إلى أكل أكواز الذرة أو الثمار غير الناضجة، ثم بدأوا يعانون جرّاء ذلك. وهاك طفل تعلّق بتنورة والدته بعد أن تيبست ساقاه من طول المسير. فرمت والدته ما كانت تحمله وانحنت فوق ابنها لتلاطفه. يا له من منظر ملاطفة آنية وسط هذا الحشد المذعور. فقد جلس كثير من الناس على قارعة الطريق بانتظار

المحتوم. كانوا حشد أناس بائسين، تَعِبين يتعثّرون بجثث متعفّنة خلّفها قصف الطائرات سابقاً. وبقيت إغارات الطائرات الألمانية شبحاً يخيّم فوق هذا المشهد التراجيدي، على طول الطريق.

لقد أكمل هؤلاء اللاجئون ما لم تستطع إنجازه عشر فرق ألمانية إضافية ـ فقد أعاقوا وصول القوات الاحتياطية للحلفاء، إلى مواقعها الدفاعية، في أحرج أوقات المعركة. وفي مساء ١٥ أيار، اندفعت ثلاثة فيالق مدرّعات ألمانية، بقيادة هوث، رينهاردت، جودريان، إلى داخل فرنسا بدون أية مقاومة، ولم تُجدِ نفعاً محاولة الكولونيل الفرنسيّ الشاب شارل دوغول، الذي جمع على عجل الفرقة الفرنسيّة المدرّعة الرابعة، وفشلت في وقف تقدّم جودريان. بعد خمسة أيام من بدء المعركة كانت فرنسا تسير نحو استسلام مخزٍ.

استطاع قادة مدرعات هتلر إنجاز الحملة البولندية ببراعة وذكاء خلال أسبوعين، غير أن قائد ألمانيا السياسي كان يفتقد إلى الخبرة العسكرية التي تمكّنه من التغلّب على تعقيدات حرب المدرّعات الحديثة. وأدّى تصوّر الفوهرر لرسالته في التاريخ إلى الانسياق مع اعتقاده بذكائه العسكري الفريد، وقد أحاط نفسه بجنرالات إمّعات، من أمثال كيتل جودل، لا يقلّون عجزاً عن أمثالهم الفرنسيّين. كانت قوّة الألمان الحقيقيّة فى قادة جبهتهم، من أمثال جودريان وروميل، الذي سيتضح أنه أفضل الجنرالات الألمان، حيث إنّه الوحيد الذي استطاع أن يتخطّى تلك العقليّة الألمانية العسكرية الجامدة. لم يكن متحزّباً، ومثل رئيسه جودريان، اعتبر جنرالات القيادة العليا غير أكفّاء ومقاتلين عديمي الفائدة. وعُرفَ عنه كرهه الشديد لرجال مثل هيملر، جودل وكيتل ولم ينجرف مع التيار السياسي الذي كان أمنه الشخصي متوقّفاً

عليه. وسرعان ما انقلب إعجابه الأوّلي بهتلر إلى استخفاف ومقت. وكان محقاً في ذلك فعندما اجتازت الفيالق المدرعة الثلاثة جسر ميوز وتوغّلت سريعة في العمق دافعة أمامها الجيش الفرنسيّ المهزوم، انهارت أعصاب هتلر وتزايد قلقه من سرعة توغّل المدرعات في العمق الفرنسيّ. وتدفّق عصر ذلك اليوم الربيعي، سيل من برقيات الوحدات المتقدمة إلى جنرالات القيادة العليا في غرفة الخرائط. فوجد هؤلاء صعوبة في تحريك الأسهم والرايات فوق خرائطهم. فازداد قلق هتلر بعد أن اطلع على الخريطة العامة. وعندما لاحظ كيتل قلق الفوهرر أيّده قائلاً: «إني أوافق على تقديرك للوضع الحالي، سيّدي الفوهرر. إننا نبالغ في نشر مدرعاتنا يجب أن نأخذ في الحسبان عملية هجوم مضاد».

مقر القيادة العليا ١٦ أيار، «الفرنسيّون يحشدون قوات جديدة من احتياطيهم على ميمنة هجومنا». وكالعادة أيّد الجنرالان كيتل وجودل تقييم الفوهرر للوضع. وحده الاستراتيجي اللامع، هالدر، حاججه بأنّ الهجوم أسرع من أن يكيّف البريطانيون وضعهم ضده، وأن معنويات الفرنسيّين قد انهارت تماماً. وكان مصيباً في رأيه. لكن هتلر لم يصغ إلاّ إلى إمّعاته. وفي ١٧ أيار صدر الأمر الأول بتوقف تقدّم فيلق المدرعات التاسع[٦].

مركز قيادة الفيلق ١٩ : «لكن يا سيّدي الجنرال، هذا أمر من الفوهرر نفسه».

قال جوردريان غاضباً: «لا أبالي حتى إن كان من البابا نفسه. اطلب الجنرال ليسيت، قائد الجيش الثاني عشر، هاتفياً وأبلغه أني مستقيل من مهمتي» . فأثبت الجنرال ليسيت، أكثر من الآخرين، ذكاءه الدبلوماسي وتوصّل مع جودريان إلى مصالحة قضت بالسماح له أن ينطلق «بقوات استطلاعية». وكان الأمر مسرحية

هزلية تهدف إلى عدم اطلاع الفوهرر على تحرّكه، فقام بمدّ خط هاتفي مباشر بين عربته القيادية المتقدمة وبين المكان الذي أمرته القيادة العليا أن يتوقّف فيه. وهكذا وصلت المدرعات الألمانية إلى شاطئ القتال قبل أن يعرف هتلر بما يجري.

أصدر جاميلين أمره الثاني عشر في الساعة العاشرة إلا ربع من يوم ١٩ أيار. وقضى ذلك بتحرّك كل الجيوش الشماليّة نحو الجنوب مهما كلّف الأمر كي لا يجدوا أنفسهم محاصرين ومدفوعين نحو مرافئ القتال. بينما أُمِرَ الجنرال جورج وقواته بالهجوم من الشمال إلى الجنوب، وبمهاجمة الجيشين الفرنسيّين الثاني والسادس باتجاه الشمال انطلاقاً من ميزّيرف. غير أن حدثاً طوّح بأمره هذا. ففي الساعة السابعة من مساء يوم ١٩ أيار، صدر أمر بعزل الجنرال جايلين، الذي كان يعاني من نوبة إحباط شديدة بسبب إصابته بداء السفلس. وعُيِّن مكانه مكسيم ويغان. وكانت خطة ويغان الجديدة: مهاجمة الوحدات الألمانية المتقدّمة، المكشوفة، بالتعاون مع قائد مجموعته الشمالية ـ الشرقية، الجنرال جورج. وهذا الأخير غير كفوء على الصعيدين العقلي والجسدي، حتى إنه بعد هزيمة فرنسا في ميوز انفجر بالبكاء أمام الجنرال غروت الذي زاره في قصر قيادته. وطلب من غروت، وهو قائد أركان قوات الحملة البريطانية، أن ينطلق بمدرعاته الاحتياطيّة المتبقيّة ويقضي على فرقتي المدرعات اللتين تخطتا تعزيزات مشاتهما. فكان على غروت أن يقيم خطاً دفاعياً جديداً، أراس ـ كامبراي ـ باباوم. ووعد جورج بالمقابل، بهجوم مدرّعات فرنسيّة مكثّف من الجنوب.

لكن غروت لم يكلّف نفسه عناء إبلاغ جورج أنه كان يفكر في الانسحاب باتجاه دونكيرك، على أية حال، كان قد نصح رئيس وزرائه وينستون تشرشل، الذي أمر بتنفيذ خطط «عملية

دينامو»[٧]، نصحه بالتحرّك كي يحمي الجيش البريطاني من الإبادة.

وبينما كان البريطانيّون والفرنسيّون يبددون الوقت الثمين في من يهاجم وأين، كانت قوات رومل المدرعة تتقدم إلى قلب فرنسا. لقد تقدمت في جبهة عرضها ٣كم وبعمق ٥٠كم عن أقرب وحدة تزويد. لقد قام بمخاطرة كبيرة، حيث كانت ميمنته وميسرته مكشوفتين على قوات الحلفاء. وفي الثاني عشر من آب، تقدّم بجرأة أكثر (في الاتجاه التالي: إلى قصر أرّاس. إملأ! استعد!).

سرعان ما نفد وقود مدرّعاته. (يقال إنه قد ملأ بعضها من محطات وقود محلية) وهذا ما أغضبه كثيراً، حتى أدرك أنه الملام على ذلك. فبسبب هجومه السريع كانت لا تزال فرقة تموينه في بلجيكا! وعندما سمع هتلر بذلك أصيب بتشنج معدي حاد، ولم ينم جنرالات قيادته العليا[٨]. وكوفئ رومل على جرأته تلك. إذ أنه لم يخسر إلا ثلاثين قتيلاً وخمسين جريحاً، بينما أخذت فرقته عشرة آلاف أسير، كما أسرت أو دمّرت أكثر من مئة دبابة معادية.

عندما دخلت وحدات جودريان المدرّعة إلى أبيفيل، في ٢٠ أيار، عيّن غروت جنراله هارولد فرانكلين رئيساً لقطاع أرّاس. وجمع ضباط أركانه في مركز قيادة اللواء في مزرعة قرب سانت إليوت[٩]. كانت الآراء شديدة التباين ولم يتوصّلوا إلى تصوّر واضح. ووفقاً لآخر تقارير الوحدات المنسحبة، فإن المدرّعات الألمانية قد تجاوزت شيلدت في كامبريا، واقتربت من آخر حاجز دفاعي مائي، قنال دو نورد. كان واضحاً أن الألمان يحاولون تطويق فيلق فرانكلين، ومعه أيضاً مركز قيادة الحلفاء الشمالي - الشرقي والجيشين الفرنسيّيَن الأول والسابع، الجيش البلجيكي، وقوات الحملة البريطانية[١٠].

قال غروت لفرانكلين إنه لم يستطع الاعتماد على الدعم الجوّي. كان عليه الاعتماد على قواته البريّة - الفرقتين الخامسة، والخمسين، إضافة إلى اللواء البريطاني المدرّع المؤلّف من تشكيلات من المدرعات الملكية البريطانية. فكانت الخطة تقضي بهجوم مدرعات ومشاة مكثّف على طول الطريق الرئيسي من أراس - بابيوم إلى رأس الأفعى الخبيثة، فرقة رومل المدرّعة، قبل أن يصله دعم المشاة الألمان. وكانت وحدات فرانكلين المدرّعة قويّة كفاية كي تنجز هذه المهمة ما لم تعترضها قوات رومل الرئيسية. والأمر الأخير الذي جعل المخطط يوضع موضع التنفيذ قبل إتمام خطة موحّدة، كان برقية عاجلة من رئيس الوزراء تشرشل إلى ريناود: «... يجب أن تُحمى طوابير الدبابات في المقدّمة بصفّين من الطوابير المتنقلة مع بعض المدافع..»[١١].

حدّد الجنرال غروت موعد الهجوم في فجر ٢١ أيار. وعيّن مارتيل قائداً. وشُكلت الموجة الأولى من تشكيلات من ألوية مشاة إضافة إلى ٦٥ دبابة مارك I و١٨ مارك II ووعد مارتل بدعم أحد جناحيه بسبعين دبابة خفيفة من الفرقة الفرنسيّة الثالثة المؤللة - لكن بدون غطاء جوي. بقيت هناك مشكلة واحدة، وليست صغيرة. فبالرغم من ذكائهم الذي قادهم إلى تعيين فرقة رومل السابعة كهدف أساسي، فقد نسوا الفرقتين المدرّعتين الثامنة والخامسة. إضافة إلى الفرقة المؤلّلة التي ستصل إلى رومل - ٤٠٠ دبابة و٢٠,٠٠٠ رجل.

قبل عدة أيام كان قائد اللواء البريطاني المدرّع جالساً في عربة قيادته، فتلقّى رسالة: «الوحدة تتعرض إلى هجوم كثيف من الجنوب الغربي». لا يمكن! من الجنوب الشرقي، ممكن لكن من الجنوب الغربي! فقد كان رجاله لا يزالون يسيطرون على تلك

الجبهة. فهل استطاع الألمان أن يعبروا الديل في الجنوب؟ ربما من نقطة الوصل بين رجاله وبين الجيش الفرنسيّ الأول؟

غير أنّ أنباء الراديو وضعت حداً لشكوكه بـ. . . وحدات متقدّمة من لواء المدرّعات الألماني ٣٩ قد عبرت الديل. . . لقد تكبّدنا خسائر فادحة. . . تنبيه إلى كل الوحدات. لقد شوهدت فرق هوت المدرّعة، الخامسة والسابعة، متّجِهة إلى موبيج - القصر. . .».

كان ذلك في الأمس. واليوم يسيطرون عليه. والمدرّعات في طريقها إلى موقعه. ولا يستطيع هذه المرة أن يعتمد على أي شخص آخر كي يحلّ له هذه المشكلة. ولا يستطيع أن يتراجع لأنه قد فات أوان ذلك. فالرصاص يلعلع، يحصد الأشجار والأرض معاً. وعلى طول الجبهة. فتح رجاله نيران بنادقهم على العربات المدرّعة. إنها معركة غير عادلة.

«إننا بحاجة إلى دعم مدفعي. حوّل». دوّى انفجار بعيد. ونُسف جسر آخر قبل أن تصله مدرّعات العدو. «ما الذي يجري؟» صاح متسائلاً.

فوصلته الإجابة عبر الهاتف. «إننا ننسحب منهزمين، سيّدي، هذا ما يجري». «بلو ١٤، معك فوكستروت ٧، هل تسمعني؟».

«أسمعك، تكلّم».

«إني أطلب الإذن بالانسحاب».

«ممنوع الانسحاب. قاوم بكل ما لديك. انتهى».

أدرك أنه قد وقّع على مصير الكتيبة، لكن لا خيار لديه. وإذا انسحبوا، فسيتركونُ الفرقة، ومعها، خاصرة الحملة البريطانيّة مكشوفين أمام المدرّعات الألمانية.

دخل ضابط وجهه شاحب يتصبّب عرقاً. سيّدي، مركز قيادة الفرق لا يجيبنا. فهم إمّا أموات أو أنّ الألمان قد أطبقوا عليهم. «إننا بحاجة إلى دبابات. وإذا حصلنا على ماتيلدا من الفرقة الملكيّة الرابعة. سيكون الأمر رائعاً».

«حسنٌ». تناول جهاز الاتصال وقال: «انس أمر الفرقة، وصِلْني مع القيادة العليا».

«سأحاول، يا سيّدي».

«حاولْ جيّداً، يا بني، وإلا اضطررت أن تسير إلى هناك».

كان عليه أن يشنّ هجوماً مضاداً، وفي أسرع وقت. ولذلك هو في أمسّ الحاجة إلى الدبابات الملكية قبل أن تسحق الدبابات الألمانية فرقته. كان جسر القطار قد نُسف، غير أن طلائع القوات الألمانية أقامت جسراً حربياً فوق الماء. والآن تعبره مدرّعاتهم تحت غطاء مدفعي كثيف. استمع إلى عامل الاتصال على الجهة الأخرى من الخط وهو يبلّغ أوامر إطلاق النار ومواقع العدو.

«سيّدي، هناك تأكيد بأنّ الألمان قد عبروا النهر عند ويفر»[١٢].

«وماذا عن قطاعنا؟».

«لا جديد، سيّدي، على أوامر القيادة العليا: الصمود».

تزايد دوي الانفجارات البعيدة، ثم بدأت تقترب من مواقعه. أصيب موقع كتيبة ألفا بقذيفة عبر النهر. فأسفرت عن مقتل ٥ رجال. «سيّدي، القيادة العليا معك على الخط».

«ناولني الميكروفون. معك بلو ١٤...».

أضيئت الغرفة بكتلة صفراء، ثم دوّى انفجار كبير. مات

عامل الاتصال. هنا بلو ١٤...» صرخ العميد في الميكروفون. لكن لا فائدة، فالانفجار قتل عامل الاتصال، وحطّم الجهاز أيضاً. قفز العميد من وراء جهاز الاتصال. يجب أن يعثر على جهاز آخر. هنالك جهاز لدى سريّة ألفا. صحيح أنّ إرساله قصير المدى لكن ربما يجري نقل الرسالة عبر الخط. وعندما وصل إلى عامل الجهاز في سريّة ألفا، أبلغ أن رئيسهم قد مات.

«أنت أيها الرقيب...».

«نعم، سيّدي». حيّاه الرجل بتهذيب.

«تولّى قيادة سريّة ألفا».

«حاضر، سيّدي».

استطاع أخيراً أن يتّصل بالقيادة التي أعلمته أن الألمان يطاردون الجميع. يطارون الفرنسيّين نحو الجنوب، والبلجيكيّين نحو الشمال وهم الآن في أثر البريطانيين، أمر قادة الفرق بالتمسك بأماكن كانت قد سقطت سلفاً. إنها تلك المدرّعات اللعينة. وهناك حلّ وحيد، فقط. الزج بكل الدبابات الاحتياطيّة في هجوم كاسح، في محاولة لإجبار الألمان أن يحاربوا على جبهتين. ووحدته هي الأنسب لهذا الهدف. فقد تجاوزه الألمان باتجاه الجنوب، فأصبحت خاصرتهم مكشوفة على لوائه. عرض اقتراحه على القيادة العليا. فتلقّى جواباً غير الذي توقّعه. لم يؤمر بالهجوم، بل «عدم الاشتباك مع العدو». «على كلّ الوحدات أن تنسحب إلى خط دلتا الأزرق. فوراً». وعندما تفحّص خارطته الطرقية؛ اكتشف أنّ وضعه يشبه وضع الألمان، وأنّ أمر خاصرته، أيضاً، يتوقّف على تلك الخرائط الطرقية الفرنسيّة الخرافية التي يمكن للمرء أن يشتريها من أي محطة وقود. بيّنت له أن الألمان يتقدّمون باتجاه ديندر، وهذا نهر آخر يقع غرب الديل. يجب أن

يتراجعوا؛ لكن ليس في نوبة ذعر. وإذا استطاع تنفيذ انسحاب منظّم، سيكون جنوده قادرين على خوض معركة أخرى في اليوم التالي. يجب أن يجترح خطة لسحب سراياه الأماميّة من مواقعها المكشوفة. يجب أن ينسحب بمنتهى الهدوء ويبقى على حاجز تغطية صغير.

«إننا ننسحب أيها الرائد. لقد حُمّلت المدافع، لكن الجنود غير مؤلّلين. أليست مشكلة؟» التفت الرائد إلى رقيب أول، لفت انتباهه بوقفته كصنم. لا شيء سيقلق هذا الرجل، حتى المدرّعات الألمانية. قال له: «حاول أن تجد لنا شيئاً بدواليب لننقل الجنود عليه».

«حاضر سيّدي. هناك عربات المؤن والتجهيزات».

فقال العميد، «فرّغها إننا بحاجة إلى الرجال، لا إلى الخيام. تحرّكت المدافع في الساعة ٣، وتبعها الرجال في الساعة، ٣,٢٠ سننطلق نحو نهر الديندر، وسط عتمة مطلقة. وحالما يعبر آخر رجل. انسفوا ذلك الجسر» ستساعد المدفعيّة في تلك العملية. وتطايرت فوق رؤوسهم قذائف المدفعيّة الألمانية. ونجحت الآن آخر وحدة بريطانيّة في عبور الديل بدون خسائر، ودخلت الغابة. كان الجنود مرهقين وأرادوا أن يناموا، لكن الأوامر صدرت إليهم بحفر خنادق.

فاحتجّ قائد سرية: «سيّدي، الجنود مرهقون».

فأجابه العميد: «إلى الجحيم. مَنْ منّا ليس مرهقاً؟».

انهالت البرقيات الواحدة تلو الأخرى: ٣٠ دبابة ألمانية، ٦٠ مدرّعة نصف مجنزرة، ٢٠ مدفعاً، على بعد خمسة أميال شرق جروسارت، سيتّجهون شمال غرب في الساعة ٧,١٥.

جبهة نهرديندر تتعرّض لهجوم كثيف. نطلب الإذن. . .

في الوقت الذي ثبّتوا فيه خط دفاع واحد، كان الألمان قد تجاوزوهم. لقد واجه اللواء تهديداً بمحقه كلياً.

١٨ أيار، الساعة ٢٢، وحدات مدرّعات ثقيلة تتقدّم بسرعة على طول طريق قصر كامبراي وفالنسين ـ ذوازي.

هذا يعني أنّ الألمان قد انطلقوا جنوباً وهم يتّجهون الآن إلى وحدته مباشرة. وقد توقّعوا أن يقضوا على كل الحملة البريطانية، من الخلف. وأزّت من فوق رؤوسهم نيران قذائف ١٥ مدفعاً، تمهد لتقدّم أول رتل دبابات. ثم وصل من القيادة العليا أمر يبطل آخر سبقه: على قوات الحملة البريطانية أن تنتشر بحلول الساعة ١٢ من يوم ١٩ أيار، على طول خط إسكوت، أودينورو ـ مولد.

انسحبوا ثانية! لقد تعب الرجال. ثم تبعتها برقية أخرى.

لقد تلقّى الجنرال فرانكلين ومارتل، في القيادة العليا، برقية تأمرهما بإقامة خط دفاع جديد. وبينما كانا ينسّقان تحرّكهما وصلت برقية أخرى ١٩ أيار، الساعة ٨,١٥، وحدات ألمانية من الجيش الثاني خرقت إسكوت عند منطقة أودينارد. وهذا يعني أنّ خطّ دفاع إسكوت متعذّر الدفاع عنه. وعليهما أن ينسحبا فوراً ثم يعيدا تجميع قواتهما عند قنال دونورد والسكراب.

وحدات من الجيش الألماني الأوّل تتقدّم على طول كامبريار أرّاس. قوات العدو ٧ فرق مدرّعة فرقتا مشاة تتبعها على بعد ٢٤ ميل.

تلك هي الفرصة التي كانوا ينتظرونها، أن تكون المسافة الفاصلة بين المدرّعات والمشاة كبيرة جداً. إنه وقت العمل. ٢٠٠

دبابة ألمانية في مواجهة ١٨ دبابة/ ماتيلدا و٦٥ دبابة مارك س١، ليس كثيراً، لكنّها مجرّد بداية.

تفحّص العميد خارطته. فقد كانت أوامر الجنرال مارتل، إليه، محدّدة. انطلق في هجوم على طول الضفة الجنوبية في الساعة ٢٢ من يوم ٢٠ أيار. نلتقي ثانية في فيتري. فرأى على خارطته ستة جسور فوق قنال دو فورد بين دواي ورويال كورت. وسوف تتّجه المدرّعات الألمانية نحوها. أما الآن فهي تحت سيطرة فرقتين فرنسيّتين. وخلال يوم أو يومين ستعبرها المدرّعات الألمانية التي ستقوم بضربهما من الخاصرة وتدفعهما إلى سنسي. ثم إنه لم يُدخل في حسابه رومل الذي اجتازت مدرّعاته قنال دونورد عند نقطة ماركوينج قبل أن ينجح البريطانيون في إقامة موقع دفاعي. وفي الساعة الخامسة من يوم ٢٠ أيار، كانت قوات رومل قد تجاوزت قوات الحلفاء موغلة نحو جنوب أرّاس. وخرج رومل في نزهة خاصة لم يصطحب معه فيها سوى مدرّعتين، إلى جانب عربة استطلاعه المدرّعة. فوقع في كمين قرب قرية فيزين أرتوا. دُمِّرت مدرّعتاه، انقطع اتصاله مع العالم من حوله لأكثر من ساعة. لقد كانت نزهة قصيرة.

تلقى قائد لواء الدبابات البريطاني الأول برقية حول تدمير وحداته الأمامية لدبابتين ألمانيتين. لم يستطع أن يصدّق أن الألمان قد وصلوا إليه فوضع بطارياته المدفعيّة الـ٢٥ وكل مدافعه المضادة للدروع في حالة كمين. حيث تقوم هذه الوحدات بفتح النار على طلائع القوات الألمانية، بينما تقوم دبابات ماتيلدا ومارك س١ بضرب خاصرة الألمان المكشوفة. كانت خطة محكمة، ويجب، بكل بساطة، أن تنجح.

«سيهاجم اللواء السابع عشر، ويدعمه اللواء الملكي الرابع.

وكل فرق المدفعيّة إضافة إلى كلّ احتياطي الفيلق. لدينا عمل نؤدّيه، ونحن مستعدّون لذلك».

جرى ذلك عندما هاجمت الستوكا. فانطلقت كأسراب نحل غاضبة ـ ثلاثين، أربعين وربما أكثر. طارت مع مجرى نهر سكريب وتوجهت نحو كمين وحداته المدفعيّة.

تحوّل طنين الأسراب إلى صفير حاد عندما سقطت القنبلة الأولى من السماء. صوّبت الطائرات قنابلها إلى مكان وجود القنابل الدخانية التي رمتها مدفعيّتهم. فأفرغت من بطونها عناقيد قنابل هزّت الأرض وفتحت فيها نوافير تراب، عربات وأجساد تصاعدت عالياً في الهواء. وحلّقت الطائرات فوق تلك المواقع، كانت أشبه بطيور بهلوانية في السماء. وبدا كلّ شيء، حول القائد، ينهار، يغرق في دوّي انفجار القنابل والمدافع المضادة للطائرات. أطلق مدفع برين قذيفة، فهوت طائرة، مخلّفة وراءها خيط دخان أسود حتى، ارتطمت بالأرض وانفجرت مخلفة غيمة من الدخان الكثيف[١٣].

«لقد نجحنا، لقد نجحنا!» هلّل الرجال أخيراً لهذا الإنجاز، الذي لم يحل دون الطائرات الأخرى، التي كانت تفرّغ فوقهم حمولتها القاتلة. لكن المدافع المضادة للطائرات نجحت، فقط، في عدم السماح لها بتحقيق إصابات مباشرة على المدفعيّة ومضادات الدروع. ورغم تكبّد قواته الأرضية خسائر فادحة، بقيت محافظة على كمينها. فقد أخفى دباباته جيّداً وراء صف الأشجار. «سيّدي، إن رتل مدرعات ألمانية يهاجمنا».

رأى عبر منظاره ظلالها السود ومدافعها الغليظة. أرتال من الدبابات وفي إثرها عربات المؤونة. «دعوهم يمرّون». وفي ٢١ أيار، الساعة ١٣ أصدر أوامره الدقيقة: «ارموهم بكل أنواع النيران لديكم» لم يكن التوقيت دقيقاً.

ومرّت الدقائق بطيئة بانتظار ساعة الصفر. وفي تمام الساعة ١٤ أصدر أمره: «لتتقدّم كلّ الدبابات».

علا هدير محرّكات الدبابات وطقطقة جنازيرها وهي تنطلق من مكمنها إلى ضوء الشمس. ثلاثون، خمسون، ثمانون، لا بدّ أنّ الألمان قد رأوها لكن ردة فعلهم تأخّرت. ربما أدرك القائد أنه لا يملك العدد الكافي من الدبابات كي يشتبك معهم. ولا سبيل لتوجيه ضربة خاطفة. فالعدد الأكبر من الدبابات قد ابتعد كثيراً، ولن يغامر بخسارة ٣٠ دبابة مارك س ج وبضع دبابات سكودا التي تحمي عربات المؤن والوقود.

يجب على العميد أن يحقّق ضربة سريعة ويستفيد من عنصر المفاجأة «أَطلِقوا بعزم وتصميم!» فانفتحت نيران جهنم، فتحت المدافع البريطانية المضادة للدروع نيران مدافعها على طول الجبهة، وصبّت الدبابات الكامنة وراء الأشجار نيرانها على الدروع الألمانية وعربات مؤن رومل. كان قائد سرية دبابات بريطانية ماتيلدا واقفاً في برج دبابته، عندما اقتربت سريّة مارك س١ خفيفة إلى مسافة ٤٠٠ ياردة من العدو وفتحت نيرانها على عربات مؤنة فأشعلت النار فيها، وأصيبت دبابة مارك ٢ الألمانية تحت برجها. «إننا نسحقهم يا سيّدي! لقد دمّرت الفرقة الملكية السابعة دزينة دبابات. لقد خسرنا دبابتين مقابل ثمانية للعدو». تابعت الدبابات البريطانية تقدّمها، ويتوقف رتل منها ويشتبك مع دبابات العدو، بينما يتابع الرتل الآخر تقدّمه. وضعوا مدرعاتهم الأثقل في مواجهة الألمان، الذين كانت دباباتهم تحترق في حقل مستو، فاستحالت كتل معدن سود وطاقمها في داخلها، وشلت نيران الدبابات البريطانية حركة بعض المدرعات الألمانية، بينما لجأ بعضها الآخر إلى الغابة. وسُحِقَتْ كتيبة رومل الثانية والأربعين. وقتل معظم أفراد طاقمها

بعد أن ثبت عدم فاعلية رشاشها، عيار ٣٧مم[١٤]، المضاد للدروع في مواجهة رشاش دبابات ماتيلدا البريطانية، عيار ٨٠مم.

أمسك العميد بالميكرفون وصاح «تابعوا تقدّمكم». ولأول مرة منذ انسحاباتهم المستمرة، سمع هتاف وتهليل طاقمه. لقد عرف أنه لا يمكن أن يستمر هذا إلى الأبد. فسيشنّ الألمان هجوماً مضاداً. ذلك هو الدرس الذي دفعوا ثمنه غالياً في ١٩١٤.

٢١ أيار. مركز قيادة متقدّم للواء المدرّعات الألماني التاسع عشر، قرب شاطئ القنال. وصلت فرقة جودريان المدرّعة إلى شاطئ القتال عند نويلز في ٢٠ أيار، وكانت قوات الحلفاء قد انقسمت نصفين. فتوقّع أن يحتلّ كلّ مرافئ القتال خلال أربعة أو خمسة أيام كحدّ أقصى. وتلقّى برقية في الساعة ١٤,١ حول معركة الدبابات في أرّاس.

«جنرال، لقد اشتبكت وحدات من كتيبة المدرّعات السابعة مع تشكيل دبابات ثقيلة جنوب أرّاس، وقد دُحروا عند سنسي».

«أريد أن أعرف مكمن قوّة العدو».

«الفوجان الملكيان المدرّعان الرابع والسابع».

«ما هي الوحدات المتوفّرة لدينا؟».

«أقرب الوحدات إلينا، أيها الجنرال، هي أجزاء من فوجَيْ المدرّعات الثامن والخامس».

«هل يمتلك العدو غطاءً جويّاً؟».

«كلا».

فكّر جودريان قليلاً، ثم أضاف: «حسن، حوّل وحدات من الفوج الثامن، واستدع اللوفتواف، واطلب أن ترأس السنوكا التشكيل». صدرت الأوامر ونُشرت. «أين يتواجد الفوج الثامن الآن؟».

«إنهم يرسلون تعزيزات على طول بوميتزرود».

«عظيم، عظيم». قال جودريان.

«هل من أوامر أخرى، أيها، الجنرال؟».

«كلا. إنّ مرافئ القتال هي أهدافنا الرئيسيّة. أوامري واضحة. تتجه الوحدة الأولى إلى كالايز، الثانية إلى بولوجن والعاشرة إلى دونكيرك».

مركز قيادة اللواء البريطاني المدرّع، جنوب أرّاس. «سيّدي، إنّ رتلاً من دبابات العدو يتقدم نحونا من الغرب». وسمع العميد هدير محرّكات بعيد. لم يكن ذلك هدير الدبابات فقط، بل تلك المدافع المضادة للدروع[١٥] بسبطاناتها الطويلة المموّهة. دوّت انفجارات من وراء الغابة.

«ريد ٥، ما هو وضعك الآن؟ حوّل».

«لقد اصطدمنا مع أكك أكك».

«أعطني الإحداثيات، وسوف أقصفها بالمدفعيّة». وصمتت فعلاً الأك أك، بعد أن قُصِفَتْ بالمدفعيّة من عيار ٢٥مم.

تساقطت القذائف حول رومل. لكنّه نجا بأعجوبة، فقد انفجرت قذيفة بقربه فقتلت مساعده الذي كان يقرأ له الخارطة. وكان رومل قد وصل، مع فوجه المدرّع الخامس والعشرين، إلى نهر سكريب، عندما سمع عن معارك أرّاس. فأمر وحداته بالالتفاف والتوجّه إلى مؤخّرة القوات البريطانية المدرّعة. ودارت معركة حامية الوطيس قرب أجنيس وكانت لمصلحة البريطانيّين. ولأول مرة بعد اجتياز الحدود الفرنسيّة يضطر رومل إلى اتخاذ موقف دفاعي، حتى إنه اضطر إلى حماية وحداته الخفيفة في المناجم. وخسر في ذلك اليوم ٢٥٠ قتيلاً، أي أكثر مما فقده في أي يوم سابق.

٢١ أيار. مركز قيادة الفرقة البريطانية الخمسون، الساعة ١٧,٣٠ درس الجنرال مارتل تطوّرات الوضع، وغطّت خارطته أسهم زرق وحمر. ولم يحن الوقت لتشكيل صورة شاملة للوضع. لقد قصفوا خاصرة رومل المكشوفة، لكن معظم الوحدات التي اشتبكوا معها كانت قوافل تموين وبعض المشاة، ودباباته السبعون تطارد الألمان على طول طريق بايوم. وبدأ الخط الأمامي يتمدّد جنوباً بدءاً من أرّاس. لقد حان وقت الزجّ بالقوات الاحتياطية على طول طريق كامباري كي تضرب الألمان المنسحبين وتقطع جبهتهم كأحد فكَّيْ كماشة متزامن مع الفكّ الآخر، الهجوم الفرنسيّ المدرّع، المنتظر، من الجنوب... إلا أن سلسلة أفكاره انقطعت بسبب انقضاض القاذفة هينكل فوق القرية، قريباً من سطح الأرض. لاحظ الجنرال اهتزاز الصليب فوق برج الكنيسة، ومادت الأرض تحت انفجارات القذائف. «سيّدي لقد رصدنا، إضافة إلى الوحدة السابعة المدرّعة، وحدات أخرى من الفوج الثامن تتقدّم نحو بوميتز، ووحدات من الفوج الخامس في فيتري». وازداد تدفق البرقيات مع ازدياد وحدات المدرّعات. وسُمِعَ هدير محرّكات طائرات الستوكا. مرّ السرب الأول فوق المزرعة. بالذكاء الألمان، يستخدمون الطائرات القاذفة كمدفعيّة متحرّكة شديدة الفعالية. وسرعان ما سقطت القنابل ومادت الأرض منها.

كان قائد لواء المدرّعات البريطاني يقف في سيارته المكشوفة والميكرفون في يده. ومن منظاره يراقب حشود الألمان تتقدّم فرقة الدبابات الثامنة عن يمينه، السابعة في الوسط والخامسة عن ميسرته المكشوفة. اللعنة إنّ دباباته تنحشد بين ثلاثة فرق ألمانية! اقصفوهم، احرفوهم عن مهمتهم، لا تسمحوا لهم بشنّ هجوم مضاد. وتواجهت الدبابات على بعد ٣٠٠ ياردة. بدأ مدفعيّون

يقصفون بالاعتماد على العين المجرّدة الآن. وأصيبت إحدى دباباته الماتيلدا في جنزيرها لكنّها بقيت تقصف العدو. فأصابت دبابة مارك ٥ وعندما حاول طاقمها أن يخرج منها حصَده رصاص البنادق. ثم ظهرت في السماء طائرة استطلاع فيسلرستورش وبدأت ترمي قنابل مضيئة كي تحدد الأهداف. وجلب الألمان مزيداً من مدافعهم الطويلة السبطانات؛ وكان لهيب فوهاتها أخف من لهيب فوهات مدافع الدبابات. ودُمِّرت أول دبابة ماتيلدا، ثم لحقت بها واحدة أخرى. فكان على القائد البريطاني أن يكسب الموقف كي يسحب ما تبقى منها. بعدئذٍ غطّت سماء عصر ذلك اليوم طائرات الستوكا. وسرعان ما أصبح الهدير المُصِمُّ فوقهم، وقبل أن يستطيع سماع أزيز القنابل المتساقطة كانت دباباته تشتعل...

٥,٢١ الساعة ١٨,٢٥ من قيادة الجيش الثاني إلى مقر القيادة العليا:

لقد انهارت مقاومة العدو إننا نشن هجوماً مضاداً في اتجاه الجنوب ـ الشرقي. ينوي الجيش الثاني أن يركّز هجومه على الميمنة، خصوصاً أنكم ترغبون في تقدّم القوات باتجاه الشمال على طول جبهة فالينسين ـ أرّاس ـ أبيفيل. إننا ننتظر جواب القيادة العليا. فوراً(١٦).

أظهرت الرسالة التي وصلت، في الساعة ٢٠,٥، ذعراً متنامياً في مركز قيادة هتلر(١٧).

تتخذ القيادة العليا الموقف التالي: على الجيش الألماني الثاني أن يحافظ على موقعه الحالي بالاشتباك مع العدو. ويقوم الجيش الأول بقطع طريق العدو إلى سومي وذلك بمهاجمة أرّاس في اتجاه كالايس. ولا يمكن للجيش الأول أن يشن هجوماً كاملاً إلاّ بعد احتلال المرتفعات شمال غرب أرّاس.

اتصل الجنرال جودل بقائد هيريسجروب فاتضح له مقدار تضارب التقارير التي تصل إلى مركز القيادة العليا: لقد عبّر الفوهر، عن قلقه الشديد من أنّ وحدات المشاة لا تتقدّم بجرأة كافية».

أصيب هتلر بالذعر، في تلك الليلة. وبقي في غرفة الخرائط حتى الساعة ٢,٣٠ ينتظر على أحرّ من الجمر، مزيداً من الاتصالات. لكنّه لم يتلق شيئاً.

انسحبت بقيّة الوحدات البريطانية، تحت جنح الظلام، إلى موقعها الأصلي على طول نهر سكريب. ودامت عمليّات فيلق فرانكلين أربعاً وعشرين ساعة. ولم يحدث الهجوم الفرنسيّ الموعود. فأصدر فرانكلين أوامره بإعادة تجمّع القوات خلال الليل. وقاموا بمحاولة أخيرة في صباح اليوم التالي، لكن الهجوم الثاني انتهى بكارثة. فقد دُحرت الوحدات البريطانيّة على طول نهر سكريب. لكنّهم استبسلوا حتى عصر ذلك اليوم وظهرهم إلى البحر وليس من جسور يعبرونها. وبلغ الموقف ذروة الحرج بحلول المساء. لقد دُمّرت معظم دباباتهم الاحتياطيّة، ولم يبق لهم سوى خيار التخلّي عن كل شيء والسباحة عبر النهر. في هذا الوقت كانت دبابات جودريان قد التفت حول خاصرتهم وأصبحوا مهددين بفقدان ممر نجاتهم الأخير باتجاه مرافئ القنال.

اتصل الجنرال فرانكلين بالجنرال جورت وطلب الإذن بسحب وحداته المسحوقة باتجاه دواى. كان الإذن قد صدر قبل ثلاث ساعات، لكنّه لم يوزّع قط. إذ أصابت قذيفة جهاز الإرسال، فأُبلغ الأمر إلى الوحدات بواسطة دراجة نارية. انسحبت كل قوات الحملة البريطانيّة: طوابير جنود علّقوا بنادقهم على أكتافهم ووضعوا أحزمة الرصاص حول رقابهم. الجرحى منهم ومكسوري

الأيدي صنعوا ضماداتهم وحمالاتهم من قمصانهم، وآخرون يعرجون متّكئين على عكاكيز صنعوها بأنفسهم. ولدى سماعهم هدير الطائرات رموا بأنفسهم في أول خندق صادفوه، للاحتماء من طيران يثقون أنه غير بريطاني. لقد تخلّوا عن كل مدرّعاتهم على شاطئ سكريب.

وقعت قوات الحملة البريطانية، ومعها الجيش الفرنسيّ السابع والبلجيكي في مصيدة. أما خطة جاميلين عن هجوم كثيف على جبهة الديل أدت إلى نتائج عكسيّة. فقد حوصرت فرق الحلفاء شمال سومي، بحلقة من الفولاذ، وكانت على وشك أن تُرمى في البحر. فكان أمامهم خياران فقط: الاستسلام أو الانسحاب. ولم يصمد أي شيء، في تلك الليلة، بين المدرّعات الألمانية ومرافئ القنال.

كان الحلفاء بحاجة إلى معجزة. لكن المدرّعات الألمانية منعت المعجزات. أبرق الجنرال جودريان، في ٢٣ أيار، إلى رئيسه في قيادة الجيش الأول، بأن الوضع في أرّاس تحت السيطرة، وقد جرى تدمير المدرّعات البريطانيّة. فأمر الفيلد مارشال فون بروختيش، قائد الجيوش، الجيش الأول أن ينطلق في طور المعركة الأخير(١٨).

إنّ التضحية بالدبابات البريطانية في أرّاس أفقدت هتلر صوابه. وبقي هتلر عصبياً متململاً طيلة يومين. في هذه اللحظة الحاسمة دخل الساحة لاعب جديد، لاعب كان هدفه الوحيد صنع مجده الشخصي. إنه ديرديك، مارشال الجو هيرمان جورينج(١٩). فعندما سمع بإتمام الحصار على قوات الحلفاء، طلب أن يتّصل مباشرة مع الفوهرر.

كانت مهمة رائعة لقواته الجويّة. فانبرى جورينج، الطامح،

يؤكد للفوهرر أن طيّاريه سيبيدون الإنجليز. ثم جادل في أنّ جيوش الحلفاء الشمالية قد انقطعت عن فرنسا، وأن الفوهرر يحتاج المدرّعات للهجوم على باريس، لينتقموا من خزي العام ١٩١٨ وطلب من الفوهرر أن يطلب وقف زحف مدرّعاتهم كي لا تقصفها طائراته. فوافق هتلر، الذي كان لا يزال يعاني من صدمة الهجوم المدرّع المضاد في أرّاس، على اقتراح جورينج[٢٠].

وجرى في مقرّ القيادة العليا مواجهة حامية بين الجنرال هالدر والفيلد مارشال فون بروختيش من جهة، وبين هتلر وإمّعاته كيتيل وجودل من جهة أخرى، انتهت بصياح هتلر الهيستيري: «آمر أن تنسحب كلّ التشكيلات المقاتلة إلى القنال. ويجب تجنب أي خسارة في الدبابات. ستقوم طائراتي بسحق الإنجليز».

طالما شعر العريف السابق بالدونيه عندما كان يرى صفوه القادة العسكريّين بكتافيّاتهم الذهبيّة وبناطيلهم ذات الشريط الأحمر، ومَنْ يشعرون بالدونية تكون لديهم حاجة مرضيّة للنيل من شخصية وقدرات أولئك المتميّزين. فاتخذت أحلام يقظة هتلر بالعظمة شكل هروب يائس من قسوة الواقع. غير أن الواقع كان مميتاً.

لقد لعب التاريخ دوره. ولم يفعل هو سوى الإيماء بالرأس.

وهكذا جرى الأمر، إنّ تورّط هتلر، السياسي العنيد، لأول مرّة، في أمر كان من الأفضل لو تركه للعقول العسكرية. فقد تجاوز قادته التكتيكيّين اللامعين، أمثال بروختيش وهالدر، أو قادة مدرّعاته الميدانيين جودريان، رينهارديق وهوث، واتخذ قراراً استراتيجياً كارثياً. فقد أصدر قراره الشهير بوقف المعركة في ٢٤ أيار ١٩٤٠.

٢٤/٥/١٩٤٠.

«بأمر الفوهرر، يجب تنسيق الهجوم على شرق أرّاس بين الفيلقين الثامن والثاني. ومهما يكن الأمر، من غير المسموح لكم عبور خط لينز ـ بثيون ـ سانت ألأمبر ـ جرافيلين، ويجب على الميمنة أن تجمع قواتها المنقولة وتسمح للعدو أن يقيم أفضل المواقع الدفاعية[٢١].

أما الأحداث التي أفضت إلى «معجزة دونكيرك» فقد اتخذت مسارها المحتوم. واضطر هالدر أن يخبر كل وحدات المدرّعات الألمانية: بأمر الفوهرر، يجب أن تتوقف الميسرة السريعة، فوراً»[٢٢].

لم يستطع جودريان ولا إيرفين رومل، قائد فرقته، أن يصدّقا ذلك. كان ذلك يوم ارتاب جودريان لأول مرّة في حكمة قائده العسكرية. وأثر في الأمر قليلاً، أن مساعده تقدّم منه وحياه قائلاً: «بأمر فوهررنا يشرفني أن أقلّد الجنرال ريتركروز». كان إيرفين رومل أول قائد فرقة يُمنح صليب الفرسان خلال الحملة الفرنسيّة. لكنه لم يعبأ به، خصوصاً أن مدرّعاته قد أُوقفت.

تلقّت الاستخبارات البريطانية رسالة ألمانية ثانية، في ٢٤ أيار، الساعة ١٥,٤٢، تعذّر عليها تفسيرها: ٢٤ أيار، من القيادة العليا إلى قيادة الجيشَيْن الأول والثاني. حافظوا على مواقعكم الحالية وتوقفوا عن الهجوم حتى إشعار آخر[٢٣].

٢٤ أيار ١٩٤٠، الساعة ١٧,١٥، تلقى قائد فوج المدرّعات البريطانية المسحوقة، تقرير الاستخبارات: لقد توقّف كلّ الهجوم الألماني في قطاع سانت ـ أومير ـ بثيون ـ دواي.

لقد حدثت معجزة. فقد أوقف هتلر هجوم مدرّعاته.

كتب الجنرال روندشديت في مذكراته الحربية:

أرّاس ٢١، ٢٢ أيار ١٩٤٠.

لقد خشينا قليلاً أن تُسحَق فرقنا المدرّعة قبل أن يصل المشاة لمؤازرتها. ذلك أن التهديد الذي واجهناه في أرّاس كان الأكثر خطورة من بين كل الهجمات الفرنسيّة.

وهكذا، فإنّ أهمية ذلك الهجوم الانتحاري لبعض الدبابات البريطانية، تكمن في أنها أقنعت هتلر بأن مدرّعاته الثمينة معرّضة لمخاطر كبيرة. فأدى ذلك إلى أن هتلر اتخذ قراره بوقف الهجوم ٢٤ـ ٢٦ أيار ١٩٤٠.

٢٦/ ٥ ـ الساعة ١٦,٢٥.

نأمر قيادة الجيشين الأول والثاني استئناف الهجوم فوراً على قوات العدو[٢٤].

لقد فات الأوان، فات الأوان كثيراً...

فالأيام الثلاثة تلك أتاحت للحملة البريطانيّة الوقت اللازم كي تصل إلى نقاط إخلائها. وما تبقى مجرّد تاريخ.

ماذا لو..

ماذا لو ـ لم يوقف هتلر هجومه؟

كان الألمان سيأسرون / ٣٣٠/ ألف جندي بريطاني. وكانت إنجلترا ستخسر كل دفاعاتها مما سيشجع هتلر على شنّ عملية أسد البحر، لغزو بريطانيا.

الحقائق:

لقد أوشك الجيش الألماني، كما لم يحدث من قبل قط، على سحق إنجلترا في ٢٤ أيار ١٩٤٠ وأجمع كل الجنرالات الذين عايشوا تلك الساعات الحاسمة، من صباح ذلك اليوم، أن ألمانيا خسرت الحرب يوم أعلن هتلر وقف الهجوم (Halte Befehl).

ولم يُقدِّم أيّ تفسير لإصدار هتلر أمره الثاني بوقف الهجوم en clair وعزاه بعض الخبراء لأسباب سياسيّة، وأنّه أراد إفهام تشرشل أنّه يتطلع إلى حل تفاوضي[٢٥]. ومن الواضح اليوم أن هتلر لم يُرِدْ أن يتيح سبل النجاة لربع مليون جندي بريطاني. لكنه ركن إلى تأكيدات مارشال الجو جورنيج بأنّ طائراته ستتكفل بإبادة قوات الحملة البريطانية.

لكن لم تجر الأمور بتلك الطريقة. وقبل أن تسقط دونكيرك في ٤ حزيران، تم إخلاء ٣٣٨٢٢٦ من القوات البريطانية وقوات الحلفاء، إلى أماكن آمنة؛ وهذا، بحد ذاته، كان إنجازاً، لا بل انتصاراً بالنسبة إلى إنجلترا المحاصرة[٢٦].

وقابل هؤلاء الجنود، أنفسهم، رومل، مرة أخرى في موقعة العلمين. وكانت النتيجة مختلفة.

كان استسلام فرنسا في ٢٢ حزيران ١٩٤٠ الشعرة التي قصت ظهر الجيش الألماني. فالهجوم الألماني المدرّع على فرنسا قدّم لهتلر صورة خاطئة. خصوصاً أنّ مدرّعاته استطاعت، خلال اقتحامها لمرافئ القنال، أن تتزوّد بسهولة من نقاط دعمهم في ألمانيا على بعد ٣٠٠كم لوجود شبكة طرق حديدية فعالة. لكن الأمر اختلف في روسيا. حيث تضاعفت المسافة عشرات المرات، وكذلك اختلفت نوعية شبكة الطرق الحديدية عن تلك الموجودة في فرنسا وألمانيا، حيث نسف الأنصار خطوط الحديد والجسور على طول المسافة الشاسعة التي تفصل برلين عن موسكو وستالينغراد.

روسيا ليست فرنسا. وحاول بعض جنرالات هتلر أن يحذّروه. لكن «العبقري العسكري الأعظم منذ عهد يوليوس قيصر» لم يُصْغِ إلى أنبيائه.

وهكذا، فإنّ النصر الخاطف الذي حقّقه قادة مدرّعاته الأفذاذ ورّط هتلر في مغامرة بعيدة جداً تسبّبت في سقوطه.

كان العامل الحاسم في معركة فرنسا تضحية قامت بها ٧٤ دبابة بريطانية تسببت بالذعر لهتلر الذي أمر بوقف هجوم مدرّعاته.

الهوامش

(١) كان هانز ثيلوشميدت، قائد فرقة مدرّعات، فوق الشبهات. ومع ذلك دأب لعدة سنوات على تزويد فرنسا بمعلومات قيّمة. وألقي القبض عليه أبهوير، يوم دخل الألمان فرنسا. إذ وجدوا وثائق المكتب الثاني في صندوق سيّارة بجانب محطة قطار، بما في ذلك اسم جاسوسهم العتيد. فأُعدم.

(٢) عندما اجتاح الألمان بولندا، وقف الحلفاء يتفرّجون، ولم يفعلوا شيئاً خلال الفترة ما بين سبتمبر ١٩٣٩ إلى أيار ١٩٤٠. ولم يكن الألمان قادرين على القتال على جبهتين في ١٩٣٩.

(٣) كان الجزء الأكبر من دبابات الألمان (٧٧٠ دبابة) من طراز Czech Skodas.

(٤) روجر بورج، Onaliver la Ligne Maginot.

(٥) في مطلع تلك السنة زار الجنرال البريطاني سير آلاف بروك الجنرال كراب. وشكى له هذا الأخير عن افتقاده للمدافع المضادة للمدرّعات.

(٦) مذكرات الجنرال هالدر.

(٧) اسم مشفّر لعملية إفراغ دونكيرك.

(٨) ديفيد إيرفينج ورومل.

(٩) تبعد سانت إلوا بضعة أميال عن فيجي ريدج الشهيرة في الحرب العالمية الأولى.

(١٠) كان عددها الإجمالي ٥٦ فرقة، لكنها لا تعادل ١٠ فرق ألمانية احتياطية اقتطعت من حجم القوات الرئيسية.

(١١) هناك جدال قائم خول زمن وصول البرقية؛ ويقول تشرشل أنّ ذلك كان في ٢١ أيار.

(١٢) من غرائب القدر أنّ المعركة كلّها جرت في المكان نفسه حيث اتحد الإنجليز والبروسيون في ١٨١٥ لهزيمة نابليون.
(١٣) وقتل أخ الجنرال ي. فون مانشتاين في طائرة الستوكا تلك.
(١٤) سمّاه الألمان الآلة الحربية للقتل المهذّب.
(١٥) مدافع ٨٨ أو أك ـ أك، هي مضادة للطائرات، لكنها فعّالة جداً ضد الدروع.
(١٦) ازدادت قوة العدو صلابة، فدفع دباباته بهجوم مضاد للضغط على مركز قوة الجيش المعادي في الجنوب الشرقي من الجبهة.
(١٧) مهّدت القيادة العليا لذلك بأن دفعت بجيوش جرارة عبر خط أرّاس وأفيفل باتجاه الشمال.
(١٨) ارتأت القيادة العليا أن على الـH.Gr.B تهاجم للحفاظ على قطاعها، بينما تقوم الـH.Gr.B بمناوشة العدو عبر أرّاس باتجاه كالي وتقطع عليه طريق الانسحاب باتجاه Somme، وتقوم فرق المشاة بدعمها بعد سيطرتها على المرتفعات الجبلية.
(١٩) قام هتلر بزيارة شخصية لبوخيتش في ٢٤ أيار، أكّد فيها هذا الأخير أنه لم يتكلّم عن توقف المدرّعات، بل عن استراحة قصيرة يعاد فيها تعميرها وتذخيرها.
(٢٠) كان جورينج يدعى الرجل البدين بسبب كبر محيط خصره.
(٢١) من محادثة جرت بين الأدميرال أنسيل ولوفتوا جنرال جيستشونيك. وفي مقابلة مع المارشال كيسلينج ومليخ أكدا أن الجنرال جورينج كان المسؤول عن هالت بيفهيل.
(٢٢) من مقابلة مع الجنرال هالدر بعد الحرب مع بيتر بور.
(٢٣) قال تشينيل لينك فلوجل، إننا نعبر عن رغبة الفوهور.
(٢٤) النص باللغة الألمانية.
(٢٥) إننا نتطلع إلى مفاوضات مع إنجلترا على أرضية تقاسم العالم.
(٢٦) كتب المؤرخ العسكري، B.H. Liddell Hart في كتابه تاريخ الحرب العالمية الثانية: «إن العامل الأساسي في نجاة قوات الحملة البريطانية كان بسبب تدخل هتلر ووقف هجوم مدرّعاته لمدّة ثلاثة أيام. إن قراره ذاك قدّم للجيش البريطاني حماية لم تكن ممكنة قبل ذلك، قط.

الفصل الثالث عشر

قَرشٌ طليق شمال الأطلسي، ٢٧ أيار ١٩٤١

«يجب تدمير بسمارك مهما كلّف الثمن».

أمر من وينستون تشرشل إلى قائد البحرية الملكية
٢٦ أيار ١٩٤١

كانت السماء رماديّة متجهّمة والبحر هائجاً خالياً من السفن. رغم ذلك بقي طاقم الطائرة يدقّق النظر بحثاً عن الهدف الثمين. كلّ البحرية البريطانية قد خرجت تتصيّد قاتل عهد الطراد الحربي، كبرياء إنجلترا وعظمتها. هناك خطر طليق، إنّه التحدي الألماني «للسيطرة الإنجليزيّة على البحار».

كانت كاتالينا Z من السرب البريطاني ٢٠٩ تحلّق بقيادة ضابط الجوّ دينيس بريجس. يساعده شاب مزارع من هيجيسفيل في ميزوري. وربّما كان أنسيجن ليونارد سميث اليانكي الأصلي الوحيد في سلاح الجو الأميركي، يرتدي بزة الملاحة الأميركيّة لا تلك التي يلبسها الجنود الأميركيّون منذ دخلت أميركا الحرب قبل سبعة أشهر[١]. إنهم.في مهمة استطلاعيّة، مع خيوط الفجر الأولى. لكنّ الطقس سيّئ، وفرصتهم الوحيدة في رؤية أيّ شيء

تقتضي أن يطيروا تحت الغيوم، على ارتفاع ٥٠٠ قدم، في الحدّ الأدنى المسموح به لأيّ طائرة بحرية من حجم كاتالينا. لقد تخلّى بريجس عن القيادة إلى سميث، الذي وضع الطائرة تحت تصرّف الطيّار الآلي. وكانا يتناولان فطورهما عندما سمعا صوت الميزوري المهتاج يصيح: «الساعة الحادية عشرة! الساعة الحادية عشرة!».

لم يرَ سميث سوى شكلاً معتماً يغطّيه زبد المحيط. فاستعاد القيادة من الطيّار الآلي وأسرع داخلاً في الغيوم ليقترب منه. فأخطأ تقدير المسافة بسبب انفعاله، لأنه عندما انخفض بالطائرة ثانية، وأصبح خارج الغيوم، رأى تلك السفينة الضخمة المميتة، بوضوح، على بعد ٥٠٠ ياردة عن ميمنة الطائرة. ولا مجال الآن لأن يخطىء هويتها. فانفتح لونها الرمادي عن ألسنة لهب شريرة وسرعان ما أصبحت كاتالينا نهباً لانفجارات جويّة مجاورة، امتلأت حجرة القيادة بالدخان الأسود، وسمعا فرقعة في جسم الطائرة، أصيب جناح الطائرة واستحال شظايا فولاذ. ضغط سميث الزرّ الأحمر الذي حرّر قنابل الأعماق، ثم أسند ظهره إلى المقعد وتلا صلاته. تخلّص من وزن أربع قنابل، فارتفعت الطائرة فوراً. واختفت بين الغيوم بفعل دفع كلّ رفاصاتها. كانت مناورة قاسية جداً لدرجة أنّ بريجس سقط فوق السنّادات وهو يعمل فوق جهاز الإرسال(٢).

«خطّ سير السفينة ١٥٠°، موقعنا ٤٩,٣٣° شمالاً، ٢١,٤٧° غرباً. الزمن أيار ٢٦/ ١٠٣٠».

أشيع السرُّ. وبدأ العدّ التنازلي للبحث عن الأخطار الأكبر والأكثر سرعة في البحر. عن السفينة الألمانية ـ الأكبر ـ بسمارك.

النرويج، منذ أسبوعين كان رجلان يسيران في الشارع

المجاور للمحيط. خرجا مرحَيْن من حفلة، مشروب، في كريستيانساند قال أحدهما، فيجو أكسيلسين، وهو شماع سفن كان نشيطاً في المقاومة النرويجية، لصديقه، وهو يتّكِئ على كتفه «لقد أكثرت من شرب الشنبص، يا آرني».

«كُفَّ عن نعتي بأني سكران. خذ، انظر بنفسك». قال آرني وناول صديقه منظاره وخطّ بذلك تاريخاً بحرياً. فعندما نظر فيجو أكسيليسين إلى منارة أوسكوي ورأى طرّادين مموّهَيْن يبحران غرباً بسرعة كبيرة، كان أول مَنْ شهد التراجيديا التي ستجري على مسرح محيط مساحته مليوني ميل من الأركتيك إلى خليج بسكي. كانت واحدة من أعنف المعارك البحريّة في الحرب العالمية الثانية.

عرف أكسيليسين الذي صحا فجأة أنهما طرّادان ألمانيين، حيث أنّ طرّادات البريطانيّين رماديّة اللون. فكتب برقية مشفّرة مكوّنة من اثني عشرة كلمة وأسرع إلى منزل آرني موين، سائق باص. وخبّأ الرسالة في أنبوب خزّان وقود الباص الذي أوصلها إلى جونفالد تومستاد في هيلي. ومن مخزن تبن في قرية نرويجيّة أُرسلت البرقية إلى الكولونيل روتشر لوند قائد ارتباط قوات الحكومة المنفيّة في ستوكهولم. وحالما قرأها لوند استدعى صديقه هنري دنهام من البحرية الملكية البريطانيّة. ثم وصلت الرسالة إلى لندن بعد سبع ساعات من رؤية الطرّادَيْن أكاتيجيت توداي. في ١٥٠٧، شوهد طرّادان كبيران وثلاث مدمرات تجتاز مارستراند باتجاه غرب شمال غرب ٢٠٥٨، ٢٠ أيار.

وأشيع سرّ البارجة الألمانيّة الكبيرة بسمارك والطرّاد الثقيل برينز يوجين يتّجهان إلى الأطلسي. لقد بدأت عملية رينيوبونج. سيطوفان ثلاثة أشهر في الأطلسي ليعترضا الناقلات البريطانيّة

ويمنعا الإمدادات البشريّة والعتاد عن قوات الكومونويلث التي تقاتل في شمال إفريقيا.

ستكون بسمارك حرّة طليقة.

لقد استسلمت معظم أوروبا لهتلر ولم يبق إلا إنجلترا المتمرّدة. وعندما وصلت أخبار البارجة بسمارك إلى إنجلترا كان رئيس الوزراء تشرشل هو الشخص الأكثر تأثراً. فهو يعرف من خبرته الطويلة في البحرية الحربيّة أيّ ذعر كبير يستطيع الأسطول الألماني أن يزرعه وسط ناقلات الأطلسي، وكذلك تأثيره الكبير على مجريات الحرب.

لا شبيه أبداً للبارجة بسمارك، فهي لا تمثّل البحرية الألمانية فحسب، إنّما كلّ قوة ألمانيا النازية. إنها ضخمة وتصل سرعتها إلى ٣٠ عقدة/ ساعة. وقد سُجّلت، امتثالاً لمعاهدة لندن البحرية بوزن ٣٥٠٠٠ طن، غير أن وزنها الفعلي ٥٠٠٠٠ طن وطاقمها ٢٠٠٠ رجل. يقودها القبطان إيرنست ليندمان، عمره ٤٦ عاماً، أصله من رينلاند، يتميّز بذكاء وبرود شديدين. إنه نموذج الرجل الألماني بشعره الأشقر المرسل. وقد اختارته القيادة البحرية العليا «الرجل المناسب في المكان المناسب». والأدميرال غونتر لوتجينز، قائد العمليّات الأعلى، ٥١ عاماً، رجل كرّس حياته للخدمة البحرية، يتميّز بشجاعته وقوة عزيمته، يحمل آثار طعنة من خدمته في الامبريال نيفي القديمة. لا يلبس الصليب المعقوف، وقد رفض، ذات مرة، أن يقدّم التحية النازية لهتلر.

لقد اتخذت بسمارك مسارها إلى بلوم وفوس في هامبورغ في يوم القديس فالانتين ١٩٣٩ لقد حضر هتلر الاحتفال الذي قامت فيه دورينافون لوفينفيلد، حفيدة المير بسمارك، بتعميد البارجة الألمانية الأعظم وأطلقت عليها اسم أعظم مستشاريهم. والبارجة

بسمارك ضخمة قويّة. لقد كانت أكبر وأقوى بوارج زمانها. وقد صنعت جوانبها من فولاذ مقسّى سماكته ١٣ إنشاً. وتعتبر مدافعها الأربعة العملاقة قادرة على إطلاق قذائف أسرع وأبعد من أي بارجة أخرى، مكمن الرعب الذي تبثّه أينما حلّت. وتستطيع هذه المدافع العملاقة المزدوجة السبطانات عيار ١٥ إنشاً، أن تطلق قذيفة كل عشرين ثانية. وهذا بحدّ ذاته رقم قياسي - أيُّ سفينة تطلق ثماني قذائف زنة كلّ واحدة منها طناً كاملاً.

كانت بانتظار بسمارك مهمة مرعبة: أنْ تعبر مضيق البلطيق إلى الأطلنطي. ترك للأدميرال لوتجينز الخيار في أن يعبر ممرّ الغايروي جنوب أيسنلدا، أو إلى مضائق الدانمارك، بين أيسلندا وغرين لاند القطب المتجمّد. وكان الممرّ الجنوبي خطراً لقربه من الأسطول الإنجليزي في سكابا فلو في جزر الأوركني. بينما مضائق الدانمارك رغم بعدها عن طائرات الاستطلاع البريطانية، كان بعضها ضيّقاً، عرضه ثلاثين ميلاً فقط، ويمكن أن يزرع فيه العدو ألغاماً أو قوات، تلك كانت الخطّة. وبدت للوتجينز أشبه بسيناريو فيلمٍ مستحيل.

١٨ أيار ١٩٤١، الساعة ٢١,٣٠، خرجت أكبر بارجة حربيّة في الأطلنطي ووصلت جوتنهافن[٣]. ووقف عمال مصانع السفن ليتفرّجوا على الأعلام المرفرفة فوق حبال البارجة. كانت تتبختر في البحر. جزيرة جبلية فولاذية متحرّكة. وأقواسها العالية مزيّنة بالصليب المعقوف، ترتفع عشرون متراً فوق سطح الماء الملوّث بالوقود. ولم ينج أحد قط من الصدمة الأولية لدى رؤيتها. وكتب عنها آبل سيمان هينز سنات إنّ شوادف مقدمتها تبدو مثل ملعب كرة قدم. الآن، وبعد شهرين، لم يستطيع أن يقاوم رهبتها. فنظر برهبة إلى برجها، سعة مدافعها، سلالمها وهوائياتها. شعر بالفخر أنّ لا بحرية أخرى تستطيع أن تباهي ببارجة ثقيلة التسليح

والتدريع، عصية على التدمير. وتوقّع الجميع أن تكون بزّات ضباطها وطاقمها أفضل من بزّات باقي القوات الألمانية. فكان عريف الملاحين يحمل المرآة باحترام بينما يتفقد الكابتن ليندمان هندامه. سيدارة مستقيمة، حذاء نظيف، ربطة عنق بعقدة نظامية.

«اصطفوا في وسط السفينة!» كان قادماً لتفقّدها الأدميرال لوتجينز، ضابط العمليات.

كان الأسطول البريطاني أقوى قوة بحرية في العالم رأسياً في سكابافلو في الأوركينيز. وقائده الأدميرال توفي ٥٦ عاماً على ظهر بارجته الأميرالية الجديدة الملك جورج الخامس. وبينما كان الأدميرال الألماني طويلاً، فان توفي قصيراً. لكنه يضاهيه عناداً. مرّت البارجة الأميرالية بعد أن تلقّت الإشارة من النرويج. لكن توفي كان بحاجة إلى تأكيد الأمر. فأُرْسِلَت قاذفتان غير مسلّحتين في مهمة تصويريّة، إلى النرويج. يقود إحداها الضابط الطيّار سكلينج. قاصداً بيرجن فجورد. وعبرت فجورد خلسة.

في ٢٢ أيار، في خليج كالفانز في كورسفجورد تحدّد مصير البارجة بسمارك في منطقة تيارات مائية هادئة في شاطىء النرويج. فقد استهلكت هذه البارجة في رحلتها من ألمانيا إلى النرويج أكثر من ألف طن وقود. وكان بانتظارها ناقلة النفط الألمانية وولين لتزويدها بالوقود. ولم نعرف أبداً لماذا غيّر الأدميرال لوتجينز رأيه وبدلاً من مَلْء خزانات سفينته الرئيسيّة، أمر بملء خزانات الطرّاد برينز يوجين، سعته ١٤ طن، صاحبة الدور البارز في تحرير النمسا من تركيا. ربّما لأنه عرف أنّ الناقلة ويسينجبورغ بانتظاره في أيسلانده(٤).

حالما درس الأدميرال توفي الصور الملتقطة من الجوّ أعاد تشكيل قواته. فأرسل الطرّادين الثقيلين نورفولك وسوفولك كي

تجوسا ممرّات الدانمارك، والطرّادين فانشستر وبيرمينغهام إلى ممرّ أيسلاند ـ فايروي. ولا واحدة منها ستشتبك مع السفينة الرئيسيّة.

ثم وضع هود، رمز كبرياء البحرية البريطانيّة، وزنها ٤٢ طناً، بقيادة نائب الأدميرال لإنسيلوت هولاند، والطرّاد الجديد برينس أوف ويلز في مكمن. كان سيناريو مثالياً لفيلم حرب غربي، وهذا وحده عليه مدفع ميداني، عيار ١٥ إنشاً[٥].

أبلغ توفي رئيس حكومته تشرشل وهذا بدوره أبرق إلى روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأميركية قائلاً: «يجب أن نأخذ في الحسبان أنّه لأول مرّة في هذه الحرب ستقع معركة بحرية سيستعمل فيها العدو سفينتين على الأقلّ تضاهيان أفضل سفينتين لدينا. يجب أن تساعدنا بحريتكم في تحديد مكانهما، وسنتولى نحن القضاء عليهما».

لا شكّ في أنّ تشرشل كان يعرف عن تحرّك الأسطول الألماني أكثر من هتلر الذي يجهل هذا الأمر تماماً. فقد اكتشف الأدميرال ريدر، منذ زمن بعيد، أنه من الأفضل عدم إبلاغ فوهرره أيّ شيء قبل إحراز النصر. وفي ٢٢ أيار، الساعة ٧,٣٠ مساءً. تحرّكت البارجة بسمارك من مرساها في بيرجين، برفقة طرّاد ثقيل برينز يوجين، وتوجّها شمالاً.

غادر الطرّاد هود مرساه أيضاً. وكانت تلك آخر مرة يراه فيها الإنجليز. وكان الأسطول الألماني يبحر شمالاً بسرعة ٢٤ عقدة/ساعة. وراح الطاقم يعمل على إخفاء علامة الصليب المعقوف، من على أبراج البارجة ولحسن حظ الألمان، أنّ السماء الملبّدة بالغيوم ستجعل الرؤية مستحيلة بالنسبة إلى الإستطلاعات البريطانيّة. وأتيحت لهم فرصة المرور من غير أن يكتشف أمرهم. وتنبّأ الدكتور أكسترنبرينك، رئيس أرصاد بسمارك، أن تبقى السماء

ملبّدة باتجاه الشمال فوق القنال الضيّقة على طول غرين لاند باك آيس.

فسأله الأدميرال مستفسراً: «إلى متى؟».

«٤٨ ساعة، وكحدّ أقصى ٧٢ ساعة، لا أستطيع أن أتنبّأ لأكثر من ذلك».

«إلى أين تتّجه هذه الكتلة؟».

«إلى شمال أيسلندا، أيها الأدميرال».

تفحّص لوتجينز خارطته البحرية. مضائق الدانمارك. إن الطقس ملائم جداً.

لقد كان واثقاً أنّ تحركاته قد انكشفت، والعدو يلاحقه. ومن المنطقي أن يكون كمينهم شمال فايروي أيسلاندز وجنوب أيسلاند. وإذا أبحر عبر مضائق الدانمارك، سيكون بعيداً عن الأسطول الإنجليزي، ولن يُعرف موقعه إلا إذا التقى صدفة مع أساطيل صيد أسماك أو حيتان. وإذا صحّتْ توقّعات المتنبئ الجوّي، فسيتجاوز الخطر ويصل بأمان إلى الأطلنطي. واقترح أكسترنبرنك أن يسير لوتجينزفي الطريق الأطول. لكن معضلة لوتجينز أنه وفقاً لفترة التنبؤ الجويّ لا يستطيع أن يتوقّف ليتزوّد بالوقود من الناقلة ويسينبورغ. وكان قراراً جريئاً بالنظر إلى عدم التزامه بالطريق الأطول. إضافة إلى رفضه، سابقاً، ملء الوقود من بيرجين. وأدار الأدميرال الألماني دفّة بارجته نحو الجنوب الشرقي. استمر الطقس ضبابياً كثيفاً إلى خفيف أحياناً ممّا اضطر بسمارك أن تستخدم أضواءها الكاشفة كي تستطيع رينز يوجين أن تتبعها بانتباه. وبلغت سرعة الأسطول ٢٧ عقدة/ساعة أثناء عبوره مضائق الدانمارك. وكانوا قد دخلوا الممرّ الأكثر خطورة، حقول ألغام على طول ثلاثين ميلاً باتجاه الجنوب، والجليد الطافي من

الشمال، عندما تحقّقت مخاوف لوتجينز: انقشعت السماء. ولأوّل مرة منذ ٣٦ ساعة أصبح مدى الرؤية الواضحة ٣٥كم. فضاعف عدد المراقبين. وحدّق البحارة الجدد برهبة إلى الغطاء الجليدي العريض الكثيف، حافة العالم، الطريق المفضي إلى القطب الشمالي.

وعُيِّن البحار القدير هينز ستات، بحار تاجر من فيلهيلمشيفن، قائداً للجسر الأعلى، بدلاً من أويل، حيث يستطيع من هناك التمتّع بمنظر فريد للقطب الشمالي. أما هانز ريدل، ملقّم مدفع في طرّاد، بافاري الأصل، وتلك منطقة نادراً ما تُخرِّج بحارة، فقد جلس يحدّق من خلال شق صغير في مدفعه. لكنّه لم يرَ غير الريح تصفع قمم الجبال الجليدية حيث يندمج، عند قممها، البحر مع الضباب.

كان مراقب المحرّكات بلوم في قعر السفينة يتفقّد المقاييس ويضبط أنابيب الضخ، عالقاً وسط هسهسة الأنابيب وخدراً من رائحة الديزل. لقد فاته جمال المحيط المتجمّد الشمالي، الذي سيوحّدهم القدر معه في غضون ثلاثة أيام.

لاحظ الأدميرال فريدريك ويك ـ والكر قائد الطرّادين نورفوك وسوفولك، ولكلّ منهما ثلاثة مداخن، أنّ مدافع طرّاديه لا يمكن أن تجاري مدافع البارجة بسمارك(٦): التي ستمحي أثرهم من الماء. فأصدر أوامره الواضحة: لا تشتبكوا معها. جدوها وتقّفوا أثرها. لكن أين سيبحثون عنها. وخيّل إليه، بعد إبحاره على طول الشاطىء المتجمّد الشماليّ، أنّ بسمارك قد عادت إلى ألمانيا. ذلك أنه لم يرَ سوى الزبد فوق المياه السوداء، وصفعات البحر على جانبي السفينة. وكان طاقم الطرّاد، المقيّل يستمعون إلى إذاعة ب.ب.سي، وقلّة منهم نياماً. بيد أن طمأنينتهم لن تدوم طويلاً.

فقد وضع لها حدّاً البحّار المتمرّس نويل، من على متن سوفولك. فبعد أن بدأ نوبته كمراقب فوق الجسر. في الساعة ١٨، مسح البحر بمنظاره خمسين مرة على الأقل، قبل أن يرى، فجأة، منظراً لن ينساه طيلة حياته الباقية. رأى البارجة بسمارك السوداء الضخمة تخرج من كتلة ضباب.

صاح ملء صوته: «سفينة تحمل الرقم الأخضر ١٠٠٠٠!» ثم صحّح بسرعة: «بل سفينتان تحملان الرقم الأخضر ١٠٠٠٠».

فأمر قائد سوتولك، الكابتن روبرت إليس، السير بأقصى سرعة ثم الدخول في كتلة ضباب. قرع ضابطه الأول جرس الإنذار. فقفز الرجال من أراجيحهم وتسابقوا نازلين الممرات والأدراج. وسقطت أرضاً كلّ أطباق وجبة الغداء عندما انعطفت السفينة بقوة وسرعة؛ ومرّت لحظات مرعبة قبل أن تنجح سنوك في الاختباء في الضباب كي ترسل برقيّتها: «شوهدت البارجة بسمارك في ٢٤ أيار الساعة ١٩,٢٠، متّجهة إلى...».

التقطت سفينة جلالتها الإشارة. وأخطأ قبطانها ألفريد فيليبس المسافة الفاصلة، فوجد نفسه فجأة على بعد ستين ميلاً، فقط، من البارجة الألمانية. فهدرت مدافعها. سقطت القذيفة في الماء. وسمع الرجال على سطح الطرّاد أزيز القذائف الضخمة وهي تمرّ فوق جسر نورفولك. ورأوا أعمدة ماء بيضاء ترتفع عالياً في الهواء. ظهر القلق جلياً على الأدميرال ويك ـ والكر وهو يرى من حوله شظايا القذائف تملأ البحر. وأطلق الألمان خمس قذائف قبل أن ينجح الطرّاد في الاختباء في الضباب.

كانت سفينة الجند بريتانيكا على بعد ٨٠٠ ميل جنوباً، أمام البارجة بسمارك وقد غدت بلا حماية بعد أن اتجهت ناقلة الجند WS8B إلى منطقة الشرق الأوسط، والطرّادان فيكتوريوس وريبولس

تلقيا أوامر بالانضمام إلى مطاردة بسمارك. وكان أسطول الأدميرال توفي، بقيادة البارجة كينج جورج V لا يزال راسياً في سكابا، على بعد ٦٠٠ ميل إلى الجنوب. لكن نائب الأدميرال هولاند، قائد البارجة القوية هود وبرينس أوف ويلز، كان بعيداً عنهم ٣٠٠ ميل فقط. فأمر هولاند أن ينطلق الأسطول بأقصى سرعة ووحّد اتجاه بارجتيه.

كانت السفينة الحربية هود ملكة البحر بلا منازع، واسمها مرادف لـ«سيادة ـ بريطانيا». وقد اعتبرت منيعة في كلّ العالم، رغم وجود صدع خطير في أساسها: فلم يكن سطحها العلوي من الفولاذ المقوّى. وخيّم القلق على اجتماع قادة هولاند؛ خصوصاً أنّ تقارير الاستخبارات أكّدت أن التقييم الأولي لقوة نيران بسمارك لم يكن صحيحاً وأنّ بوسع مدافعها أن تطال أيَّ حشد للأسطول البريطاني. انكبّ ضباط المدفعيّة فوق جداول المدى المجدي لمدفعيّتهم، فتبيّن لهم أنّ الألمان سيفتحون النار عليهم قبل أن يكون بوسع بطارياتهم أن تردّ بالمثل. جمع الأدميرال طاقمه وخطب فيهم قائلاً: سيقع الاشتباك في ظرف ساعات قلائل. فهلل الطاقم ثلاثاً.

«سنفوز بشرف المعركة. فنحن نملك ثمانية عشر مدفعاً مقابل ثمانية، فقط، للألمان».

في سرعتهم الحالية، وهذا المسار، سيقابلون العدو قبل الساعة الثانية. وقد خرجت أقوى بارجتين في أسطول أعالي البحار البريطاني من البحر في جولة قتالية. فأشار الأدميرال توفي، وكان لا يزال راسياً في سكابانولو، لحاملة الطائرات فيكتوريوس، الطرّاد ريبولس، جالاتيا، هيرميون، كينيا، أورورا، إضافة إلى خمس مدمّرات كي تنضمّ إليه في شمال هيبرايدس. وحالما خرجت

بارجته الكبيرة كينج جورج V إلى البحر، جلس توفي لتناول الغداء مع ضبّاطه.

كان تشرشل والأميرالية في لندن يتابعون سرعة انطلاق بسمارك التي تقترب من ناقلة جنودها WS8B وفي منتصف ليلة ٢٣ أيار، وصلت برقية إلى جيبرالتر نافال بيز، تأمر الأدميرال سومرفيل أن ينطلق بقواته H، حاملة الطائرات آرك رويال، والطرّاد رينوون وشيفيلد، شمالاً إلى الأطلسي ويلتقون مع ناقلة الجند. كان اجتماع قوات لن تستطيع h بلوغه؛ ذلك أن أخطاراً كبيرة تنتظرهم في الأطلسي.

كلّ القطع البحرية في أماكنها الآن، والستار على وشك أن يُرفع عن المسرح. في هذه الأثناء، وبينما الإنجليز منهمكين في نشاط محموم، كان طاقم بسمارك ينام قرير العين، غافلاً عن الرعد القادم إليه.

كل الأحداث تتصاعد بسرعة نحو الأزمة. ففي الساعة ١,٤٠ كانت سفينتا الأدميرال هولاند، هود وبوينس أوف ويلز، على بعد عشرين ميلاً من بسمارك عندما غيّر ليندمان غطاء سفينته ومرّ من دون أن تلحظه شاشة المدمّرة البريطانية. فوضع هذا التغيير الفريقين في اتجاهين متعاكسين واتسعت المسافة بينهما. وفي الساعة ٣,٢٠ أشارت سوفولك إلى تغيير آخر في جهة الألمان. وهذا ما جعل ظروف المعركة سيّئة جداً بالنسبة إلى البريطانيين - وكان عليهم أن يزيدوا سرعتهم وبزاوية منحرف كي يلحقوا بهم. وصدرت الأوامر بالاستعداد للمعركة. ففي السفن البريطانية نزل الضباط والأفراد إلى مقصوراتهم لتغيير ملابسهم الداخلية، وهذا طقس في الأسطول الملكي لمنع نقل العدوى من الجروح. فكتب معظمهم رسائل وداع لذويهم وعشيقاتهم. وارتدوا ملابسهم الواقية

من الحريق، فبدوا أشبه بتجمّع كور كلوكس ـ كلان(*) وثم انتظروا، وهم يعرفون جيّداً ماذا ينتظرهم.

دقّت أجراس محطات العمل! أُغلقت أبواب المياه بإحكام. اختبرت رافعات الذخائر، ورفعت المدافع. وفي غرفة المراجل راقب الرجال صمامات الضغط. وأطفأ الطبّاخون نارهم. وضاعت السفن بعضها عن البعض الآخر، في الضباب وسط اندفاعها المجنون. وكان العدوّان يقتربان من بعضهما بسرعة ٨٠كم/ساعة! وأعلن قبطان برينس أوف ويلز في الساعة ٥,١٠ «سنشتبك مع العدو في ظرف ربع ساعة».

وقع، أثناء قصف نورفولك، حادثاً صغيراً على متن بسمارك لكنّه سيؤثر على نتيجة القتال: تسبّب الارتداد الخلفي لمدافعه الضخمة بتعطيل الرادار الأمامي. فطلب الأدميرال لوتجينز من برينز يوجين تأمين تغطية نارية ريثما يجري إصلاح الرادار. وبما أن بسمارك ويوجين متشابهتان في الشكل، فقط اختلط الأمر على البريطانيّين.

وصدرت الأوامر إلى البحّار المتمرّس فوكر وايت أن يتسلّق الصاري المائل ويراقب بمنظاره. ومرّت دقائق قبل أن يصيح. «إني أرى العدوّ!» فقد خرج من الضباب ظلّان ضخمان. وكان هدوءهما وسرعتهما مريبين. وإذا لم يتمّ وضع حد للألمان، فسيسيطرون على الأطلسي. وكان مجال الرؤية سبعين ميلاً[٧]. بدأت المدافع تهتز، ودخلت هود المعركة مزهوة براياتها البيض التي ترفرف مع الريح.

(*) جمعية سريّة أميركية نشأت بعد الحرب الأهلية لترسيخ سيطرة البيض على الزنوج.

كان هيلموت برينكمان كابتن برينز يوجين يحمل سلطانية حساء أخذها من مساعده فريب، عندما صاح فجأة: «اللعنة! أحدهم وضع عقب سيجارة في حسائي. فريب، سأعدمك رمياً بالرصاص، فجراً». فضحك الجميع؛ وتذكّروا ما يحتاجونه جميعاً: بضع ساعات نوم في سرير دافىء. وكان الضابط المدفعي جاسبر، ومساعده بول شمالينباخ، يتناولان القهوة عندما سمعا جهاز الاستقبال يردّد: صواريخ سريعة تقترب من بورت بو».

شاهدا عبر منظاريهما دخاناً فوق الأفق. فقُرعت أجراس الإنذار تحذّر من هجوم سطحي. ظهرت في البدء قمم الصواري ثم ظلال السفن الضخمة. راجع شمالينباخ كتابه حول بحرية العدو، ثم هزّ رأسه. ثم تفّحصه ثانية وقال: «الأولى على اليمين هي هود».

فقال جاسبر: «هراء، إنها مدمّرة، أو طرّاد».

فرد شمالينباخ: «أراهنك على زجاجة شمبانيا، إنها هود».

«موافق»، قال جاسبر، لكنّه لم يصدّق مساعده. وبدلاً من تلقيم المدافع بقذائف خارقة للدروع، أمر بتلقيمها بقذائف شديدة الانفجار بفواصم صدم مشهورة، وهذا سلاح لا يستخدم ضد البوارج المدرّعة.

صدر أمر من هود: بلو فور، عدّل مسار السفينة أربعين درجة إلى اليمين، وكان قراراً غير موفّق. فلن تستطيع الأبراج الخلفيّة في كلا البارجتين أن تشاركا في المعركة، وكذا حُيِّدت مدافعها الضخمة الثمانية عشر. فأصبح هناك عشرة مدافع بريطانية مقابل ثمانية ألمانية. وفوق ذلك كلّه، راحت هود وبرينس أوف ويلز تهتّزان مع الريح.

نظر الأدميرال لوتجينز عبر منظاره من على متن بسمارك.

ومنذ لحظة مضت كانت أفكاره متمحورة حول معارك بحريّة أخرى عظيمة: ترافلجار، سكاجيراك. لكنّه لم يختر هذه المعركة. فالجليد عن شماله، طرّادات العدو من خلفه وبوارجه من أمامه. ولا خيار أمامه إلا دخولها.

٢٤ أيار ١٩٤١؛ الساعة ٥,٥٠.

لم تكن الفوضى مختلفة على متن السفن البريطانية فقد سرى خبر بأن بسمارك تقود هجوم العدو. وعلى جسر هود جلس تابعٌ يقدّر المسافة الفاصلة. وفي الوقت الذي أمر فيه لوتجين إعطاء إشارة البدء بإطلاق النار على متن برينز يوجين، أعطى هولاند الأمر نفسه على متن برينس أوف ويلز وسرعان ما أحكم إغلاق المدى.

«استعد لإطلاق النار، سدّد على السفينة اليسرى»(٨).

عندما انخفض المدى إلى ثلاثة عشر ميلاً، قال الأدميرال هولاند: «نَفِّذا» فصاح التابع فوق الجسر: «أخفضْ الراية الخامسة». وهذه إمارة الإطلاق. صَاح ضابط المدفعيّة بصوت أقرب إلى الصلاة: «أطلق!».

صمت العالم كلّه لبرهة، ثم دوّت المدافع.

تسمّرت كل الأعين على السفينة الألمانية على فوهات المدافع البريطانية. وعندما شاهد ضابط المدفعيّة جاسبر أشعة الشمس الحارقة تنعكس حول سبطانات مدفعيّة العدو صاح: «بحق الله، أنت محقّ، فهذه ليست مدمّرة، إنها بارجة. استعملوا الذخيرة الخارقة للدروع».

في الساعة ٥,٥٣ ضغط ضابط مدفعيّة بسمارك زر إطلاق النار، في كبينة الإطلاق الضيّقة. واهتز الأدميرال لوتجينز من دوي انفجار إطلاق مدافع بسمارك.

القذائف الآن في الهواء. لكن أين ستسقط. لقد سقطت قذائف هود برينس أوف ويلز بجوار برينز يوجين. فارتفعت المياه البيضاء مئات الأمتار في الهواء، قبل الهدف بحوالي ألف ياردة. كان إطلاقاً سيئاً. لكن إطلاق بسمارك ويوجين كان قاتلاً في دقّته، ذلك أن أوّل رشقة قصمت هود.

ضاع كلّ شيء بالنسبة إلى الأدميرال هولاند. فهو الآن في أسوأ وضع ممكن. خصوصاً أنّ قصف مدفعيّته صالحة للاستعمال وهو الآن هدفٌ أكثر من مثاليّ بالنسبة إلى عدوّ خطير. وزاد الطين بلّة أنّ أحد مدافع برينس أوف ويلز قد تعطّل أيضاً وخرج من الخدمة. بينما وُزّعت كثافة نيرانه بين برينز يوجين وبسمارك. وكان الألمان يكثّفون نيرانهم على هود. فطالب هولاند أن تشترك نورفولك وسنولك في القتال كي تخفّفا الضغط عنها، لكنه نسي أن يصدر الأمر إلى الأدميرال ويك ـ والكر. وعلاوة على ذلك، فإنّ البحرية البريطانية تبحر وسط الريح، وحالَ البَخّاخ المقوّس دون رؤية الرُماة للأبراج الأمامية، مما اضطرهم إلى استخدام مُعيِّن المدى الثانوي الذي لم يكن دقيقاً.

تطايرت القذائف عبر البحر، وارتفعت أعمدة الماء عالياً حيث تساقطت. أَنقذ الكابتن برينكمان سفينته رينز يوجين من دمار محقّق، عندما أمر مدير الدّفة أن يسير نحو نوافير الماء، معتمداً على معرفته أنّ القذائف لا تسقط مرتين في الموقع ذاته. وأطلقت رينز يوجين رشقتها الثانية. وبعد عشرين ثانية اشتعلت النيران في هود. فقد أصيب مخزن ذخيرة المدافع المضاد للطائرات، عيار ٤ إنشات. وصدرت الأوامر إلى تيلبورن وطاقمه المدفعيّ أن يطفئوا النيران، وعندما بدأت الذخيرة تنفجر داخل صناديقها، انبطحوا على ظهر السفينة. عندئذٍ سقطت قذيفة معادية أخرى فحصدتهم

جميعاً. لا يمكن أن يستمر هذا، فقرر الأدميرال هولاند أن يشرك كامل مدافعه الثمانية عشر القوية. وأصدر الأمر بتغيير المسار.

«توبلو، عشرين درجة باتجاه المرفأ». فبدأت السفينتان بالدوران. عندئذٍ وقع ما لا يُصدّق.

لاحظ القائد شنيدر، في الساعة السادسة، أنّ العدو يغيّر مساره. فأمر رماته على بسمارك أن يصحّحوا أهداف الرماية، قليلاً. غير أن الرشقة الأولى كانت قصيرة.

حقّقت القذائف برينز يوجين الهدف. عَلَت صيحة: «سفينة العدو تحترق».

أمر ضابط المدفعيّة الأول. شنيدر، بتصحيح جديد للرماية. ثم صاح «أطلق». وهدرت المدافع العملاقة للمرة الخامسة خلال أربع دقائق.

صدمة الانتباه. فللمرة الثانية تختبئ هود وراء نوافير القذائف، انذهل شنيدر، لأنه لم يرَ إلا ست نوافير. فأين ذهبت الاثنتان الأخريان فصرخ، مشدداً على «الهاء» «إنه يغرق!»[٩].

فالقذيفتان اللتان لم تخلّفا نافورتي ماء، أصابتا هود، اخترقتا سطحها وغاصتا عميقاً إلى مخزن قذائف عيار ١٥ إنشاً. فارتفعت في السماء كرة بيضاء ضخمة إلى مسافة ٣٠٠ متر، وتبعها عمود لهب أصفر وغيمة سوداء، مثل انفجار بركاني. وتطايرت في السماء قطع من المدافع والصواري. وتطايرت أشهر بارجة في العالم مثل ندف عيد الميلاد[١٠].

«إنها تحترق لقد.انتهت هودا» صاح شنيدر. واتجه قوسها ومؤخّرتها إلى السماء قبل أن تغرق هود رمز كبرياء البحرية

الملكية، تحت الأمواج. ربما لم يستغرق الأمر كلّه أكثر من أربعين ثانية، لكنها أربعون ثانية لم تطلق خلالها أية قذيفة. دقيقة صمت حداداً على السفينة النبيلة.

«يا للشياطين المساكين»، تمتم شنيدر، لكن لم يكن لديه وقت لفكرة أخرى. إذ لا تزال هناك سفينة أخرى. «غير التجديف إلى اليسار».

فاستدارت المدافع الثمانية الضخمة نحو برينس أوف ويلز. وغدت هذه الآن، الهدف الوحيد لكلٍّ من بسمارك وبرينز يوجين. غير أن مدافعها قد وجدت بسمارك أخيراً، وأصابت رشقتها السادسة البارجة الألمانية. وفي الوقت نفسه أصيبت هي بقذيفة عيار ١٥ إنشاً، اخترقت البرج وقتلت الجميع باستثناء الكابتن. كانت قذائف بسمارك تهدر كل عشرين ثانية وبرينز يوجين كل عشر ثوانٍ. لقد استبسلت المدفعيّة البريطانية، هذا إذا أخذنا في الحسبان الفاصل بين رشقتها التاسعة والثالثة عشرة على بسمارك. إلا أن نبرينس أوف ويلز فقدت مدافعها بسبب أعطال ميكانيكية أخرست اثنين من مدافعها الخمسة. وأصيبت بأربع قذائف من عيار ١٥ إنشاً وثلاثة من عيار ٨ إنشات. وأصبح سطحها خرابة. وأصابت السفينة قذيفة تحت خطّ الماء فتسببت بتسرب ٤٠٠ طن من الماء إلى داخلها. وبعد اثنتي عشرة دقيقة وثماني عشرة قذيفة استسلمت برينس أوف ويلز وهربت. حصل ذلك في الساعة ٦,١٣، أي بعد ١٩ دقيقة فقط من دخول أكبر سفينتين بريطانيتين المعركة بكبرياء.

أسرعت السفن البريطانية لإنقاذ الأحياء من هود. فوجدت بقع زيت، قطع خشب وثلاثة رجال: ضابط الصف دونداس، النوتي تيلبورن وعامل الإشارة بريجس. قال قبطان المدمّرة: «هذا غير معقول، لا بدّ من وجود أكثر من ثلاثة أحياء. تابعوا البحث».

بحثوا في كلّ المكان لكنّهم لم يجدوا سوى سيدارة بحار. أما البقية: أدميرالان، تسعون ضابطاً وألف وخمسمئة بحار قوي فقد غرقوا إلى عمق آلاف القامات، حيث سيكون مثواهم إلى الأبد.

نُقِل الثلاثة الأحياء إلى المدّمرة إلكترا واستُجوبوا. فقال دونداس إنه كان يخرج من نافذة الجسر الأعلى عندما ضُرِبت السفينة. وقال بريجس أنه خرج من مقصورة البوصلة فرأى الأدميرال هولاند متشبثاً بسفينته الهالكة. وكان تيلبورن آخر الناجين. فقد التفّ هوائي الراديون حول جزمته فاستخدم سكيناً لقطعه وهو يغرق تحت الماء. ثم خرج إلى السطح ليجد السكون مخيماً على المشهد.

لقد انتهت معركة مضائق الدانمارك. وتابعت بسمارك وبرينز يوجين هديرهما نحن الجنوب، في الأطلسي المترامي الأطراف. وجرى نقاش بين الكابتن ليندمان والأدميرال فيما إذا يطاردان برنس أوف ويلز المعطوبة، ويقضون عليها قبل أن يعودوا إلى الوطن. لكن لوتجينز التزم بتوجيهاته وأصرّ على الإبحار إلى الجنوب - الشرقي. فأنقذ هذا القرار برينس أوف ويلز. أما المبرّر الثاني لقرار لوتجينز فهو أنّ بسمارك قد أصيبت بثلاث قذائف اثنان منها سطحية، لكن الثالثة خطيرة وأصابتها عند خط الماء، فاحترقت خزانات الوقود من غير أن تنفجر، ودمرت صمامات الامتصاص وتسبّبت بفقدان الرجل آلاف الأطنان من الوقود.

وستكون لهذه الإصابة الدور الأساسي في تحديد مصير بسمارك. وندم الأدميرال لوتجينز على عدم تزوّده بالوقود في بيرجن فجورد. فسطح سفينته يحتاج إلى إصلاح. وكان أمامه خياران فقط: العودة عبر مضائق الدانمارك، أو التوجه إلى المرافىء الفرنسيّة. فاختار الأخير. والمشكلة تكمن في مخزونه

من الوقود. فهو يحتاج الآن إلى آلاف الأطنان. سينفذ وقوده ما لم يخفف من سرعته.

أوجعت الصدمة بريطانيا. فكان وقع أخبار هود أعمق من وقع الكارثة في فرنسا، أو الهزيمة في جنوب إفريقيا. وتصدّر الصحف عنوان رئيسي: لم تعد بريطانيا سيّدة البحار. وأدرك تشرشل أنّ بسمارك قد غدت رمز هزيمة إنجلترا. فتلك السفينة شرّ لا بدّ من القضاء عليه، بصرف النظر عن الثمن، لاستعادة هيبة الأمة وثقتها. فأصدر تشرشل أمره المطلق «دمّروا بسمارك!».

انحنت كل الكتافيّات المذهّبة التي تستطيع البحرية الملكية استقطابها، فوق الخرائط في مركز الأميرالية. تحرّكوا الآن بسرعة كبيرة، تحت ضغط صدمتهم الأولية. ورغم أنهم لم يدركوا الأمر، فقد كانت هذه آخر مرّة تنجح بريطانيا، في تاريخها المشرق، أن تؤكّد قوتها التي جعلت منها سيّدة البحار. فاستعان تشرشل بأول سيد للبحر، الأدميرال دودلي بوند، لأنّه وافق أهواءه ولأنه عُرف بفضيلة المواظبة، إضافة إلى أنه لم يُسقط البتة من قائمة نيلسون: «فالأرقام وحدها تُسقط».

أبحرت البارجة ريفينج من هاليفاكس، ومن شرق نيوفاوندلاند انطلقت راميلي، ومن شمالي شرق آزورز أبحر الطرّادان لندن وادينبرا، من كلايد البارجة رودني ومدمّراتها؛ ولاحق الأدميرال ويك ـ والكر الألمان بطرّادته سوفولك ونورفولك، كذلك فعلت السفينة المعطوبة برينس أوف ويلز. كانت البارجتان كينج جورج V ريبولز، وحاملة الطائرات فيكتوريوس. إضافة إلى خمسة طرّادات ثقيلة، هي القوة الاعتراضية الأقرب، وتبعد ٣٦٠ ميلاً إلى الجنوب. وبناءً على المعلومات المعطاة من سوفولك عرف توفي أنه سيقابل بسمارك صباح اليوم التالي... ما لم تسرع هذه

الأخيرة. والألمان عموماً أسرع من أيٍّ من وحداته الأكثر حداثة. فهناك طريقة واحدة لإيقاف بسمارك: إرسال طائرات توربيدية من فيكتوريوس.

لم يكن توفي يعرف بمشكلة بسمارك التي اضطرتها إلى إنقاص سرعتها وكان لوتجينز قد صمّم على أن يسبقه الطرّاد المرافق، إلى الأطلسي. فأبرق إليها كلمة السر، الساخرة، «هود».

عندما بلغ برينكام، قبطان برينز يوجي، الجسر صرح جهاز استقباله بالأحرف «هـ.و.د». فانطلق بأقصى سرعته. واستدارت بسمارك في الوقت نفسه نحو مطارداتها. «ها هو أخونا الأكبر» قال جاسبر، ضابط المدفعيّة. وكان آخر ما شاهده من البارجة الألمانية الضخمة، وميضاً برتقالياً ورعد مدافعها الرئيسية. وأشار لوتجينز إلى مركز قيادة المجموعة الغربية: «من المستحيل أن تهرب من العدو بسبب الرادار. سأنطلق مباشرة إلى بريست لأتزوّد بالوقود».

تمنّى الكابتن بوفيل، قائد حاملة الطائرات فيكتوريوس أن يختصر المسافة الفاصلة عن بسمارك إلى ١٠٠ ميل بحلول الساعة ٢١، لكن المسافة ازدادت اتساعاً. فلا بدّ أن تنفّذ الهجوم الطائرات التوربيدية سووردفيش. وأطلق على هذا النوع من الأسلحة اسم «سترينج باج (الحقيبة الخيطية) وذلك بسبب قدم طرازها، سلك البهلوان المختال، وتبدو كأنها من بقايا السيرك الطائر للبارون فون ريكتوفين. فهي تطوف وتهاجم بسرعة ٩٥ ميلاً/ ساعة. وكل واحدة منها فيها طاقم ثلاثي ـ الربان، المراقب، ومدفعي ـ مزوّدة بصاروخ من عيار ١٨ إنشاً متموضعاً تحت بطنها. كانت الطائرات جاثمة، كالإوز المعلول، على مدرج العاملة. وبحلول الساعة ٢٢ أقلعت جميعها.

كان بعض من طاقم بسمارك يستريحون على ظهرها. ومن

الطبيعي أن يشعروا، الآن، بالضجر بعد فرحتهم بهود. حتى إنهم لم يعودوا يتحدّثون عنها. بل إنهم افتقدوا إلى طيور النورس التي كانت تأتيهم فتأكل ما يرمونه لها، وتحطّ أحياناً على سبطانات المدافع. وبينما كان البافاري ريدل يستمع إلى رفيقه من هامبورغ عن المتعة التي وجداها في البحر، جلس الشاب الريفي يحدق إلى المحيط الفسيح، مستمتعاً بالهدوء الذي يسبق العاصفة.

غادر زورق خفر السواحل الأميركي مودوك من بوسطن، في ١٢ أيار، للبحث عن أحياء ناجين من ١٢٦ X.H[١١] كان الأميركان قد سمعوا صباح ذلك اليوم عن غرق هود. ومضت أيام على طوافهم الآن في المحيط من غير أن يروا شيئاً، لكن الوضع اختلف فجأة إذ رأى النوتي القدير نيويل، عبر منظاره، بسمارك الضخمة تتجه بسرعة نحو الجنوب. فأسرع طاقم السفينة إلى ظهرها كي يروا بأم أعينهم. بعدئذٍ انقشعت غيوم السماء، ورأوا لأول مرّة في حياتهم ما يبدو طائرات مجنونة مربوطة بحبال على دواليب. نوع من البدعة ربما استخدمت قبل نصف قرن مضى. لكنها كانت تتجه مباشرة إلى مجال رماية المدفعيّة المضادة للطائرات على متن بسمارك.

٢٤ أيار، الساعة ٢٣,٤٥ شاهد طاقم بسمارك، أيضاً، تلك الطائرات تتّجه نحوهم، وقد فتحت خمسون مدفعاً. وحالما شق أول توربيد الماء، متجهاً نحو البارجة، أمر البرج باستدارة سريعة. فضلّت التوربيدات طريقها، ما عدا واحد أصاب السفينة في وسطها بدون أن يتسبّب بضرر كبير. فقد اصطدم بالدرع الجانبيّ المصنوع من الفولاذ المقسّى، وبالكاد خدش طلاءه، رغم أنه تسبب بمقتل أحد أفراد الطاقم. لم تكن الإصابة مهمة، لكن القلق الحقيقي كان من غرفة المرجل الثانية التي امتلأت الآن بالماء بالإضافة إلى

الخزان الأمامي الذي يتسبّب دوران الباخرة الحاد بملئه بمزيد من الماء. فلم تستطع أن تقطع أكثر من عشرين عقدة في الساعة. وكان لوتجينز يريد أن ينجز أمرين في آنٍ معاً: يتّجه مباشرة إلى فرنسا، ويتخلّص من التوربيدات التي تلاحقه. وفي هذا الوقت أبلغته المجموعة الغربية أنّ القوة البريطانية H قد غادرت جيبرالتار. وهذا يعيد هجوم مزيد من التوربيدات من تلك الطائرات القديمة الطراز(١٢). فدرس لوتجينز الخريطة من جديد واكتشف أن بوسعه التخلّص بسهولة من هذا الخطر الجديد. فاجتمع إلى القبطان والمهندسين الذين أجمعوا: «نزيد السرعة الآن، وسينفذ الوقود قبيل وصولنا إلى فرنسا».

* * *

اختار لوتجينز حلاً وسطاً. أمر بزيادة السرعة بفترة. فتخلّصت من مطارديها وخرجت حرّة إلى الأطلسي، بينما حشد البريطانيون خلفها كل سفينة قادرة على المطاردة. وإيجادها في الأطلسي الفسيح أشبه بالبحث عن إبرة في كومه قش. غابت عن الأنظار ٣٢ ساعة، بعدئذٍ استطاع شاب ريفي من هيغنسفيل، ميزوري، أن يجدها من مركبه السريع كاتالينا. وعدت المسألة بالنسبة إلى الأميرالية البريطانية مسألة حساب وساعات. فانكبوا فوق الخرائط. لقد شوهدت بسمارك على بعد ٧٠٠ ميلاً من الشاطىء الفرنسيّ الآمن، و٣٠٠ ميلاً من الغطاء الجوي الألماني لوفتواف. خلص البريطانيون إلى أن الإبحار بسرعة ٣٠ ميلاً في الساعة، السرّعة المعهودة للطرّادات، تعني لهم عشر ساعات من الإبحار بدون أن يكونوا في مرمى القاذفات الألمانية. غير أن الحساب لا يجدي دائماً. إذ لم تكن الأدميرالية البريطانيّة تعرف بمشكلة الوقود الخطيرة، في بسمارك، التي أجبرت القبطان أن يخفض السرعة إلى النصف.

٢٦ أيار، الساعة ١٦,٢٥، تلقّى لوتجينز برقية: «لك أجمل تمنياتي في عيد ميلادك ـ أدولف هتلر». في الساعة ١٧,٢٥ نسي لوتجينز عيد ميلاده وانشغل بمشكلة نقص الوقود، فأبرق: «مشكلة الوقود ملحّة ـ متى أتوقع أن تزوّدوني بالوقود؟» في الساعة ١٨ ساءت حالة الجو وسرعان ما حلّ المناخ الأطلسي العاصف، المعهود، تحوَّل المحيط إلى مِرْجل؛ وعلا الزبد فوق قوس البارجة وكنست الأمواج العاتية سطحها. وفي الساعة ٢١ جاءت الطائرات.

لم يَعد يستطيع الأدميرال توفي على متن كينج جورج V أن يحتمل هذه المطاردة المجنونة، فخفض السرعة إلى دون ٢٢ عقدة/ الساعة، كي لا ينفذ الوقود. وخسر الأسطول الأمريكي السباق مع عدّوه الألماني. وفي الساعة ١٨,٢١ أبرق توفي إلى الأدميرالية: ما لم يتم إبطاء بسمارك قبل منتصف الليل، ستضطر وحدتاه كينج جورج V ورودني أن تعودا إلى القاعدة[١٣]. كان أمله الأخير أن قيام القوات H بهجوم اعتراضي، وضربة جويّة من آراك رويال ثم أصدر أمره: بصرف النظر عن الخسائر في الأرواح والطيران، يجب أن تنطلق كل التوربيدات مع الرياح القوية العاصفة. وبدوره الأدميرال سومرفيل المسؤول عن مهمات القوات H، أمر الآرك رويال أن ترسل الطائرات التوربيدية. انطلقت الدفعة الأولى من التوربيدات في درجة رؤية تقارب الصفر، فكادت تغرق طرّادها HMS شيفيلد قبل أن يدرك الملاحون خطأهم.

انطلقت آخر دفعة من التوربيدات الخمسة عشر مخلّفة وراءها ريحاً كنست مهبط السفينة. أدرك ليون سيمدر وتيم كوود ورجالهم الأربعة عشر أن مصير بسمارك، ومعها مصير إنجلترا، يتوقّف على مهارتهم في الطيران. وكانت ظروف الطيران سيّئة جداً لدرجة أنهم

لم يستطيعوا رؤية غطاء محرّكاتهم. طاروا عبر ظلمة مترامية، يشبّون عبر جبهة هوائية تلامس سطح البحر ممّا اضطر الملاحين أن يعتمدوا كلياً على شيفيلد لترشدهم إلى هدفهم. أخيراً هبطت سرعة الطيران. مرّت بهم الرياح أسرع فأسرع عندما هدرت محرّكاتهم. وطيّرت الرياح خيوط الربط عالياً، ومقاييس الارتفاع غزلت بجنون بعكس اتجاه عقارب الساعة في انخفاض يجفّف الدم في العروق. أملوا أن يكونوا في طريقهم إلى غايتهم، لكنهم فوجئوا بما شاهدوه عندما خرجوا من الغيوم، على ارتفاع ٧٠٠ قدم. كانت بسمارك متجهة نحوهم مباشرة. والساعة حينئذٍ ٢٠,٥٣.

جاهد الملاحون كي تنتظم صفوفهم باتجاه ميمنة السفينة. هوت أربع طائرات إلى مستوى ذرى الأمواج. ثم عادوت طيرانها، ثانية باتجاه قوس الغولة، مباشرة إلى حاجز المضادات الجويّة، مالئة الليل بنثارات سريعة الحركة. تذكّروا التعليمات: الطيران بسرعة تسعين ميلاً في الساعة، إطلاق التوربيد على ارتفاع تسعين قدماً وعلى بعد ٩٠٠ ياردة من الهدف. هذا ممكن ببساطة في مجال عادي، لكن ليس في جوّ الأطلسي وهم يطيرون باتجاه هولة تطلق النار. شاهدوا مسار القذائف مستقيماً في البدء ثم اتخذ مساراً منحنياً كثيراً. فتوترت أعصابهم لدرجة أنهم سمعوا ذلك الصوت الخافت الذي يلي انفجار قنابل الأك ـ أك. ودفعت مراوح الرفاصات رذاذاً إلى مقصوراتهم المفتوحة فأعاقهم عن الرؤية الواضحة. بالتالي، لم تحقّق الرشقة الأولى ولا الثانية أية إصابات. بعدئذٍ جاء دور طائرتي الملازم أول جودفري والملازم ثانيكينيث باتيسون، الذي سأل: «أين الموقع؟».

أجابه المهذّف بصوت غير متعجّل رغم اهتزاز الطائرة العنيف: «واحد ـ خمسة ـ صفر ـ صفر». قرأ المسافة: «واحد ـ

ثلاثة. . . » لقد هاجما ميمنة البارجة، وأطلقا التوربيدين من مسافة ١٠٠٠ ياردة، معتقدين أنّهما حققا الإصابة، لكن ذلك غير مؤكّد حيث أن الرامي شاهد وهج التوربيد. عندما دخلا الغيم. وهاجمت الطائرة، الأخيرة بقيادة توفي بيل على ارتفاع ٥٠٠ قدم فوق الأمواج. ثم أطلق توربيده من مسافة ٨٠٠ ياردة، وحبس أنفاسه حتى صاح مراقبه أيرمان بيلموت: «لقد أصابها!».

رأى هيرزوغ من وراء مدفعه المضاد للطائرات، عيار ٣٧مم، طائرتين تتّجهان صوبه مباشرة[١٤]. كانتا منخفضتين كثيراً لدرجة أن دواليبهم تلامسان قمم الأمواج، ويصعب على مدفعه أن يطلق عليهما. رغم أن الأمر كلّه حدث في ثوانٍ، فقد فكر لبرهة في شجاعة مناورة هذين الطيارين. رآهما، في هاتين الطائرتين السخيفتين. بعين مغايرة لتلك التي روّجت له الدعاية الألمانية؛ لم يرَ فيهما جبانين غير متمرّسين. اتجهت الطائرة الأولى إلى منتصف السفينة مباشرة، بينما اتجهت الثانية إلى مؤخّرتها. ثم شاهد توربيداهما يطشان الماء من حولهما وهما يتّجهان نحوه مباشرة. بعدئذٍ انسدّ مدى الرؤية أمامه بجدار ماء ارتفع من خلفية السفينة التي ارتفعت وكأنها ضُربت بمطرقة هائلة، ورمته على رفاقه المدفعيّين. وشاهد هيرزوغ. أثناء هبوط نافورة الماء. طائرة تتجه نحو مؤخرة السفينة.

بدأت السفينة تدور. لقد انتهى الهجوم وصمتت المدافع المضادة للطائرات. لكن لماذا لا تزال السفينة تدور؟ راح النوتي إيخ في مقصورة الإرشاد والقيادة يتطلّع بارتباك إلى مؤشراته، فهناك خطأ ما، إذ أنّ بسمارك تدور في مكانها.

تحدّث هيرمان إلى رفيقه في السلاح بوهنيل، عندما أصيبت السفينة، فهما أول من عرف بالأمر. بعدئذٍ أبرق هيرمان إلى

رئيسه، بارهو: «الدفة اليمنى لا تستجيب، والدفة اليسرى علقت عند الدرجة ١٥» وانتهت محاولة باربو في تغيير الفواصل إلى ومض أزرق طرحه أرضاً. وسرعان ما تعطلّت الأجهزة الأخرى. ثم أذيعت رسالة عامة: «لقد تعطّلت دفة السفينة. على الغطّاسين التوجه إلى مؤخّرة السفينة».

انفجر أحد التوربيدين اللذين أطلقا على بسمارك على حزام الحماية الخارجيّ[١٥] فلم يتسبّب بأيّ أذى، بينما أصاب الثاني الذراع الواصل بين السفينة والدفة، المكان الوحيد السريع العطب في هذه السفينة الضخمة. وصادف وجود الكابتن جوناك في مقصورة العنفة، أثناء الإصابة فسقط أرضاً. وعندما خرج من المقصورة لاحظ أن التوربيد قد فتح ثغرة في بدن السفينة، والماء يتدفّق إلى مقصورة التحكم بالدفة. وهذا ما جعل إصلاحها مستحيلاً. «اللعنة». شتم وهو يتناول المكيروفون ليبث رسالته إلى منصّة ربان السفينة. «كلّ الاحتمالات متوقعة وكل شيء يمكن إصلاحه ما عدا وصلة الدفة!».

رأى المدفعي هورزوغ، من موقعه، الكابتن ليندمان ومُهَنْدِسَيْه يدرسون لمخططات ويتفحصون الأضرار. أخيراً، لوح ليندمان بذراعه وغادرهما. وفشلت كلّ الجهود في شفط الماء وإصلاح الدفة. وهنا أيضاً ممنوع استخدام قنبلة انفجارية بسبب قرب غرفة القيادة من رفاصات السفينة وبالتالي قد تسبب خلل في توازنها. وافق لوتجينز على القرار[١٦].

أرسلت برقيات متلاحقة تُعلم القيادة الألمانية العليا بما جرى.

«٢١,٥، كوادرات ب.ي./٦١٩٢، إصابة في المؤخرة».

«٢١,١٥ توربيد يصيب وسط السفينة».

اضطر أخيراً الأدميرال لوتجينز أن يبعث بالرسالة التالية:

«٢٠,٤٠ فقدت السفينة قدرتها على المناورة سنقاتل حتى آخر قذيفة. يعيش الفوهرر».

وكانت رسالة هتلر آخر ما تلقّته بسمارك: «١,٣٥ إلى ضباط وطاقم بسمارك، ألمانيا كلها معكم. ابذلوا أقصى جهدكم. وسيكون إحساسكم بالواجب رمزاً لنضال شعبنا التوقيع: أدولف هتلر».

مهما حاولوا وفعلوا فقد اتجه كبرياء البحرية الألمانية، مكرهاً، إلى الشمال. وكأن قوة لا تقهر دفعته، وجّهته مباشرة إلى القوة المدمّرة في البحرية الملكية[١٧].

تلقى الأدميرال توفي برقية يصعب فهمها: «العدد ينحرف ٣٤٠°» هذا يعني أنّ بسمارك قد ابتعدت عن مرافئ فرنسا، وتتجه الآن نحوه. وهذا انتحار صرف. فأبرق طالباً: «تأكّد من صحة التقرير. أكرر، تأكّد من صحة التقرير». لكن الرد لم يتغيّر: «٣٤٠ درجة». شمالاً... الألمان يتّجهون شمالاً؟ ماذا ينوي لوتجينز؟ ولم يستطع أحد أن يتذكّر لاحقاً مَنْ عرف الأمر في البدء ـ التوربيد، الانفجار. نعم هذا هو الأمر! لقد فقد الألمان السيطرة على السفينة...

أمضى هتلر ليلته في مقر إقامته في بيرغود كي يبقى مطّلعاً على الوضع. واتصل الأدميرال الأعلى رايدر مع جورينج ليسأل عن القاذفات الجوية. فجاءه الرد: إن السفن البريطانية بعيدة عن مرمى قاذفاته. ثم أدلى بتصريح مقتضب: «لقد أصيبت بسمارك بتوربيد، في مؤخرتها، وهي تدخل خليج بسكاي، لقد أعلن عن المصير المحتوم للبارجة الضخمة، خصوصاً أنه يعرف أن لا إمكانية لمدِّ يد العون لها. إضافة إلى أنه جعل الأمة الألمانية تسهر الليل كله لتتابع تطورات هذا الحدث الدراماتيكي[١٨].

كان على السفينة وطاقمها أن يجاهدا للبقاء وسط أمطار

وعواصف فظيعة. إضافة إلى ذلك، يجب أن يحترس الطاقم من هجمات توربيدية أخرى. فلا البارجة ولا المدمّرة أصيبتا خلال هذه الهجمات. وقبل الفجر قام مولهيم - ريخبيرج بزيارة إلى برج السفينة، فرأى التعب على وجه القبطان الذي لم يضطر للتعبير عنه بطريقة أخرى، ولاحظ مولهيم اللامبالاة في سلوك بقية طاقم برج القيادة. ولم يكن الوضع مختلفاً في الأسفل. وعبّر عامل ميكانيكي عمّا يدور في أذهان الجميع حين قال بصوت جهور: «إننا سائرون إلى الجحيم». فانبرى له أحد أعضاء الحزب المتعصّبين، وشديد الحماس لعبقرية هتلر: «سأرفع بك تقريراً إلى الحزب. لا نريد سماع هذا الهراء هنا، فهناك دائماً مخرج ما».

ضحك البحار قائلاً: «نعم، حتى الخنازير يمكن أن تطير». في هذه اللحظة وصلت أوامر الكابتن ليندمان: «أوقفوا كل المحرّكات».

خشي الملازم أول - قبطان جوناك أن يؤدي هكذا إجراء إلى زيادة تسخين العنفات، فاتصل بالبرج، أجابه القبطان ليندمان، بصوت مرهق: «افعل ما تراه مناسباً».

قُرعت أجراس الإنذار في الساعة ٨ سد الضباط والطاقم آذانهم بالقطن. وفي الساعة ٨,١٥ ظهرت الطرّادة نورفولك عند خط الأفق، ومن ورائها البارجة رودني كينج جورج ٧. في الساعة ٨,٤٧ دوّت مدافع البارجة البريطانية. وحجبَها الدخان الأسود المنبعث من فوهات مدافع رودني، عيار ٤٠٠مم، أما بسمارك فاستدارت إلى اليمين كي تستطيع استخدام مدافعها الثمانية، ثم بدأت تطلق النار.

أعلن ضابط من برج رودني: «تنطلق الطائرات خلال ٥٥ ثانية». و«إخرس» قال الكابتن، غير راغبٍ في أن يعرف متى ستكون نهايته. ملأ الجوَّ أنين مرعب تبعته سلسلة انفجارات تصمّ

الأذان، تلتها نوافير ماء ضخمة. لقد نجحت ثالث صليات بسمارك في إصابة رودني.

لكن لم يستطع الألمان الصمود أمام هجوم من ثلاث اتجاهات. إذ بدأت القذائف الأولى تدمّر في السفينة معطّلة موقع المدافع الأمامية. وفي الساعة ٩,٢٠ أطلقت رودني قذيفة، زنة طن واحد، أصابت أبراج المدافع الأمامية لأنتون وبرونو وقتلت كل من في داخلها. تقدّمت من الخلف الطرّادة الثقيلة دوسيشتاير، في الساعة ٩,٤٠ وانضمت إلى رفيقاتها. ولم تعد بسمارك، الآن، تطلق إلاّ على كينج جورج ٧، من غير أن تحقّق إصابات جديدة. لكن وبعد بضع دقائق أصابت قذيفة جديدة ثالث أبراجها دوراي. لم يبق إلا تورم قيصر يطلق النار. وكان المدفعيّ ريدل يشرف على عمليات التلقيم عندما حدث استعصاء في سبطانة المدفع. فصمتت الآن كل المدافع الكبيرة. طلب قائد المدفع من ريدل أن يستطلع الأمر من الخارج. فتح ريدل الباب الفولاذي فهاله منظر سطح السفينة الذي يغصّ بالموتى والمحتضرين. «أغلق الباب» قال له الملازم أول وهو يهزّ رأسه حزناً. الصمت داخل البرج أشبه بصمت القبور. خاطب الملازم الرجال الأربعين، كلّهم جرخى ومصدومين، «أيها الرفاق، لقد أحببنا الحياة كثيراً، لذلك دعونا نمت ميتة الشجعان».

جريح واحد فقط قفز واقفاً وأدّى التحية الهتلرية. غير أنّ مبالغته تلك بدت مثيرة للسخرية لدى الجميع. خرجوا الواحد تلو الآخر. صمتت كل مدافع البارجة. وانبعث دخان كثيف من ثغرات القذائف في بدن السفينة. إخترقت قذيفة، زنة ١٠٠٠كغ، ظهر السفينة وبلغت حجرة الطعام التي كانت تستخدم كغرفة طوارىء للمساعدة الطبية، فقتلت مئة جريح إضافة إلى كلّ الطاقم الطبي فيها.

أمر القائد البريطانيُّ بوقف إطلاق النار، في الساعة ١٠,١٥،

لأنّ بسمارك لن تغرق رغم كلّ إصاباتها البالغة[١٩]. وكان الميكانيكي بلوم في غرف مراجل السفينة عندما صدر أمر: «حضّروا كل قنابل التفجير[٢٠]، وليصعد الجميع إلى سطح السفينة». فتدافعوا، متعثّرين، في الممرات المليئة برائحة التفسُّخ، وصعدوا السلالم. «تحرّكوا تحرّكوا سننسف السفينة» وسار بلوم فوق أكداس الموتى حتى وصل الباب المفضي إلى سطح السفينة. فرأى مشهداً جعله يتقيّأ. كانت الدماء على سبطانات المدافع مثل طلاء التمويه. كانت إحدى المداخن مبتورة من مكانها، المدافع الضخمة مصوّبة إلى السماء، وقد انفجرت إحدى سبطاناتها. كل الأبراج قد نسفت من قاعدتها. ومن فوهات الغاز تنبعث رائحة الذخيرة المحترقة. وغدت درب بلوم إلى مؤخّرة السفينة مكابدة في درب وعرة. وصل أخيراً إلى بضعة ناجين تجمّعوا حول الكابتن جوناك الذي طلب إليهم الاحتماء وراء برج المدفع.

«سنؤدّي التحية الأخيرة لوطننا العظيم قبل أن نغادر السفينة. اجتمعوا حولي.. أعدكم أن نلتقي ثانية في الجنة». ثم قفزوا في الماء. وبعد بضع لحظات سمعوا قعقعة داخل البارجة المحتضرة، ثم غرقت.

المدمّرة هـ.م.س. مادري أنقذت بلوم. وسبح ريدل و٤٠٠ آخرون، بقوا أحياء حتى الساعة الأخيرة، إلى الطرّاد هـ.م.س. دوستيشاير التي التقطت ٨٥ بحاراً ألمانياً قبل أن تسرع إلى الهروب، بغتة. (اعتقد مراقب أنه رأى غواصة ألمانية. لكن في ذلك اليوم لم تتواجد غواصات ألمانية ولا على بعد ٣٠٠ ميل من ذلك المشهد). وهدر الطرّاد بجانب مئات الأشخاص الذين لا يزالون يجاهدون في بحر من النفط العائم، وتشبثوا بأصابعهم بفولاذها وهي تمرّ بهم. راقب كثير من البحارة الإنجليز ذلك

المشهد، بأسى، وهم يصيحون لا بدّ أنهم الألمان ـ لكنهم، أيضاً، أعضاء في جمعية البحّارة العالمية.

وماتَ مَنْ لم يُلتقطوا من البحر، في مياه الأطلسي الباردة.

التقطت الغواصة الألمانية U74 ثلاثة بحارة عائمين على لوح خشبي، كان هيرزوغ أحدهم[٢١]. وأنقذت السفينة الألمانية ساخسنوالد اثنين آخرين. هؤلاء الخمسة، هم وحدهم الشهود على تلك المأساة، عادوا إلى ألمانيا قبل نهاية الحرب. قد حظّر عليهم الفوهرر أن يقصّوا ما جرى معهم.

ماذا لو...

ماذا لو ـ تزوّد الأدميرال لوتجينز بالوقود في النرويج؟

كان نجا من البحرية الملكيّة البريطانيّة.

ماذا لو ـ تضرّرت كاتالينا Z جرّاء إصابتها ثم غرقت وألقي القبض على طاقمها؟

ماذا كانت ردة فعل هتلر، والولايات المتّحدة الأميركيّة المحايدة، عندئذٍ؟ بعد أن ينكشف أنّ الطيار كان أميركياً؟

نظراً لافتضاح أمر المشاركة الفعليّة لأحد أفراد القوات المسلّحة لدولة محايدة، الولايات المتّحدة الأميركيّة، ونظراً لرعونة هتلر، ربّما كان سيعلن الحرب عليها. وقد وقعت هذه الحادثة قبل ثلاثة أسابيع من غزوه للاتحاد السوفياتي. إنّ خطوة كتلك كانت ستغيّر خططه جذرياً.

ماذا لو ـ استدارت بسمارك أسرع قليلاً، أو لو أن التوربيد أبطأ قليلاً في إطلاق قذيفته؟ إن الفارق في تحقيق الإصابة أو عدم تحقيقها لم يتعدَّ المتر الواحد فقط، عندئذٍ ما كانت القذيفة لتصيب مؤخّرة الباخرة.

الحقائق:

كان نقص الوقود سبباً رئيساً في دمار بسمارك. إذ لم تستطع البارجة، في حالة العزّ تلك، أن تنطلق بكامل سرعتها نحو الشواطىء الفرنسيّة الآمنة. ثم إنّ فشل لوتجينز في التزوّد بالوقود في النرويج تسبّب لألمانيا بفقد بارجة رئيسة في الحرب.

بالنسبة إلى بريطانيا كان في الأمر شيء من النصر. وبالنسبة إلى هتلر هي هزيمة أكيدة، لكن لا شيء مهمّ، فإنّ استراتيجيّته البحرية ـ كي يجبر إنجلترا على الاستسلام ـ اعتمدت على الغواصات بشكل رئيسيٍّ. وكان محقّاً، نوعاً ما، فالبارجة غدت رمزاً من رموز الماضي[٢٢].

كانت هود الضحيّة الأولى. وعاشت برينس أوف ويلز وريبولز سبعة أشهر أخرى، وتعرّضت تينك السفينتين لهجوم مدمّر من صاروخين يابانيين، جو أرض، بعد ثلاثة أيام من هجومهم (اليابانيين)على بيرل هاربور. وبذلك أسدل الستار على المفهوم النيلسوني حول القوة البحريّة، وإعلاناً عن عصر جديد في الحرب البحرية، حيث تخوض السفن الحرب من غير أن ترى إحداها الأخرى أو تَحُطّمها.

وشهد هذا العصر بدايته في أجواء منطقة قرب جزر البلاستيك تدعى ميدواي.

كان العامل الحاسم في دمار بسمارك إصابة نسبة تحققها تبلغ ٠١٪ (واحداً بالألف). إنّ لوياثان البحر، مثل أخيل وخطّ سيغفريد[*]، له نقطة ضعفه أيضاً.

(*) سيغفريد: خطّ دفاعي مواجه لخط ماجينو الفرنسيّ.

(١) إن المعلومات حول عملية Z/٢٠٩/ مأخوذة من مقالة كتبها جودفري وين في صندي إكسبرس، (حزيران ١٩٤١. ومنعت الرقابة وين من نشر مقالته عن «الطيار اليانكي» لأنّ أميركا لم تكن قد اشتركت فعلياً في الحرب، ونشر هذا الخبر عن مشاركة طيّار يانكي في قيادة طائرة بريطانية يعني خرقاً فاضحاً للموقف الحيّادي الذي تلتزمه أميركا.

وقد كشف عن الشخصية الحقيقية للطيار أنسيجين ليونارد سميث الذي ورد اسمه في مذكرة رفعت إلى مساعد قائد أركان الملاحة البريطانية في ٢٩ تموز ١٩٤١، المؤلّف لودفيك كينيدي في ١٩٧٣، بعد أن وجد أنسيجن وأجرى معه مقابلة، أكّد له فيها الطيار المذكور صحة كل الأحداث السابقة.

(٢) أشاعه لودفيك كينيدي. نقلاً عن تقرير رفعه سميث إلى رئيس استخبارات العمليات البحرية الأميركية.

(٣) جدينيا حالياً، مدينة في بولندا.

(٤) يقتضي النظام البحري البريطاني ملء الوقود حالما تصل السفينة الرئيسة إلى مرفأ التسهيلات، لم يأخذه لوتجينز في الحسبان؛ وتبيّن أنذاك خلل خطير في قدرة بسمارك على تأدية مهماتها القتالية، وقراره هذا لم يترك هامشاً للخطأ أثناء المعركة القادمة في الأطلنطي.

(٥) ١٥ إنشاً تساوي ٣٨٠مم.

(٦) كلاهما زوُّد برادار بريطاني، وإن يكن محدود المدى. فقد ثبتت فاعليّة الرادار البريطاني ٩سم أكثر من الألماني ٥٠سم، منذ بداية الحرب.

(٧) ١٧ ميل = ٢٧,٢كم، وهذا يعادل المسافة بين باريس ومارن.

(٨) البرينس أوجين وليس بسمارك.

(٩) نقلاً عن تقرير الملازم أول، المدفعي، مولينهايم ريتشبيرغ.

(١٠) لاحظ ذلك الأمر بسمارك وأمير ويلز.

(١١) لن تدخل أميركا الحرب إلا بعد سبعة أشهر، لكنّها أوضحت موقفها مسبقاً.

(١٢) لقد أغرقت التقارير الألمانية الإخبارية آرك رويال ثلاث مرات.

(١٣) أرسل تشرشل برقية مضادة «.. طاردوا بسمارك حتى شواطىء فرنسا، حتى لو اضطركم ذلك إلى قطر كينج جورج V في طريق العودة».

(١٤) لا بدّ أنهما طائرتا الملازم أول جود فري رفوسيت، والملازم ثاني كينيث باتيسون.

(١٥) لا بدّ أنها كانت ضربة توني بيلي، حيث أنها جاءت بعد وصف هيرتزوغ للأمر.

(١٦) كتب نائب الأدميرال أيبرهارد فيكولد، حول هذا القرار، «قدر قادة الصف الأول ـ ومعظم قادة البحرية ـ أنهم يتخذون قراراتهم الارتجاليه في برج القيادة بدون أية معرفة بوضع العدو، ولا تناقش صحته من عدمها إلا لاحقاً.

(١٧) معظم التفصيلات أُخذت من مقابلات مع الناجين، أو من مذكّراتهم.

(١٨) لقد حظيت دراما بسمارك بأكبر تغطية إذاعية في الحرب العالمية.

(١٩) أبلغ هتلر عن مصير بسمارك عن طريق وكالة رويتر في الساعة (١٣).

(٢٠) جرى جدال طويل حول مَنْ أغرق بسمارك. البحرية البريطانية أم قنابل الألمان المتفجّرة.

(٢١) المضحك في الأمر أنهم قدّموا إلى محكمة عسكرية بتهمة التخاذل أمام العدو. لكنهم برِّئوا في النهاية.

(٢٢) حتى إنّ شقيقة بسمارك لم تقم بأية عملية حربية حقيقية، فقد أغرقها صاروخ بريطاني جويجر، في النرويج.

الفصل الرابع عشر

أُحجية سورغ موسكو، ٦ ديسمبر ١٩٤١

لا بدّ من التذكير بأنّ أية محاولة لإعادة كتابة التاريخ في الاتحاد السوفياتي، وإن يكن التاريخ القديم، تُعتبر جريمة كبرى.

الكولونيل أ.ك. توكاييف، خيانة المثل، ١٩٥٤

في مطلع ديسمبر ١٩٤١ وصلت من طوكيو رسالة مشفّرة إلى مركز قيادة العمليّات في الاتحاد السوفياتي، بقيادة الكولونيل جنرال كوزينتزوف، وهذا على اتصال مباشر مع ستالين، «سيهاجم الألمان روسيا في ٢٠ حزيران. فقد حشدوا ١٧٠ـ ١٩٠ فرقة مؤلّلة ومدرّعة على حدودهم الشرقيّة. سيشمل الهجوم الجبهة كلّها، وستتوجّه قوتّهم الرئيسة إلى موسكو ولينينغراد أولاً..».

تلقّت الاستخبارات السوفياتية هذه الرسالة كدشٍّ بارد. هذا غير صحيح. فقد وقّع هتلر مع ستالين معاهدة عدم اعتداء في العام الماضي. فأرسلوا رداً فظاً إلى عميلهم في اليابان: «إننا نشك في صحة رسالتك».

هاجم الألمان الاتحاد السوفياتي في ٢٢ حزيران ١٩٤١[١].

كتب كارل فون كلوزويتز في ١٨٣٢ بعد هزيمة نابليون في

موسكو: «إنّ روسيا بلد لا يمكن إخضاعه إلا من خلال ضعفه، ومن خلال الشقاق الداخلي». وقد قرأ هتلر كلوزوتيز. وكان يعتبر ستالين ذكياً، حريصاً، مبتزاً بارد الأعصاب، لكنه أخطأ في الحساب عندما أَمل أن ينتفض الشعب الروسي ضد ديكتاتوره الأحمر.

هاجم الألمان روسيا في ٢٢ حزيران ١٩٤١ وبحلول سبتمبر نجح جيش جيرد فون روندستيد الجنوبي في أسر مجموعة جيوش المارشال سيمون بودني. أخذ الألمان ٣ ملايين سجين في واحدة من أعظم انتصارات هتلر، لكنّها من أفدح أخطائه، أيضاً[٢].

فبينما انتقل سلفه نابليون مباشرة إلى موسكو، بعد أن حارب طيلة سبتمبر، في بورودينو، بدّد هتلر الوقت هباءً حتى أنه أخطأ في تقييم القوة السياسيّة لستالين. وقد أكّدت فظاعات فرق الموت النازية في الأقاليم المحتلّة، للنظام الستاليني، الذي يتأرجح على شفا الهاوية، أنّ الأوكرانيين لم ينتفضوا ضده.

كتب الجنرال هالدر: «... لقد تبيّن لنا بوضوح أننا أخطأنا في تقييم قوّة الروس... ولعب الزمن لصالحهم، خصوصاً لقربهم من مصادر إمداداتهم، بينما توغّلنا نحن بعيداً عن مصادرنا».

عندما أمر هتلر جنرالاته بشنّ هجومهم النهائي على موسكو، كان الشتاء على الأبواب، ومعه سيدخل عامل حاسم إلى ساحة المعركة. لقد أدرك اليابانيّون دور هذا العامل أيضاً. ففي أواخر أكتوبر، عندما كانت مدرّعات جودريان على مسافة ٤٠كم عن موسكو، التي لم يكن لديها أيّة خطوط دفاعية، حدث أمران. الأوّل، إنّ الثلوج التي هطلت مبكرة حوّلت الطرقات إلى بُرك وحل لا تصلح لتسير فيها عرباتهم ذات الدواليب المطاطية. ثم وصلت برقية من طوكيو.

توغلت الجيوش الألمانية عميقاً داخل حدود الاتحاد السوفياتي بقيادة الفيلد مارشال فون بروختيش، واستطاعت المجموعة الشماليّة بقيادة فون ليب، في عزل لينينغراد، وفي الجنوب نجحت مجموعة فون رندستيد في السيطرة على كييف وأوكرانيا؛ وتقدّم الجنرال فون على رأس مجموعته، نحو موسكو. كان النظام البلشفي يتفتّت، بينما وقف العالم أجمع يتفرّج على نجاح الألمان. ووجّه هتلر خطاباً إلى الأمّة الألمانية في ٢ أكتوبر: «لقد انكسر العدو ولا قيامة له بعد اليوم».

بدأ الألمان يختلفون حول أهدافهم التالية بعد أن أعماهم النجاح الباهر. فقد طلب قائد المدرّعات العبقري، هينز جودريان، بفظاظة، أن يُسمح له بمهاجمة موسكو. لكن هتلر لم يوافقه، وهكذا بُدِّد الوقت الثمين[٣].

بدأ، أخيراً، الهجوم على موسكو في ٣٠ سبتمبر. فاجتاحت مدرّعات جودريان جبهة بريانسك وأسرت أوريل. وفي ٣ أكتوبر اجتاحت القوة الألمانية الماحقة القطاع الأوسط وخلال عدّة أيام وصلت خطّ موجايسك في مايولا روسلافيتس وبورودينو[٤]، على بعد ١٢٠كم، فقط، من موسكو! وما أن يجتاح الألمان هذا الخطّ الدفاعي الأخير حتى ينفتح أمامهم الطريق إلى موسكو. فسحب ستالين، ألمع قادته العسكريّين، الجنرال جوكوف، من لينينيغراد وأسند إليه مهمة الدفاع عن العاصمة.

قام المارشال جوكوف بجولة ميدانيّة من تشوسي وارسو إلى مايولارو يلافيتس ليقيّم الوضع بنفسه. ثم اتخذ قراراً صعباً: سيزجّ بكلّ مقدّراته البشرية كي يحرّر ٢٠٠,٠٠٠ محاصر في بريمينكو وكونييف. كان عليهم أن يخرجوهم بأنفسهم. فأحاط العاصمة بخطّ دفاع على شكل هلال وضع فيه كلّ ما توفّر لديه من

الرجال. ساعده الطقس، حليفه الجديد، على ذلك، فالوقت الآن منتصف شهر أكتوبر، حيث أغدقت السماء مطراً، يكاد لا يتوقّف، على طول الخط من سمولينك إلى أوريل ومن فيازما إلى كالينين. فتحوّل نهرا أوكا وأورجا إلى سيول جارفة حوّلَتْ الشوارع إلى برك وحل تغمر الركب وتعيق حركة المدرّعات الألمانية، وإن لم توقفها. وهكذا، تحوّل هجومها على موسكو إلى زحف بطيء بعد أن علقت ناقلات جنودهم في الوحل واضطر مشاتهم أن يخوضوا في الوحل على أقدامهم.

بحلول ١٧ أكتوبر. كانت موسكو قد أُفرغت. ولم يبق فيها سوى محطة قازان تسيّر قطارات إلى غوركي وجبال الأورال. وازدحمت ساحة المحطة بآلاف اللاجئين، وكلّهم مسجّلين على قائمة «ذوي المكانة الاجتماعية الهامة». جلسوا ضجرين فوق صررهم وحقائبهم ينتظرون أياماً، للحصول على مقعد «في آخر رحلة قطار من الجحيم»، بينما كان أهالي موسكو الأصليّين يتفرّجون بصمت على قوافل سيّارات كبار موظفي الدولة وهم يهربون متخلّين عن المدينة. وقامت NKVD بإطلاق النار على كلّ مغادر لا يحمل أوراقاً رسميّة. وسُحب آلاف الناس من بيوتهم ثم أُجبروا على حفر خنادق مضادة للدبابات. فمات كثير منهم بسبب البرد الشديد، كونهم سُحبوا من بيوتهم بملابس النوم الخفيفة. ومُلئت الخنادق بوحدات شُكّلت من رجال غير مدرّبين: أُعطيّ كلٍّ منهم بندقية وخمس رصاصات، وقيل لهم اصمدوا وموتوا هنا.

امتلأت ليالي موسكو بقذائف مضادة للطائرات فوق أبراج الكرملين، وغطّت مركز العاصمة غيوم سوداء ناتجة عن قنابل القاذفات الألمانية. خرج أهالي موسكو إلى الشوارع رغم حظر

التجول والموت الذي تمطرهم به السماء. وعزفت الأوركسترا في الميتروبول هوتيل، وأُغدقت الشمبانيا على كبار ضباط الجيش الأحمر... الذين قالوا، وبصوت جهور: إنْ لم تحصل معجزة فإنّ موسكو ستسقط خلال أيام، أو ساعات، معدودة. وتدهورت حالة محطّات الوقود بالنسبة إلى سكان موسكو الأصليين، بسبب تزايد عدد اللاجئين الهاربين من المدرّعات الألمانية. وبدأ الذعر ينتقل من موسكو إلى باقي أرجاء الاتحاد السوفياتي. وهربت الحكومة السوفياتيّة، والسفارات الأجنبيّة واللجنة المركزية للحزب، إلى كويبيسيف. لكن هل غادر ستالين موسكو؟ الوثائق الرسميّة تنفي ذلك لكن الإشاعات تؤكّده(٥).

بحلول نهاية أكتوبر طلب قائد الجيش الألماني الأوسط، الفيلد مارشال فون بوك، وَقْف المعركة لمدة أسبوعين كي يستطيع أن يعيد تجميع قواته. أمر هتلر بشن الهجوم النهائي على موسكو في ١٥ نوفمبر. ونجح الهجوم، فوراً؛ إذ وصل الألمان على بعد ٢٥كم من قلب العاصمة. عندئذٍ حدث أمران. أوّلهما الطقس الذي لعب دوراً جذرياً في تغيير مجرى المعركة. فقد تحوّل المطر إلى صقيع، سوّد الثلج الحقول وانخفضت درجة الحرارة إلى ٣٠ درجة تحت الصفر. فوقع الجيش الألمانيُّ، غير المهيّأ، في هذا الشرك. لقد اعتمد هتلر على نصر سريع ولم يرسل ثياباً شتوية إلى الجيش الألماني (ربّما تعمّد ذلك كي يجبر جنرالاته على احتلال موسكو قبل الشتاء، وربّما فاته ذلك). توغّلَت المدرّعات الألمانية في الحقول المتجمّدة رغم الثلج العميق ودرجات الحرارة المنخفضة.

استدعى ستالين، في ١٩ نوفمبر، جوكوف وسأله ماذا يحتاج كي لا تسقط المدينة. فقال المارشال، بنوع من التردّد، «جيشان ومئتي دبابة». كان يعرف أنّ ستالين سيعجز عن إجابة طلبه، لكنّه

فوجئ به يهزّ رأسه ويعد بتسليمه ما لديه من قوّات. لكن من أين جاء بهؤلاء الرجال؟ حتى أقرب معاونيه، لم يكن يعرف أنّ ستالين يحتفظ بورقة رابحة، جاسوساً رفيع المستوى يعمل لصالح الاستخبارات الروسية.

أصبحت الخيانة سلاحاً جديداً في الحرب العالمية الثانية، وقد وُجدت بسبب كره الألمان السياسي لنظام هتلر النازي. ففي ربيع ١٩٤٢. عندما كان الألمان في أوج قوّتهم، ظهرت نشرة،من٩٤ صفحة، في فيتانوفا فيرلاج: «مكان المعركة وشروط قيادة حرب» كتبت بإسم مستعار. ر.هرمس، مثل: إله اللصوص الإغريق، أو ربّما اسم آلة كاتبة سويسرية شهيرة، علَّم هذا الكتيِّب الصغير شروط الحرب لرجال مثل رودولف روسلر (لوسي)، الملازم أول آب ر.هاروتشولز بويسين (كورد)، آدم كوكهوف أو أوبيريجيير ونجستار أفيدهارناك. كان القاسم المشترك بين هؤلاء الرجال، عضويّتهم في فرقة أوركسترا، «روكابيلي»، لكن لم يكونوا عازفي آلات موسيقية، بل يقدّمون معلومات عن أهداف الألمان العسكرية. أصبح شعارهم «الخيانة لدوافع أيديولوجيّة». مبرّراً وفقاً لمبدأ هرمس. فاعتمده الجواسيس الجدد مسوٌغاً لأعمالهم الخيانية.

أصبح «لوسي» و«روت كابيلي» مصدرين رئيسيين للمعلومات السوفياتيّة بعد صيف ١٩٤٢ ، ويعود الفضل في ذلك إلى صحفي ألماني يعمل في اليابان.

كان د. ريتشارد سورغ ألماني الأصل، الفرانكفورتر زيتونج في طوكيو، عاش حياته المهنية ببهلوانية بارعة، فكسب احترام الغالبية، وعمل جاسوساً لشخص واحد في قلب موسكو. كان سورغ منشقّاً، غير تقليدي وواسع الخيال؛ لا توجد معلومة غير

مفيدة بالنسبة إليه. وبما أن سحنته الأوروبيّة تفضحه بين اليابانيين، فقد اختار أن يعمل في عزلة تامة ونجح ببراعة، وكانت خطّته، على بساطتها، مدمّرة. لقد فاقهم بذكائهم جميعاً. وعندما قبض عليه التوكو (Tokko) البوليس الياباني السريُّ لم يجدوا لديه شيئاً. وقد عمل على إقامة علاقة صداقة قويّة مع جوزي مينشينجر رئيس جهاز الغستابو، السيّء الصيت في السفارة الألمانية في طوكيو.

سطع نجم سورغ في حادثة غريبة. ففي ٢٦ شباط ١٩٣٦، قامت مجموعة ضباط يابانيين مصحوبة بـ١٤٠٠ جندي، باحتلال مبنى حكوميّ حيويّ في طوكيو. وفشلوا حينئذٍ في تقديم مبرّر مقبول لانقلابهم ذاك. ولم تستطع السفارة الألمانية في طوكيو مدّ حكومتها في برلين بمعلومات عن ذلك الحدث. عندئذٍ دخل د. سورغ إلى السفارة وقدّم معلوماته بصفته «مراسل جيّد الاطّلاع».

ولقيت معلوماته استحساناً جمّاً في برلين، فأصبح منذئذٍ رجلاً موثوقاً. لكن فرصة سورغ في العمالة ـ المزدوجة جاءت، بلا شك، مع تعيين أعزّ أصدقائه المقدّم يوجين أوت سفيراً لألمانيا في طوكيو.

كان سورغ يعاني من نقطتي ضعف، قيادة الدراجات النارية بسرعة وهذه كادت تقتله مراراً، والثانية التي قتلته كانت النساء الجميلات. ففي ١٣ أيار ١٩٣٨ ركب دراجته النارية زنوندن وهو ثمل، فاصطدم بجدار ونجا بأعجوبة. ولإثبات حضور ذهن يفوق الخيال، تذكّر وهو يُقاد إلى غرفة العمليّات أنّ في جيوبه تقريراً مشبوهاً، فرفض أن تجرى له العملية قبل أن يترك رسالة أخيرة إلى رفاقه الأعزاء. فهمس لصديقه ومُتلَقّي رسائله ماكس كلوزن. «أفرغوا جيوبي» فأخذ كلوزن الورقة السريّة.

كان ماكس كلوزن عضواً مفتاحيّاً في حلقة تجسّس سورغ،

وقد نجح كلوزن الخبير في بث رسائله مرفقة بأخطاء ذكية تمكّن موسكو من معرفة هويّته. ففي كلمة يرتكب خطأً إملائياً بسيطاً يسهل فهمه. وقد جعل صديقته آنا والينيوس المعروفة بعدائها للشيوعيّة، تنقل أفلامه المصوّرة. إلاّ أن مشكلة كلوزن هي مزاجه المنفلت العقال. ففي ربيع ١٩٤١، عندما أرسل سورغ رسالة يحذّر فيها ستالين من الهجوم الألماني على الاتحاد السوفياتي، وردّت عليه موسكو أنها تشك في صحة معلوماته؛ انفجر كلوزن قائلاً: «كيف يجرؤ هؤلاء... على تجاهل رسالتي؟».

بعدئذٍ أزفّ اليوم المحتوم في أكتوبر ١٩٤١. سلّم سورغ إلى كلوزن ورقة واحدة قائلاً: «شفّرها وأرسلها فوراً بأيّة وسيلة ممكنة. حظاً طيّباً». لقد أدرك الضرورة القصوى ليس لبثّ الرسالة إلى موسكو، بل للتخلّص منها، أيضاً، لأنه لاحظ أن التوكو يتعقّبونه. فالليلة قبل الماضية اعتقل عملاء البوليس السرّيُّ خليلته إيشي هانوكو، ووجدوا معها دولارات لم تستطع أن توضح كيف حصلت عليها. وهكذا انتهت اللعبة بالنسبة إلى الوسيم سورغ. واعتقل ماكس كلوزن ود. سورغ في ١٨ أكتوبر(٦). لم يستطِعْ سورغ أن يبثّ رسائل أخرى، لكن رسالته الأخيرة حسمت نتيجة معركة موسكو. بناءً عليه فإنّ تأثير شيفرة سورغ على استراتيجية ستالين تفوق أيّ تقدير.

لقد حذّر سورغ ستالين في أيار ١٩٤١ من هجوم ألماني على الاتحاد السوفياتي، لكن القائد العام لم يصدّقه. غير أنّ الأمر اختلف هذه المرّة، إذ كانت الحالة ميؤوساً منها؛ وستالين في أمسّ الحاجة إلى إجابة لسؤاله: «ما هو موقف الحكومة الألمانية منّا، في هذه الحرب». سلّم سورغ إلى عامل اللاسلكيّ الإجابة، التي حصل عليها من الجنرال يوجين أوت، سفير ألمانيا في طوكيو،

الذي ما فتئ يدفع، حلفاءه اليابانيين إلى شنّ هجوم مباغت على الروس، انطلاقاً من قاعدتهم في منشوريا. كان أوزامي هوتسومي، أحد رجال سورغ، يعمل في سكّة حديد جنوبيّ منشوريا حيث طلب إلى رؤسائه أن يحضروا عربات القطار لنقل كلّ جنود الكوانتونج آرمي الياباني. إلى الحدود الروسيّة! فراح أوزاكي يراقب عربات القطار عن كثب، فلم يلاحظ أيّ عملية نقل للجنود. بعد بضعة أسابيع دُعيَ أحد قادة المحطة إلى اجتماع مهمّ، فأبلغ أوزاكي: لقد طلبوني إلى طوكيو كي ألغي برنامج نقل الجنود. يبدو أن الكوانتونج آرمي قرّر ألاّ يقاتل روسيا.

تأكّد سورغ من هذه المعلومة خلال حفل غداء في السفارة الألمانية، عندما شكى له يومين أوت. من فشله في حثّ اليابانيين على مساعدة ألمانيا بمهاجمتهم للاتحاد السوفياتي. «لم يصغ اليابانيون إليّ. إنّ خططهم تدور حول السيطرة على المحيط الهادئ».

وهكذا اتفق أن طلب د. ريتشارد سورغ، في أكتوبر ١٩٤٠، في ذكرى ميلاده السادس والأربعين، أن يبثّ رسالة مشفّرة إلى موسكو، بحيث سُلّمت مباشرة إلى ستالين. أوضح فيها أن اليابانيين لا يعتبرون أنفسهم جزءاً من الحلف الثلاثي (محور برلين، روما ـ طوكيو الذي أُنشىء في سبتمبر ١٩٤٠): «إن اليابان لن تخرق، تحت أي ظرف كان معاهدة عدم الاعتداء التي وقّعتها مع الاتحاد السوفياتي. وتتركّز خططهم الاستراتيجية على بسط سيطرتهم في جنوب المحيط الهادىء فقط. ويمكن اعتبار حدود الاتحاد السوفياتي الشرقية في مأمن من أي اعتداء ياباني، بلا أدنى شكّ، حتى نهاية فصل الشتاء على الأقلّ...».

(وَقّعت اتفاقية عدم الاعتداء بين روسيا واليابان في نيسان

١٩٤١. وهاجم هتلر الاتحاد السوفياتي في حزيران. فكان الأمر مفاجئاً لليابانيّين والروس بالقدر نفسه. ولهذا السبب لم يخبر اليابانيون برلين عن هجومهم على الولايات المتّحدة الأميركية).

* * *

أكّدت رسالة سورغ أنّ لا خوف من هجوم ياباني على الحدود الشرقية البعيدة للاتحاد السوفياتي. أراد ستالين أن يصدّق ذلك، لكنه بقي متشككاً في جهاز استخباراته، وبقي متردّداً حتى وصلت رسالة أخرى تؤكّد له ما ورد في سابقتها. فقد تلقّى في مطلع نوفمبر رسالة من ورقة رابحة أخرى، سوهتش - المشهور في الغرب بالجاسوس الخارق كيم فيلبي، أكدّ فيها ما جاء في رسالة سورغ.

(كانت الاستخبارات البريطانية تلتقط كلّ الرسائل المبثوثة إلى برلين. وبدوره، قام فيلبي بإرسالها، بعناية، إلى موسكو. وقد أجريت مقابلة مع فيلبي بعد أن هرب إلى موسكو، في ١٩٤٣، سُئل فيها: «باعتقادك، ما هي أهم معلومة أوصلتها إلى موسكو؟».

أجاب فيلبي: «... برقية السفير أوت، نفسها التي أرسلها صديقي د. سورغ، والتي تؤكّد أن اليابانيين سيشنون هجوماً، وشيكاً باتجاه الجنوب، أي أنهم لن يهاجموا الاتحاد السوفياتي.

«ألم يبث سورغ رسالة بالمضمون نفسه؟».

تلك هي المسألة. لم يكن ستالين يثق بجهاز استخباراته. لقد رغب، حقيقة، أن يصدّق ذلك، وقد عزّز تقريري، بشكل مستقّل، ما أرسله سورغ من اليابان. (في الواقع، لقد عُكست الآية، إذ أنّ رسالة سورغ وصلت قبل رسالتي بشهر).

وهكذا فإنّ رسالة ألمانية ساعدت على قلب مجرى الحرب في غير صالح الألمان، وهتلر.

وبينما كان الألمان يقصفون بوابة موسكو بالقنابل، قام القيصر الأحمر البارانوئي، الشكّاك، بمقامرة كبيرة. إذا اضطر أن يرهن قدر بلاده ومستقبله برسالة مشفّرة من جاسوس ـ وليس أمامه خيار آخر. وأصدر ستالين أوامره:

«جيوش الشرق الأقصى، كلّ القوات السيبيرية، من جمهوريات آسيا الوسطى، وحدات معسكرات التدريب في كازاختسان، وأوزبكستان، يجب أن تُرسل فوراً إلى موسكو، سخِّروا لذلك كل وسائط النقل وبصرف النظر عن إجراءات الأمان على الطريق...».

لقد أفرغ ستالين، بقراره ذاك، حدوده الشرقية من كل قواتها. وأطلق أكبر حركة قطارات في كل العصور. فانطلقت القطارات من كلّ المحطات وغابت في سحب الدخان والعواصف الثلجية. تدفّقوا مثل روافد نحو النهر الرئيسي، من محطات عند الحدود الصينية، منغوليا سيبيريا، القوقاز وروسيّا الوسطى. فغصّتْ بهم شبكة السكك الحديد في سيبيريا، سلسلة قطارات لا تنتهي، وكلّها متّجهة غرباً. ولشدّة قرب أحدها من الآخر، كان يستهدي سائقو القطارات بأنوار آخر عربات القطارات التي تتقدّمهم. مئة قطار كلّ يوم يتجه إلى موسكو. تنقل العتاد، الأسلحة الثقيلة والجنود، مزيداً من الجنود. مليون جندي من نخبة التشكيلات المحاربة، مجهّزين جيّداً ومعتادين على طقس سيبيريا ـ يرتدون سترات بيض، يحملون أسلحة بيض ويركبون دبابات بيضاء ـ وكانت الدبابة ت٣٤ أحدث وأقوى من أيِّ سلاح يمتلكه الألمان.

توقّفت المحدلة الألمانية، أخيراً، على مشارف موسكو في ٣ سبتمبر؛ بسبب البرد من جهة، وبسبب الإرهاق من الجهة

الأخرى. لقد أطلق أبو الاستراتيجية العسكرية، كارل فون كلوزوتيز، اسم ذروة المعركة على مرحلة تتعرّض فيها القوات المهاجمة إلى خسائر فادحة، فتضطر أن تتحوّل من الهجوم إلى الدفاع. وهكذا كانت حالة الجيوش الألمانية على مشارف موسكو في شتاء ١٩٤١ الفظيع.

٥ ديسمبر ١٩٤١. وصل الجيش الألماني التاسع إلى محطة النقل العام في موسكو، توقّف القطار قبل ثلاثين كيلومتراً من المحطة. قبل يوم من دخول دورية رماة قنابل، بعد الكتيبة السادسة والعشرين، إلى ضاحية، موسكو، تشيمكي تبعد١٦كم عن الكرملين. واجتازت، في هذا الوقت، قوات مدرّعة قنال الفولغا ـ موسكو عند ديمتروف، ووصلت وحدات من فرقة المدرّعات الأولى إلى كوسجايفو. في جنوب المدينة مرّ الجيشان الرابع بقيادة فون كوج والمدرّع الثاني بقيادة جودريان، مرّا بجوار نهر القولا. على بعد أقل من ٥٠كم من موسكو نفدت ذخيرتهم، وقودهم ـ وبخارهم. وتجمّد كل شيء بسبب البرد الفظيع، إذْ تراوحت درجات الحرارة بين ٤٠° و٥٠° تحت الصفر ليلاً. فاضطر الجنود إلى تقطيع الخبز بالبلطات، غدت البنادق عديمة النفع، تجمّد الزيت في الدبابات وأصبحت المحرّكات مجرّد كتل معدن صلبة. فاستخدموا الجياد لتحريكها من أماكنها.

كتب العريف ويرنير بورمييشتر من كتيبة المدفعيّة ٢٠٨: «استخدمنا ستة أحصنة لجرّ مدفعنا القذّاف. نفق اثنان منها بسبب البرد والإرهاق. ولم يكن الأربعة الآخرون قادرين على سحب المدفع عبر الثلج العميق. وبحثنا في المنازل عن أي شيء نلفّه على أجسادنا، حتى سترات وبساطير الجنود الروس الموتى. فامتلأت أجسادنا بالبراغيث وغزا القمل شعري. وضعت القش في

حذائي، ولم يبق أحد من رفقائي المدفعيّين لم تتورم أصابع قدميه أو يديه بسبب البرد. فهل تستطيعون أن تلومونا لأنّنا تخلينا عن مساعينا؟

لا يزال الوقت ليلاً. انخفضت درجة الحرارة إلى ٢٥° تحت الصفر. انطلق فيلدويبل بول ويندر ودوريّة استطلاع من فيلق المشاة السابع والثمانين، تقدّموا بصمت، عبر الثلج، إلى جاكروماغريك. إنّهم جزء من وحدات الفرقة السادسة والثلاثين التي انهارت عند عبورها الخطوط الروسيّة جنوب كالينين وروغاتشيغو. على شمالهم بحيرة كبيرة متجمّدة تشكّل تَخلّف السدّ المقام على الفولغا، يسميّها الروس بحر موسكو. وأمامهم قرية صغيرة. كانوا على بعد ثلاثين متراً عن بيوتها الخشبيّة عندما سمعوا أزيز القذائف. فصاح ويندرز: «ديكونج! ستاين أودجيل». اختبأوا وراء بئر تغطّيها طبقة سميكة من الجليد الأزرق. مادت الأرض من تحتهم. تسبّب الصاروخ الأول بنوافير من الثلج، وتبعه آخر سقط وراءهم، بدويٍّ يصمّ الآذان. ولا تزال وحدتهم عالقة وسط كوكبة من القذائف. عندما هدأ الصخب قليلاً وتجرّأ الجنود على رفع رؤوسهم، شاهدوا منظراً لا يُصدّق. آلاف من الجنود المقلنسين بالأبيض يتدفّقون من الغابة أفواجاً. مسك ويندرز هاتفه الميداني، وراح يصرخ مذعوراً عبر الأسلاك الباردة الصامتة، «إنّ الروس يتدفّقون علينا بالآلاف».

فجاءه صوت بارد، عبر الأسلاك، «هذىء من روعك يا فيلدويب، لم يبق كثير من الروس».

«هراء. تعال إذن إلى هنا كي ترى بأمّ عينك!».

قصفتهم المدفعيّة الألمانيّة. سقط الكثير منهم، لكن لم يتراجع الآخرون. تابعوا تقدّمهم عبر الثلج العميق، ومن ثَمّ عبروا

البحيرة المتجمّدة، وتجاوزوا دورية الاستطلاع الألمانية المنبطحة أرضاً مثل حشرات مهروسة.

الجمعة ٥ سبتمبر. أوّل إمارة عن مأساة وشيكة تحيق بالجيش الألماني كلّه. وسيدخل هذا اليوم التاريخ، باعتباره لحظة التغيّرات الحاسمة في مجرى البحر[٧].

وثق ستالين برسالة جاسوس وأفرغ سيبيريا كلّها من القوات المسلّحة. وجلب إلى موسكو الجيوش: الأول، العاشر والعشرين[٨]. زجّ جوكوف بثلاثة جيوش إضافة إلى فيلق فرسان في مواجهة قوات جودريان كي يمنع تراجعهم وللقضاء على المدرّعات الألمانيّة. أصدر جودريان أوامره بالإنسحاب ليلة ٦، ٧ ديسمبر. فتحوّل الإنسحاب إلى جحيم: انزلقت المدرّعات فوق الجليد، وتعرّض المشاة إلى هجوم الفرق السيبيريّة على زلاّجاتها الجليديّة التي انبثقت من الثلج فجأة، بثيابها البيضاء مثل الأشباح. أطلقوا النار. نسفوا الجسور ثم اختفوا ثانية في ذلك الشتاء الروسي ألّلا متناهي البياض. قاومت مدرّعات جودريان ببسالة ونجحت في بعض الهجومات المضادة. وارتفعت نسبة الإصابات على كلتا الجبهتين. مات الروس برصاص الألمان، ومات الألمان ببرد الروس.

كانت السريّة / ١٤/ المضادّة للدبابات بقيادة برايمير، تتّخذ موقعاً جنوب ستالينوروسك، عندما وصل العريف دوهريندورف إلى موقع قائد السريّة وقال له، لاهثاً، «هرادبريليونانت، هناك تشكيل عسكريّ على الزلاجات يتقدّم من ميمنتنا. أعتقد أنهم الروس».

نظر برايمر عبر منظاره فرآهم يظهرون تارة ويختفون أخرى وسط أمواج البياض تحت نور القمر. «أنت محقّ أيها الرقيب.

إنهم الروس. أخطر الجميع!» لقد شاهد أول هجوم روسي كبير. أشعلوا الأضواء الكاشفة فغمر الضوء الأزرق الخفيف ذلك المشهد الثلجي. غابة جنود تتقدّم على زلآجات. وخُيِّل لرجال السريَّة الرابعة عشرة أنَّ سداً قد انهار وأمواج الجنود على وشك أن تجرف سريّتهم الوحيدة. وحوش خرجت من الغابة، استحال كلّ شيء إلى قتال رهيب غير منظّم. خاض الألمان هذه المعركة بتشكيل جيوب قوام كلٍّ منها ١٠ـ ٢٠ رجلاً، في الواقع، يُعتبرون عزّلاً أمام هذه الجحافل الروسيّة. وأطلقوا النيران حتى احمّرت سبطاناتهم أو ارتجّتْ أو انفجرت. عندئذٍ سقطت عليهم قذائف الكاتيوشا الروسية، وصهرت حرارتها العالية الثلج الأبيض..

حاول الجنرال مارتينيك أن يصدّ الهجوم الروسي بفرقة مشاته /٢٦٧/ المنهكة. لكن بلا جدوى: فقد تجاوز الروس على زلآجاتهم، المدرّعات الألمانيّة، عبر الغابات الكثيفة وتابعوا طريقهم إلى ما وراء مؤخّرة الجيش الألماني.

وصلت وحدة ألمانية، في منتصف الليل، إلى نهر قرب بانينو. إنّها واحدة من عشر سرايا فيما كان يعرف سابقاً بفيلق الرماة. كانوا يقاتلون منذ أسبوعين من أجل وجبة غذاء جيّدة. وطُلِب إليهم الآن أن يعبروا نهراً حيوياً. فكان على الملازم أول بوركهارت ورجال السريّة الثانية والثالثة من فيلق الرماة، أن يعرقلوا هجوم العدو، وتأمين حماية الجسر من أجل الوحدات المنسحبة الجديدة. كان بوركهارت مرهقاً، ومن رقبته يتدلّى صليب معقوف. إنه يفضّل عليه، الآن، زوجاً من الجوارب الصوفية. فهو الآن برأسه الملفوف. بوشاح صوفي لاتّقاء البرد، أشبه بالمومياء.

يصدر الملازم أول بوركهات أمراً بإحراق القرية. سحب الجنود بعض القش من السقوف أشعلوا النيران فيها ووزّعوها على

سطوح البيوت التي تحوّلت، جميعاً إلى كتلة نار. وبينما تحلّق الرجال حولها طلباً للدفء، اندفع بعض الأشخاص إلى ساحة القرية فسقطوا برصاص البنادق. ربما كانوا مزارعين أو أعضاء في الحزب. تعلّم الألمان ألاّ يغتنموا فرصة أبداً. وانضم إلى السريّة بعض التائهين. سألهم بوركهارت: «أين هي وحدتكم؟».

«أيُّ وحدة، هرليفتنانت. لقد أُبيدت سريّتنا كلّها». شارك رجال بوركهارت رفاقهم الجدد كل ما يمتلكونه: كسرات خبز أسود، سجائر، بعض الطلقات. وفي الصباح كانت القرية كتلة فحم داخنة. وما وراء الدخان مشهد صمت لا نهائي، فجأة هبّت على الثلج غيمة بيضاء تدفع أمامها سيلاً من الرجال على مدّ البصر. إنّهم أفراد الفوج الأوزبيكي الذي سُحب مؤخّراً من سيبيريا، تدعمهم أربع دبابات. فتح الألمان نيرانهم، مضادات دروع، هاون وبنادق آلية. وأمر بوركهارت المدفعيّة المضادة للدروع، عيار ٣٧مم أن تُركّز نيرانها على الدبابات المتقدّمة فقط. فانطلق الرماة بالاعتماد على رؤية العين المجرّدة، بسبب قرب المسافة. «يا للجحيم... ! أنظروا هناك» صاح أحد الرماة وهو يشير إلى الغول الفولاذي الذي يتقدّم نحوهم، فقد ارتدّت قذيفتهم عنه.

قال دوركهارت ببرود: «إنّها دبابات /ت٣٤/ لا تستطيع حيالها شيئاً. إننا بحاجة إلى مساعدة». وهذه جاءت من السريّة الأولى المجاورة، التي لديها مدافع الدبابات طويلة، عيار ٨٨مم. ثلاث قذائف أشعلت ثلاث دبابات، فانفتحت أبراجها وخرج أفراد طاقمها، رموا أنفسهم أرضاً لإطفاء النار المشتعلة بثيابهم، فحصدهم رصاص البنادق.

انطلقت أربع مدرّعات ألمانية تجوس طرقات القرية وتعبر الجسور الخشبيّة. كانت رشاشاتها تحصد جزءاً من الجنود الروس

المتقدّمين. وتساقط الراكبون منهم فوق دبابات / ت٣٤ كأوراق ذابلة ذرتها العاصفة. أطلقت الـ/ ت٣٤/ النيران، لكنّها أخطأت الهدف.

قال الملازم أوّل لوس ساخراً، «هؤلاء الرماة أغرار». «لكنّهم سيتعلمون بسرعة». وتابعت المدرّعات الألمانية تقدّمها، تطلق النار في كلّ الاتجاهات، وتحصد القوات الروسية، كما يحصد القرش أسراب السردين. فشتّتوا شمل الوحدات الروسيّة التي هامت على وجهها في القرية. غير أنّ المدفعيّة الروسية وجدت، أخيراً، أهدافها، وانفجرت أول قذائف الكاتيوشا مخلّفةً سحابة من اللهب والثلج وكتلاً سوداء من التربة المجلّدة. عندما رأى الملازم دوركهارت رجاله يطيرون في الهواء وسط تلك السحابة، فكّر أنه حان وقت الإنسحاب.

عبرت المدرّعات الألمانية الجسر، متقهقرة. بينما رقيب ألغام ورجاله يزرعون المتفجّرات ويمدّون الأسلاك. «هيّا لا نستطيع أن نمضي النهار هنا، منتظرين». فدوّى انفجار هائل أحال الجسر إلى غيمة سوداء كبيرة. ففقدت سرية لويس عربةً ورقيباً، مات الملازم أول بوركهارت وأُبيدت كتيبة روسيّة.

الحرب كرٌّ وفرٌّ وهذا بدوره قسّى عود الجنود الألمان. فحارب مَنْ بقي منهم داخل خطوط الروس كالأباليس كي ينجوا بأنفسهم. لأنهم يدركون أنّ الموت هو عاقبة وقوعهم في الأسر. لذا استبسلوا وماتوا في ساحة المعركة(٩).

قاد إحدى جبهات الهجوم الروسيّة العميد دوفاتور قائد فيلق فرسان القوزاق الشهير. والجميع يُشهد له بالبراعة. فهو يستخدم فرسانه، كما يستخدم جودريان مدرّعاته، في هجومات خاطفة وحاسمة. وشعاره الدائم: «قُدْ بعيداً عن الجبهة» وقد حفظت مآثره في ثناءات عسكريّة خاصة.

وقعت معركة رئيسة، في ١٩ ديسمبر، قرب بولاشكينو. كانت وحدات الفرقة الألمانية ٢٥٢ تسيطر على النهر الروسي، ولديها معلومات صارمة: «إدّخروا ذخيرتكم، لا تطلقوا النار حتى يقتربوا منكم». وقد وزّعت بنادقهم الآلية بحيث تشكّل ساتراً نارياً على طول النهر العريض المتجمّد.

أمر العميد دوفاتور فوجه القوزاقي بالهجوم. انطلق فرسانه المقلنسين بالأبيض، من الغابة. وصلت موجة الهجوم الأولى إلى حافة النهر قبل أن يفتح الألمان نيرانهم عليها. وسرعان ما اصطبغ الثلج العذري بدماء الروس، على طول الجبهة، وفشل الهجوم الأوّل فشلاً ذريعاً. الوقت ظهراً، غطّت الشمس الشاحبة ساحة المعركة؛ وذرت الريح الثلج فوق نهر روسيا المتجمّد. ركب دوفاتور حصانه لينضمّ إلى فرقة الفرسان / ٢٠/ . ودهم في غابة مكتظة بالأحصنة، العربات، الدرّاجات النارية، قطع المدفعيّة وفيض من الرجال.

«كولونيل تاولجييف، أعبر النهر مع رجالك. أنا سأهاجم مباشرة». تنطلق سرايا الخيّالة الروس من الغابة. تقصف المدفعيّة الروسيّة قرية بولاشكينو. تتصيّد رصاصات الألمان الفرسان الروس. تفجّر الهاونات حمماً من الثلج القذر. يتخلّى العديد من الفرسان عن أحصنتهم كي يتابعوا المعركة على الأقدام، محتمين بالتلال والأخاديد. يصلون إلى ضفة النهر. يسقط رتلاً بأكمله. فيتزلّج الباقون على الثلج، يتفرّقون قبل أن يحصدهم رصاص الألمان المتمترسين وراء جدران القرية. يقع القوزاقيون في شرك مميت. يصرخ دوفاتور: «يجب أن أُخرج الرجال من الجليد». يشهر مسدسه وينطلق إلى الأمام. «يحيا الوطن!».

يترجّل عن جواده، فيخرّ صريع رصاصة بندقية آلية. وتدحرجت فوق الجليد قبعته القوزاقية التي تحمل النجمة الحمراء شارة السلطة. اندفع تاولجيف ليحمي قائده، لكنّه سقط إلى جانبه. قبّعة المفوّض السياسي للفوج، كاراسوف يصيح «كلاب!» وينحني ليرفع الجنرال، قبل أن يسقط هو قتيلاً أيضاً. أخيراً تسلّل الملازم أول كوليكوف والرقيب سوكيركوف متّخذين من جثث رفاقهم ساتراً كي يسحبا جثة الجنرال.

وأمضى الرماة الألمان بقيّة النهار وأطراف الليل يصدّون هجمات الفوج القوزاقي المتتالية، وكلّها محاولات للانتقام لقتل بطلهم.

نُظِّم التحرّك الروسي. وبدأ التقدّم على جبهتين اخترقنا صفوف الألمان مثل أُفعوانين هائلين. هذا اختراق حقيقي، لم تنفّذه فرقة أو فيلق، بل جيش كامل. انهار الجيب الألماني، وهرب جنوده متعثّرين في الثلج.

تحدّد المدفعيّة الروسيّة مواقع فرق جودريان المدرّعة وتسحقها. يجمع هذا الأخير الناجين من فوجه. ويقود هجوماً ببقايا مدرّعاته، محاولة أخيرة لوقف المدّ الأحمر. وعندما يهاجم السوفيات بثماني وعشرين فرقة جديدة، يضطر جودريان إلى الإنسحاب ثمانين كيلومتراً أخرى. يجرّ وراءه جيشاً مدرّع بدون دبابات وفيلق تموين بدون تموين. فأيُّ جنون هذا إذا ما خضع لأوامر الفوهرر وشنّ هجوماً آخر، ميؤوساً منه، على أشباح روس يتحرّكون مع عواصف الثلج. لكن تلك هي حال كلّ معارك الألمان التكتيكية خارج موسكو. فقد اخترقت قوات جوكوف الخطوط الألمانية من كالينين في الشمال إلى تولا وكالوجا في الجنوب، ويسير بخطى ثابتة كي يحاصر كلّ القوات الألمانية

خارج موسكو. ويضطّر الألمان، وإن يكن ببطء، أن ينسحبوا أمام «جحافل المنغوليّين من فوج جنكيزخان المؤلّل».

يكتب الجنرال جودريان، في صحيفته، في نهاية ديسمبر ١٩٤١ : «لقد فشل الهجوم على موسكو. لقد عانينا من هزيمة خطيرة».

إنّه لا يدرك مدى خطورة تلك الهزيمة.

ماذا لو...

ماذا لو ـ لم يؤجّل هتلر عمليات بارباروس لمدة شهر؟

كانت قواته نجحت في دخول موسكو قبل حلول الشتاء.

ماذا لو ـ لم يتلقّ ستالين ـ ما يعزّز ـ رسالة سورغ المشفّرة الحاسمة؟ لما تجرأ إفراغ جبهته الشرقية وسحب ملايين الجنود من سيبيريا كي يدافعوا عن موسكو.

حقائق:

اضطر الفيلد مارشال فون بوك أن يرفع إلى هتلر تقريراً: «لم يكن الهجوم على موسكو مظفّراً، وستأخذ المعارك منحى آخر الآن. حرب استنزاف شرسة، نخوضها رجلاً لرجل.

قرّر هتلر بعد السماح لإنهيار عصبي. «إنّ الدوتشي فيرماخت لا ينسحب! ينتزع النصر أو يموت حيث يقاتل!» وعيَّن الفيلد مارشال الصموت قائداً لمجموعة الجيش الأوسط». وعُزل الجنرال فون روندشتيدت من قيادة مجموعة الجيش الجنوبي. وفي اليوم التالي تجرأ قائد عام قوات هتلر، الفيلد مارشال فون بروخيتش على ذكر كلمة انسحاب استراتيجي، فعزله وأمسك هو بزمام قيادة القوات. وكانت أولى خطواته، استدعاء الجنرال هينز جودريان إلى مركز القيادة العليا. اقترح جودريان تقصير طول الجبهة كي يمكن

تجميع القوات قبل شنّ هجوم معاكس، مفاجىء، وشرس بحيث يوقف هجوم العدو ويحطّمه.

«سيّدي الفوهرر، لا يسعنا التمسك بكل شبر أرض، يجب أن نتراجع إلى الوراء كيف ننقض عليهم وهم في حالة هجوم عريض».

انفجر هتلر غاضباً: «لا أستطيع أن أسمح لك بالإنسحاب. آمرك أن تحفر وتقاتل»(١٠).

ثبتت صحة رأي قائد المدرّعات. إذ كانت مستنقعات الغابة الكثيفة والدبابة الروسية الحديثة /ت٣٤/ أكبر من أن تجاريها مدرّعات جودريان. وكانوا يكتشفون المزيد من الفرق السوفياتيّة القادمة حديثاً من الشرق الأقصى، على طول الجبهة. واضطر هتلر أن يوقف هجومه على موسكو(١١)، ملقياً باللائمة على الطقس. لئن كان الأمر كذلك فيجب أن يلوم هتلر نفسه فقط. ذلك أنّ اختياره السيّء للأهداف، والتأخير الذي حدث في بداية الخريف كلّفاه غالياً. لقد خطّطت القيادة الألمانية العليا جيّداً لكل شيء، لكنّها لم تأخذ في الحسبان «الجنرال وينترز»(١٢) الأكثر رداءة من كلّ الروس مجتمعين.

صدر عن القيادة العليا أمراً في ١٧ ديسمبر: وفقاً لخطة جيشنا في الانتقال من عملية الهجوم إلى التجمّع على خط الهجوم الأول خلال أشهر الشتاء الأولى، أصدر الفوهرر أوامره إلى قواتنا لاتخاذ التعزيزات الضرورية وتقليص طول خطّ الجبهة.

أصبح شعار الجنود الألمان، من الآن فصاعداً، إلى الأمام يا رفيق، يجب أن ننسحب. وتراجعت فورة الحماس للنصر السهل الذي تحقّق في مستهل الخريف، أمام حقيقة فشل استراتيجية هتلر

في غزو موسكو، وأنّ ألمانيا، الآن، تخوض نضالاً مريراً أمام القوة الروسيّة الكبيرة.

مع نهاية ١٩٤١ كانت الجيوش الألمانية الغازية قد فقدت أكثر من ربع ما تمتلك من دبابات، طائرات، أحصنة وجنود قاربت خسائرهم ٧٥٠,٠٠٠ إصابة. وتحطّمت لأول مرّة أسطورة الجيش الألماني الذي لا يُقهر.

إن د. ريتشارد سورغ هو الذي أتاح هذه النهاية، عندما أرسل رسالته الحاسمة، والأخيرة في تاريخه المهني، إلى ستالين. فقد اعتُقِل في ١٨ أكتوبر ١٩٤١، في طوكيو، وانفرط عقد حلقته التجسسيّة. قدّم السفير الألماني. يوجين أوت، احتجاجاً رسميّاً إلى وزارة الخارجية البريطانية، لكنّه سرعان ما غيّر رأيه، وعانى من كآبة شديدة عندما أبلغته اليابان بحقيقة الأمر. لكن ماذا كانت الحقيقة؟ حتى التحقيق الشامل لم يستطع أن يبيّن حقيقية ومدى خيانة سورغ الكبيرة. ثم إن غرور سورغ لم يسمح له أن يتخيّل أنّ ستالين سيتركه يموت، بيد أنّ الكرملين تخلّت عن أكبر جواسيسها، لا بل إنها أنكرت وجوده. وبعد سنوات من الحبس الإفرادي، والتحقيقات السريّة أُعدم سورغ، شنقاً، في ٧ نوفمبر ١٩٤٤[١٣].

لقد هُمس اسم سورغ، وبقيت مأثرته مجهولة داخل الاتحاد السوفياتي. ذلك أنّ آلة السلطة السوفياتيّة، خلال سنوات حكم ستالين، حجبت كلّ ما يمكن أن يشوّه هالة ستالين، منقذ الوطن الأمّ، روسيا. واليابان بدورها تكتمّت على نتائج التحقيق السرّي. وانتظر العالم حتى هرب كيم فيلبي إلى موسكو قبل افتضاح لغز سورغ، وأطلق عليه لقب «أعظم جاسوس في التاريخ»[١٤]. واليوم تُرى صورة سورغ على طابع بريد روسي م.ف. ريتشارد سورغ يطوي أمواج المحيط.

حاشية للتاريخ: لم يكن بوسع هتلر أن يختار أسوأ من هكذا توقيت. لقد تغيّر مكان بؤرة الرحب في غضون أيام. فأغرقت الطائرات اليابانيّة، في ٧ ديسمبر ١٩٤١، خمس من ثماني بوارج أميركية في بيرل هاربور، ودمّرت معظم قطع الأسطول الأميركي في الفيليبين. وبعد ثلاثة أيام دُمّرتْ أيضاً بارجتان بريطانيتان، برينس أوف ويلز وريبولز.

لن نعرف أبداً ما الذي جعل أُدولف هتلر يتّخذ خطوته الثانية المفاجئة: في ١١ ديسمبر ١٩٤١، التي خسر معها أيّ أمل في كسب الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، بإعلانه الحرب على الولايات المتحدة الأميركية.

حتى د. سورغ لم يعرف ذلك(١٧).

كان العامل الحاسم في معركة موسكو تأجيل هجوم الألمان، والمعلومة الحاسمة التي أرسلها سيّد الجواسيس د. سورغ.

الهوامش

(١) كان أمر الهجوم الذي أصدره هتلر: «يجب تدمير الجيش الروسي المتمركز في غرب روسيا، من خلال سلسلة هجمات جريئة يسبقها هجوم المدرّعات.

(٢) تحدث الألمان عن ٣٠٠٦٧٦٧، بينما اعترف الروس بـ٢١٢٢٠٠٠ إصابة. وبلغت خسائر الألمان ٧٤٣١١٢ إصابة بين قتيل وجريح.

(٣) دخل نابليون إلى موسكو بعد أسبوع من القتال في بوردينو. وقرر هتلر موعد الهجوم ليصادف ذكرى قرار نابليون للانسحاب من موسكو، كي يهزم الشتاء الروسي.

(٤) الموقع الذي جرت فيه معركة نابليون الشهيرة، في ١٨١٢.

(٥) على أية حال لم يظهر ستالين على شرفة مثوى لينين لحضور العرض السنوي في ٧/ نوفمبر.

(٦) قدّما المعلومات عن «عملية زيناديل»، معركة الدبابات في كورسك.
(٧) وُلد في باكو لأبوين ألمانيين، وانضم إلى الحزب البلشفي في بداية شبابه.
(٨) عاش كلوزن فترة الحرب في إحدى سجون اليابان. ثم أكمل حياته مع آنا في ألمانيا الشرقيّة.
(٩) كانت صفوف القوات الروسية قبل الهجوم المعاكس، كما يلي: الوحدات الروسيّة: القيادة العليا لجوكوف، الوحدة ١٠، جوليكوف: الوحدة ١٦، بولدين؛ الوحدة ٤٩، ساخرين؛ الوحدة ٣٣ جيمفريموف؛ الوحدة ٥، جووروف؛ الوحدة ١٦، روكوسوفسكي؛ الوحدة ٢٠، ولسوف؛ الوحدة أكوتزينتزوف، الوحدة ٣٠ لجيلجوشينكو، وغريد كاف ١، بيلوف.
(١٠) الوحدات الألمانية: القيادة العليا) فون بوك (٧٨ فرقة). فرقة المدرّعات ٢، جودريان، الجيش الثاني، فون ويتش؛ الجيش الرابع، فون كلوج، فرقة المدرّعات ٤ هوبيز؛ الفرقة ٩، شتراوس: الفرقة الثالثة، رنهاردت.
(١١) زجّت القيادة الروسية العليا /١١٧/ وحدة جديدة في المعركة، بينما لم يكن لدى الألمان سوى /٩/ وحدات احتياطية.
(١٢) كتب جندي من فرقة المشاة النمساوية الرابعة: «لم نستطع أن نحمل من سقط من رفاقنا. فتُرِكوا يموتون إلى جانب الأحصنة النافقة على طول الجبهة».
(١٣) لم يسهب منتقدو ستالين في تبيان أخطائه. لكن جنرالات هتلر أولوا بكل ما لديهم.
(١٤) أصدر هتلر أمره بوقف الهجوم على موسكو في ٨ ديسمبر.
(١٥) جنرال هالدر: تبيّن لنا أننا أخطأنا في تقدير قوة الروس، الذين كانوا يستعدون للحرب بكل عنفوان الدولة التوتاليتارية.
(١٦) قال كيم فيلبي، قبل موته: «إن ما حدث لسورغ، بالطبع كان يمكن أن يحدث لي. لكن لا فرق، وأقول لكم بصراحة أني لم أكن أريد أن أموت في هذا المكان». (بوروفيل، ملفات فيلبي).
(١٧) أكد فيلبي أن المعلومات التي قدّمها سورغ كانت مفتاح النصر السوفياتي الأخير.
(١٨) في محادثة مع فيلبي، سأله بوروفيك: «لكن ألم يعلم سورغ بعملية بيرل هاربور؟».
فأجابه فيلبي: لم يخبر اليابانيون الفارة الألمانية عن هجومهم الوشيك كي لا يعرف هتلر شيئاً عن الأمر. وكان هتلر يعرف أنه إذا هاجم اليابانيون أميركا، فلن يتحرّكوا ضد الاتحاد السوفياتي . (ملفات فيلبي: مع سورغ).

الفصل الخامس عشر

موت رجل واحد فيتنام، ٣١ يناير ١٩٦٨

«أغويهم بالاحتفال، وانظرْ كيف يتبعونك بكل جوارحهم».

كلام قيل للمؤلّف: ديسمبر ١٩٦٧

كانت الليلة، كسابقاتها، حارّة ورطبة. نام نصف سكان المدينة الذين ليس لديهم ما يحتفلون لأجله. واستعد النصف الآخر لإطلاق المفرقعات النارية احتفالاً بقدوم العام الجديد. بالغوا في إعداد ما يلزم لإخافة أرواح العام المنصرم الشريرة، ودَفْعها إلى مغادرتهم. فدوّت صفارات تصمّ الآذان في منتصف ليل المدينة، انفجرت المفرقعات مثل أسراب ذباب غاضب، تلوّثْ تنانين ورقيّة على أنغام الصنجات، وامتلأت السماء فوق نهر سايفون بصواريخ تطلق ألوان زاهية.

انضمت دزينة من الرجال إلى المحتفلين. خرجوا من كراج وركبوا سيارتَيْن كانتا في انتظارهم. شقّت السيارتان طريقهما ببطء بين الحشود، نحو القسم الأهدأ في المدينة. انعطفتا نازلتين باتجاه ثونج نهوت بوليفارد وتوقّفتا أمام السفارة الأميركيّة. كان مفترضاً أن تقوم الشرطة الفيتناميّة بحماية السفارة، لكنّها غادرت مواقعها

وانضمّتْ إلى الحشد المحتفل. ولم يتبقّ سوى جنديان أميركيان قرب البوابة المعدنية للمدخل الأمامي. عندما لاحظا السيارتَيْن، صاح أحدهما: «ممنوع الوقوف، هنا. غادروا المكان...» انقطعت بقية الجملة بسبب وابل الرصاص الذي انطلق من البنادق الآلية. في حين سقط الأوّل يعاني من جراح مميتة، هرع الثاني إلى إغلاق البوابة والصراخ في الميكروفون قبل أن يصمت الجهاز: «النجدة! إنهم يقتحمون المبنى». كانت الساعة الثالثة إلاّ ثلثاً من عام القرد.

إنّ الجنديين الأميركيين، في مبنى السفارة، أوّل ضحايا إراقة الدماء تسبّبا في انقسام أمّتهما لعدّة أسابيع وأشهر لاحقة، كما أجبرا الرئيس الأميركي والأمة الأعظم في العالم على الجلوس إلى طاولة السلام.

يحتلّ تيت، الرمز الهلالي للسنة الفيتنامية الجديدة، مشاة خاصة بالعنف. وعلى مرّ التاريخ، شهد عيد السلام هذا أحداث خيانة وهجمات مفاجئة، متفاوتة من عام إلى آخر. مع ذلك لا أحد يتذكّر أية توازنات تاريخية، له.

خلال تيت ١٧٨٩، انتصر الأمير كوانج ترونج زعيم الحزب الصيني فيهانوي. في تيت ١٩٤٤ أطلق الجنرال نجويين جياب قواته ضد الفرنسيّين. وأيضاً، في تي ١٩٦٠، هاجمت وحدات الفيتكونج تاي نينه في أول معركة رئيسيّة في الحرب الهندية الصينية الثانية.

مرّة أخرى، وقعت سلسلة أحداث غير مترابطة قادت إلى أزمة بسبب تجاهلها والخطأ في تقديرها. أعلنت جبهة التحرير الوطنيّة، في ١٧ نوفمبر ١٩٦٧، وقفاً لإطلاق النار خلال الأسبوع الأوّل من العام الجديد. وفي ١ يناير ١٩٦٨ نشرت صحيفة نهان

دان مقالاً بقلم رئيس التحرير حضّ فيها القوات المسلحة: «الندع الأمة بكاملها تتحرّك الآن لإنزال الهزيمة الماحقة بالمعتدي الأميركي».

٢ يناير ١٩٦٨، أوقفت دورية للعدو قرب قاعدة كهي سان الحدودية. وقتل في إطلاق النار المتبادل قائد فوج جيش فيتنام الجنوبي ورئيس أركانه. لكن لماذا يخاطر قائد رفيع الرتبة، كهذا، في التجوّل حول القاعدة الأميركيّة؟

٥ يناير ١٩٦٨، حصلت وحدات من جيش المشاة الأميركي الرابع، قرب ببليكو، على وثيقة معنونة: «أمر قتال مستعجل، رقم / ١/ ». شوهدت أفواج من الجيش الفيتنامي الجنوبي في المرتفعات الحرجيّة قرب الحدود مع لاوس، كمبوديا وفيتنام. وجمعت السي.آي.إي، خلال يناير، مزيداً من المعلومات حول تغيّر الاستراتيجية الشيوعيّة. بما تضمّنت نشرة الجنرال نجويين جياب بعنوانها: «فن حرب الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام»، التحذير الأكثر خطورة: «إنّ القوات العسكرية المعادية هي قواته البشرية، آلته الحربية وقواعده الخلفية. ويجب أن تعمل على إبادة قواته البشرية وتدمير آلته الحربية وقواعده الخلفية، في آنٍ معاً، خصوصاً القواعد الأكثر أهميّة»[١].

لم يَحظ تَحذير السي.آي.إي المشفّر «المغامرة الكبيرة» باهتمام القيادة العسكرية الأميركية. وبينما انشغل طاقم البنتاغون بتغطية خارطة حرب كبيرة لشرقي فيتنام، بدبابيس، أعلام وسهام، ثم استنتج أنّ القوات الفيتنامية النظامية تستعد لهجوم خلال المنطقة المنزوعة السلاح على طول التوازي السابع عشر؛ لم يأخذوا على محمل الجد التهديدات المحدقة بالجنوب بعواصم مدنه، مراكزه العسكريّة الرئيسية، قواعد التسهيلات الجويّة الحيوية، مخازنه

اللوجستية، مبانيه الحكومية والبعثات الدبلوماسية، أو ما سمّاه الجنرال جياب قواعد خلفيّة مهمة.

بدأت سايغون استعداداتها، منذ منتصف يناير، لاحتفالات صاخبة بالعام الجديد. تدفّق الآلاف إلى المدينة، لزيارة أقاربهم، للانضمام إلى أُسَرِهم، لتسليم بضائع. امتلأت السيارات بالهدايا. وكُوِّمت الأقفاص والسلال في الباصات التي اصطفت أمام حواجز التفتيش. لم تُملأ كلّ الأقفاص بالورود ولا كل السلال بالأرز. بل كان في بعضها تشكيلة من بنادق الاعتداءات، قنابل يدوية صاروخية، وعبوات ناسفة.

٢٣ يناير ١٩٦٨، أنشد طالب في جامعة سايغون شعارات معادية للأميركان، واحتفل بانتصار الأمير كوانج ترونج على الغزاة الأجانب في ١٧٨٩. أعلن راديو هانوي في ذلك المساء أنّ العام الجديد سيكون «لحظة الفرح بالنصر النهائي». لهذا السبب سيجري احتفال تيت قبل يوم ٢٩ يناير ١٩٦٨ ومرّت هذه الرسالة من غير أن يُلتقط معناها الحقيقي.

هكذا بدأ الأمر.

التقى نجويين فان سو، قائد فيتكونج محلّي مع عشرين رجلاً من كتيبة /سي١٠/ قبل منتصف الليل، في ٨٩ فان ثان جين ستريت. اجتمعوا في كراج للسيّدة نجويين ثي في، المناصرة للفيتكونج، بالقرب من مبنى السفارة الأميركيّة في سايغون. وزّع فان سو الأسلحة وحدّد الأهداف العامة. لكنّه لم يذكر شيئاً حول طريق العودة، أو طبيعة العملية ضد كلّ هدف منها. ترك هذا القرار لقائدَيْ السريّة، باي توين وأوت نهو.

في الثالثة إلاّ ربعاً انطلقت سيّارة بيجو وسيّارة تاكسي على طول ماك دينه قشي ستريت، وانعطفتا إلى ثونج نهوت بوليفارد.

عندما وصلوا إلى بوابة السيّارة قام مَنْ في التاكسي بإطلاق النار، فوراً، على حارسَيْ السفارة، فمات الأول، تشارلز دانيال، ٢١ عاماً، من دورهام، أما الثاني، ويليام. ي. سيباست، ٢٠ عاماً، من ألباني، أسرع إلى إغلاق البوابة.

في الثالثة إلا إحدى عشرة دقيقة فجراً، فتحت قذيفة بلاستيكية زنة ١٥ باوند، ثغرة، قطرها ثلاثة أقدام، في جدار السفارة. فصاح دانيال في الميكروفون: «النجدة! إنهم يقتحمون السفارة». وقبل أن يموت أطلق النار على أول اثنين من الفيتكونج اجتاز الثغرة في الجدار، فاتفق أن كانا زعيمي المجموعة باي توبين وأدت نهو. ومن هذه اللحظة فصاعداً غدا الداخلون بلا خطّة.

سمع الرقيب جامي تومسون وأدين ميبوست، اللذان كانا يطوفان حول السفارة بسيارة جيب م.ب، نداء دانيال المذعور. لكن عندما وصلا لنجدته حصدهما رصاص البنادق الآلية. فأصبح الأميركيون القتلى أربعة.

هرع رقيب المارينز رونالد هاربر إلى مبنى السفارة وانضم إلى العريف زاهورانيك قبل لحظة من اختراق صاروخ للباب السميك وجرح العريف. وكان الكولونيل جورج. د. جاكوبسون نائماً في فيلا، تابعة لمبنى السفارة، يشاركه فيها الرقيب روبرت. ل. جوزيفسون. والسلاح الوحيد الموجود في المنزل هو رمانة يدويّة م ـ٢٦.

أطلق رودي سوتو ٢١ عاماً، رقيب الحراسة على سطح السفارة، النار من بندقيته، وعندما ارتجّتْ، أطلق من مسدسه عيار ٣٨، على الظلال المتجّهة نحو المبنى الرئيسي. داخل المبنى كان ثلاثة عملاء سريّين من السي.آي. إي، واثنان من جيش الإشارة،

ومعهم قطعة سلاح واحدة، مسدّس. هرب الرقيب جيمس.س. مارشال، ٢١ عاماً، إلى سطح المبنى حيث وجدوه ميتاً[٢]. كان القتيل الأميركي الخامس.

وزّعت أسوشايتد برس خبر الحادثة. إذ كان روبرت توكمان، رئيس مكتب أسوشايتد برس في سايغون، يقف إلى نافذة غرفة نومه عندما سمع أصوات انفجارات تختلف عن أصوات مفرقعات الاحتفال. بعد ذلك رنّ جرس تليفون، ثم تلته فرقعة المبرقة الكاتبة من قارة آسيا إلى قارة أميركا. استغرقت البرقيّة ١٥ ثانية.

وانتشرت البرقية (في منتصف النهار في نيويورك)، في الساعة ٣,١٥ فجراً بتوقيت سايغون، كانتشار النار في الهشيم:

بوليتين:

سايغون (أسوشايتد برس) ـ هاجم الفيتكونج سايغون اليوم. يقول التقرير الأول إن صاروخاً أو قذائف هاون قد سقطت قرب قصر الاستقلال وأبنية حكومية أخرى والسفارة الأميركية.

تلاها الإيضاح الآنف الذكر[٣]:

الهجوم الأول:

سايغون (أسوشايتد برس) ـ في الوقت نفسه، دخلت العاصمة فرقة كوماندو انتحارية، ودخل ثلاثة منها، على الأقلّ، المبنى الجديد للسفارة الأميركيّة في مركز المدينة.

بعد ساعة ونصف من دخول الفيتكونج إلى السفارة، أمر الجنرال ويستمورلاند رجال الكتيبة ٧١٦ بدخول السفارة وتطهيرها. رفض الملازم أول المكلّف بالتنفيذ أن يقتحم السفارة في العتمة. وأوضح موقفه بصراحة: «لا أحد يمكن أن يدخل

السفارة أو يخرج منها». ومرّت ساعة أخرى قبل أن يكتشف روبرت فري، الثغرة التي خلّفها الصاروخ في الجدار. لكنّه عندما دخلها فجّر أحد الفيتكونج الجرحى نفسه بقنبلة يدوية.

وضاعت وسط الفوضى إمكانية تحديد الرقم الدقيق لعدد مقتحمي السفارة. وشهدت الساعات التالية إطلاق نار متقطّع من فوق السطوح المحيطة بالسفارة.

لم تكن الفرقة الانتحارية داخل المبنى أقل فوضى وارتباكاً، بعد موت قائديها وغياب هدف وآلية عمل محدّدين. وأصبح هدفهم الخروج وعبور خط النار التي تنهمر عليهم.

وجد الكولونيل جاكوبسون مسدّس كولت ٤٥ قتل به أحد الفيتكونج الذي اقتحم عليه غرفة نومه. أخيراً عبرت بوابة السفارة سيّارة جيب وفي إثرها مجموعة من الصحفيّين ومندوبي شبكات التلفزة. كانت الجثث مبعثرة في المكان، ومعظم الفيتكونج موتى، يحتضرون أو مختبئين. وأطلقت كاتي ويب مراسلة UPI، على المشهد «اسم دكان الجزار في إدين».

أُعلن عن تطهير السفارة، أخيراً، في الساعة ٩,١٥، أي بعد ست ساعات ونصف من طلب دانيال للنجدة! استقبل الجنرال ويستمورلاند، داخل السفارة، ببدلته المنشّاة، كوكبة من رجال وكالات الأنباء، وصرّح لهم: «أُصيبت السفارة بأضرار طفيفة والفيتكونج التسع عشر(٤) الذين اقتحموا السفارة قُتلوا جميعاً. وتقوم القوات الأميركية، الآن، بمطاردة المعتدين. . .».

لم يصدّق الصحفيّون آذانهم. فهذه أكبر هزيمة لأميركا في هذه الحرب، ويقف الآن القائد الأميركي وسط الخراب الذي يمثل هيبة أميركا في فيتنام ويعلن أنّ كل شيء على ما يرام! بينما دخلت وكالات الأنباء العالمية إلى المبنى لتحصي جثث القتلى، الأعداء

والأصدقاء، معاً، انهالت تقارير عن معارك طاحنة في أكثر الأماكن ازدحاماً بالسكان في جنوب فيتنام. لقد هجم الشيوعيون. وعدوان التيت لا يزال مستمراً.

لم تكن أنباء الجبهة العسكرية أفضل حالاً. كانت المفاجأة عامّة. فجنوب فيتنام يتعرّض لهجوم واسع النطاق، من كلا الجبهتين الداخلية والخارجية.

كان مركز قيادة بيين هوا يتعرّض للهجوم، والطائرات تحترق فوق المدرّجات. لقد حفر الفيتكونج خندقاً حولها. وعزلت قاعدة تان سون نهون الجويّة عن بقية أرجاء المدينة، وتتعرّض الآن لهجوم عدة كتائب فيتكونج. وأشارت التقارير إلى معارك طاحنة وسط سايغون حول قصر الاستقلال ومبنى الإذاعة.

وسقطت كل الخطوط الدفاعية التي شُيِّدت حول سايغون ومرافقها الحيوية. ونسفت سرية فيتكونج مستودع ذخيرة تحت الأرض، خارج مركز العمليات التكتيكية في لونج بينه. ونتج عن انفجاره تعطيل شبكتي الكهرباء والهاتف. وغدت الحرب تُدار، في فيتنام، على أضواء الشموع والبطاريات. واندفع قائد قوات موقع سايغون يتنقّل بين خرائطه على ضوء بطارية. لقد أمكن تحديد خمساً وثلاثين كتيبة معادية، حتى اللحظة، إحدى عشرة منها في منطقة سايغون وحدها!

سقطت المدينة في قبضة العماء والخوف. فالقذائف تطير فوق الأسطح، والمدافع تدك شوارع بوليفارد المشجّرة وأُشعلت النيران في الدراجات، الأبنية والأجساد. حجب الدخان حقيقة المشهد، حيث جثث لا تحصى، معظمها غطّاها الركام. تفجّرت شبكة المياه، احترقت الباصات، تحوّلت الكابلات الكهربائية إلى أفاعٍ تقذّم شرراً. ولم يبق إنشاً واحداً إلاّ وامتلأ بحطام الزجاج.

همدت المدينة، غدت مثل كوكب قاحل، مدينة زنزانات عميقة وقبور سطحية.

أفضل ما يقال عن المشهد السائد في طوابق كرافيل هوتيل إنها فوضى منفلتة العقال تقارب الرعب المطلق الذي سيطر على المراسلين المنهكين وأعضاء شبكات التلفزة المسرعين. لقد استنفر الجميع منذ الهجوم على السفارة الأميركية، وكلّهم يحاولون إرسال تقاريرهم غير أن معظم خطوط التيلكس معطلّة أو مشغولة. حاول رؤساء البعثات إرسال طواقمهم إلى الضواحي ـ لكن لم تعد هناك تسهيلات لوسائل الإعلام. صعد متلقّطو الأخبار على سطح بار ريكس، الذي خلا من مرتاديه. أما الذين لم يحتاجوا إلى الخروج ليتلقّطوا تقاريرهم. فقد استقرّوا داخل بعض المباني العسكرية، حيث كانت توزّع التصريحات، وأحياناً مبرّرات الانسحاب الاستراتيجي.

سايغون ـ تفيد التقارير الواردة، عن قتال عنيف في كلّ عواصم المقاطعات الرئيسيّة. خصوصاً تلك الواقعة على طول الخط من الشمال إلى الجنوب: كوانج، تري ـ هوى ـ دانانج ـ كوي، نهون ـ نها، ترانج ـ دالتا ـ بيين هوا سايغون ـ ماي ثوربين تري ـ في نهلونج ـ كان ثو ـ كا ماو.

اتّضح شيء واحد فقط، هو أنّ الطرفين يتكبّدان خسائر فادحة، لكن بينما كان الفيتكونج ورفاقهم الفيتناميون الشماليّون يهاجمون أهدافاً عسكرية محدّدة ـ ربما بسبب قلّة ذخائرهم، أو لأنهم أكثر وعياً سياسياً ـ راحت قوات العالم الحرّ تهدر ذخيرتها، التي لا تنضب، بالإطلاق على أي شيء يتحرّك، وتفجير أيّ شيء لا يتحرك مخلّفة زيادة مطّردة في قائمة الإصابات. ومن الواضح أيضاً أنه إن لُجمت هذه الفوضى، فستجري محاسبة سياسيّة ما

على هذه المذبحة، على مشهد الجثث المتفسّخة في أزقة القرى وشوارع المدن. مهما تكن نتيجة المعركة، سيحقّق الفيتكونج هدفاً واحداً، على الأقل دعاية النصر.

«ماذا يجري؟» زمجر والتر كرونكايت المدير الشهير لمركز نيويورك الإذاعي مزّق الورقة من جهاز التلكس: «اعتقدت أننا كنا نربح الحرب». كان مديرو شبكات التلفزة في العالم الحقيقي يقرضون أظافرهم وهم يزعقون ويشتمون مراسليهم على بعد /٩٠٠٠ميل/، طالبين منهم محاولة الاتصال مع مكتب سايغون. فالناس الغارقون في ترف عالم أميركا متلهّفون لسماع أخبار المعركة الصاخبة. وصرّح أحد نجوم السينما القدامى للصحافة أنه سيستأجر طائرة كي يطير إلى سايغون «ليقدّم للجنود دعماً معنوياً». فانبرى له محارب فيتنامي قديم وقال له «أنت شخص غبي».

أعلنت شبكة التلفزة الرئيسة أنّ لديها طائرة خاصة، جاهزة، لكن لم يستطع الطيارون إيجاد مهبط واحد في فيتنام لا يتعرّض للهجوم. وطرق مديرو شبكات التلفزة أبواب مسؤولي البنتاغون مطالبين بنقل أفلام أخبارية على متن الرحلات العسكرية الطبية إلى قاعدة يوكوتا الجويّة قرب طوكيو. وهذا يتطلّب إيصال الفيلم إلى مطار ما في حين أنّ كل الطرق مكتظّة بقوات عسكرية ومعظمها تسيطر عليها قوى معادية. لكن حتى إن أمكن إحضار الفيلم إلى مطار ما، لا بدّ من وجود مَنْ يصوّره وسط ذلك الرعب والفوضى، وهو يمثّل أنه لا يعبأ بالرصاص الذي يمكن أن يُصوَّب إلى رأسه، صدره أو بطنه، أثناء تصويره لهذا الفيلم. كان هناك أمر واحد أكيد وهو أن لا حاجة لمصوّر ليختار لقطة محدّدة. لأنه أينما أدار الكاميرا سوف يصور آلاف من المآسي الجديدة، تولد في لحظة.

دخل هجوم التيت يومه الثالث، إذا كانت حالة سايغون سيئة، فإن هذه المعركة هي الأسوأ بالنسبة إلى هوي، عاصمة فيتنام القديمة التي اشتهرت بجمالها العظيم وأنهارها اللطيفة، بأزهار اللوتس والقصور الرائعة المحيطة بـ«قصر السلام الكامل». كانت هذه المدينة قد نجت حتى الآن من أهوال التذابح الأخوي.

نجح مصوّر في الحصول على مقعد في رحلة عسكرية طبية. وعند هبوطهم شاهد المصوّر حرائق تتأجج في أرجاء المدينة. وبينما كان طاقم الطائرة ينقل المصابين إلى داخلها اقترب الطيار من المصوّر وقال له: «بودّي، يسعدني أنّني لست بينهم. أفضّل أن أتأكّد من عددهم».

أوقف قرب مهبط الطائرات ناقل ذخيرة. كان السائق رجلاً ورعاً، فسأله: أيها المصوّر، هل تحفظ السلام المريمي(*)؟

«لماذا السلام المريمي؟» سأله المصوّر مرتبكاً.

«انظر على ماذا تجلس». عندئذٍ فقط عرف المصوّر أنه كان يجلس على صندوق رمانات يدويّة. فإذا أصابت الصندوق رصاصة واحدة لن يجدوا من بقاياه ما يملأ مرطباناً صغيراً.

«عندما أوقّع على عقد رحلتي الثانية، لن أعرّض نفسي لذلك». نقر السائق بإصبعه فوق حمولته الخطيرة وقال: «إن الأنا مجرّد أحمق يلعب الروليت الروسيّة». صلِّ أيها الشاب كي لا يصيبوا ذلك الحمل الخراء...» غيّر السائق سرعة سيّارته وتمتم بصلاة أخرى. وشقّ طريقه بين هياكل سيّارات محترقة وجثث جنود وحيوانات متعفنة. لقد مرّت الحرب من هنا. كان المصوّر

(*) السلام المريمي: تحية جبريل للعذارء (ليكن سلام لك يا مريم إلخ..) المورد.

عصبي المزاج، وعلى درجة كبيرة من الثقة. إنّ الهدوء لن يدوم أطول من ذلك. لم يدم. إذ كان أمامهما على ضفة، هوانج جيمج، «نهر العطور»، قرب نجويين هوانج بريدج دبابتان أطلقتا قذائفهما، عيار ٩٠مم، على جدران الحصن الأميرالي على الضفة المقابلة، فجاوبتهما بنادق آلية من الضفة الأخرى. فارتدّت طلقاتها عن فولاذ الدبابتين المدرّع وأصابت كنيسة جان دارك، وارتدّت بعضها نحو السماء. لم يكن كلّ شيء هنا تحت السيطرة...» كما بدأت تقارير الجيش على تأكيده.

انطلق المصوّر نحو سيركل سبورتيف. أزّت فوق رأسه قذيفة خطّاطة، صاروخ /ب ـ ٤٠/. ألقى بنفسه في خندق وهو يلعن حماقته التي جعلته يتّجه صوب ضفة النهر المكشوفة. تجرّأ للحظة أن يرفع رأسه فوق مستوى الماء. رأى راية حمراء وعلى ساريتها نجمة صفراء، عندئذٍ أدرك كم هو الوضع بائس على أرض الواقع.

لم يكن المصوّر يبعد عن الحائط أكثر من ٢٠٠ قدم. والجيش الفيتنامي الشمالي يطلق النار على أيّ شيء يتحرّك. احتشدت جيوش صغيرة في لي لوا ستريت، حيث تتساقط القذائف كوابل من المطر. شعر أنّه هدفها الأول. فلم يعد يجرؤ أن يرفع رأسه. وضع الكاميرا فوق إسفلت الطريق، وجهها ناحية دبابةماينز قرب الجسر وضغط الزرّ المؤقّت قبل لحظات وتمكّن من إصابة برج الدبابة بصاروخ تناثرت قنابله العنقودية فأصابت قائد المارينز المقعّى خلف الدبابة. مات جنديّان وانقطعت قدم ثالث راح يصرخ وهو يشير إليها، في وسط الشارع، وقد تضرّجت بالدم. اعتقد المصوّر أنّ الدبابة قد انعطبت نهائياً. لكنّها انطلقت القهقري فجأة وهي تهدر، تدوّر برجها وتطلق النار. أصابت حائط القلعة ففتحت فيه ثغرة طار منها ثلاثة أجساد، في الهواء، سقط أحدها في النهر وغرق فوراً.

ثم وقع انفجار بيّن له أنّ هاونات العدو تصيب أهدافها بدقة، فانزلق أكثر في الخندق. ظهرت خوذة أميركيّة من وراء جدار، وأصدر أمراً، لم يستطع أن يسمعه لأن انفجار الهاون قد صمّ أذنيه. «انزل، انزل...» أومأ المارينز بيده. بعدئذٍ سقط صاروخان عديما التراجع فوق منزل. خرج ثلاثة أميركيّين من وراء مبنى وهم يجرّون مدفع بازوكا. ثبّتوه فوق برج حصن وأطلقوا ثلاث رشقات. وما إن انقشع الغبار حتى رأى البرج ثانية، راسخاً، تنطلق منه نيران قاتلة. رفع المصوّر رأسه المقلنس بالخوذة، للحظة فوق الخندق فانطلقت رصاصة تئزّ واستقرت في حائط على يمينه.

غامر أربعة مارينز وأطلقوا النار على الضفة القابلة. فلعلعت بندقية آلية أردت اثنين منهم. انبطح الآخران أرضاً ثم نزلوا إلى جواره في الخندق (فخامره، الآن، شعور تملّكي تجاهه). صوب أحد الجنديين بندقيته ـ م٧٩ـ وأطلق رمانة يدويّة على مصدر النار، من وراء جدار الحصن. دوّى انفجار تبعه دخان أسود ثم صمت. بعد أن انقشعت غيمة الدخان الأسود رأيت عبر الثغرة في الجدار شخصاً ببدلة صفراء يمسك رأسه بين يديه ويصرخ. لكن طلقة من بندقية ـ م١٦ـ أردته أرضاً. أزّت فوق رؤوسهم طلقات ثم ارتدّت عن جدار رخامي خلفهم. «انزلوا، انزلوا... هؤلاء السفلة يريدون نسفنا.. هيه، غونزاليس، لا تجلس هكذا وتستسلم للنزف. حاول مع ذلك الراديو... ألن يأتي الممثّل سونوفابيتش ويجعلنا مارينز مشهورين؟ يخرجنا من هذا الجحيم، ما رأيك بأولئك السفلة، نجوم هوليوود وأصحاب البيريات الخضر..؟.

«لا أستطيع الاتصال مع أحد، أيها الرقيب... العالم كلّه يبطبط. لا أستطيع أن أفهم شيئاً من تلك اللغة، يا يسوع...

اخرس!» صاح عامل الاتصال في الميكروفون. «لا شيء أيها الرقيب، سوى هذا الصخب. اسمع...».

«لا تُسْمِعني ذلك الهراء، غونزاليس، جرّب ثانية، لدينا...» أسكتته طلقة أ.ك، ٤٧، فسقط إلى الخلف، فاغر الفم، وبقعة دم حيث كانت خوذته.

كانت اللحظة المناسبة كي يهرب المصوّر. الطريق أمامه مليئة بالوحل. ركض بسرعة إلى ثغرة في جدار منزل. قفز عبرها وحطّ وسط الظلام. أصاب صاروخ جداراً مجاوراً، فأمطره بوابل من قطع الإسمنت والآجر. استقربه المطاف على الأرض، بجوار امرأتين فيتناميتين متكوّمتين في زاوية، تصّلبتا عندما رأتاه بقربهما. جلس لبرهة منذهلاً، يدلّك ركبته التي آذاها قليلاً أثناء عبوره الثغرة في الجدار. وتغلب المصوّر المحترف على الإنسان العادي فيه، فقام بتغيير فيلم الكاميرا. لقد آن الأوان كي يغادر هذا المكان؛ لديه فيلمان كافيان لإظهار أنّ العدو قد حوصر بقوة داخل جدران حصن هوي.

لم تتحرّك المرأتان، فقد جمّدهما الخوف. زحف المصوّر عبر ممر ضيّق ثم ركض محتمياً خلف صف بيوت خفيضة. وما إن خرج من المنطقة المواجهة للنهر حتى أصبح هروبه أكثر سهولة. وصل بعد عشرين دقيقة إلى تودام باجودا، بيت الله، الذي أقيم في فوكام كانال، كمركز لتقديم الخدمات الطبّية للمصابين المدنيين. فرأى تحت قبّته مشهد أنين ومعاناة مروّع، وأسوأ ما فيه منظر أطفال صغار يبحثون بين الجرحى عن آبائهم وأمهاتهم. الذين ربما سقطوا على الطرقات أو في الحقول حول المدينة. لم تكن المأساة في الأجساد مقطّعة الأوصال، بل في الأسر المقطّعة الأوصال. بالنسبة إلى مصوّر، هاهنا أبشع صورة

عن فظائع الحرب. غير أنّ استعصاء ما حدث في منتصف الفيلم ـ ربما كان ذلك بإرادة إلهية كي يكفّ عن التلصّص على مأساة البشرية. خرج من المكان، وتعلّق بحافلة تنقل دزينة من المارينز الجرحى. وكانت وجوههم الشاحبة آخر صورة رسخت في ذاكرته عن هوي. كيفما طوّف ناظريه كان يرى حصاد الحرب البشع[(٥)].

كان الفيتكونج يحظون بقسط كبير من أخبار التلفزيون الأميركي. ألقى الرئيس الأميركي خطاباً متلفزاً، بثّته راديو القوات المسلحة إلى الجنود في فيتنام، خاطبهم الرئيس جونسون بلكنته التكساسية المتشدّقة: «رفاقي الأميركيين، لقد كسرنا هجوم الفيتكونج وأنزلنا بهم هزيمة نكراء. . .» بدا للجنود الأميركيين، في ساحة المعركة، أنه لم يتجرّأ أحد بإبلاغ الرئيس عن آلاف الفيتكونج وأفراد الجيش الفيتنامي الشمالي الذين يحاصرون سايغون، كان ثو، بان مي ثوت، داناج أو هوي.

الجمعة ١ يناير، كان يوم شؤم بالنسبة إلى رئيس الولايات المتحدة الأميركية. ذلك أنّ الليلة قبل الماضية بثّت شبكتان ب.سي وسي.ب.س حدث اقتحام السفارة المروّع، في سايغون. واليوم طالعته صحيفتا نيويورك تايمز وواشنطون بوست بهذه الصورة على مساحة خمسة أعمدة في الصفحة الأولى: أحد مواطنينا الصفر الصالحين، ببزّته النظامية، يضع مسدّسه على رأس، آخر، فيتنامي يلبس قميصاً ذا مربعات وشورت أسود، ثم يطلق النار. . .

كان إدي آدمر، يصوّر الأسوشايتد برس، ومصوّر الن.ب.سي، فوسوو يقفان بجانب آن كوانج باجودا عندما شاهدا مارينزاً فيتنامياً يقود سجيناً يلبس قميصاً ذا مربّعات وشورت أسود ويداه مقيّدتان خلف ظهره. أدار فوسوو كاميرته الصوتية، وراح يصوّر المشهد. تقدّم اللواء نجويين نجوا لوان، رئيس الجيش

الفيتنامي الجنوبي، أشار بيده للحارس أن يغادر، ثم تابع حتى أصبح على بعد خطوتين من السجين، المطرق أرضاً. بهدوء، ودونما أيّة كلمة سحب لوان مسدّسه، ووضع فوّهته على رأس السجين وأطلق النار.

من المكان نفسه حيث أعلن الجنرال ويستمورلاند، لوكالات الأنباء العالمية، عن انتصارات قواته، بثّت وكالة أسوشايتد برس تلك الصورة عبر (الفاكس) إلى نيويورك، من هناك إلى كل أصقاع العالم. وتصدّرت صورة المأساة التي التقطتها إدي آدمز على الصفحات الأولى في صحف العالم كلّها.

يطقطق التاريخ أصابعه فيتناثر العالم حطاماً ولهباً. وينقسم التاريخ بتجرّد إلى رابح وخاسر - لكن عندما تحين لحظة التاريخ يغيب هذا التجرّد. ويؤرّخ كلا الطرفان نسخته الخاصة عن النصر والمجد. يبقى شيء واحد مؤكّداً: إنّ التاريخ سيسجّل الليلة الأولى من عام القرد باعتبارها بداية هجوم التيت.

وسيسجّل التاريخ أيضاً، أنّ المنتصر في هذه المعركة كان المنهزم في نهاية المطاف.

ماذا لو -.

ماذا لو - لم يسمح الجيش الأميركي لوسائل الإعلام أن تأخذ دورها الكامل في تغطية الأحداث بحرّية تامة؟

بأيّة حال، من المشكوك فيه أنّ القادة السياسيين والعسكريين الأميركيّين كان بوسعهم تأخير ردة فعل شعبهم غير الموافق على هذه الحرب، إلى أمد غير معلوم.

الحقائق:

بدأ هجوم التيت باقتحام السفارة الأميركيّة. وانتهى بـ٨١٧٣٦

إصابةَ ـ من الجيش الفيتنامي الشمالي ـ الجنوبي، الفيتكونج، الأميركي وكما في كلّ حرب كثير من المدنيّين.

من السخف القول إنّ القوات الأميركية كانت عاجزة عن هزيمة عصابات الفيتكونج. ففي نهاية المطاف، استطاع المقاتلون الأميركيّون التغلّب على اليابانيين في غابات بورينو، غوادا لقنال وأوكيناوا، مع العلم أنّ اليابانيين كانوا أفضل جيش في تاريخ العالم، مدرّب جيّداً ومجهّز ليخوض حروب أدغال. لكن الوضع في فيتنام كان مختلفاً. هنا كانت قوات الولايات المتّحدة مضطرة إلى محاربة الرأي العام العالمي.

وإذا جاز لنا اعتبار الحرب الفيتنامية أول (ونأمل أنها آخر) «حرب تلفزيونيّة» تكون عندئذٍ تيت أول «معركة تلفزيونية»، واحدة من سلسلة مآسٍ «إنسانية كبيرة»[٦]. تدخل البيوت الأميركيّة عبر الأقمار الصناعية. وبعد مجموعة تقارير لاحقة، سيطرت كآبة باردة على المسؤولين في واشنطن. وفي اجتماع مغلق مع الناشرين ورؤساء التحرير في أميركا، صبّ وزير الخارجية الأميركي دين روسك جام غضبه على تغطيتهم لأخبار الحرب عموماً، وعلى صورة آدمز، خاصة؛ «اللعنة، في صفِّ مَنْ أنتم؟».

المحاربون خلقوا الصور، وليست الصحافة. وقد اتهم العسكريون الصحافة، في عدة مناسبات، أنها مدمّرة، بينما يحبّ الصحفيون أن يسمّوا أنفسهم نقّاداً ملتزمين. الولايات المتحدة ديمقراطية، وتحتفظ للصحافة الحرّة بحق مقدّس. «إن علاقة تخاصمية، نقدية بين وسائل الإعلام والحكومة، بمَن فيهم العسكريّين، تعتبر أمراً صحّياً، وتضمن للطرفين القيام بواجبهما على أكمل وجه... وأفضل نعت أطلق على وسائل الإعلام هو أنها ليست كلباً مدجّناً ولا شرساً، لا بل، كلباً حارساً»[٧].

بالنسبة للبنتاغون، إنّ انتصارهم العسكري غير المشكوك فيه، في تيت مدّهم ببارقة أمل. أو ربما خُيِّل لهم. مع ذلك، تكشف الأحداث المستقبلية عن نتيجة أسوأ. لقد ساعد التلفزيون في فضح المافيات السياسيّة، الجنرالات الفاسدين، رجال الشرطة البربريّين والديماغوجيّين المتعطّشين للدم والمال، الذين كانوا يترأسون الجيش الفيتنامي الجنوبي. وأظهر أيضاً معاناة الفيتناميّين العاديين، وأنّ الفيتكونج، وقادتهم في الشمال، قد استغلوا بؤسهم بطريقة رائعة. غير أن الأكثر أهمّية هو المواطن الأميركي الذي تابع تغطية صحفية لا ترحم، وشاهد برعب متزايد انهيار معنويات جيشه في الخارج، وانتشار القلق في بلده.

كانت الحرب الفيتنامية صراعاً لم تستطع الآلة الخضراء الكبيرة (القوات الأميركية) أن تخسره ولم تستطع الولايات المتحدة أن تربحه. لقد كان هجوم تيت نقطة تحوّل حقيقية، كما تبيّن لاحقاً. وساهمت التقارير المتلفزة التي دخلت يومياً بيوت ملايين الأميركيين، في تعبئة الرأي العام الأميركي ضد تصعيده.

إنّ صورة موت رجل بقميص ذي مربّعات، على ناصية شارع، أكّدت للكثيرين عبر أميركا أنّ تلك الحرب قد خيضت لأسباب خطأ، في البلد الخطأ وعلى الجانب الخطأ.

كان العامل الحاسم في فيتنام صورة واحدة (من بين آلاف)، إثبات واضح على قداسة حريّة الصحافة الأميركية. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً اضطر الجنرالات الأميركيّون أن يحاربوا الرأي العام العالمي بدلاً من محاربة الفيتكونج وضحّى الجنود الأميركيّون بحياتهم بدون أية انتصارات بالمقابل.

(١) لقد حصل المؤلّف خلال وجوده في فيتنام على نسخة مصوّرة من هذه النشرة. والتشديد من عند الجنرال جياب.

(٢) ربما قتل برصاص صديقه أثناء تبادل إطلاق النار لتحرير المبنى.

(٣) في الوقت نفسه كانت راديو هانوي تبثّ على الهواء مباشرة مقطوعات شعرية من قصائد القائد الرفيق هو شي منه: ربيع فان ككلّ ربيع مضى/ هلّت معه انتصارات وطننا تملأ الفضاء/ وحّدت الشمال والجنوب لمحاربة قوات الأميركان/ العِدا/ تقدموا ـ فالنصر لنا/ لأمة/ تأبى الردى.

(٤) كذب فاضح. فقد كان بين الـ١٩ أربعة مدنيّين من طاقم السفارة. وتبيّن لاحقاً أنّ أحد سائقي السفارة، نجويين فان دو، كان عضواً نشطاً في الفيتكونج وقاد الهجوم على مبنى السفارة.

(٥) هذه القصة، وصف حي بقلم المؤلف لمشاهداته هناك.

(٦) فاز آدمز بجوائز عديدة عن صورته تلك وأبرزها جائزة البوليتزر، وصل فيلم فوسوو إلى شبكة أبناء الن.ب.سي في نيويورك، قبل عشر دقائق من بدء البث المباشر. وظهر أنّ شخصاً ما قد وقف أمام عدسة الكاميرا لحظة إطلاق النار، لكن ولا واحد من ملايين المشاهدين لاحظ أنهم لم يشاهدوا الجريمة. قام مخرج الن.ب.سي، نورثشيلد، بحجب الـ١٧ ثانية الأخيرة من الفيلم كي يطمس تلك الفظاعة بما أدى إلى تعتيم شاشة التلفزيون لمدة ثلاث دقائق.

(٧) كما في «هبوط القمر» أو عملية ميونخ(*)، خلال دورة الألعاب الأولمبية في ميونخ.

(*) في الأصل وردت كالتالي. الهجوم الإرهابي خلال دورة الألعاب...

(٨) ماجي. جين. وينانت سيدل، رئيس لجنة سيدل في وزارة الدفاع الأميركية، المعنية بدور الصحافة في العمليات العسكرية مستقبلاً.

(٩) بعد معركة تيت جاء وقت شغب الطلاب في الجامعات الأميركيّة، الذين أحرقوا بطاقات الاستدعاء إلى الخدمة الإلزامية، والاضطرابات في غيتوات السود.

الفصل السادس عشر

وسقط جدار برلين ـ ٩ نوفمبر ١٩٨٩

«إن الجدار العظيم، الذي صمّم كحاجز أمان أمام جحافل السباق البربري القادم من السهول، هو محاولة مكرورة، جدّاً، لاعتقال الزمن. ولم ينفع كما بتنا نعرف اليوم. فالزمن، ببساطة، لا يمكن اعتقاله».

انتصب الستار الحديدي عالياً، كرمز للطغيان، يمزّق أوروبا إلى شطرين على مدى جيلين. كان جزؤه الأسوأ صيتاً، حاجزاً إسمنتياً وأسلاك شائكة، قائماً في وسط مدينة برلين ويشطرها إلى شطرين، ويعذّب روح الأمّة. ندبة شنيعة، علامة رهاب الأجانب لإمبراطوريّة تحبس شعبها كي تمنعه من الهرب[1]. وأدّى الجدار على مدار السنوات مهمّته المطلوبة بفعالية ووحشية. إنه موت قُدَّ من إسمنت، أسلاك شائكة وأبراج مراقبة بشريّة تقمع التوق البشري إلى الحرية. قفز الناس فوقه، وحفروا الأنفاق تحته. خطفوا الطائرات كي يعبروه، وصدموه بالشاحنات. نجح بعضهم وأخفق معظمهم. وتضاعفت الصلبان البيضاء على طوله. رودولف أوبان ١٧/ ٩/ ١٩٦١. برنارد لونشر ٤/ ١٠/ ١٩٦١. إيرنست موند ٤/ ٩/ ١٩٦٢. القصة الأسوأ صيتاً بينها كانت قصة البنّاء الشاب بيتر

فيختر، ثمانية عشر عاماً، تُرك ساعات يحتضر بسبب نزف شديد بينما المصوّرون الغربيّون يلتقطون له الصور عبر الأسلاك الشائكة، وأعضاء الـVolkspolizei أسقط في أيديهم من شدة الخوف، حائرون ماذا يفعلون وهم يشهدون سكرات موته(٢).

لقد بُنيَ الجدار، أو DIE Mauer كما يسمّيه أهالي برلين، ليصمد مئة عام. لكنّه لم يعمّر طويلاً، حتى تحطّم بضربة صاعقة.

لقد أنجزت الشيوعيّة عملها الجبّار ذلك أنَّ قادة الحزب أنفسهم الذين أمروا ببنائه، أفرغوه من بنيته الإيديولوجية ودفنوا أنفسهم فيه. ومع ذلك، فعندما وقع الأمر، جاء محض صدفة.

١٣/آب/ ١٩٦١ وقعت شركة إنشاء الجسور في ألمانيا الشرقيّة، صفوف الآجر لتحكم الإغلاق على نصف برلين. لم يمضِ زمن طويل على ذلك التاريخ حتى حضر رئيس أميريكي شاب ليرى الـDie Mauer وقد هاله المنظر فمزّق الخطاب المكتوب، الذي جهد كاتب خطاباته كي ينجزه له في الوقت المناسب ليلقيه على أهالي برلين من على شرفة Scheineberg Rothaus؛ أدرك أنه لم يعد صالحاً وعليه أن يرتجل الكلام. وعندما احتشد أهالي برلين في الساحة، خرج إليهم وأشار من على الشرفة صوب الجدار البعيد وقال: «دعوهم يأتون إلى برلين» ثم تابع كلامه ثناءً على المدينة ومواطنيها المتألّمين التعبين لكن المتميّزين في حياتهم. وستبقى هذه العبارة على اقتضابها في ذاكرتهم أكثر من أي شيء آخر. نظر جون فيتزجيرالد كينيدي رئيس الولايات المتحدة الأميركيّة إلى الحشد، رفع يديه وقال بصوته الهادىء: «Ich bin ein Berliner».

بحلول خريف ١٩٨٩ كانت ألمانيا الشرقيّة تمور في عدة اتجاهات، كلّها مخيفة. ولم يعد بوسع حكامها إخفاء حقيقة أنّ

حياة أمّتهم عرضة لتغيير لا مفرّ منه. وأصبح التوتّر الداخلي جلياً، تحرّر البندول من الانبهار والكبت، إلى الانفعال والحماس. وأدرك كلّ أعضاء المكتب السياسي للحزب أنّ هذا الأخير أصبح أعجز من أن يوقف الحدث المحتوم.

قال الديكتاتور الروسي بريجنيف قبل اثنين وعشرين عاماً إنه لن يُسمح لأي بلد يدور في فلك الاتحاد السوفياتي، بالانفصال عنه؛ والآن مات واندفن هذا المبدأ. وعندما سئل الناطق الرسمي باسم اللجنة المركزية، نيقولاي شيشين، إذا كان هذا الأمر ينطبق على ألمانيا الشرقيّة، ردّ على مراسل التلفزيون الأميركي: «أنا واثق أنّ الوضع الحالي سيتعدّل. فقط امنحونا بعض الوقت». وأثار هذا التصريح، بعد تعميمه، حركة شعبية واسعة في ألمانيا الشرقيّة، فخرجت مئات الآلاف إلى الشوارع في تظاهرات صاخبة لعدة أسابيع متتالية. ورأى إيجون كرينز، رئيس ألمانيا الشرقية الذي جرى اختياره (لا انتخابه) مؤخّراً، نفسه في مواجهة معضلة حلّ مشكلة عصيّة على الحلّ. ذلك أنّ الشيوعيّين، أصدقاء عصره الحجري قد أُرسلوا إلى المنتجع. رحل إيريش هونيكر، حتى رئيس جهاز أمن الدولة. رئيس جهاز الـStasi(٣) المكروه، إريش ميلكي، أجبر على الاستقالة وفي أوائل نوفمبر ١٩٨٩ طالب الديمقراطي الليبرالي فانفرد جيرانس باستقالة الوزارة وكل الـVolksrat أيضاً، الشيء العصي على التخيّل قبل شهر مضى.

بدأ الأمر كلّه يوم اثنين في مدينة ليبزيغ حيث تجرّأ الموسيقي الشهير كورت موزارت، رئيس فيل هارموني الحجرة، ووقف يعلن أمام بضع مئات: «لا نستطيع الاستمرار هكذا» وفي الثاني من أكتوبر خرج إلى الشوارع ٥٠,٠٠٠ متظاهر، وبعد أسبوع تضاعف العدد إلى ١٥٠,٠٠٠ متظاهر. وفي ألكسندر بلاترز شرقي برلين

هتف نصف مليون عامل «السلطة في الشارع». وفي الثالث والعشرين من أكتوبر جُرِّد رجل ألمانيا الشرقية الحديدي، إريش هونيكر، من منصبه.

حاول الشيوعيّون قساة القلوب التعبير عن ولائهم فخرجوا في تظاهرة واهية وهم يرددون شعاراً مهترئاً؛ «نحن الحزب». غير أن هتافهم تلاشى وسط هتاف ملايين اندفعت خارجة من يل إلى أرفورت، من جيرا وستاد كارل ماركس مرددة: «نحن الشعب». وفي ٢٦ أكتوبر أوقف الفريق فريدهيلمرتش، رئيس شرطة برلين الشرقية، كلّ الإجازات لوحدات شرطته خشية أن يستغل مواطنوه المظاهرات كي يتسلّقوا الجدار(٤).

وبدأ الكريسماس في برلين في ٩/ ١١/ ١٩٨٩، وللدقة فقد بدأ في الساعة ١٨,١٥ من ذلك اليوم. كان جمهور تلفزيون ألمانيا الشرقيّة على موعد في السادسة والنصف مع مقابلة صحفية متلفزة على الهواء مباشرة مع الناطق الرسمي الجديد باسم اللجنة المركزية للحزب. ذكّر فيها الرفيق غونتر تشابوسكي بالإنجازات العظيمة للاشتراكية. قدّم تقريراً يبعث على التثاؤب ـ قبل أن يرفع أحد المراسلين يده، في الساعة السابعة إلاّ ثلاث دقائق. ويسأله «هو تشابوسكي، متى سيسمح للمواطنين بحريّة السفر؟» وجاء الرد صاعقاً: «يستطيعون أن يغادروا حيثما يريدون، ولن يوقفهم أحد». وحتى اليوم (وقت كتابة هذه السطور) من الصعوبة بمكان الحسم إذا كان الجواب عفوياً أم مدروساً. والأرجح أن تشابوسكي كان مأخوذاً بأحداث الانهيارات المتسارعة داخل بلده. وأياً يكن السبب فإنّ أحداً داخل القاعة أو خارجها في العالم كلّه لم يتوقع هذا الجواب. وقد ذُهل الجمهور للوهلة الأولى، قبل أن يحصل هرج ومرج داخل الاستوديو. وتنهال الأسئلة على المتكلّم الذي رفع

يديه ليهدّئ الصحفيين. ربّما أدرك فجأة أن اختياره للكلمات كان ديناميتاً سياسيّاً، وأنّه مضطر إلى إيضاح إجابته المتسرّعة. فأضاف: «إنّ هذه التعليمات لا تشمل حدود OOR المحصّنة. وعلى أية حال، فإنّ سلطات الحدود ستتلقى تعليمات بإصدار تأشيرات خروج لمن يريد المغادرة لبضع ساعات، ليوم، أو إلى الأبد».

كان أوت بوهر مهندس السياسة الخارجية لألمانيا الغربية يتابع الحدث على شاشة تلفزيون برلين الغربية. ولم يستطع أن يصدّق أذنيه، فطلب صديقاً له ليتحقّق من صحة ما سمع. وانطلق بعدئذٍ لمقابلة ويلي براندت رئيس الدولة الألمانية. وتعانقا باكيّين. وفي الوقت نفسه طلب رئيس البوتر بودستانغ من المبعوثين الوقوف وإنشاد النشيد الوطني.

لقد تأخّر رد فعل مواطني ألمانيا الشرقية كونهم تعوّدوا على الخداع. لكن وقرابة العاشرة من مساء اليوم نفسه بدأت الحشود تتجمّع قرب نقاط تفتيش مختلفة. أخرج أول الألمان الشرقيّين بطاقاتهم الزرق وطلبوا من حرس الحدود أن يسمح لهم بالمرور. وعلى مدى ساعة تقريباً بقي رئيس حرس الحدود محافظاً على سيمائه الحجرية. لقد علّمهم نظامهم طاعة الأوامر، ورغم أنهم تابعوا المقابلة الصحفيّة، لكنّهم لم يتلقّوا أية تعليمات رسميّة حتى حينه. وفي هذه الأثناء انتشر النبأ في المدينة كلّها، وسرعان ما تجمّع المئات والآلاف على جانبي الجدار.

بدأ الكورس يصيح: «افتحوا البوابة!» تسلّق شاب ألماني غربي جريء إحدى اللوحات التي تغطّي الجدار من الجهة الغربية، فتبعه العشرات، ثم المئات من الشباب المغامرين. ابتهجوا لذلك ولوّحوا باللافتات. وأسقط في أيدي حرس الحدود وسط ارتباكهم من رؤية تلك الجموع فوق رؤوسهم. فهم لم

يتلقّوا تعليمات من السلطات العليا. وفجأة فلت زمام الأمور كلياً. إذ فتح أحد الحرّاس بوابّة جانبية ليخرج بغية تهدئة الحشد؛ غير أنه سرعان ما وجد نفسه وقد نُحيَّ جانباً عندما اندفعت الدزينة الأولى مجتازة البوابة إلى الجهة الغربيّة. وتبعتها جحافل بشرية. وقف حرس الحدود الشرقيّين عاجزين تماماً، لا يدركون ماذا يجري، ولا ما ينبغي عليهم فعله لسد ثقب بدأ ينفث منه البخار المضغوط منذ ثمانية وثلاثين عاماً، في دولة المرجل البوليسي. وأطاح المندفعون بالشرطة جانباً، أو جرفوهم إلى الجهة الأخرى. وعندما حصل الخرق الأول وشاهد الحرس القريب من الموقع ما يجري، أسرعوا في إخبار زملائهم في نقاط الحراسة الأخرى، عن اعتقادهم أنّ أوامر عليا بهذا الخصوص قد وصلت. فبدأت نقاط التفتيش الأخرى تفتح بواباتها(٥)، من براندنبرغ إلى أوبربومبردك، من تقاطع التقاطع في هينريك هين(٦) شتراس إلى بورنهولمر شتراس.

انقلب عالم البرلينيّين رأساً على عقب في تلك الليلة. فقد صاح أحد رؤساء نقاط التفتيش على رجاله «دعوا الناس يمرون». وأصبح الشارع المؤدي إلى الحدود، عند انفاليد نشتراس، نقطة التقاء آلاف الـTrabis، تلك السيّارة المعجزة(٧) التي صنعت في الشرق، وسائقوها يضحكون يصرخون، أو يغنّون.

ربما تغيّر مجرى التاريخ لو رفع أحد الحراس بندقيّته وأطلق على الحشد، إلاّ أن رجال الشرطة الخائفين لم يفعلوا شيئاً سوى السير على طول قاعدة الجدار. يصرخون على السكرانين المحتشدين على قمة الجدار يلوّحون بزجاجاتهم الفارغة. وانطلق من مكبّر صوت شاحنة: «Burger von Berlin West, verlassen sie die Mauer Veuve cliquot versus Kalachnikov» لكن هذه

الفرقعات التي دوّت لم تكن صادرة من كلاشينكوفات، إنما عن سدادات زجاجات الشمبانيا. لم تُطلق أية رصاصة، ويمكن للمرء أن يزعم الآن، وعن حق، أنّ هذه هي المعركة الوحيدة في التاريخ، التي انتهت بدون سفك دماء.

«وأخيراً اقتحمنا الباب!» وشرب الحشد احتفالاً بذلك الحدث، مشروب البرغر الممتاز، ولوّحوا بزجاجاتهم، شرقاً وغرباً، وقدّموا مشروبهم المنعش للوافدين الجدد. وقدّموا الزهور إلى خفر الحدود كاظمي الوجوده. وسرعان ما اكتظت قمّة الجدار بالمتسلّقين الذين بدأوا يسقطون عنه، فوق رؤوس الغربيين المحتشدين في الجهة الأخرى وهم يندفعون إلى الأمام والوراء فيما كان يعرف سابقاً بـ«منطقة الموت». ولكثرتهم الآن لم يصل الأرض أي من السكارى الساقطين من علٍ.

ثم وصل، من بورنهو لمرتشتراس، رجل عجوز يلبس معطفاً فوق بيجامته، وقال: «كانت زوجتي قد نزلت لتنزّه الكلب لكنها عادت بسرعة، صعدت الدرج راكضة وهي تصيح «هيه، هينريك، انزل بسرعة، فالجميع ذاهبون إلى الغربية». فقلت لها «لا تهزري».

كانت أورسولا كرامر بين أوّل من تجاوزوا البوابة، فأغرقتها مستقبلتها ويسّي، من برلين الغربية، بالشمبانيا، كما يغرقون الفائز ببطولة سباق السيارات (Grand Prix) تعبيراً عن تقديرهم لنصره العظيم. وأجهشت أورسولا بالبكاء وهي تقبّل الغرباء.

تسلّق مراسل تلفزيون أميركي، بكاميراته المحمولة، قِمّة الجدار، وراح من فوق، «يخبر مشاهديه في العالم الحقيقي عن «الرائحة المتعفّنة للحريّة» وجعل خلفية تقريره صورة حشد يقتطع أجزاءً من الجدار الإسمنتي بواسطة الحبال والسلاسل. أمّا أوتي هوف، طالبة في الثانية والعشرين، من هيدلبرغ انحشرت، في

زيارتها الأولى إلى برلين، بين الحشد الكثيف والجدار الصلب كادت تختنق لولا وصلتها أيادي المنقذين ورفعتها إلى الأعلى. والتقت هناك جوشن كوليجوسكي، عامل في شركة تعدين، في الشرقية، وتعانقا بفرح غامر، غير مصدّقين (وبعد تسعة أشهر أسميا مولودهما، تشارلي، ثم تشارلي حاجز التفتيش، Checkpoint Charlie).

في الساعة العاشرة والنصف من تلك الليلة، طلب من نائب محافظ برلين والترمومبر أن يدلي بتصريح إلى Sinder freies Berlin، فقال «ليس لديّ تفسير لما يجري» بعدئذٍ وصلته قصاصة ورق، كتب عليها بقلم رصاص، من رئيس شرطته: «حشود كبيرة تتدفّق عبر الجدار. إن الوضع على الحدود قد خرج عن السيطرة». فما كان من مومبر إلا أن أنهى المقابلة قائلاً: «الآن، مكاني ليس هنا» ثم غادر الاستوديو وركب سيارته مباشرة إلى الجدار (Mauer)، وقد وجد سائقه صعوبة كبيرة في اختراق الحشود المحتفلة وهي تتراشق بالشمبانيا في Rurfürstendamm قبل أن يصلا إلى نقطة تفيش أنفاليد ينشتراس ليراقب عن كثب تدفق الناس عبر البوابة، أو من فوق الجدار.

وفي مركز شرطة كوميشنر قابلنا المسؤول عن بوابة قطاع براندنبورغ، كوميشنر رايز برونشتاين، ولم يستطع التحدّث إلينا وهمس للصحفي بصعوبة «لقد بُحّ صوتي منذ ساعة». وعلى مقربة من البوابة شاهدنا قطاراً من طراز S.Bahn يعبر الـSpree، وقد اكتظت عرباته بمسافرين تجمهروا خلف النوافذ. ولأول مرّة عبر القطار نقطة مراقبة فريدريك شتراس، بدون تفتيش.

واتصل الموظّف الأميركي المسؤول عن قطاع برلين الأميركي، بزميله البريطاني، في القطاع البريطاني، وسأله: «ما هو

وضعك يا ميشيل؟» فأجابه ميشيل بوتون «لقد عمّت الفوضى في قطاعنا».

وفي منطقة جلينيكر بروك، حيث كان يجري تبادل الجواسيس، على مدار ثلاثين عاماً مضت، رأينا شرطة الشرقية تستعجل طابور سيارات: «هيا، تحرّكوا إلى الأمام!» ورأينا سائق سيارة الـTrabi، الذي كان يختنق وراء غيمة دخان أزرق ينفثها عادم سيارته الرائعة، قال لنا وعيناه تغشاهما الدموع: «أمسك رأسي بيدي، ولا أزال غير مصدّق. تخيّل أنني سأسافر الليلة إلى Rurfürstendamm». هذا وعندما وصلت امرأة عجوز إلى Gedichtnis kirche في برلين الغربية جثت على ركبتيها وهمست: «شكراً لله، طالما حلمت بهذه اللحظة. لم أصدق أني سآتي إلى هنا قبل أن أموت». وبلغ ترحاب الغربيّين أقصاه عندما وصلت مجموعة نادلات من مقهى موسكو في Karl Mazx Allee ليتناولن القهوة والبسكويت في Karffre Kranzler في برلين الغربيّة، فرفض صاحب المقهى أن يأخذ منهن ماركاتهم الألمنيوم، وقال لهم: «هذا على حساب المحل كلوا قدر ما تريدون من Kuchen».

وبالقرب من نقطة تفتيش شارلي وقف صبِيّان يحملان لافتة كتب عليها «أهلاً بكم، لا رسوم عبور اليوم». وبلغت أزمة المرور أوجها عندما قرّرت مجموعة ألمان غربيّين «نريد أن ندخل»، وحاولوا فعلاً أن يعبروا إلى الجانب الآخر.

وسيطر على المدينة كلّها هرج ومرج. لجأ ضابط الشرطة إلى المحافظ، مومبر، يقول له: «سيّدي بدأ بعض المجانين يُعملون مطارقهم في الجدار عند براندنبورغ». في الواقع كان ناقبو الجدار قد بدأوا عملهم الهدام بالمعول، المطارق والأزاميل. فقد وصلت أوتا هوبينر مزوّدة بمطرقتها، وعادت بعدئذٍ تلوّح للصحفيين بقطعة

آجر ملوّنة انتزعتها من الجدار، بينما كان صديقها فريدل، يرقص فوق الجدار رقصة الجيغ الإيرلندية. وكانت قطعة الآجر تلك أفضل مثال على انتصار الجينز الأزرق على البزّات الرسمية.

وسرعان ما أضيئت قمّة الجدار بالشموع، وكنت ترى آلاف ألسنة اللهب الصغيرة تتراقص فوق الجدار بتلوّ بهيج وسط برلين؛ تعلن للعالم: «برلين حرّة».

أمّا أولئك الذين تجمّعوا أمام مقر الحزب لإظهار ولائهم الدائم، كان الزمن قد سبقهم بخمس دقائق الآن. فالساعة كانت حينئذٍ الثانية عشرة وخمس دقائق. والذين عايشوا ذلك الحدث بتفاصيله لحظة بلحظة لن ينسوا المشاعر التي تناهبتهم في تلك الليلة. تماماً كما جرى منذ مئتي عام في برج الباستيل ١٧٨٩، عندما حطّم المواطنون الفرنسيّون رمز اضطهادهم ـ صبّ هنا مواطنو برلين عام غضبهم على الجدار Mauer الشنيع.

بنى الجدار نظام قمعي، وقدّم له الغرب مساعدة هائلة عندما أعلن أنّ برلين ليست مدينة ألمانية، إنما حجر الزاوية الرئيسي في الصراع بين القوّتين العظيمتين. مرّت سنوات، ومعها رؤساء مختلفون، أمام الجدار. لوّحوا بقبضاتهم، وأطلقوا تصريحات، وكلها لم تغيّر شيئاً سوى أنّها أظهرت محدودية قوتهم في عصر نووي. مع ذلك، ورغم أن عشرين ياردة فقط كانت تفصل بين القوات الأميركية والروسية، فإنّ الأمر لم يصل إلى «أزمة برلين»، لأنّ المدينة حافظت على الحرب الباردة كبديل للحرب الساخنة. الآن وقد سقط الجدار، تستطيع الأمم الأوروبية الانطلاق في طريق بناء عالم أقل تهديداً بالخطر.

لقد كان Die Mauer أكثر من مجرّد جدار، كان نصباً تذكارياً للقمع، وككلّ الرموز حين تهوي أحدث ضجة هائلة عندما سقط.

بيد أنّ هذا الضجيج حُمِلَ على موجات الأثير التي طافت به الكون كلّه. وسيسجّل التاريخ أن آخر معركة في الحرب الباردة، التي دامت أربعين عاماً، قد خيضت بدون سفك دماء. ومع سقوط جدار برلين انتهى عصر الشيوعيّة.

ماذا لو. . .

ماذا لو انتظر خفر حدود ألمانيا الشرقيّة صدور الأوامر الصريحة لمنح تأشيرات الخروج؟

وفقاً لإفادات مَنْ شهدوا الحدث، فإن قدرة الـ Volkspolizei على وقف جحافل الحشد أمر مشكوك فيه. ولو حاولوا لانتهى الأمر بمذبحة جماعية. وهذا بالضبط ما كان يخشاه قادة الحزب في ألمانيا الشرقيّة، ورؤساؤهم في موسكو.

الحقائق:

في العاشر من نوفمبر، وقف نائب الـSED، هورشت شيدرمان، في الـVolkskammer، ليصف الأمر بإيجاز بليغ: «بدا وكأنّ أربعين عاماً من الشيوعيّة انزلقت فجأة من تحت أقدامنا». في الحادي والعشرين من ديسمبر، صدر بلاغ حكومي رسمي: «سيُفتح غداً معبر براندنبورغ في الساعة الخامسة عشر، وسيحضر الاحتفال الهام جداً، بمناسبة توحيد ألمانيا، رئيس الـ(DOR)، هيلموت كول، ومحافظ برلين والترمومبر[٨]».

في التاسع من مارس ١٩٩٠، شهدت ألمانيا الشرقيّة أول انتخاباتها الحرّة. وفي الحادي والعشرين من سبتمبر أنهت قوى التحالف الأربع حقوق احتلالها لبرلين. وأخيراً في الثالث من أكتوبر ١٩٩٠ قُرِعَ جرس الحريّة من Berlineily Hall، ورُفع علم جمهورية ألمانيا الموحّدة فوق الرايخستاغ الذي مضى على بنائه

قرابة مئة عام[٩]. وفي ذلك اليوم أُنزِلَ الشعار الشيوعي من فوق متحف ألمانيا التاريخي. وانتهى شعار جمهورية ألمانيا الديمقراطية باعتباره جزء من الامبراطورية الستالينية المتوفاة.

توحدت المانيا:

بدأت ألمانيا الجديدة في المدارس، المصانع، وفي الشوارع الرئيسيّة. وقبل ذلك كلّه بدأت في عقل الشعب؛ الشعب الألماني الذي عانى خمسين عاماً تحت أحد أكثر الأنظمة قمعاً، وذاك الشعب الذي بنى القوّة الصناعيّة العملاقة، عاش في عالم مشطور. وأمامه الآن مهمة بناء وإعادة توحيد صعبتين. وتحتاج ألمانيا الجديدة هذه إلى حسّ واقعي، لا فورة حماس، فيما يخصّ دورها الجديد في أوروبا. لكنها لا تحتاج إلى التشاؤم بخصوص كلفة هذا المشروع الباهظة. لقد أصبح بناء ألمانيا ضرورة تاريخية. وقد عرف الألمان أنهم كأمّة جيّدة، بإرادة ودافع قويّين، يستطيعان قهر التحدي.

مع سقوط الجدار The Mauer تناقص خطر التهديد بهجوم على أوروبا الغربيّة، وتناقص معه مخاطر رعب عالمية، رغم أن أخطاراً أخرى كامنة في ثنايا القرون القادمة. وانتقلت بؤرة الحرب من حقل الصراع العسكري إلى حقل التفوّق الاقتصادي.

أطلق كلوزويتز على الحرب «استكمال للسياسة» بوسائل أخرى، إلاّ أن الضرورات الاقتصادية المستقبلية ستغيّر هذا القول إلى «هي استكمال للحرب» بوسائل أخرى. فقد نرى حروباً اقتصادية بدلاً من الحروب الحقيقيّة. لقد أصبحت السوق العالمية مترابطة، وكلّ أمة تعتمد على جيرانها لتزويدها بالمنتجات، أو بالمواد الخام. بناءً عليه، فإنّ أي أمّة تسيطر على مصادر طبيعية كهذه تنسحب من هذا الإطار التبادلي، سيؤدي انسحابها إلى ردة

فعل مباشرة من قبل كلّ الأمم الأخرى. كما جرى الأمر مع العراق.

كان العامل الحاسم في برلين، عبارة رسمية غير محكمة الصياغة صدرت عن رئيس حزب.

الهوامش

(١) عندما بنيَ الجدار في ١٩٦١ هرب (٢,٧) مليون ألماني شرقي طالبين اللجوء في ألمانيا الغربية.

(٢) ١٧/آب/ ١٩٦٢ وقع الحادث بين Charlotten and Narkgropenstrasse وجرى أثناء جنازته اعتقال خمسة مراسلين بريطانيّين وأميريكي واحد.

(٣) يدار الجهاز من قبل (٨٥٠٠٠) عميل. تحتوي ملفاتهم على معلومات مفصّلة عن (٦) مليون مواطن، تتضمّن أنباءً سارة مثل أحد أعضاء فريق التزلج على الجليد المشارك في بطولة العالم قد مارس الحب مع إحدى أعضاء الفريق بين ٨,٣٠ ـ ٩ ليلاً.

(٤) لقد تسلّق آلاف الألمان الشرقيين «الحاصلين على إجازات أسوار سفارتي ألمانيا الغربية في براغ وبودايست، طالبين اللجوء السياسي.

(٥) يفترض أنّ رئيس الولايات المتحدة جورج بوش قد سأل نفسه: «الماذا لم نُخْبَرْ بذلك؟».

(٦) ربما اعتقدوا أن ذلك وفقاً لأوامر عليا.

(٧) كتب هين قبل نصف قرن من ذلك:

(٨) سميّت بالسيارة المعجزة، لأن سيرها بحد ذاته كان معجزة.

(٩) النص الرسمي، باللغة الألمانية.

(١٠) قبل سبعين عاماً من اليوم، أعلن فيليب شيدمان أول جمهورية ألمانية؛ النص باللغة الألمانية.

الفصل السابع عشر

العامل صفر الخليج، ١٧ يناير ١٩٩١

«لأوّل مرّة في التاريخ ينهزم جيش برّي أمام قوات جويّة».

الجنرال ماك بيك، قائد أركان
القوات الجوية الأميركية، ١٩٩١

قال الجنرال شوارزكوف، قائد قوات التحالف، وعملية عاصفة الصحراء، في حرب الخليج، للكولونيل غراي، قائد سرب الطائرات الأولى الخاص، «إذا كنت تستطيع أن تضمن ليَ النجاح التام، إبدأ الحرب إذن». بهذه العبارة البسيطة كُلِّف الكولونيل بعملية غاية في الدقة، وهي تدمير محطّتَيْ رادار تسيطران على الكوريدور الجوي المفضي إلى بغداد. وقد وُضِع تحت تصرّف غراي سربان من طائرات الهيليكوبتر المهاجمة، كلّ منها يضم ست طائرات[١]. وكان قد جرى مسبقاً تحديد موقعي الرادارين ٢٦كم و٣٦كم على التوالي داخل الحدود العراقية، بواسطة صور جويّة التقطتها طائرات U25 الأميركيّة، انطلقت من قاعدة في مدينة الطائف. ويتطلّب تدمير القاعدتين هجوماً دقيق التوقيت والتنسيق بحيث لا تستطيع محطّة أن تنبّه الأخرى.

بدأ الهجوم في منتصف ليلة ١٧ يناير ١٩٩١، حالكة الظلمة، طار سربا الطائرات دون مجال التقاط الرادار. فوق الكثبان الرملية. يرشدهما إلى هدفهما أربعة أقمار صناعية. رأى الطيّارون هَدَفيهم عن بعد ستة كيلومترات. فارتدى الطيارون، من أجل التأكّد النهائي من الهدف، خوذاً ليلية تنير المشهد كما لو أنه يستحم بضوء القمر. عندما تقلّصت المسافة إلى ثلاثة كيلومترات فتحت الأباتشي نيرانها: ٣٠ صاروخاً، ١٠٠ قنبلة صاروخية، وحوالي ٤٠٠٠ طلقة عيار ٣٠مم، من رشاشاتها الآلية أطاحت بصحون الرادارين، صواريخهما ومحطاتهما الإلكترونية. واندفن طاقم الرادارات تحت الأنقاض. كانت الساعة آنئذٍ ٢,٣٨ فجراً.

أثناء تنفيذ هذه العملية، أُنزلت فرق كوماندوس بريّة، مشكّلة من قوات من البحرية الأميركيّة، دلتا فورسيز، US آرمي رانجرز وبريتش SAS، داخل العراق لتعطّل محطات حيويّة أخرى. هاجموا أهدافهم سيراً على الأقدام، فدمّروا مواقع قيادية وقطعوا خطوط الاتصالات. وخاضوا معارك بطولية فردية كتلك التي تشاهدها في أفلام مفبركة. ثم نصبوا أنظمة اتصالاتهم وإرشاداتهم الخاصة: صحون بثّ قابلة للطي. أجهزة استقبال صغيرة جداً تعمل بواسطة بطاريات ـ كاديوم ـ فضّية. آلات تسجيل صغيرة جداً تسجّل المعلومات بالسرعة العادية، ثم بثوا رسالتهم عبر أجهزتهم. فالتقطها مركز قيادة العمليات. بعد إتمام مهمّتهم بنجاح، حضر سرب طائرات هيليكوبتر أخرى وأعادت تلك الوحدات البرية من أماكن متفّق عليها مسبقاً[٢].

فوقهم في سماء الليل كانت تسبح أمواج إلكترونية تحدث سداً كاملاً يمنع أية اتصالات عبر سماء العراق كلّه. وحلّقت أول دفعة من طائرات التحالف في سماء العراق بأمان، وتوجّهت إلى

تنفيذ مهمّتها الأولى في قصف بغداد، كان عمر عاصفة الصحراء حينئذٍ ساعة واحدة.

بالنسبة إلى الأهداف العمليّة، إنّ الحرب قد انتهت تماماً.

لكن كيف بدأت! في صباح ٢ آب ١٩٩٠، تصدّر وسائل الإعلام كلّها، خبر أذهل العالم «لقد احتُلَّت الكويت» وذُيِّل بمكالمة من مسؤول نفطي كان يتناول فطوره على شرفة في مدينة الكويت: . . . إني أرى أسراباً من طائرات الهيليكوبتر. . . دبابات تزحف نحونا. . . انفجارات وغيوم سود حول قصر السيف. . .» ثم صمت المتكلّم.

اقتحمت المدرّعات العراقية حدود الكويت وتوغّلت فيها حتى وصلت الحدود الكويتيّة السعودية. لقد أخاف صدام حسين جيرانه باحتلاله المفاجىء لمشيخة الكويت النفطية، وتسبّب بأزمة نفطية في أسواق البورصة العالمية. وتحسّس العالم الصناعي حرارة الموقف. كانت الخشية من بسط سيطرته على مخزون هائل من احتياطي النفط العالمي. ولاحت في الأفق أزمة نفطية جديدة. لقد كان هذا الأمر جوهر التحدّي للمصالح الاستراتيجية الأميركية خلال الحرب الباردة ـ المنصرمة حديثاً، واختباراً لنواياها السياسية[٣].

كان الحماس في بغداد على أشدّه، وطلبة المدارس يهتفون «بالروح بالدم نفديك يا صدام». وصوره، من كل الأحجام، تملأ جدران البلد وواجهات دكاكينها. وعندما سأله أحد المراسلين الغربيّين عن شعوره تجاه هذه المداهنة، أجابه صدام: «لست أنا من يفعل ذلك، بل شعبي» فقد كان صدام بالنسبة إلى شعبه تجسيداً لصلاح الدين، «سيف الإسلام»[٤]. وهو بدوره يطمح في امبراطورية إسلاميّة موّحدة. وهذا ما لا تسمح به القوى الغربية. يساندها مزوّدوها بالنفط الرخيص منذ ١٥ عاماً.

لقد أفضى الصراع بين الإسلام المتطرّف والنُخَبُ الحاكمة في البلدان الإسلاميّة إلى الحرب الإيرانية ـ العراقية. وبعد انتصاره على ملالي طهران أصبح العراق «الولد المدلّل» والمستفيد من حالة التهدئة تلك. لقد رأى الغرب في صدام حسين، السُنّي، شخصاً قادراً على لجم آية الله الخميني ووقف زحف المدّ الديني إلى داخل منطقة الخليج العربي الغنيّة بالنفط. فأسرعت أميركا بتقديم قرض ضخم للعراق من أجل تنمية زراعته. لكن صدام استخدمه في شراء معدات أسلحة نووية. علاوة على ذلك، فقد أنفق معظم وارداته النفطيّة على برامج إعادة تسليح طموحة جداً. غير أنّ هذا التوجه أقلق إسرائيل وخرق، من الناحية السياسية، المفهوم الغربي لمسألة التوازن في الشرق الأوسط. ويقضي هذا المفهوم بعدم السماح لأي بلد أن تحوز سلاحاً كهذا يُهدّد به جيرانه. ومصالح الغرب النفطية في المنطقة. غير أنّ الرأي العام الغربي تغيّر حيال صدام حسين بعد مشاهدته لصور المجزرة التي نفّذها بحق أكراد حلبجة (١٦ آذار ١٩٨٨). عندئذٍ أوقفت أميركا كل قروضها له، فبدأ يعاني أزمات خانقة[٥].

لقد تكبّد العراق في حربه مع إيران خسائر فادحة في الأرواح والأموال، وتوقّفت الإمارات النفطيّة، مموّله التقليدي والمستفيد المباشر من حربه مع إيران، عن تقديم المساعدات المالية فوجد صدام الحلّ في وضع يده على إحدى مشيخات النفط. والكويت هي الأقرب إلى حدوده. وعندما سلّمته السفيرة الأميركية جلاسبي رسالة شفهية، اعتبرها صدام حسين، رسالة استحالة من الرئيس الأميركي جورج بوش[٦]. بدءاً من هذا الخطأ القاتل في الحسابات تحوّلت عمليّة احتلال الكويت رحلة طويلة، بالنسبة إلى صدام

حسين، من الحماقات والتناقضات، وكانت نصائح قادة استخباراته حمقاء في تفاؤلها.

منذ سنوات والشرق الأوسط برميل بارود يتكاثر بسباق تسلّح عالي ـ التقنّية[٧]. وقد امتلك العراق سلاحاً كيمياوياً (غاز سام) مفعّل ويمكن تحميله على صواريخ باليستية[٨]. إضافة إلى ٦٠٠٠ دبابة، ٦٠٠ طائرة حديثة، ومليون جندي محترف، بينما كانت قوّات الحرب الباردة ـ المنصرمة، خصوصاً قوات الولايات المتحدة الأميركية، منشورة من الشرق الأقصى حتى أوروبا الغربيّة.

عندما احتل العراق الكويت / ٢ آب ١٩٩٠/ أصدر مجلس الأمن القرار / ٦٦٠/ بإدانة الغزو. وطرح مخطّطو الحرب في واشنطن سؤالاً حسابياً: هل نستطيع إخراج العراق من الكويت بالقوات المتوفّرة هناك؟ وجاء الجواب العسكري بالإيجاب غير أن السياسيّين اقترحوا تشكيل جبهة موحّدة لشرعنة الحرب. فبدأ وزير الخارجية جيمس بيكر جولة عالمية تمخّضت عن تحالف دولي. شاركت بعض الدول بالجنود، وبعضها الآخر بالسفن والطائرات، واكتفت دول أخرى بتقديم دعم مالي[٩].

كان السؤال: هل يمكن إنجاز المهمّة بدون وقوع إصابات كبيرة؟ وجاء الجواب بالإيجاب أيضاً. ويكمن السرّ في القضاء على عتاد العدو باستخدام التقنّية الحربيّة الحديثة. واقتضت الخطة سيطرة تامة على المجال الجويّ بهجوم ثلاثي الأبعاد: المستوى الأدنى ويقضي بإبادة التشكيلات العسكرية داخل العراق. وهذا تقوم به طائرات الهيليكوبتر وفرق عمليات خاصة؛ المستوى الأوسط، منع العراق من استخدام مجاله الجويّ، بواسطة طائرات الأسطول الأميركي هاوكيزي ٢، أواكس ي٣ وجوينت ستارز؛

المستوى الأعلى، مراقبة ساحة المعركة عن بعد ٣٦٠٠٠كم بواسطة عدة أقمار صناعة جيو ـ ستيشينيري ستلايتس، KH-11 Big Bird. وهذه لم تستخدم سابقاً. ولا يستطيع أحد أن يتنبّأ بنتائجها. طلب من الجنرال شوارزكوف القائد الأعلى لقوات الحلفاء[١٠] أن يعدّ برنامجاً بمستويين ملاذ الصحراء (سيطرة وتعزيز) وعاصفة الصحراء (هجوم).

تحوّل ساحل الخليج ومرافئه في الدوحة، أبو ظبي، البحرين، الدوحة، وجوبايل، إلى رصيف بحري أنزلت عليه المدافع والطائرات، الشاحنات، الذخيرة والأطعمة... وانتقل نصف مليون من جنود التحالف، من سلطنة عُمان إلى العربية السعودية عبر خط التابلاين، ليتمركزوا في مواقعهم المحدّدة. وبُنيت قواعد جويّة على جناح السرعة، أطلق عليها «قواعد على العظم» لأنها لم تزوّد إلا بالأساسيّات: مدرّج عربة اتصالات وتحكّم جوي، بعض ناقلات النفط، وبعض الخيام المكيّفة كملجأ للطاقم الأرضي والطيارين. ولا يفوتنا ذكر الأكثر أهمية ـ أسراب الطائرات الأميركية F16 Fighting Falcons F15C، وبُنيت قواعد أخرى مشابهة لطائرات التورنادو البريطانيّة والميراج الفرنسيّة، وسط أميال من مرجل رملي مترامي الأطراف.

* * *

ارتكب صدام حسين خطأً قاتلاً في قراءته لنوايا الغرب فقد تصوّر خطأً، كما تبيّن لاحقاً ـ أنّ المواطن الأميركي أو الأوروبي لن يقبل أن تشنّ بلده حرباً صليبيّة من أجل البترول. لا بدّ أنه فوجىء بشراسة الأميركان في تدمير العراق. وقد اتضح ذلك جيّداً في ٩ يناير ١٩٩١، في الاجتماع الذي ضمّ وزيري خارجيتي أميركا والعراق جيمس بيكر وطارق عزيز في جنيف. حيث سلّم

بيكر إلى عزيز رسالة قاسية اللهجة لدرجة أنّ عزيز رفض أن يستلمها، تركها في طاولة الاجتماع وغادر عائداً إلى غرفته. (يقال أنّ بيكر أبلغ عزيز أنه في حال استخدم العراق أسلحة كيمياوية فإنّ أميركا ستقصف بغداد بالسلاح النووي. على الأقل، تلك كانت الرسالة العامة، لكن ما لم يقله بيكر لعزيز هو أن البارجة ويسكونسون. الراسية في الخليج، تحمل على متنها ثلاثة صواريخ توما هوك تحمل رؤوساً نووية.

ويدخل صدام حسين معركته «أم المعارك».

وقع أول هجوم على بغداد قبل ساعات من فجر ١٧ يناير ١٩٩١، بعد دقائق من تدمير طائرات الهيليكوبتر أنظمة الاتصالات الإلكترونية العراقية. وقامت الأواكس بتأمين تعمية كاملة للمجال الجوي العراقي، وللتنبيه من أي طائرات معترضة، جرياً على المبدأ القائل: «تزويد الطيارين بالمعلومات يطيل أعمارهم ويزيد عدد ضحاياهم».

كان الأمر على درجة من التعقيد يصعب تصديقها. بينما يستطيع قائد الطائرة Luftwaffe، أثناء الحرب العالمية الثانية أن يقود الطائرات الأخرى مثل Messerschmitt وfocke Wulf أو حتى Spitfire، فإنّ هذا متعذّر الآن. فلكل طائرة طيّار متخصّص وعلى درجة عالية من التدريب والاختصاص.

شهدت قواعد طائرات قوات التحالف نشاطاً محموماً. وأعِدّت ٢٤٣٠[١١] طائرة من أجل العمليات، بدءاً من دييجو جارسيا في المحيط الهندي إلى القاهرة، من أنجرليك إلى ست حاملات طائرات في الخليج والبحر الأحمر ومن قاعدة باركسدال[١٢] الجويّة انطلق سرب قاذفات B-52s مزوّد بصواريخ كروز[١٣]. وكانت قد سبقتها أسراب U2R، تحلّق على ارتفاعات

عالية، وطائرات TR1[١٤] الغامضة. EA6B و١٨ FA هونتس F4G ويلد ويزلر تطلق صواريخ HARm الدوّارة(*) مضادة للصواريخ المشعّة، على صحون الرادارات بينما يجري تعطيل أنظمة الاتصالات العراقية من قبل وحدات التحالف المختصة. وأُنيط بطائرات التورنادو مهمّة إلقاء قنابل JD 233 الخاصة بتدمير مهابط الطائرات (لذلك ستضطر إلى الطيران على ارتفاعات منخفضة، وبالتالي سينزل بها أكبر عدد من الإصابات) يحتاج هذا الأسطول الجوي، للتزوّد بالوقود جواً، إلى ستين طائرة تزويد. استعدت البارجتان ميزوري وديسكونسين إضافة إلى قاذفة صواريخ كروز سان جاسينتو، الأكثر فتكاً بين الجميع كان، آخر مبتكرات التقنية الحديثة، الطائرة الشبح F117A، التي لا يكشفها رادار وتحمل قذائف ذكية توجّه بالليزر، GBU 27 زنة ٤٥٠كغ، تعمل كمبضع الجراح في أي هدف تصيبه.

مركز القيادة العليا لقوات التحالف، مبنى وزارة القوى الجوية السعودية، الساعة ٢,١٥، يوم ١٧ يناير ١٩٩١.

قال الجنرال شوارزكوف: «أوكيه، لنبدأ العمل إذن». أقلعت طائرات من قواعد في العربيّة السعودية، وسرعان ما أصبح ذيل النار الذي تنفثه مجرّد ومضة في ظلمة الليل. وما حدث بعد عشرين دقيقة يفوق أي وصف لحرب النجوم أو التوب غَنْ. ظلال تشبه وطاويط سود عملاقة تنسلّ عبر سماء ليل بغداد ـ طائرات لم ترها طائرات العدو المعترضة أو مضاداته الأرضيّة. ولا يحتاج طياروها إلى قنابل مضيئة ـ كما في الحرب العالمية الثانية ـ ليروا

(*) التي تبحث عن أهدافها ـ المترجم.

أهدافهم، ذلك أن شاشات الرؤية الليلية تُظهر لهم كل شيء وكأنه في وضح النهار. متشرنقين داخل كبسولاتهم الفضائيّة المستقبليّة، نظر الطيارون في أنابيبهم الكاثودية الخضراء(*)، ركّزوا أشعّتهم على أهدافهم المفترضة، فتكفّل الكومبيوتر بالمهمّة المتبقّية. يصدر الأمر الأول لإسقاط القنبلة: «تحديد الهدف!».

يأتي الرد المعتمد: «جرى تثبيت الهدف».

«تُفَعَّل رادارات القصف ـ الأوتوماتيكي». عملية مكلفة لكنها مضمونة.

قامت ٣٠ طائرة شبح F117A بتنفيذ الضربة الأولى فوق بغداد، في الساعة ٣ فجراً[١٥]. أُلقيت أول قنبلة على المقسم المركزي للاتصالات الهاتفية. ثم تتالت الانفجارات في المدينة. «جرى تثبيت الهدف». كانت طائرات الشبح F117A مكلّفة بتدمير ٣٤ هدف حيوي، ١٣ منها داخل وحول العاصمة بغداد. وجرى تدمير هذه الأهداف، جميعاً، بالضربة الأولى. وعادت الطائرات إلى قواعدها قبل أن يشعر العراقيون بقدومها. وعندما تحدّث، القائمون على المدفعيّة المضادة للطائرات، الناجون من غارة القصف الأولى عن هجوم طائرات الشبح، قام جهاز الأمن السري، العراقي، باعتقالهم بتهمة ترويج إشاعات كاذبة.

أفاق العراقيون مذعورين من صفارات الإنذار، دويّ المدفعيّة والصخب والفوضى.

صدح صوت مراسل عبر شبكة السي.ن.ن: «شيء ما يجري في الخارج... هذا شيء مخيف، يبدو مثل عرض ألعاب نارية

(*) أشعة الكاثود.

في الرابع من تموز. . . إنها تتقدّم، فوق فندقنا. . . بوسعكم سماع دوّي القنابل. . . ».

جَنّت المدينة التي يلفّها الظلام. وَخَطت سماء الليل خطوط أضواء ملوّنة صادر عن قذائف منحنية المسارات. كانت ألسنة اللهب الصادرة عن فوهات المدافع الكبيرة تعكس ظلال الأبنية العالية، ومثل عاصفة رعدية شيطانيّة، تداخل صخب دوّي المدافع، انفجار القنابل، فرقعة البنادق الآلية وعويل محرّكات الصواريخ الساقطة من السماء. وميض نار، هسيس هائل فانفجار هدف جديد. هذا كلّه من أول ٥٢ صاروخ كروز تُطلق على العراق[١٦]. كانت الكاميرات المثبتة على رؤوسها تحدّد الهدف وتقارنه مع الصورة المخزنّة في ذاكرتها، ثم تتجه مباشرة إلى الهدف. قَضَتْ صواريخ الكروز والقنابل الموجّهة ليزرياً على كل المراكز القيادية وبطاريات الصواريخ المضادة للطائرات، بينما كانت دفعة جديدة من طائرات التحالف في طريقها لتنفيذ مهمة جديدة. في تلك الليلة جرى تدمير قرابة خمسين هدفاً حساساً، بينما كانت كاميرات الـCNN تمطر شاشات العالم بصور الصواريخ السابحة في سماء بغداد الغارقة في الظلمة. وصور للمدفعيّة المضادة للطائرات العديمة الفعالية. لم توجّه عدساتها. نحو طائرات الشبح F117A إنما إلى الطائرات الجاثمة على متن الأسطول البحري. وأظهرت للمدفعيّين العراقين شاشات رادار عادي كتلك المستخدمة في حروب قوامها هجوم بشري بري، في حين كان القصف مستمراً باتجاه الأفق.

كان المراسلون الأجانب يبثّون تقاريرهم من على شرفات فندق الرشيد. ولم يخطر لأيٍّ منهم أن الريّس صدام حسين الذي تطارده قوات التحالف موجود تحت الفندق في ملجأ محصّن ضد الزلازل والقنابل النووية. لقد بنى هذا الملجأ سويّديون استفادوا

من بحوث هندسية جرت بعد زلزال كاليفورنيا. وقد بُنيَ هذا الفندق الفخم بالرخام الأبيض منذ سنوات مضت وللهدف نفسه، استخدام الغربيّين كرهائن ضد القصف الجوي.

عندما أشرقت أول خيوط الشمس عند الأفق، خرج البغداديون من ملاجئهم بعد رعب الليلة الأولى، لكن ليست الأخيرة، بعد القصف، ليشاهدوا الخراب الذي أحدثته القنابل. والدفاعات الجوّية قد تحطّمت، سيارات الجيب تجوب الشوارع لتوزّع الأوامر بسبب انهيار شبكة الاتصالات الهاتفية. لقد تفوّقت طائرات التحالف على قوات العدو الجوية. شلّت مرافقه الحيوية، دمّرت شبكة اتصالاته ودمّرت كل محطات الطاقة والجسور الحيويّة.

في مركز عمليات جوية، خارج الرياض، اجتمع الطيارون الذين أنجزوا مهمتهم على أكمل وجه، في غرفة الخرائط أمام ضابط رسم لهم الرسم البياني للحرب، وحدّد لهم مجموعة أهداف جديدة، تتضمّن بطاريات صواريخ مضادة للطائرات، معروفة المكان، ما يشتبه أنّه قواعد إطلاق صاروخية وخزانات وقود إضافة إلى لوائح لأهداف قُصفت سابقاً. كان جو الغرفة أشبه بجو مطعم مزدحم، وقت الغداء. ورغم وجود المكيّفات بقيت درجة حرارة الغرفة ثقيلة الوطأة كشمس الصحراء في الخارج. خاطب ضابط الاتصالات رئيسه قائلاً: «سيّدي، إن تقرير فلايت بابازولا يؤكّد تدمير كل مدفعيّة العدو الأرضيّة».

ابتسم الرئيس قائلاً: «ضربة موفقة. تودّ بذلك أن تخبرني أن الحرب قد انتهت؟».

«لنأمل ذلك»، قال ضابطه، بينما راح الطيّارون يربّتون بعضهم على أكتاف البعض الآخر.

غير أنّ اللحظات الأولى من الصباح شهدت موجات جديدة من الطائرات المغيرة. دكّت فيالق المارينز الأميركية مطارات قرب البصرة؛ ومن قاعدة أنجرليك جاءت طائرات F111E وأزالت المطارات عن وجه الأرض قرب الموصل، إربيل، كركوك وتكريت. بينما هاجمت طائرات B-52s، وكلّ منها تحمل ثلاثين طناً من القنابل، وحدات بريّة من الفرقة الخاصة توكّلنا. وقصفت طائرات F15E بصواريخ (HUD) المدافع الستة العملاقة المحمولة على عربات وتشكيلات مدرّعات. واستخدم العراق خمسين طائرة اعتراضية، أُسقط منها اثنتان Mig 29s مقابل طائرة واحدة لقوات التحالف. المذهل في الأمر أنه رغم استخدام هذه الطائرات الأسرع من الصوت لم يقع أي حادث اصطدام، وهذا دليل على براعة الطيارين.

للحرب الجويّة وجه آخر، ذلك أن الحفاظ على فاعلية هذه القوة يتطلّب أكثر من مجرّد المهارة والطائرات العالية التقنية. يتطلّب توفّر طاقم أرضي يضمن صيانة تامة لهذه المعدات المعقّدة. وقد أظهرت قوات التحالف تفوّقاً في هذا المجال. فكان الطيار يأخذ غفوة قصيرة ريثما يتم إعادة تزويد طائرته بالوقود والذخيرة. ولا يساوره أيّ شك في أن طاقمة الأرضي سيجهّز طائرته على أكمل وجه قبل أن ينطلق في مهمته التالية.

كان تدمير قواعد صواريخ سكود، الروسيّة الصنع، أحد أهم أهداف قوات التحالف. ففي اليوم الأول من الحرب أُرسل ما لا يقلّ عن ١٦٠ طائرة لتنفيذ هذه المهمة. لكنهم لم يحققوا النجاح المطلوب، حيث أن هذه الصواريخ البسيطة يمكن أن تُطلق من على عربات متحرّكة، ومن السهل إخفاءها في بساتين النخيل أو تحت شوادر[١٧]. ففي ٢٨ يناير، قصف العراق تل أبيب بصاروخ

سكود. وبذلت أميركا جهوداً سياسيّة كبيرة، وقدّمت وعوداً بمساعدات مالية ضخمة كي تمنع إسرائيل من الردّ. (لو قصفت إسرائيل العراق لتسببت بانسحاب كلّ البلدان الإسلامية من قوات التحالف)[١٨]. بالمقابل نشرت أميركا ٢٠٤٨ صاروخ باتريوت مضاد للصواريخ. رغم أنّ صواريخ باتريوت نجحت سياسياً في تحييد إسرائيل في هذه الحرب، لكنّها لم تحقق نجاحاً مقنعاً كسلاح فعّال.

التدمير عن بعد يعني قصف العدو بدون الاشتباك معه وجهاً لوجه وما إن أنجزت السيطرة والتفوّق الجويين حتى بدأت عمليات قصف مستمرة وشاملة لتدمير قوات العدو البريّة. على مدى الأسابيع الستة التي تلت بداية الحرب. انهارت الوحدات العراقية تحت وطأة هذه الضربات، فتخلّت عن سلاحها وهربت. لكن القصف لم يتوقّف. خصوصاً أنّ أهدافه لم تقتصر على سحق القوات العراقية، إنما لضرب البنية الاقتصادية التحتية للعراق وإجبار صدام حسين على الاستسلام. كتبت مجلة التايم في ١١ شباط ١٩٩١ : «لقد انتصرت قوات التحالف، لكن الضربات الجوّية ستستمركي تشلّ فاعلية صدام حسين وقدرته على القيام بأي اعتداء».

بينما أُسقط فوق العراق ٩٥٠٠٠ طن من القنابل، فشلت شبكات التلفزة، التي عملت بأقصى سرعة، في تزويد المشاهدين بمعلومات حقيقيّة. فجمعت خبراءها من قدامى الجنرالات المتقاعدين، الذين ناقشوا الحرب بطريقة تركت المشاهدين العاديّين في حيرة من أمرهم. (معظم هؤلاء الخبراء كانوا جاهلين بسيناريو حرب النجوم هذه). وجلس العالم أجمع أمام أجهزة التلفزيون، متعطّشاً «لآخر تقارير مراسلينا في الجبهة». مع ذلك نادراً ما سُمح

لفيالق المراسلين المتحمّسين، أميركان وغيرهم، بزيارة الجبهة، والاستثناءات لبعض الشبكات المهمة[١٩] شُرطت بأماكن محدودة وفرق إرشاد. أما بقية تقارير الجبهة فكانت تُفبرك في الرياض؛ في غرف مكيّفة حيث يقدّم ضباط كبار وصفاً عن طريقة عمل القنابل الجديدة الموجّهة بالليزر، وكيف جرى تدمير الصواريخ والدبابات العراقية. وجرى عرض أشرطة فيديو مأخوذة عن الكاميرات المثبّتة على رؤوس القنابل، تبيّن تلك الدقة المذهلة في إصابة الهدف. وعرضت هذه الصور ـ لم يتوفر غيرها طبعاً ـ مراراً وتكراراً على شاشات تلفزيونات دول التحالف[٢٠].

كتبت إيفا سيفنسون، ربة منزل من غوتنبرغ في السويد: «لأول مر في حياتي أشارك في الحرب. والفضل في ذلك لشبكة الـCNN أشعر أني أشارك فعلياً في هذه العملية»[٢١].

لكن لم تُصوَّب كلّ القنابل إلى أهداف عسكرية. ففي الساعة ٤,٣٠ من يوم ١١ شباط أُطلقت قنبلة على ملجأ العامرية (٢٥) في بغداد. وقد قصفه الطيارون بناءً على معلومات استخباراتية خاطئة، صنّفته كمركز قيادة عسكري، في حين أنّه ملجأ يتّسع لـ١٥٠٠ شخص معظمهم أطفال. (البناء مُشَيَّد أصلاً بالإسمنت المسلح وقد وضعت طبقة حصى فوق سطحه كإجراء حماية إضافي) اخترقت القنبلة الأولى سطحه (ارتفاعه ٤ أمتار) وانفجرت داخله، تبعتها قنبلة ـ ليزرية ـ أخرى، عبرت فجوة القنبلة الأولى، ثم اخترقت أرضية الملجأ، وهذا إنجاز تقني باهر. لم يطل الوقت حتى بثت الـCNN في نشرة أنبائها الثانية، بعد هذه الإغارة، إنّ القادة العسكريّين الأميركيّين يبدون أسفهم لهذا الخطأ[٢٢]. ووقع حادث مشابه في الفالوجة وهي قرية صغيرة غرب بغداد، حيث صوّبت طائرة تورنادو قذيفتها على جسر فأصابت سوقاً شعبياً. وجرى تدمير

جسرين فوق نهر الفرات في السماوا، لكن القنابل أيضاً أصابت قرية مجاورة وقتلت ٤١٧ مواطناً عراقياً. وعندما وصل فريق التصوير إلى القرية قابله القرويون الغاضبون: «تقصفوننا في البدء. تقتلون عائلاتنا، ثم تأتون كي تصوّروننا مثل حيوانات في حديقة».

فشلت محاولة صدام حسين في تحقيق نصر سياسي وتوريط الغرب في حمام دم. ولم يدخل دباباته الحديثة، الكثيرة العدد، أية معركة(٢٣). ولم تحصل أيّ عمليات هجوم انتحارية ضد أهداف مكشوفة. فقد دُمّرت طائراته أو هُرِّبت إلى إيران. وتكفّلت طائرات B-52 القضاء على جهود المهندسين العراقين التي بذلوها في تحصين مهاجع قواتهم. ونجحت الحرب الرأسية في تدمير العراق ودفعه إلى الاستسلام، وإن يكن ببطء.

قال الجنرال شوارزكوف(٢٤): «كان يوما الحرب الأوّلَيْن أعظم أيام حياتي، ذلك عندما أخبروني أننا سحقناهم. جاءني قائد فيلق، إلى مركز القيادة، وأخبرني أنهم أسروا ٣٢٠٠ عراقي. «وهناك المزيد، سيّدي لنأسرهم خلال الدقائق القادمة». كم هو عدد إصاباتنا؟ جريح واحد، فقط، في الواقع لقد أثلجت صدري تلك الأخبار».

لقد غيّرت هذه المعركة الطبيعة الأساسية للحرب. ومنذئذٍ دخلت الحرب البريّة ذمّة التاريخ.

بعد أن تمّت السيطرة المطلقة على الأجواء العراقية سُحقت قوات صدام حسين تحت سجادة قنابل طائرات التحالف، بعدئذٍ بدأت قوات التحالف البرية تقدّمها، كان قوامها ٢٥٨٧٠٠ رجل، ٥٨٧٠٠ عربة و١٦٢٠ طائرة؛ مقابل ٤٣ فرقة عراقية قوامها ٥٤٥٠٠٠ رجل و٤٢٨٠ دبابة(٢٥). لكن بدون أيّ غطاء جوي. دامت المعارك ١٠٠ ساعة.

٢٤ شباط أزفت لحظة الهجوم. تصاعدت غيوم الدخان الكثيفة جراء انفجار القذائف، وتناثر في الجوّ رمال وشظايا، كالمطر. إذ بقيت المدفعيّة المتحرّكة تدكّ مواقع الدفاعات العراقية مدة عشر دقائق متتالية. وهدرت في سماء المعركة طائرات A-10 المضادة للدروع. بعدئذٍ بدأ زحف القوات تدعمها طائرات الأباتشي والبلاكهوك. لم تواجه مقاومة تُذكر. كانت حفر قنابل الطائرات، هي العقبة الوحيدة. تقدّمت جحافل دبابات أبرامز الأميركية، تشالينجر البريطانية وAMX الفرنسيّة السريعة عبر خندق طويل مليء بجثث ـ ليست من ضحايا القصف التمهيدي، إنما جثث متفسخة كانت ضحية سجادة قنابل الـB-52s وشاهدوا في تلك الصحراء المليئة بالحفر حطام مدافع ودبابات مدفونة في الرمال. دبابات مشتعلة تضيء الصحراء مثل ألعاب مهملة، بعضها انقلب بفعل قوة الانفجارات المجاورة وأضحت كخنافس لا حول لها ولا قوة. خرج بعض العراقيين من جحور في الأرض. بعدئذٍ استعملوا الدبابات كسجون وحصون وسط الصحراء.

طوت وحدات المدرّعات(٢٦) السريعة رمال الصحراء الجافة، ساحقة مؤخّرة الجيش العراقي، متّجهة إلى الطريق الرئيسي البصرة ـ بغداد. احتلت وحدات فرنسيّة من فرقة دوجيه مطار السليمانية، وتوغلت دبابتها AMX، خلال ٢٤ ساعة، ٢٠٠كم داخل العراق. بينما توجّهت قوات التحالف الأميركية الإسلامية تحت غطاء مدفعيّة البارجتين ميزوري ويسكنسون إلى مدينة الكويت(٢٧). كانت سجادة قنابل طائرات B-52s قد أزالت كل المواقع العراقية المحصنة، ونسفت قنابلها الشديدة الانفجار آلاف الألغام المضادة للدروع (كانت الطائرة ترمي حمولة ٢٠٠٠ طن من القنابل في كل طلقة). أما الوحدات العراقية التي صمدت كي تخوض المعركة،

كانت إصاباتها أكبر أمام وحدات الفرقة الأميركيّة الأولى المصفّحة، التي ضمّت دبابات مزوّدة بشفرات بلدوزر دفنت أفراد المشاة العراقيّين في خنادقهم. وهم لا يزالون أحياء. لقد قتلنا قرابة ألف جندي، على الأقل، كما أعتقد، هذا ما صرّح به الكولونيل أنتوني مورينو الذي قاد هجوم إحدى الفرق.

لم يعد للجيش العراقي فرصة أمام هذه المدرّعات الفائقة التقنية والتعقيد. والجنود الذين حاولوا الهرب عبر الطرق الرئيسية ـ الكثيرة من مدينة الكويت إلى الحدود العراقية وقعوا في نوبة ذعر. علقوا بين جبهتي نيران أمامية وخلفية. وراح الجميع يَعْوِلون. إذا غدا الصمت غير محتمل بعد توقّف قصف القنابل ـ هذا قبل أن يحدث انفجار مفاجىء يعمي الأبصار، شعر الجميع معه أن أجسادهم ستنفجر. وتحوّلت طريقهم إلى مجزرة بعد أن عُمِّدت كـ«طريق إلى الجحيم».

عندما وصلت أولى وحدات التحالف إلى مسرح الحدث وجدت الهواء مشبعاً بغبار، دخان أسود ورائحة كريهة، تنبعث من الأرض. آلاف من العربات حوّلتها القنابل إلى خردة مشتعلة، تبرز منها أجساد متفحّمة؛ وحولها أشلاء جثث تشهد على الكلفة البشرية لهذا الشرك المميت. وصف ضابط بريطاني المشهد: «منذ هيروشيما حتى اليوم لم تشهد حرب هذا الكم الهائل من الجثث في المتر المربع الواحد»[٢٨].

غابت الشمس عن تلك الصحراء، حجبتها غيوم الدخان الأسود الخانق، المنبعثة من مئات آبار النفط التي أشعلتها العراقيون ليغطّوا انسحابهم. وكانت أضواء بعض العربات المعطّلة، لا زالت مضيئة، تزيد على بشاعة هذا المنظر بشاعة. لماذا دُمّر جيش منسحب، بهذه الوحشية؟ أهي عبرة وعقوبة لأمّة وغدة، أم

لإثبات تفوّق سلاح مدمّر؟ ويمكننا أن نسأل أيضاً لماذا. لا كيف ـ فهذه سهلة الإيضاح: فبوجود سلاح حديث غير مجرّب سابقاً قنبلة وقود شديد الانفجار، ألقيت قنبلة زنة ٤٠٠كغ من الميثان المضغوط، تمدّدت فوراً على شكل غيمة غازية. تسبّبت فور انفجارها بمنطقة حرارية أماتت كل أشكال الحياة في دائرة قطرها ٣٠٠ متر. ولهذه القنبلة فاعلية تساوي قنبلة نووية زنة نصف كيلو طن، لكنها لا تخلّف وراءها الإشعاع القاتل نفسه. كل ذلك للقضاء على خطر الوحدات المطارَدة. كانت طريقة سريعة وسهلة لإنهاء الحرب[٢٩].

تقهقر الجيش العراقي، دفنته الدبابات ـ البلدوزر حياً. نثرته أشلاءَ القنابل العنقودية وشوته القنابل البترولية الشديدة الإنفجار. تكبَد العدو خسائر فادحة. أمر صدام حسين قواته بالانسحاب من الكويت. والقادم أسوأ بالنسبة إلى شعب العراق[٣٠].

تجاوزت خسائر الجيش العراقي الـ١٠٠٠٠٠[٣١] قتيل. بينما لم تفقد قوات التحالف سوى ١٢٩ قتيلاً ٣٥ منهم ماتوا برصاص رفاقهم، خطأ، اثنان منهم ماتا أثناء تفكيك قنبلة. وهكذا نسبة الإصابات، في القاموس العسكري، تسمّى العامل صفر.

لا مكان للاختباء في الصحراء. هكذا كانت في عهد صلاح الدين، ولا تزال الآن كذلك. وما إن تنتهي المعركة حتى تغطي الرمال المتحرّكة كل مخلفاتها، الفرسان الصليبيّين المذبوحين ـ أو الدبابات المحترقة والعظام الناتئة منها.

ماذا لو. . .

ماذا لو ـ انسحب صدام حسين من الكويت قبل ١٧ يناير؟ لجعل الغرب وحلفاءه، نصف المليون، يبدون كمجموعة حمقى.

الحقائق:

سرى وقف إطلاق النار اعتباراً من الساعة ٨ يوم ٢٨ شباط ١٩٩١. في نهاية الهجوم البري الذي دام ١٠٠ ساعة، وصلت دبابات التحالف إلى بوابات العاصمة العراقية، عندئذٍ فقط بدا للغرب أن متنمّر بغداد لا غنى عنه للحفاظ على التوازن الإقليمي. سياسياً، هذا يعني الإبقاء على صدام حسين في سدّة الرئاسة، والإبقاء على جيش العراق قوياً بما يكفي لتهديد إيران. ربما يبدو هذا السلوك كلبياً، لكنّه منسجم مع المبدأ القائل شيطان تعرفه خير وأبقى من شيطان تجهله. وأرضى، هذا القرار، تركيا التي تعاني من مشكلة الأكراد («اتركوهم لصدام حسين يقمعهم وينوء وحده تحت حمل المسؤولية»)، كما استرضى أيضاً العربيّة السعوديّة والإمارات العربية اللتين تواجهان تهديد الأصوليين المدعومين من قبل إيران.

لم يحدث أبداً ما خشيه العالم. فقد جبن الديكتاتور عن استخدام، التابون، سلاحه الأكثر فتكاً. لقد طوّر علماء ألمان هذا السلاح المرعب في نهاية الحرب العالمية الثانية (وباعه تجار سلاح عديمي الضمير، إلى العراق)، إنه سلاح فتاك سريع الفاعلية لدرجة أنّ البشرية كلّها جفلت عندما هدّد هتلر باستخدامه. ويمكن تحميل هذا السلاح على صواريخ أو قذائف مدفعيّة، وأي جزيئة منه تلامس أي مخلوق يبدأ لعابه بالسيلان ويتقلّص البؤبؤان قبل أن يصبح الجلد رمادي اللون، ثم يموت. وإذا ما تفشى تنتقل عدواه بسرعة مذهلة عبر العالم كلّه. ولو أمر صدام حسين باستخدامه لتلقى رداً نووياً من قوات التحالف. وذلك ما لم يرده أحد.

لقد موّلت هذه الحرب من قبل الدول الأكثر تضرراً: العربية السعودية، الكويت، والإمارات. وبذلك تكون قوات التحالف،

إلى هذا الحد أو ذاك، قوات مرتزقة عملت لصالح الدول النفطية.

الرجال يربحون الحروب لا الآلات. والمبدأ الجوهري بالنسبة لأي جيش هي إرادته في أن يكسب المعركة، روح أفراده المعنوية أثناء القتال. بالنسبة لأفراد الجيش الأميركي، يمكن القول أنّهم نجحوا، إن تناسوا بعد حرب فيتنام الذي جرى تجاوزه في وقت السلم باستبدال شعارات مثل «الواجب، الشرف، الوطن» بشعار الرجل المناسب في المكان المناسب. وهذا الأخير استبدل ثانية، هنا، بشعار: هدفنا إنجاز المهمة. وهذه المهمة هي الفوز بالحرب. ومهما يكن الأذى الذي ألحقته حرب فيتنام بثقة الأمة بنفسها فقد جرى تجاوز الفترة الطويلة من التشكيك بالنفس، في نهاية حرب الخليج.

لقد أثبت الجنرال نورمان شوارزكوف قدرته كقائد حربي ممتاز، لكنّه فشل في العلاقة الإنسانية مع مساعديه، ورؤسائه أيضاً. ففي آذار ١٩٩١، أعلن نهاية عملية عاصفة الصحراء بتصريح لوكالات الأنباء قال فيه أنّ الرئيس، جورج بوش، قد سلبه من نصره النهائي في الحرب. حصل الجنرال شوارزكوف على شريط التلغراف الكاتب، تقاعد وتفرّغ لكتابة مذكراته.

ولا يزال صدام حسين رئيساً للعراق.

كان التحالف بحد ذاته مشروعاً فريداً وإنجازاً سياسيّاً. لأول مرّة، يقع أمر يوحّد الشرق والغرب، المسلمين والمسيحيّين. لكنه ينتهي عند ذلك الحد. لكن الاضطرابات العنيفة التي تلت حرب الخليج لا يمكن تقييمها. ومن المؤكّد أنها ستغيّر المنظورات الاستراتيجية لفترة طويلة مقبلة لا في الخليج العربي فقط، إنما في الهلال الإسلامي الفسيح الممتد من أندونيسيا إلى الجزائر والمغرب. إن سرعة تزايد الأصولية الإسلامية وثيقة الصلة بعملية

عاصفة الصحراء. ومن الممكن جداً إجبار الغرب على أن ينهج سياسة واقعية مع من هزمهم شرّ هزيمة، إذا ما وجد نفسه في مواجهة حقيقية مع بليون مسلم يتربّعون على كنز تحت الأرض يشكّل عصب بلدانه المصنّعة.

كثيراً ما استخدمت الصحراء كحقل اختبار. وقد أثبتت الأسلحة الحديثة فاعليتها في «الحرب الرأسية» الأولى[٣٢]. إن التقدّم العلمي، وكلفته العالية، أقنع السياسيين والجنرالات أن القوة السحرية بمفردها قادرة على إنجاز العمل. ومن الصحيح القول أنه ما إن تكون قيادة العدو عمياء حتى يصبح بالإمكان تحقيق ما تبقّى باستخدام قوة جوية، تصعب إعاقتها، للقضاء على القوات البريّة. وقد نجحت قوات التحالف في هذا المجال، باستخدامها أسلحة عالية التقنية. رغم ذلك فإنّ طياري الجو وقادة المدرّعات هم من ربح الحرب. في نهاية المطاف، كان العنصر البشري، وسيبقى في أي حرب، هو العامل الحاسم.

أثبتت هذه المعركة، على أية حال، أنّ الحرب في العالم الحديث يمكن خوضها بأقل عدد من الإصابات، بضع مئات، داخل صفوف كل فريق.

هناك خياران لا ثالث لهما، العامل صفر أو الإبادة الكليّة.

كان العامل الحاسم في حرب الخليج تفوّق تكنولوجي صارخ في الساعات الأولى من الحرب. بعدئذٍ لم تكن حرباً إنما عمليّات إبادة.

(١) طائرتا سيكورسكي م.هـ ٥٣ ي تطيران على ارتفاع منخفض لترشد ٤ طائرات أباتشي ٦٤.
(٢) لقد شارك في هذا العملية الافتتاحية قرابة ٥٠٠٠ اختصاصي.
(٣) رأى الرئيس الأميركي جورج بوش في هذه الحرب خطوة جوهرية نحو إرساء نظام عالمي جديد، يؤسّس لعلاقات دولية أفضل.
(٤) لقد هزم صلاح الدين جيوش الصليبيين في حطين (١١١٨) واحتل القدس.
(٥) إن جذور الصراع بين العراق وإيران تعود إلى عهد الاستعمار العثماني. أراد صدام أن يسترد الضفة الأخرى من شط العرب بعد الثورة الإسلامية التي انتصرت في إيران. وعندما دوّلت الكويت مشكلة أسطولها النفطي، أرسلت الولايات المتحدة ٣٢ بارجة إلى الخليج. فكان الضغط الدولي أولى إمارات هزيمة إيران.
(٦) في الساعة ٤,٤٥ من يوم ٢ آب ١٩٩٠، أصدر الرئيس بوش مرسوماً بتجميد الأرصدة الكويتية في أميركا وفي الوقت نفسه أصدرت تاتشر مرسوماً مشابهاً، وبالتالي حُرِم العراق من إمكانية تمويل حربه.
(٧) غدا الشرق الأوسط السوق الأكثر ربحاً بالنسبة للدول المصدّرة للسلاح.
(٨) قامت إسرائيل في ١٩٨١ بقصف المفاعلات النووية العراقية. فأعاد العراق بناء مفاعل جديد قرب الطارمية توقّع أن يستخلص فيه ١٥كغ من اليورانيوم المخصّب بعد الثلاثين شهر التالية.
(٩) ساهمت اليابان بـ٩ بليون دولار. وساهمت ألمانيا بـ٥,٥ بليون من ناحية ثانية صرّح هيلموت كول في البوندستانغ: لا يوجد لنا أي ملاذ آمن في عالم السياسة. لذلك علينا: نحن الألمان، أن نتحمل مسؤولياتنا، أحببنا ذلك أم لا.
(١٠) ربما ساعده على ترقي هذا المنصب دوره في جولد ووتر نيكول ١٩٨٦.
(١١) ٧٠٠ منها لدول القوات المتحالفة.
(١٢) ساراتوجا، كينيدي، ثيودور روزلت، أميركا، ميدوي، رانجر.
(١٣) كانت غاية هذه الإغارة استعراضية. أرادت أميركا أن تظهر للعالم مقدرة قواتها الجوية على مهاجمة أية بقعة في العالم. رغم أنه كان بالإمكان تحقيق الهدف، وبسهولة، بواسطة البوارج الحربية الأميركية المتمركزة في الخليج، والتي تعتبر قواعد متحركة الصواريخ توماهوك.

(١٤) لا تتوفر بعد أية معلومات كافية عن هذه الطائرة المحاطة بالسريّة. وتحمل على متنها نظام متقدّم جداً يسمح للملاحين الأرضيّين برؤية صورٍ حيّة.

(١٥) تفيد بعض التقارير أن الهجمة الأولى نُفِّذت في الساعة ٢,٤٢ فجراً، لكن ربما كان ذلك مجرّد أكاذيب.

(١٦) استطاعت المضادات الأرضية اعتراض اثنين فقط. فدُمّر الأول وسقط فوق منزلين، وسقط الثاني في ساحة خالية.

(١٧) أطلق العراق ٨٨ صاروخ سكود على دولتين من قوات التحالف. قصف المملكة العربية السعودية بـ٤٦ صاروخ. كان أسوأها الصاروخ الذي سقط على مبني القوات الأميركيّة في الظهران تسبّبت بمقتل ٢٨ شخص. وسقط على تل أبيب ٤٢ صاروخ.

(١٨) لقد ضمّ التحالف عدة بلدان إسلامية: العربية السعودية، سوريا، مصر، الكويت، البنغال، المغرب، السنغال، النيجر، السودان، عمان، البحرين، وقطر.

(١٩) خرج مؤلف الكتاب في جولة على صواريخ باتريوت على طول الحدود العراقية.

(٢٠) يجب التذكير أن صدام حسين حاول الأمر نفسه مع شبكة الـCNN، لكنه لم ينجح في ترويج ما أراد. فقد ذهب في كلبيّته إلى أبعد حد، حيث ظهر على شاشة التلفزيون وهو يداعب رأس ولد أشقر. وكان لطريقة تقديم المعلومات، هذه، من قبل الطرفين دوراً سياسياً حاسماً.

(٢١) مجلة التايم ١١ شباط ١٩٩١.

(٢٢) «لهذا السبب لا نرى كثيراً من الأطفال في شوارع العامريّة، هذه الأيام». من مقالة بول لويس، في أنترناشيونال هيرالد تربيون ١٣ أيار ١٩٩١.

(٢٣) هاجمت القوات العراقية منطقة الخفجة وتقع داخل حدود العربية السعودية على مسافة ١٠كم، لكنها تراجعت بعد أن تكبدت خسائر فادحة.

(٢٤) IVBC: حوار مع ديفدفورست.

(٢٥) هذا الرقم يعود تاريخه إلى ١٥ يناير ١٩٩١. ووفقاً للجنرال شوارزكوف فقد تم القضاء على ٢١ فرقة.

(٢٦) ست وحدات فرنسيّة مدرّعة، تساندها طائرات الوحدة ٨٢ الأميركية.

(٢٧) بحلول ليل اليوم الأول كانت قوات الحلفاء قد تقدّمت إلى ميناء عبد الله، على بعد ثلاثين كيلومتراً من مدينة الكويت.

(٢٨) قال بيت ويليام، الناطق بلسان البنتاغون، في ١٢ أيلول ١٩٩١: «أن من قتلوا هم الذين اختاروا البقاء في خنادقهم كي يقاتلونا».

(٢٩) جين ـ بول ماري، لونويل أوبزيرفاتور ١٤ ـ ٢٠ آذار ١٩٩١.

(٣٠) صرح الناطق الرسمي باسم البنتاغون، بيت ويليام، للصحفيين إن إجراء كهذا لا يتناقض مع بنود معاهدة جنيف.

(٣١) قدّرت اليونيسيف أن ١٧٠٠٠٠ طفل قتلوا من آثار القصف، بسبب تدمير البنية التحتية الأولية، والمجاعة التي نجمت عن الخطر. نشرت جوردان تايمز في ٢٥ أيار ١٩٩١ تقريراً لأمير أغاخان: «أصبحت المستشفيات مراكز عدوى بلا دواء، غذاء، حتى بلا ماء أو كهرباء. كان ٩٨٪ من المرضى قرب البصرى أطفالاً يعانون من الإسهال. وكتبت اللوموند في ٢١ أكتوبر أن الرقم ٦٨٠٠٠ هو حقيقي، وقد مات هؤلاء الأطفال فعلاً بسبب الخطر.

(٣٢) قدم الجنرال شوارزكوف قبل اجتماع الكونجرس. ولا بدّ من التأكيد أنه حتى فيتنام، نسبة إصابات العدو المقدَّرة، لم تعد كابوساً بالنسبة للقوات الأميركية. تقدر الغرين بيس أن العدد الإجمالي للإصابات الناجمة عن القصف الجوي، بما فيها الإصابات المدنية، قد بلغت ٢٠٠٠٠٠.

(٣٣) لقد استطاعت الحكومات أن تصنع الرأي العام الذي تريد بواسطة: القنابل الموجّهة بالليزر، نظام العمل العالمي الذي وفقه يجري تجهيز كل عربة وطائرة، طائرات الهيليكوبتر المزوّدة بمدافع، المدافع الليلية، طائرات الأواكس، أقمار المراقبة ـ الصناعية ـ طائرات الشبح القاذفة &F117 و-A 10 والعربات المسيّرة آلياً، نظام الصواريخ الدفاعية (باتريوت)، السفن الحاملة لصواريخ كروز، والتي لا يمكن رؤيتها، والسيطرة على العقول، التي تنجزها شبكات التلفزة بما تقدّمه من صور مفبركة.

وكان هناك أيضاً بعض العيوب التكنولوجية. فقد نجح نظام الباتريوت سياسياً لكنه فشل نسبياً في الميدان. فلم يستطع أن يعترض إلا ٢٤ صاروخ سكود من أصل / ٨٠/ . وفشل نظام المراقبة المعقّد في كشف مواقع صواريخ سكود ـ المتحركة. وكذلك نظام إرشاد صواريخ كروز (٦٥٪ منها فقط نجحت في تحقيق هدفها بدقة).

الخاتمة

العامل الحاسم النهائي

إنّ الكشف عن أسرار الطبيعة التي حُجبت عن الإنسان رحمة به، يجب أن توقظ تأملات جليلة في عقل وضمير كل إنسان قادر على الاستيعاب. في الواقع يجب أن نصلّي كي تعمل هذه القوى البغيضة على إقرار السلام بين الأمم، وتصبح مصدر رفاه دائم للعالم، بدلاً من أن تُنزل به خراباً لا حدود له.

ونستون تشرشل
بعد أن سمع بما جرى في هيروشيما، ٦ آب ١٩٤٥

يمكن للمرء، أن يتأمّل من النتائج التاريخية لو أنّ العامل الحاسم كان لصالح الصليبي غي دو لوزينيان في معركته ضد صلاح الدين الأيوبي هل كان انتصار «فرسان الصليب الحق» على «المدافعين عن الدين الحق» سيحلّ المشكلة المعلّقة لمدينة القدس؟ لا نستطيع حيال ذلك إلاّ التخمين. رغم ذلك، إن موقعة حطين، إضافة إلى حروب أخرى مهمّة. تعتبر أساسية نسبياً بالمقارنة مع تلك التي تهدّد كوكبنا بالدمار، كما نعلم. لذلك لا بدّ من التطرّق إلى حدث كان نقطة تحوّل في تفكير

المدنيّة المعاصرة، إلقاء القنبلة النوويّة على اليابان[1].

كانت السيّدة كيلونا كامورا محظوظة بأن ماتت فوراً، بينما شعر الآخرون بجلدهم وعظامهم تحترق قبل أن يتوقّف عقلهم. استغرق موتهم ساعات، أياماً وشهوراً.

كان صباحاً مشمساً. انقشعت السماء تماماً، في الساعة الثامنة إلا ربع. خرج سكان هيروشيما من الملاجىء ينظرون إلى زرقة السماء. قال بعض الناجين من تلك المحرقة إنهم شاهدوا أثر خيط دخان لطائرة واحدة تحلّق عالياً في زرقة السماء، بينما قال آخرون إنهم شاهدوا طائرة فضيّة بأربع محركات متجهة نحو المدينة. كلاهما محقان. إذ كانت إحداهما طائرة الطقس التي حددت الهدف وأنذرت بحدوث غارة جوية، بينما الثانية، إينولا غاي، تقترب بحمولتها المرعبة، بدون أي إنذار.

الساعة ١١ثا، ١٥د، ٨سا.. خمسة.. أربعة.. ثلاثة.. اثنان.. واحد.. صفر..

تشظّى العالم إلى ألق أبيض. من غير المرجّح أن يكون آلاف اليابانيّين المتّجهين إلى عملهم قد شاهدوا ذلك الومض المعمي الذي انتشر في غيمة نار هائلة خلال جزء من ألف من الثانية.

كان عنف الإنفجار يفوق الخيال، بلغت درجة حرارة مركزه عدة ملايين درجة. وغطّت المدينة، لمدة أربع ثوانٍ، كرة نارية هائلة قطرها مئتي قدم، سطوعها ضعف سطوع الشمس. لقد احترقت أعين كل من نظر إليها مباشرة، من شدة بريقها. وتسبب هذا النجم الشديد السطوع بدمار كل مظاهر الحياة في لحظة واحدة. كان ذلك قبل أن تنجم عن هذا الإنفجار الحراري عاصفة رعدية عنيفة تجتاح مدينة هيروشيما كلّها.

كانت الحرارة والصدمة، تحت هذا الانفجار، مدمّرتين،

صهرت المعدن وحوّلت الأبنية الإسمنتية إلى رماد. لم ينجح أحد في دائرة قطرها ٧٠٠ ياردة من مركز الانفجار. واستحالت الكائنات البشرية إلى غبار رمادي. على مسافة ثلاثة آلاف ياردة من مركز الانفجار شلّت الناس نوبة ذعر. فاندفعوا، فاقدين بصرهم، وشعورهم تحترق، نحو المحرقة. رموا أنفسهم في الآبار كي يطفئوا النار المشتعلة في ثيابهم. كان النواح والصراخ نفسه في كل مكان: «ماء، أرجوكم، ماء!» حوصرت إحدى الأمهات في بيتها الذي يحترق، فرمت بطفلها من النافذة إلى شخص شبه محترق، قائلة: «أرجوك أنقذ طفلي!» التقط الرجل الطفل. الذي سوّدته النار، وغابت الأم وراء ألسنة اللهب. ومن استطاعوا الهروب من جحيم النار ماتوا بسبب نزف داخلي شديد سال عبر آذانهم، وبسبب تحجر أحشائهم.

على مسافة أبعد سُمع صخب انهيار الأبنية، تحطم الزجاج وصراخ الناس. انتشرت النار في كلّ مكان، تحوّلت المنازل، في غمضة عين، إلى أفران مستعرة، تطاير الورق المحترق كالنثار في الهواء. تصاعدت نوافير الماء من الأنابيب المتفجّرة، ومطافىء الحرائق. أمطرت السماء رذاذ زجاج فضي اللون. واكتظّت الشوارع بأجساد متناثرة مثل دمى محطّمة. بينما الناجون يتعثرون بذلك الوهج الأصفر، يصرخون من النار المشتعلة في أجسادهم، يسقطون ولا يقوون على النهوض ثانية.

اشتعلت جسور السكك الحديد على بعد ٢كم من مركز الإنفجار. ومن كانوا في العراء، على بعد ٢,٥كم، حصدتهم موجة الصدمة التي بلغت سرعتها ١٦٠كم/سا. وكانت درجة حرارة الموجة شديدة إلى درجة أن الناجين، القلّة، لم يستطيعوا وصف ما جرى، ولم يتذكّر أيٌّ منهم أنه سمع صوت الانفجار.

وقُتلت يابانية تحت نافذتها في إحدى الضواحي، على بعد ١٠كم عن مركز الانفجار.

يروي مزارعو بعض الجزر كيف أنّ ومضاً أبهر عيونهم، ثم أرعدت السماء وأظلمت فجأة. خيّم ضوء غريب فوق مشاهد الرعب تلك، تبعه سكون مفاجىء. لم يدم الرعب اللحظي سوى دقيقتين. لكنهما دقيقتان غيّرتا العالم.

أمطرت السماء على مَنْ هربوا مطراً أسود. كانت تلك موجة الموت الثانية، لا تقلّ فقط عن سابقتها: جرعة إشعاع قاتل تسقط فوق الأرض المعذبة. جلست فتاة صغيرة وأسندت ظهرها إلى الحائط، بانتظار الموت. وفي غضون يومين مات كل من كانت حروقهم خطرة. أما الذين نجوا من الإنفجار الأولي بدأت تظهر على أجسادهم أعراض أمراض غير معروفة. بقع بيضاء كبيرة حول العينين والأذنين، وحمّى شديدة قبل أن تبدأ لوزاتهم بالتحلل؛ يثقل تنفسهم؛ بعدئذٍ ماتوا جماعات جماعات.

لم يقدّم إحصاء دقيق لعدد الضحايا، لأنّ سجلات المدينة قد احترقت في الانفجار[٢].

لم يخمّن أحد، عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، أن القنبلة النووية ستصبح، في أقل من عقد من الزمن، عاملاً حاسماً في السياسة الدولية. اجتاح الألمان أوروبا، عبروا إفريقيا وتوغلوا في روسيا. وارتكبوا أيضاً جريمة شنيعة بحق أنفسهم: لقد أظهروا تعصّباً مفرطاً تجاه علمائهم اليهود، وأبرزهم ألبرت أينشتاين. نظريات أينشتاين، إضافة إلى عمل آخرين هاربين من الاضطهاد النازي خلفت هولة للعالم. وقد ساهم العلماء الأميركان ج. روبرت أوبنهايمر أرنست. و.لورنس بدورٍ منافس في طرائق شطر نظائر اليورانيوم المشعة الأخف ٢٣٥ من الـU238 الأثقل. وكذلك

العالِم الإنجليزي نون ماي. وكفّت الحرب فجأة عن كونها لعبة نرد.

وُلد عالم جديد من الفرصة المناسبة والخوف يجسّد العصر النووي الدافع البروميثي عند الإنسان للسيطرة على الطبيعة، لكنه فلت من يده وخرج إلى دائرة سباق التسلّح، تتحكّم به القوى العظمى بصرف النظر عن نتائجه. وقبل السياسيون والمخطّطون العسكريون حقيقة الغيمة الهائلة، الفطريّة الشكل. تلك كانت بداية عصر التدمير. وحصت الآلات عدد الإصابات التي تستطيع البشرية احتمالها. يبدو الأمر أشبه بقصص الخيال العلمي(٣). إن رفض القوى العظمى لشن حرب بعد ١٩٤٥ يعزى إلى حقيقة بسيطة: إن الحرب قد أصبحت مستحيلة، إلا إذا كان الانتحار ثمنها.

كلّنا نعرف أزمة الصواريخ الكوبية العام ١٩٦٢ كان الاتحاد السوفياتي، أثناء المواجهة في البحر الكاريبي، يمتلك في ترسانته النووية ٢٨٠٠ رأساً نووياً، بينما كان الأميركان يمتلكون ٥٥٠٠ قنبلة نووية، إضافة إلى أسطول غواصات نووية. وقد أدرك استراتيجيو وسياسيو البلدان أنّ الحرب المباشرة بينهما غير مطروحة. إذ لم تكن كوبا تشكّل تهديداً نووياً، كما هي حال الشرق الأوسط.

أرسل الرئيس الليبي معمر القذافي نائبه، العام ١٩٧٢، إلى الصين كي يشتري قنبلة نووية. استقبل رئيس الوزراء الصيني تشو إن لي. الجنرال الليبي عبد السلام جلود وأبلغه، بمنتهى الدبلوماسية الصينية، أن القنبلة النووية ليست للبيع. وقام محمد حسنين هيكل، المستشار الشخصي للرئيس المصري، العام ١٩٧٣، بزيارة إلى الجنرال بيير جلواز، قائد القوات الفرنسيّة في أوروبا، وأحد أبرز القادة الجيواستراتيجيين(٤).

بدأ هيكل حديثه: «عزيزي الجنرال؛ إنّ الإسرائيليّين يهاجموننا، يقصفون مدننا، مدارسنا ويقتلون أطفالنا[٥]. إننا لا نحتمل ذلك، ويجب أن نوقفه. إننا مدركون لقوة إسرائيل النووية. لكن سؤالي هو: هل ستستخدم إسرائيل هذا السلاح إذا هاجمناها؟» فأجابه الجنرال فوراً: «إن القنبلة النووية ليس سلاحاً، إنما هي للردع فقط. إذا هاجمتم كي تستعيدوا حقوقكم المسلوبة، لا لتهددوا أمن ووجود إسرائيل، فإنّها لن تستخدمها. لكن لا تحاولوا أن ترموا إسرائيل في البحر». كان الجنرال مصيباً في رأيه. فقد ولد نمط جديد من الحرب بعد الجولة الرابعة بين العرب وإسرائيل، وهذه سماها العرب بدر (كلمة السر طبعاً) وسماها الإسرائيليون حرب يوم كيبور. رغم أن هذه الحرب لم تكن تقليدية، لكنها بقيت دون المستوى النووي. فقد كانت حرباً محدودة، في أهدافها ومدتها[٦]. أما نتيجتها المباشرة فهي أن العرب استخدموا «سلاحهم النفطي» للمرة الأولى[٧].

هناك حادثة واحدة لم يتمّ إيضاحها بعد وهي السبب الذي دفع الولايات المتحدة لتلوّح بالتهديد النووي في ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣، انفتح على أثره الخط الساخن بين نيكسون وبريجينيف، (الذي كتب في مذكراته: إذا كانت إسرائيل ترفض الالتزام بوقف النار، دعنا إذاً نعمل على فرضه وبالقوة إذا اضطررنا». وهذا ما اعتبره كيسنجر تهديداً)، وأخبر بريجنيف الرئيس السوري حافظ الأسد إنه كان تهديداً شكليّاً، أراد منه أن يزيد من حدّة الأزمة. مهما يكن فقط اتضح منذئذٍ أن القوتّين العظمتين لا ترغبان أبداً في الانجرار إلى حرب نووية مباشرة.

كانت البشرية في السنوات الأخيرة من القرن العشرين في صراع على مستوى العالم بين الشرق الشيوعي والغرب الأطلسي.

لم تعد الدفاعات تقتصر، حينئذٍ، على حماية حدود الأمة فقط، لا بل في تهديد وإبادة الأخرى. وهذا مثال أُثبت في هيروشيما وناغازاكي. لكنه سيتضاعف آلاف المرات في الجولة التالية. اعتمدت السياسة السوفييتيّة، على مدى سنوات، أنّ الغرب لن يشنّ حرباً نووية، بما أن النصر مستحيلاً فيها، لأن التفكير الأميركي، بخلاف السوفياتي، لن يحتمل فكرة وقوع ٢٠ مليون ضحية، هكذا ساد مزاج هزيمة سيكولوجية في الغرب رفعت من معنويات الاتحاد السوفياتي فيما يخصّ النصر النهائي.

لقد احتفظ الغرب بأفضلية بدء الضربة النووية بامتلاكه صواريخ ميتنوتمين وغواصات نووية (لم يكن الاتحاد السوفياتي قادراً على تعقّب القاذفات، لكن الغرب بوسعه تعقّب الغواصات السوفياتية) وكان الروس يمتلكون إمكانية الهجوم المضاد. ثم طوّروا الصواريخ الاستراتيجية SS-18 البالستية العابرة للقارات. زوّدوا ٣٠٠ منها برؤوس نووية، ٣ رؤوس لكل صاروخ، وجّهت جميعاً إلى الصواريخ الأميركية مينوتمين. وصفهم هذا الإنجاز على طريق سباق التسلّح. مع مجيء الغواصات الأميركية تريدنت، وأنظمة المراقبة بواسطة الأقمار الجيورستاتيكية المعروفة باسم نظام المراقبة العالمي، أصبح الغرب هو المسيطر، من جديد. وهكذا بقي ميزان الردع النووي يتأرجح وينوس بين القوّتين، على مدار سنوات. ولم يكن تحقيق ذلك بالأمر الصعب؛ إذْ لم يشهد هذا الميدان ثورات علمية كبيرة، ذلك أن كل شيء قد وضعه علماء الفيزياء العظماء منذ ثلاثين عام مضت. ولم يتبق إلا إيجاد المواد الصحيحة، تصنيع الأدوات الصحيحة، ثم تطبيقها معاً، مثل لعبة أطفال. وازداد حجم القنابل أكثر فأكثر. ذلك لانعدام إمكانية إصابة الهدف بدقة. وما إن حُلَّت هذه المعضلة حتى أصبحت

القنابل قُنَيبلات قادرة على تحقيق أي هدف عن بعد ٥٠٠٠ ميل. أخيراً، طوّرت الولايات المتحدة مبادرة الدفاع الاستراتيجي، معتمدة على تقدّم التكنولوجيا الذرّية[٨] (لحسن الحظ أنه لم تتح الفرصة للعالم كي يجرّبها).

استمرت الحرب الباردة. وجرت سلسلة مفاوضات لنزع الأسلحة[٩]، أحيطت بدعاية إعلامية كبيرة، لكنها عديمة المعنى من حيث الجوهر، لأن إنقاص الرؤوس النووية كان تجميلياً فحسب ـ حتى بعد تفكيك ترسانة سلاح التدمير الشامل بنسبة ٥٠٪، بقيت كلا القوتان تمتلكان أسلحة نووية تكفي لإبادة سكان العالم عشر مرات.

قبل ذلك، دخل اللعبة عامل حاسم جديد. وهو وصول قوة عالمية ثالثة إلى مسرح القوى العالمية العظمى. إذ كانت الصين حتى ذلك الوقت لا قوّة معادية، ولا حليفة، لكنها قوة حيّة في حرب ضغط ـ أزرار مدمّرة. وخشيت موسكو، برئيسها الروسي الأبيض، أكثر من محرقة اشتراكية عالمية بقيادة الشيوعية الصينية المتفوّقة على مفهوم الاقتصاد السائد في الغرب. (قال موظف سوفياتي سابق لمؤلف الكتاب: «إن جيوش هتلر كانت «أفواج حجّاج» بالمقارنة مع تهديد الصين، بلد البليون جائع، للأرض»).

إن انهيار رمز جدار برلين أنهى الحرب الباردة. ويعتبر خطأ فادح، من جهة أخرى، الزعم بأن الغرب قادر إلى الأبد أن يرسم سياسة بقيّة العالم. وسيشهد القرن القادم تغيّراً في كل ما عرفه العالم حتى اليوم، بما فيها الحرب. وقد يتفوّق ذكاء الآلة على ذكاء البشر. ولن تُستثنى العلوم العسكرية، من ذلك. وكانت حرب الخليج ١٩٩١ أول إمارات ذلك. حيث استبدلت ظروف البارود برقائق لا تزيد عن حجم ظفر الإبهام. وقد يعتمد العامل

الحاسم في حرب مستقبلية، على روبوت/ رجل آلي/ يفكّر لنفسه. ويكمن الخطر في أن جنود المستقبل قد يعتمدون كثيراً على التكنولوجيا بدلاً من الفضيلة الإنسانية التي توفّرت لدى قادة عظام عبر التاريخ.

في زمن الحرب الكلاسيكية، كانت المعركة تدوم عدة ساعات قبل أن يستطيع المنتصر دحر وإبادة المنهزم. ويقوم بضعة آلاف رجل بتنفيذ هذه الضربات الأخيرة ويكون بالإمكان تحديد العامل الحاسم. حتى في زمن نابليون، عندما يشتبك جيشان كبيران، كان بالإمكان معرفة من سيفوز، ونتيجة أدنى خطأ تكون فورية ومدمّرة. غير أن الغموض اكتنف هذا العامل الحاسم أثناء الحربين العالميتين ـ حتى الخاتمة المناخية في اليابان. هكذا سار العالم بثبات من كاليكابور الملك آرثر إلى ليتل مان[١٠] روبرت أوبنهاير. انهار مع ومض تلك القنبلة المبدأ القائل «الحرب هي آخر وسائل السياسة»، عندما حوّلت التهديد إلى ردع ذلك بإظهار أهوال التدمير المتبادل.

إذا قبلنا المقدّمة المنطقية بأن الأسلحة النووية قد حافظت، حقيقة، على السلام خلال سنوات هذه الألفية الواهنة ـ إذا تجرأنا على وصف الأزمات المعاصرة بـ«حمامات الدم الكبيرة». في الشرق الأوسط وإفريقيا، رغم أن عالمنا يعيش فترة سلام ـ نستطيع عندئذٍ أن نعتبر قنبلة هيروشيما العامل الحاسم النهائي.

هناك شيء ما مرعب وبشع في القوّة الصرف التي تأخذ على عاتقها إنزال هكذا دمار. ومن الصعب أن نتخيّل أنّ مَنْ يحشدون أدوات رعب كهذه، أو يشترونها أو يبيعونها، لا يحوّلهم منظر أطلال مدينة كان يقطنها مليون إنسان، عامل، قبل لحظات. إن منطقة ميتة، فراغاً لا يقول شيئاً، إنها بقايا الدمار هي التي تشي

عن الحرب والخراب ـ أطلال الأبنية المدمّرة، والأرض المحروقة التي لا تصلح لأي شكل من أشكال الحياة.

تلك كانت حالة كل من شاهدوا هيروشيما.

هل ستكون الأجيال القادمة على درجة من الحماقة كي تضرب بقنبلة أخرى، وقد تكون، إن ضُربت، آخر العوامل الحاسمة. .

٢/ ١٠/ ٢٠٠١

(١) إن درجة حرارة مركز كرة النار يبلغ أربعة أضعاف درجة حرارة مركز الشمس.

(٢) تم تقدير الأرقام بناءً على تقارير مختلفة من هيروشيما وناغازاكي ثم نُشرت في الدوريات الطبيّة والمجلات.

(٣) ليوتيزلارو، بيلز بوهر، هينريكوفيرمي، ليزمينتز، أوتو فريسك، رودولف بيررلز، يوجين وينجر، إدوارد تيلر... إلخ قال أوبنهايمر: «لقد ارتكب الفيزيائيون إثماً وهذه معرفة لا يسعهم أن يضيّعوها».

(٤) ١٠ أكتوبر ١٩٤٩ رفعت لجنة تقريراً إلى الرئيس ترومان «إنه من الضروري الإسراع بإنجاز القنبلة النووية لحماية المصالح القومية الأميركية». وكان التقدير حينئذٍ أن قنبلة بقوة ١٠٠ ميغا طن ستحرق ساحة تبلغ ست أضعاف ساحة نيويورك وتقتل ١٥ مليون نسمة.

(٥) بييرجلواز، متقاعد الآن، ولا يزال استراتيجياً بارزاً، مؤسس وكاتب في مجلة (السياسة الدولية). أما حكاية القنبلة النووية الليبية ـ الصينية فهي من كتاب هيكل الطريق إلى رمضان.

(٦) يقصد غارة إسرائيلية ألقت قنبلة على مدرسة في إحدى ضواحي القاهرة.

(٧) قنال السويس، وسيناء.

(٨) دامت أسبوعين. ولم تمتد المعركة إلى أعمق من ٢٠كم على طرفي قنال السويس.

(٩) لقد افتتحها الملك فيصل الذي قال للسادات: لا نريد أن نستخدم نفطنا في حرب تدوم يومان أو ثلاثة، ثم تتوقّف. نريد حرباً تدوم بما يكفي لتحريك الرأي العام العالمي (المصدر: حسنين هيكل).

(١٠) عدد كبير من الصواريخ الليزرية توجهها سلسلة مرايا موجهة نحو عاكس يقوم بدوره بحرف الشعاع المدمّر، باتجاه صاروخ يتقرب. لكن هذا السلاح لم يستخدم في حرب لخليج، بل صواريخ الباتريوت المضادة للصواريخ.

(١١) تركزت المناقشات حول تعريف «السلاح الهجومي» و«السلاح الدفاعي». واعتبرت «القنبلة الدفاعية» لا سلاحاً تهديدياً ولا مزعزعاً للاستقرار. والنقطة الثانية حول الحق في تفتيش المواقع.

(١٢) الاسم السريّ لقنبلة هيروشيما.

الفهرس



إن نظرة تأمّل وتمحيص في التاريخ العسكري منذ حصان طروادة إلى حرب الخليج، تُظهر بوضوح أن الأخطاء والصدف قد لعبت دوراً حاسماً لا يقل عن، بل يفوق في كثير من الأحيان، دور الشجاعة والبطولة. وهذا ما فعله إريك دورتشميد في هذا الكتاب، فهو يكشف لنا كمّ من الصراعات حُسمت بفعل تقلّبات الطقس العصية على السيطرة، الاستخبارات السيئة، أو عدم كفاءة الأشخاص. وكما يُعبّر عنها بالمصطلحات العسكرية: الحادث الذي حوّل النصر إلى هزيمة في لحظة تُعرف باسم **العامل الحاسم**.

يقدّم لنا دورتشميد وصفاً آسراً للفوضى والاضطرابات التي رصدتها نظرته النفاذة، وكمّاً كبيراً من المعلومات التي تدفعنا إلى إعادة التفكير في تلك الأحداث. كما يكشف لنا من معركة، وموقعة، إلى أخرى، عن أثر الأحداث الطارئة في تغيير مجريات المعارك ونتائجها.

"**صحيفة الإندبندنت**"

"يستعرض هذا الكتاب الأخطاء والأحداث التي صاغت العالم كما نعرفه الآن لا كما خطّطنا له".

التايمز

"يقدّم لنا دورتشميد قراءة كشفية آسرة".

مانشستر إيفنينغ نيوز

ISBN 978-2-84305-611-6

